ناصر الدين النشاشيبي

ملاعب الذكريات



دار الحكمة
لندن

مَلاعِبُ الذكريات



ناصر الدين النشاشيبي

ملاعب الذكريات

دار الحكمة
لندن

● ملاعب الذكريات

● تأليف : ناصر الدين النشاشيبي

● الطبعة الأولى : تشرين الثاني ٢٠٠١ ـ شعبان ١٤٢٢هـ

● الناشر : دار الحكمة ـ لندن

ISBN 1 898209 72 3

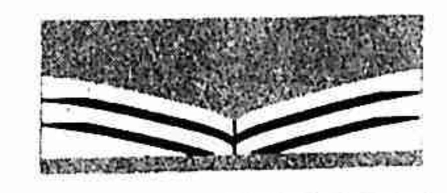
88 Chalton Street, London, NW 1, 1 HJ

Tel: 0207 / 3834037 Fax: 0207 / 3830116

E-mail: al_hikma_uk@yahoo.co.uk

DAR AL-HIKMA

Publishing and Distribution



88Chalton Street , London NW1 IHJ Tel :0207-3834037 Fax : 0207 -383 0116

الإهداء

اسمع يا رياض!

في عام ١٩٦١ صدر كتابي "ماذا جرى في الشرق الأوسط"؟ وكنت أحسب ان الذي جرى، وما زال يجري في عام ١٩٦١ لم يتكرر ولن يطول.

كانت صورة الغلاف في ذلك الكتاب على شكل بقعة واسعة من الدم. وكانت صفحاته مليئة بالانقلابات والثورات والاغتيالات...

وقد استحوذ الكتاب على اعجاب أكبر عدد من رجال الصحافة في مصر وفي لبنان، فأمطروه بالتقريظ والاعجاب حتى ظننت ان الأحاديث عن الانقلابات او الاغتيالات ـ وحدها ـ قادرة على ان تشد القارئ أو تفوز باعجابه..!

ورحت اسأل نفسي وأنا استعد لكتابة مؤلف جديد عن الشرق الأوسط:

ـ من أين، وكيف، أضمن نجاح كتابي الجديد، طالما ان الانقلابات لم تتكرر، والاغتيالات لم تستمر؟!

ولكن..

لم تكد تطل سنوات الستينات حتى كانت الأحداث كلها تتفجر موتاً

ورعباً ودماً. ! واكتملت المأساة المروعة بهزيمة عام ١٩٦٧، ثم رحيل عبد الناصر، ثم مجيء أنور السادات، ثم "اوسلو وويلاتها"، ثم الانتفاضة وشهداؤها، ثم نتنياهو.. وشارون.. الخ.

وأصبح لزاماً على أي صحفي، ان يستعيد تلك الأحداث، ويؤرخها، ويحللها، ويبحث عن نفسه وعن ذاته في فصولها.

ولعل هذا الشعور، هو الذي دعاني لكي افتح الكثير من صفحات عمري، وأكتب هذه الفصول عن "ملاعب الذكريات"...

ملاعب.. وذكريات؟!

بكل الفرح وكل الألم! بكل الأمل وكل السواد! بكل القبلات وكل الصفعات.. والضربات!

ذلك انني مازلت، وسأبقى أشعر بمسؤوليتي الكاملة تجاه الجيل الصاعد من ابناء أمتي.

وخاصة: تجاه ولدي.. الوحيد!

أجل ولدي! الذي كان أول طفل يقف في منزل والده بالقاهرة أمام عدسة التلفزيون المصري، ويقول بكل براءة الأطفال وسذاجتهم، وحسهم الوطني الصادق:

ـ أنا من القدس!!

ثم يضيف بكل براءة الأطفال وسحرهم وأحلامهم:

ـ وأنا أحب القدس! وسأعود اليها مع عبد الناصر....

فالى ذلك الطفل الذي أصبح اليوم شاباً، أهدي هذا الكتاب..

مع أصدق قبلة، وأحلى كلام.

ناصر الدين

كلمة عن هذه "الملاعب"!

كتابة المذكرات ـ في نظري ـ لا تحتاج الى تبويب..

انها تنهمر كسيل الماء، هادئة، وديعة، ومتصلة ومتواصلة!

والمذكرات ـ في حد ذاتها ـ لا تحتاج الى عناء كبير. ذلك ان على كل من يكتب مذكراته ان يكون صادقا معها وأن لا يجنح الى التأليف والتذكير وأن يلتزم السلاسة والسهولة في سردها، وأن لا يدع القارئ يهرب منها ومن قراءتها، بسبب ضيقه لما جاء فيها..!

وقد بدأت أكتب هذه المذكرات في سويسرا.. وفي نهاية التسعينات، وقبل مولد القرن الحالي.

ثم انتقلت معها الى لندن.. وفي فترات وأوقات متفاوتة.

ثم أكملتها في القدس.. في بلدي وفي منزلي! ولو استطعت، لانتقلت الى بغداد، او دمشق او بيروت، او صنعاء، لكي أفرد لها فصولا خاصة تروي للجيل العربي ـ والفلسطيني ـ القادم ـ قصة قلم ولد في بيت المقدس، وعاش فوق تراب كل ارض عربية، ومارس الصحافة في اطارها الوطني والقومي الكبير الواسع، وما زال لم يكفر بعد بأمته وبزعمائه.. وبنفسه.!

وليس في هذه "الملاعب" ما يوحي بأنها قريبة من "ايام" طه حسين، او شبيهة بما كان يخطه أدباء بيروت، من أمثال توفيق يوسف عواد، ومارون عبود، وامين الريحاني - في مؤلفاتهم عن العرب وجزيرتهم - من يوميات أو سرد تاريخي وشخصي. !

لا..

فقد انحصرت مهمتي في كل ما ورد في هذه "الملاعب" انني تذكرت.. وكتبت! ولم أعتني بالتجزأة.! او التقسيم.! او "العنونة" - من عنوان - او اهتمام ودراسة وعناء يلتزم بكل منها، كاتب المذكرات...

وقد يأتي الدور على سرد الشيء الكثير الذي تذكرته فجأة، ولم أنشره!

فقد سألت ذات يوم، السياسي السوري العملاق، فارس الخوري، عما اذا كانت مذكراته المنشورة، هي "كل" مذكراته، فأجابني بصراحته المعهودة وصوته الجهوري قائلاً: لا يا سيدي! لا.!

ثم أضاف قائلا لي:

- "لأن العقلية الشرقية والعربية، لم تكبر بعد لكي تقرأ ما لها وما عليها، دون أن تحقد أو تكره، أو تعادي، أو تقتل"!

وأنا أيها القارئ، واحد من عشرات الآلاف من تلامذة فخر الشام والعرب: فارس الخوري!

وسلام عليك.. وسلام عليه.

ناصر الدين النشاشيبي

ملاعب الذكريات..
كل من فيها يلعب، ولكل من فيها ذكريات

أنا أحب أن اسبح ضد التيار..!

وكذلك هي هوايتي عندما أكتب.

ومن عادة المؤرخ ان يبدأ القصة من أولها أو يسرد الأحداث في تسلسلها التاريخي حتى يصل بها الى يومنا الحاضر..

وعندما يختار الكاتب أن يروي قصة ذكرياته، نراه يرجع الى أيام شبابه وليالي صباه ويتغنى بالعشق والجمال واللهو والسهر، ويتذكر الأسماء التي عرفها يوم بدء حياته الصحفية او السياسية او الاجتماعية، ويسلط الاضواء على خطيبته او ولده او جارته الحسناء او معلمه الذي رعاه في المدرسة الثانوية، ويمشي في السرد من عام إلى عام حتى ينقضي عصر الشباب وتطل عليه سموم الشيخوخة ويتراخى القلم في يد صاحبه، وينتقل الكاتب من مؤرخ ينبض اسلوبه بالحياة الى شيخ معمم جليل يوزع النصائح ويعطي الحكم ويتفضل على القراء بما رواه الجبرتي في كتابه "تاريخ عجائب الآثار" او نشره ابو عبد الله الحارث المحاسيبي المتوفي عام ٣٤٣ هجرية في كتابه عن "الوصايا" والنصائح في علاج الكبد، وفساد الأمة، وصلاح العلماء!

وأنا لا أطيق مسايرة مثل هذه العادات في ممارسة الكتابة التقليدية! ذلك لأني أكره أن أُصنف احداث التاريخ حسب الفصول والاعوام، او استعيد الذكريات الشخصية حسب تطور سنوات العمر. ان الذكريات عندي هي الذكريات الواحدة المتواصلة، التي ملأت حياتي كلها بالأمس وعاشت معي ـ كلها حتى اليوم! وهي في تعريف آخر الذكريات الحلوة!. او الذكريات المهمة. او الذكريات التي تخصني ولا تخص الآخرين، او الذكريات التي حفرت اسمها على ساعات أمسي ويومي، او الذكريات المترابطة التي يمهد بعضها لبعض، او يصل بعضها ببعض، او يكتمل بعضها ببعضها الآخر...

ولم يجل في خاطري أن أجتاز حدود الصراحة البشرية وأنشر على الناس الذكريات التي طالما دفعني القراء والأصدقاء الى ضرورة نشرها. كنت حتى اليوم لا أكاد اكتب عن أزمة واحدة من أزمات الوطن العربي، حتى تنهمر فوق رأسي الأسئلة المتلاحقة تطالبني بأن اكشف عن بعض دوري الشخصي في أزمة معينة، او كل ما أعرفه شخصيا عن المسلك الشخصي لملك او رئيس معين، او التيارات التي صنعت من ذلك الحاكم الملاك شيطانا او أحالت هذا الملك الملاك الى شيطان رجيم!

وكنت دوما أنفر من مثل هذه الضغوط ولا أستجيب اليها! ذلك أني أعرف طبيعة سكان بلادي وأعرف ان التسامح او الغفران او النسيان هي أبعد ما تكون كل منها عن طبيعة أهل الشرق! وأن أهل الشرق لا يغفرون لأحد لو نشر أسرارهم أو كشف عوراتهم أو واجههم بالاتهام! ان أهل الشرق لا يريدون لهذا الشرق الا ان يبقى سرا عليهم وعلى العالم مجبولا بالسحر والغموض والابهام. ولقد أردت في بعض مراحل حياتي الصحفية ان أتسلح بالجرأة وأغامر بالكشف عن بعض ما كنت أعرفه، فإذ بي أواجه اجراءات حكومية وشعبية ورسمية وعائلية لا عهد لي بها، ولا قدرة لي عليها، اذ ان أقلها او أبسطها كان تجريدي من الجنسية، او تشردي في

عواصم العالم، او محاولة اغتيالي في بغداد، وبيروت وعمان، او مطاردة أهلي وأقربائي الذين يحملون اسم عائلتي في مطارات العالم. !

وعندما أردت ان أتقاعد وأستريح، وقلت لمدينتي المقدسة ـ بيت المقدس ـ "منك خرجت واليك أعود" ـ ونويت ان أسلي نفسي، وبقية اعوام عمري في اصدار مجلة اسبوعية سياسية متواضعة تضيء الطريق امام شباب بلدي الحائر على مفترق طرق الصلح أو الحرب، بدأت اللعنات المستترة تنهال فوق رأسي، وبدأت اجهزة الفاكس تحمل لي عشرات الشتائم والتهم السرية، وجاءت شاشة التلفزيون الاسرائيلي تحمل لي رأي "السلطة" في غزة والقطاع بأني ذلك الصحفي الذي أمضى حياته وهو "يرقص" مع جمال عبد الناصر وأصبح اليوم يرقص مع الملك حسين بن طلال !

ولم يصدر من مجلتي الطفلة اكثر من ثمانية أعداد.. فقط ! وأقفلت العمل فيها مع الألم والحزن والسواد تجنبا لأية فتنة داخلية وعربية وفلسطينية في تلك الأوقات المصيرية !

وسألني مراقب المطبوعات الاسرائيلي ـ وهو المصدر الرسمي الوحيد الذي يعطي او يمنع رخص اصدار الصحف والمجلات في مدينة بيت المقدس التي سقطت تحت الحكم الاسرائيلي، سألني عن سبب توقفي عن اصدار المجلة، فأجبته بأسلوب الشيخ بشارة الخوري رئيس لبنان الراحل:

ـ ان الحق على.. "الطليان" !

ـ طليان ؟ أي طليان !

بل الحق على حكم الفرد ! على الوحداوية ! على انعدام الديمقراطية. على الارهاب الفكري ! على خضوع الفكر والرأي والثقافة أمام حكم الشارع ! على البندقية. على المال السايب. على الأوضاع الشاذة التي تركت القدس الغالية في فراغ قاتل، حيث لا دولة، ولا حكومة، ولا أمن، ولا حماية. !

وقال لي الملك حسين في آخر لقاء لي معه في عمان قبل سفره الى رحلة العلاج.. أو رحلة الموت:

ـ أُريد منك ان تنتقل فورا الى عمان كي نؤسس معا دارا صحفية عالمية تصدر عنها جريدة يومية ومجلات اسبوعية ويجري طبعها في مختلف عواصم العالم وتقول للأعور.. أعور.. في عينه!

وسمعت نفسي أقول للملك العزيز الراحل:

ـ وفي هذه الحال يلزمنا يا مولاي تدبير كتيبة هاشمية مسلحة كاملة للحفاظ على حياة رئيس التحرير وبقية المحررين..!

ودهش الملك حسين من جوابي متسائلا:

ـ هل وصلنا الى هذا الحد.؟

وهززت رأسي مجيبا:

ـ أجل يا سيدي! الى هذا الحد.. واكثر من هذا الحد.!

وكنت أشعر دوما ان عملية كشف الأسرار تشبه الحظوة او النعمة او الثروة التي يتمتع بها فرد واحد، ولكنها محرمة على غيره من عباد الله!

فقد كان ـ أجل، كان ـ وما زال كائنا ـ من حق زميلنا وصديقنا الصحفي المصري محمد حسنين هيكل ان ينشر تباعا كل ما يخطر على باله من أسرار رهيبة تتعلق بأوضاعنا الملتهبة في دنيا الشرق الاوسط. وبالفعل، فقد نشر هيكل عشرات الكتب المليئة بالأسرار التي لم يكن نشرها حلالا على غيره. لقد نشرها هيكل من "باب" جمال عبد الناصر، او من باب "الأهرام" ـ كبرى صحف الشرق العربي، او من باب اللقاءات التي كان يشارك فيها أيام احداث القاهرة، وكل هذه الأبواب مع كل هذه الأسماء كانت محرمة على تسعين في المائة من صحفيي العرب في كل عاصمة عربية! بل ان هيكل كان جريئا في نشر كل سر شخصي يتعلق بالغير، أو يتعلق به شخصيا. أنا أذكر مثلا أن الراقصة المصرية الشهيرة تحية

كاريوكا ـ التي قال عنها زميلنا مصطفى أمين "انها صعدت سلالم المجد بساقيها"، قد دعتني ذات مساء الى عشاء في شقتها الأنيقة بحي الزمالك في القاهرة. ولعلي خشيت يومذاك أن أذهب الى شقة تحية كاريوكا بمفردي، فأقنعت صديقي هيكل أن يرافقني في تلبية دعوة العشاء. وبالفعل، استقبلتنا "تحية" بكل الكرم وكل اللطف وكل المودة! وكانت سهرة مميزة، اختلطت فيها مظاهر الأكل والشرب والموسيقى وأشياء اخرى لا تخلو منها سهرات تحية! وكان ذلك بعد قيام ثورة ٢٣ يوليو بأسابيع قليلة! وقررت أن احتفظ بما جرى في تلك السهرة في صدري حفاظا على مودة هيكل وعلى سمعته وعلى حرصي أن أبقى بعيدا عن ألسنة زملائي المحترفين من صحفيي مصر! ولكني، في اليوم التالي، دعيت الى حفلة رسمية أقامها الضباط الأحرار في نادي الضباط بالزمالك احتفالا بأعياد الثورة. ورأيت في الحفل الرئيس محمد نجيب، وجمال عبد الناصر، وصلاح سالم، وزكريا محيي الدين. واقترب مني زكريا محيي الدين وهو يصافحني ضاحكا وقال هامسا ومتسائلا:

ـ هي تحية كاريوكا عملت فيكم ايه.. البارحة؟

وذهلت..!

ولم أُجب. ولكن زكريا محيي الدين استمر يسألني ضاحكا بكل خبث وسوء نيَة:

ـ يا ترى جرى ايه بينها وبين هيكل عندما دخلوا غرفة النوم؟

ثم أضاف:

ـ وانت ما عملتش حاجة يا ترى؟!!

ومرة أخرى لم أُجب..

بل تطلعت الى وجه هيكل فوجدته في أقصى حالات السعادة!

حتى الأسرار الشخصية الخاصة، أضحت حلالا على هيكل لا يسمح

لأحد غيره ان ينشرها حتى ولو كانت على نفسه، وكانت بطلتها راقصة مميزة أنعم عليها الكاتب الفلسطيني الامريكي الشهير "ادوارد سعيد" بوداع عاطفي ملتهب في مقال أخير له بالعربية تحت عنوان: "وداعا يا تحية!".

ولا شك أن الجانب "السري" من شخصية تحية كاريوكا هو الذي دفعها الى التقرب الخاص من هيكل في تلك السهرة المميزة، ذلك ان تحية كاريوكا بالذات هي القاسم المشترك بين وكالة المخابرات الامريكية منذ خمسين سنة، وبين رجالات مصر وعلى رأسهم الملك فاروق ومن بعده رجال الثورة! أنا شخصيا رأيت تحية كاريوكا في شرفة فندق "زيا"، في شارع الرشيد ببغداد، وهي تواجه مظاهرات العراقيين الشيوعيين الذين مشوا صوب الفندق المذكور بغية اشعال النيران فيه انتقاما من الحكومة التي كان يرأسها يومذاك نوري السعيد عام ١٩٥٣. لقد صرخت فيهم تحية بكل جرأة: "امشوا من هنا يا مجرمين! نحن عرب زيكم!" ولم يستمع المتظاهرون الى نداء تحية فقالت لهم: "احنا ضيوفكم.. وهذا العمل عيب عليكم!". وتفرق المتظاهرون.

وكنت قبلها قد رأيت تحية كاريوكا في بهو فندق الملك داود بالقدس عندما جاءت لترقص على أنغام الموسيقار فريد الأطرش في الحفلات العامة، وكانت متزوجة من الممثل المصري الشهير احمد سالم خريج جامعة كامبردج! وفي تلك الزيارة وقع احمد سالم في حب "أسمهان" وقرر ان يتزوجها. وعادت تحية الى غرفتها في الفندق فلم تعثر الا على الحقائب المليئة ببدل زوجها العريس احمد سالم الهارب مع أسمهان! ومزقتها وأشعلت فيها النيران وسط دهشة نزلاء أحلى وأعظم فندق في الشرق الاوسط!!

ثم عدت ورأيت "تحية" في أواخر الخمسينات في منزل صديقي الراحل صلاح سالم، رئيس مجلس ادارة دار "الجمهورية" للصحافة والنشر التي

كنت فيها رئيسا للتحرير. وكان صلاح سالم طريح الفراش يشكو من مرض عضال في كليتيه. وقرر زميلنا موسى صبري، وهو الرجل المختار والمدخّر في مثل تلك الحالات "الخاصة" ان يرفه عن صلاح سالم ويدعو تحية لمشاركته السهرة في منزله بالقاهرة. ووصل الخبر الى جمال عبد الناصر الذي كان قد تخلى نهائيا عن صلاح سالم بسبب قضايا تتعلق بالسودان، والعراق، ونوري السعيد. وامتلأت غرف ومكاتب دار "الجمهورية" بعد ٤٨ ساعة فقط، بمنشورات سرية تفضح صلاح سالم وتتحدث عن السهرات "الحمراء" التي يقيمها في منزله باشتراك تحية كاريوكا!! وأسقط في يد صلاح سالم، واتصل على مسمع منا مع عبد الناصر بالتلفون وراح يصيح كالمجنون:

ـ مش كده يا ريس!! أنا مش بتاع سهرات حمراء. أنا مش بتاع تحية كاريوكا!! أنا مريض يا ريس... أنا بموت!

ولم نسمع بماذا أجاب عبد الناصر. ولكنا لم نعد نرى تحية كاريوكا في منزل صلاح سالم بعد ذلك اليوم..

ترى من يقدر ان يروي كل أسرار هذه الراقصة المميزة التي ودعها "ادوارد سعيد" بكل جوارحه ودموعه قائلا لها:

ـ وداعا يا تحية؟

لعل محمد حسنين هيكل هو الوحيد القادر على ذلك. انه الصحفي الوحيد المهيأ بالاسم والشهرة والصيت كي يقترب من المحرمات ويقول وينشر ما يريد... وكما يريد!

أما نحن.. فلا.!

لا يجوز الاقتراب من "امرأة القيصر" سواء كان اسمها الملكة "فلانة"، او الأميرة "فلانة" او الراقصة الشهيرة تحية كاريوكا.!

ولعل الراقصة الاسرائيلية العراقية الكردية الاصل واسمها: "شولوميت

شالوم" .. وعاشت الأسماء، قد أرادت ان تقلد تحية كاريوكا عندما تحرشت بالسفير المصري الشهير السيد محمد بسيوني في تل ابيب وزعمت انه دعاها الى جلسة انفرادية في منزله بجوار تل ابيب لكي يفترسها. ورغم أن القضاء الاسرائيلي لم يجد في أقوال الراقصة المذكورة ما يؤكد اتهاماتها للسفير البسيوني، الا ان الراقصة قد أصرت على الاتهام.. وقالت للمحكمة أنها ستعود الى مقاضاة السفير المصري عندما تسقط عنه الحماية الدبلوماسية، او عندما يعود الى بلده او عندما يزور تل ابيب بصفته الشخصية..

وهناك في حياة هذا الشرق الراقص، أكثر من "تحية" واحدة! كنت أرى نوري السعيد وهو يطرب للمنولوجات الغنائية الراقصة التي تقدمها للجمهور المنولوجست العراقية عفيفة اسكندر!

وكان شاه ايران ـ كما قال لي بنفسه في مقابلتي معه بقصر المرمر بطهران عام ١٩٥٢، معجبا بلا حدود بالراقصة سامية جمال. وكان الزعيم اللبناني "حبيب ابو شهلا" معجبا بلا حدود بالراقصة ببا عز الدين او "حورية محمد" عندما كانت ترقص له على أنغام المطرب المصري الشاب "عبد الغني السيد" وهو يغني لها: وله يا وله.. دي حورية يا وله".!! وكان حفني محمود باشا، لا يفارق كابريه "أوتيل الكونتننتال" بالقاهرة حرصا منه على مشاهدة راقصة معينة كان منافسه على حبها وعلى قلبها "عبد السلام الشاذلي باشا" محافظ القاهرة والمطرب عزيز عثمان! المهم ان في حياة هذا الشرق عشرات الراقصات اللواتي تركن بصماتهن فوق الأحداث وجمعن في حياتهن الكثير من فن الرقص وفن التجسس معا! وكنا ـ بحكم المهنة وطبيعة الشباب ـ نطلع على الكثير من أسرار كل واحدة من تلك المجموعة الراقصة، سواء في القاهرة، او في بيروت، أو في مدينة "يافا" و"حيفا"، قبل الضياع والتشرد، او في بغداد ودمشق على ايام شكري القوتلي وحسني الزعيم وهاشم الأتاسي، ولكننا لم نجرؤ على أن نكتب او

ننشر حرفا واحدا مما كنا نطلع عليه من تلك الأسرار، لا خوفا من أصحابها الراقصات الفاتنات فحسب، وانما خوفا من الملوك والرؤساء والوزراء والزعماء. الذين كانوا على علاقة جنسية وعاطفية بكل واحدة من تلك المجموعة. وكان التعرض الى بديعة مصابني او ببا عز الدين او تحية كاريوكا او حورية محمد او نجوى فؤاد، وكأنه تعريض بالملك فاروق او "صباح نوري السعيد" ـ الابن الأكبر لنوري السعيد، او "الباشا شاتيلا" زعيم قباضايات بيروت، او "القبضاي" ابو حسن الجاك صاحب سينما "ركس" في ساحة "الشهداء" ببيروت او غيرهم.

لقد ارتبط اسم السيدة "ام كلثوم" بأعرق الأسماء في حياة مصر السياسية. حيث أحبها ـ أو أحب صوتها ـ شريف صبري باشا، شقيق الملكة نازلي. ولكنها لم تتزوج الا من ملحن مصري من الدرجة الثانية اسمه محمود الشريف! وعندما طلقته بعد زواج قصير، ارتبطت بزواج ثان مع صديقي الطبيب "حسن الحفناوي" استاذ الامراض الجلدية في قصر العيني بالقاهرة. وعندما كنت أزوره في عيادته "بميدان الازهار" بمصر، وكنت اسأله عن حياته الزوجية مع السيدة ام كلثوم، كان يجيبني قائلا وهو يتحسس عروق يده اليمنى بأصابع يده اليسرى:

ـ أنا في هذه الايام عايش أشوف "العروق" الزرقاء في يد زوجتي أم كلثوم، وأتلذذ برؤية نظراتها الجاحظة وشخيرها المتواصل.!

وكان هذا الطبيب الصديق يعشق الممثلة ليلى فوزي ويتمنى الزواج منها لولا انها رفضته بسبب زواجه وكثرة أولاده. ولم يجد امامه الا السيدة أم كلثوم، فتزوجها. ولم تمانع السيدة ام كلثوم بالزواج الذي كانت تعتبره شعارا معقولا تهرب وراءه الى مدن بيروت، وجنيف، ودمشق، لزيارة صديقاتها من أميرات الخليج، او زوجات اصحاب الملايين السوريات المقيمات على شواطئ البحيرات السويسرية.! كانت السيدة ام كلثوم تحب الجمال حيثما وجدته، وحيثما التقت به او التقى معها! كان الجمال

عندها لا جنسية له ولا يخضع لمقاييس البشر !

ولعل هذا الطغيان "الفني" الذي كنا نراه زاحفا واضحا من الوسط الغنائي او المسرحي او السينمائي على زعمائنا من رجالات العرب، قد جعلني أتساءل دوما عمن يكون الأقوى نفوذا في السيطرة على الآخر: الزعامة السياسية على أهل الفن، أم أهل الفن على الزعامة السياسية؟.

ولماذا لا نسمع مثل هذه القصص والأسرار عن زعماء جيراننا من بني اسرائيل مثلا.؟.

قالوا لي ان اسحق رابين كان عاشقا حتى أذنيه مع السيدة "روحاما" التي كانت سكرتيرته ابان عمله كرئيس اركان، والتي بادر قبل اغتياله واصدر امرا بتعيينها في منصب قنصل عام لاسرائيل في نيويورك..!

ولكن زوجة اسحق رابين بقيت "تعبد" زوجها حتى اللحظة الاخيرة من حياته. كانت تخلع له حذاءه العسكري بيديها، وكانت تواظب على تدليك جسده بالزيوت والكولونيا قبل دخوله الى غرفة النوم في كل مساء. ومثل ذلك كانت زوجة "شارون" تمارس نفس العملية أو تقوم بنفس الواجب.! وعندما توفيت زوجة شارون الاولى في حادث سيارة على طريق القدس ـ يافا، بادر "شارون" للاقتران بشقيقتها "ليلي" اعرابا عن حبه ووفائه. ولم يطل المقام حتى اصيبت هذه الزوجة بمرض السرطان، فترك شارون كل مسؤولياته في المعركة الانتخابية وهجر مزرعته الواسعة في صحراء النقب وبقي ملازما لزوجته في غرفتها بمستشفيات نيويورك والقدس وكأنه أحد أطبائها المشرفين على العلاج وعلى سير المرض معا!

ولا أكشف سرا لو أني تحدثت عما كنت أعرفه عن حب مناحيم بيغن لزوجته السيدة "علينزا"!! لقد عاش بيغن يتنفس برئتيها، وعندما ماتت "علينزا"، مات مناحيم بيغن وراءها!!

والرجل الوحيد الذي خرج عن هذه القاعدة، كان اسمه الجنرال موشيه

ديان، وكان زير نساء، لا يستحي ولا يرحم! وكانت قصص غرامياته مصدر تسلية لمعظم أفراد شعب اسرائيل، وخاصة ضباط الجيش! لقد قيل ان موشيه ديان كان مغرما بخطف الآثار وسرقة النساء. او سرقة النساء وخطف الآثار. وجاءت ابنته "يائيل" تسير من بعده على خطاه!

لقد اقترن ديان في آخر سنوات حياته من السيدة راحيل ـ او راشيل ـ ربينوفتش بعد ان عشقها وطلقها من زوجها المحامي الشهير!

وكذلك، لم يستطع رئيس الوزراء العمالي الأسبق "ليفي اشكول" الا ان يهجر زوجته الاولى، ويتزوج من الفتاة "مريام" او مريم التي كانت تصغره بثلاثين سنة! لقد كان اشكول رئيسا لوزراء اسر ائيل ابان حرب الايام الستة، واقترن اسمه ـ رغم قصص الغرام والزواج ـ بالمحبة والشهرة والبطولة!

وهكذا كان ذلك المسؤول الاسرائيلي يمارس مسؤوليات الزواج وكأنه يقرأ صفحات مسطورة في كتاب هرتزل او جابوتنسكي او ناحوم جولدمان عن مبادىء الصهيونية!

انه يرى ان الاخلاص للزوجة جزء من الاخلاص للشعب وللبلد معا! وعندما أراد مناحيم بيغن ان يجد اسما لائقا يطلقه على ولده البكر، لم يجد "أحلى" من اسم "بنيامين زئيف" تيمنا "بزئيف جابوتنسكي" الذي كان لا يكره في حياته أكثر من العرب ولا يحب في حياته أكثر من قتلهم! حدثني صديقي الراحل احمد الشقيري قائلا انه دخل في الثلاثينات الى قاعة المحكمة في القدس لكي يترافع في احدى القضايا الجنائية، وكان جابوتنسكي حاضرا للترافع في قضية اخرى. وشاهد جابوتنسكي وجه احمد الشقيري وهو يطل من الباب. فصرخ كالمجنون مخاطبا رئيس المحكمة:

ـ انني أكاد اختنق! يا سعادة رئيس المحكمة لقد دخل "احدهم" من

"العرب" القاعة وسرق منا الاوكسجين النقي وأعطانا السموم القاتلة!

وأجابه الشقيري على طريقته، مخاطبا رئيس المحكمة:

ـ هكذا يتصرف المجانين والحمقى والصهاينة!

ولكن مناحيم بيغن لم يحب ولم يعشق ولم يسر على خطى أحد، كما مشى على خطى زعيمه جابوتنسكي! لقد كان جابوتنسكي مولعا بعلم طبقات الارض، وجاء ابن مناحيم بيغن كي يحمل شهادة الدكتوراة في علم طبقات الارض ـ أي "الجيولوجيا"! ولقد دخل ابن بيغن صفوف الجيش لأن جابوتنسكي أوصى والده بذلك! وفي عام ١٩٩٥ ترك الابن الجيش ودخل السياسة وأصبح وزيرا للعلوم في حكومة بنيامين نتنياهو، ومارس الحياة العامة على طريقته: لا يملك سيارة خاصة ولا يرفع علما خاصا. ولا يشتري شقة للسكن. ولا يركب تاكسي، وانما يسير على قدميه ويشتري حوائج البيت بنفسه من البقال والجزار..

وفي فترة وجوده في الوزارة، كشف بيغن "الصغير" عن سر أسماه بالاتفاق السري بين "حماس" ومنظمة التحرير في عام ١٩٩٦، مؤكدا ان المنظمة أعطت الضوء الاخضر "لحماس" لكي تقوم بسلسلة عمليات ارهابية! وانبرى شمعون بيرس وكان رئيسا للحكومة، للرد والنفي. ولكن رئيس المخابرات الاسرائيلية، أعلن تأييده التام لكل كلمة وردت على لسان "بيغن" الصغير حول هذا الموضوع.!

وكان همه ـ وأعني ابن بيغن ـ ان يمنع أي انسحاب من الضفة الغربية او أي تقارب بين الحكومة والفلسطينيين..

وكان يلقب أبو عمار "بالارهابي.."!

وكان متعصبا محافظا حتى أصابع يديه وقدميه. ولكن الانتخابات الاخيرة التي أطاحت بالسيء الذكر، بنيامين نتنياهو قد أطاحت ايضا، بابن مناحيم بيغن عندما اصيب اليمين الاسرائيلي بأسوأ هزيمة في تاريخه

السياسي المعاصر!

وقرر بيغن الابن ان يطوي الصفحة بيده، وأن يعتزل الحياة السياسية... وهكذا كان.!

وعلى طريق قرية "عين كارم" العربية بجوار القدس عثر بيغن الصغير على شقة صغيرة اتخذها مسكنا له ولزوجته ولأولاده الخمسة!.

لقد رشح نفسه في غمرة تلك الانتخابات لرئاسة الحكومة بعد أن أسس حزبا أطلق عليه اسم "الاتحاد القومي اليهودي" ولكنه فشل...

ومضى يهاجم اليسار واليمين والناس والبشر والسياسة!

وقال ان نتنياهو قد خدع الشعب.. ولا يملك أية مصداقية، بعد اليوم! وأسدل الستار على بقية اليمين الاسرائيلي المتطرف ممثلا بذلك الشاب!

اختفى بنيامين نتنياهو وجاء باراك...

ترى من هم هؤلاء المستشارين الكبار الذين جاء بهم باراك لقيادة السفينة الاسرائيلية في بحر السياسة الهائج...

كنت دوما اسأل، وكانوا دوما يجيبون.

أُبادر وأقول، وبلا تحفظ، ان العلاقة بين باراك من جهة وبين سلفه بنيامين نتنياهو من جهة اخرى، انه ـ ورغم كل ما يبدو كان من خلافات سياسية بينهما ـ انما هي علاقة ود واحترام، مع التقدير التام لذكريات الأمس..

ترى، ما هي ذكريات الأمس؟

كان كل من باراك، وسلفه نتنياهو، الأقطاب الرئيسة في أكبر وأهم كتلة سرية عسكرية في اسرائيل، واسمها بالعبرية "سايريط ماكتال" أي الدورة الخاصة لرئيس الاركان. وكان باراك برتبة كولونيل هو قائدها! وكان نتنياهو برتبة كابتن احد ضباطها! وكان هناك شقيق لنتنياهو واسمه "يوني"، وكان في ذات يوم مسؤولا عن هذه الوحدة السرية.

وفي عام ١٩٧٦ وفي عملية معروفة باسمها : عملية "عنتيبي" ـ سقط شقيق نتنياهو قتيلا . .

وما زال باراك ، والحديث عن الشهور الأولى من القرن الحالي ، يهرع في كل مناسبة الى منزل نتنياهو لتجديد التعزية في موت أخيه . . يوني !

ومن هنا ، يأتي التفسير في امتناع باراك أو نتنياهو عن تبادل أي هجوم شخصي بينهما ! نعم ! يتبادلون النقد في المواضيع السياسية العامة . أما الامور الشخصية فلها عند كل منهما ، كل الاحترام وكل التقدير !

نعم ! كنت اسأل هؤلاء الجالسين وراء مكاتبهم في حكومتهم عن كل ما يهمني أن أعرفه . . وبعض اجاباتهم صادقة ، وبعضها كاذب وملفق !

يقولون مثلا ان مدير مكتب باراك ، هو : "حايم مندل شاكيد" وكان ضابطا في الجيش برتبة كولونيل وتعود صداقته مع باراك الى أيام العسكر . . ؟ !

ثم هناك مكتب او هيئة للأمن يرأسها "داني ياتوم" وهو الذي كان مسؤولا عن محاولة اغتيال السيد خالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس في عمان ، والذي كان رئيسا للموساد على ايام نتنياهو ، كما انه معروف بصداقته لأكثر من رئيس واحد من رؤساء الاجهزة المخابراتية في اكثر من عاصمة عربية ! . .

ما علينا . !

ثم هناك المحامي "اسحق هرتسوغ" ، ابن حايم هرتسوغ رئيس اسرائيل الأسبق ، وكان يعمل ضابطا في الجيش الاسرائيلي وكان معروفا بانطوائه على نفسه وابتعاده عن مشاكل الشباب وضوضاء المعسكر . . الى حد الهدوء التام والاستسلام والجبن الذي لا يليق بأي جندي عسكري ! لقد جاء به باراك وعهد اليه بمنصب سكرتير الحكومة !

ترى هل هذا هو كل شيء ؟ أو هل هؤلاء هم كل المستشارين الذين جاء

بهم باراك لكي يقاوم بهم معارضة الداخل والخارج معا، ويحقق السلام ويرضي العرب، ويكسب امريكا، ويقنع الاسد بالتعاون والتقارب فيحل الف مشكلة اسرائيلية في الف حزب سياسي والف تكتل حزبي!؟

هناك ايضا، اسم المستر "هابر" الذي كان يعمل رئيسا لديوان "رابين" ايام حكومته بعد ذلك في عام ١٩٩٨ ـ اسمعوا جيدا ـ المستشار السري للسيد باراك، وهو الذي ربط، بجهده وجلده، بين رابين وباراك بالأمس القريب، ثم جاء باراك لكي يكافأه ـ سرا ـ ويتخذ منه مستشارا نافذا، وسريا خلال أيام حكوكته.

لقد شاهدت "هابر" في جامعة تل ابيب وهو يرحب بالأمير الحسن الذي جاء للاشتراك في مناسبة الذكرى الخامسة للاتفاق "السلامي" او الصلحي، بين عمان، وتل ابيب.

كان يبدو، نشطا، واثقا من نفسه يتحدث مع بيرس وكأنه هو رابين، ويخاطب الامير الحسن، وكأنه باراك..! ولكن..

يستطيع باراك بعد استقالته ان لا يفعل شيئا كثيرا ويكتفي بالنوم الهادىء على فراش من حرير تاركا التيارات الخارجية وحدها، والاحداث الداخلية وحدها.. أعني امريكا واوروبا في الخارج، والعرب في الداخل يرسمون الخريطة القادمة للسلام القادم والمنشود بين العرب واسرائيل! ان مصير اسرائيل ليس في يد اسرائيل وحدها بقدر ما هو في يد يهود العالم وفي مقدمتهم يهود امريكا! ويهود العالم لا يتحركون الا "كردة" فعل Reaction على أي حدث يصدر عن العرب. والعرب لا يصحون من نومهم الا بعد خراب البصرة، وفوات الأوان وبعد ان يكون قطار الاحداث قد غادر محطة القدس، ولن يقف على أية محطة من محطات المستوطنات..! أو المياه.. أو اللاجئين! كان شمعون بيرس ـ قبل التوقيع على اتفاقية السلام بين الاردن واسرائيل ـ يطاردني بأحاديثه التلفونية لكي يقول لي:

ـ يجب ان يفهم الاردن ان اسرائيل لا تستطيع ان تلبي كل طلبات الاردن للسلام. لان اسرائيل دولة ديمقراطية ولان المعارضة الاسرائيلية قادرة على ان تنسف هذه الحكومة!

...تم حديث ثالث:

ـ ان سوريا تدق على أبوابنا تطالب بالسلام. واذا انشغلنا بالسوريين فلن نلتفت الى الاردن الذي سيبقى بلا أمل في الحصول على سلام مع اسرائيل!

ثم حديث رابع:

ـ انظر الى هذه "الأطروحة" التي أعددتها بنفسي وجعلت عنوانها: "وادي الكنوز" **The Valley of Treasures!** انها تحتوي على قصة الآمال التي لو تحققت لجاءت للاردن ولاسرائيل معا بكل الخيرات المطلوبة في عالم التنمية والتقدم!

وقبل ان يذهب شمعون بيرس لمقابلة الملك في وادي عربة وتوقيع السلام، طلبني تلفونيا على منزلي في القدس، وسألني:

ـ هل يغضب الملك حسين لو أني مررت في خطابي الذي سألقيه في حفل هذا اليوم ـ ويعني في حفل السلام ـ على ذكر اللقاء التاريخي القديم الذي جمع بين الملك فيصل بن الحسين ـ ملك الحجاز ـ والزعيم اليهودي حاييم وايزمن والمديح الذي سمعه "وايزمن" من الملك فيصل عن اليهود بعيد الحرب العالمية الاولى؟.

وعلى الفور أجبته:

ـ ان الملك حسين يحب أحداث التاريخ ولا يمانع في الاستشهاد بها..

قال: ولكني اسألك عن رأي عمه الكبير الملك "فيصل بن الملك الحسين بن علي" في الشعب اليهودي؟

قلت: لو كنت مكانك لأقدمت على ما يدور في ذهنك دون ان أخشى

اللوم أو الغضب من أحد..

وفعلا.. ألقى شمعون بيرس خطابه المنتظر في حفل توقيع الصلح ولم ينس ان يأتي على ذكر الملك فيصل بن الحسين الهاشمي الراحل ولقائه مع حاييم وايزمن..

ثم سقط بيرس وجاء نتنياهو مكانه!!

وبعد حوالي عامين اثنين قامت مظاهرات في حي "باب العامود" بالقدس التحم فيها نفر من قادة منظمة التحرير الفلسطينية مع رجال البوليس الاسرائيلي، بأوامر مباشرة من نتنياهو..!

وانهال بعض رجال البوليس بهراواتهم وعصيهم على رؤوس بعض رجال المنظمة.. ونقلت اجهزة الاذاعة والتلفزيون مناظر ذلك الالتحام الى الملايين في العالم.

ودق جرس التلفون في منزلي بالقدس، وسمعت صوت سكرتيرة المستر "شمعون بيرس"، تقول لي:

ـ ان المستر بيرس يود ان يتحدث اليك يا سيد نشاشيبي.

قلت: أهلا وسهلا بالمستر بيرس.!

وسمعت صوت بيرس يقول لي بلا مقدمات:

ـ هذه الهمجية والوحشية من جانب البوليس الاسرائيلي جعلته يضربكم بالعصي فوق رؤوسكم. انني اعتذر. انني أدين. انني ضد نتنياهو وضد سياسته.. لكم كل اعتذاري يا سيد نشاشيبي!

قلت له: وأنا معك ضد نتنياهو وضد سياسته، ولكن احدا من رجال البوليس لم يضربني ولم أشعر بهراوته فوق دماغي!

قال: هذا لطف منك يا سيد نشاشيبي. ولكن الضربات التي رأيناها في التلفزيون كادت تقضي عليك! هذا حرام! هذه وحشية!

قلت : لم يكن هناك ضربات ولا حاجة يا مستر بيرس، انني أفهم مدى كراهيتك للسيد نتنياهو والتي جعلتك تتصل بي لكي تعتذر لي عن حادث لا أظنه قد وقع !

وأجاب بصوت عال :

ـ بل انت رجل مؤدب ودبلوماسي وتريد ان تجعلني أنسى همجية رجال البوليس الاسرائيلي في اعتداءاتهم عليكم خلال المظاهرات أمام بوابة باب العامود . .

قلت : أشكرك يا مستر بيرس ولكني اؤكد لك بأن احدا لم يعتد علي، ولن أترك لأحد فرصة الاعتداء علي.

قال مقاطعا :

ـ ولكنهم، أعني رجال البوليس قد ضربوك ! وانك دخلت المستشفى للعلاج . !

قلت بصوت عال :

ـ هذا غير صحيح ! انني بصحة جيدة، ولم اشاهد نفرا واحدا من رجال بوليسكم يا عزيزي منذ شهور. ولم ادخل المستشفى منذ عام كامل . . وأنا ورأسي وعافيتي بألف خير !

قال بيرس : انا متأكد انهم ضربوك . . لقد رأيت ذلك بنفسي على شاشة التلفزيون الاسرائيلي . . والاردني !

قلت : مش صحيح . !

قال : يا مستر نشاشيبي. يا "معالي الوزير" ! ارجوك ان تقبل اعتذاري عن عدوان البوليس عليك.

قلت مقاطعا : يا عزيزي مستر بيرس. أنا لست "معالي الوزير"، ولا مبرر للبوليس او غير البوليس لكي يضربني او ان يعتدي علي.

وصاح بيرس:

- هل تقول انك لم تعد معالي الوزير. هل استقلت من منصب وزير المالية يا سيد نشاشيبي؟

قلت: وكيف تريدني ان استقيل من منصب لم اتولاه، ولا اريد ولا أتمنى ان أتولاه في حياتي!

وراح بيرس يصرخ:

- ألست أنت زهدي النشاشيبي وزير مالية السلطة الفلسطينية؟

وأجبت بكل هدوء:

- لا! لست أنا يا عزيزي شمعون.

- اذن من أنت؟

- انا ناصر النشاشيبي! انا صديقك القديم الذي حمل منك مائة رسالة الى الملك حسين والى عبد السلام المجالي والى الامير الحسن.! هل نسيتني يا مستر بيرس!؟

ثم أكملت:

-" أنا اول من اقترح عليك ان تكتب رسالة سرية الى الملك حسين تهنأه فيها بذكرى اعتلائه العرش ومباشرة سلطاته الدستورية، وان تقترح عليه موعدا للقاء..."

ثم أضفت:

- وكذلك.. أنا الذي طلبت من الملك حسين ان يجيبك على تلك الرسالة.. ولولا حرصه على محبتي وايمانه بولائي له، لما أجابك على تلك الرسالة التي حررها الامير حسن، ووقع عليها شقيقه الملك حسين!

وساد صمت قصير.. قطعه صوت شمعون بيرس بعد لحظة قائلا لي وهو يقهقه:

ـ يا عزيزي ناصر.. سامحني! لقد اختلط علي الامر بينك وبين ابن عمك.! الحمد لله انك بخير وأنك لست النشاشيبي الذي "أكل العلقة"!

قلت لنفسي وأنا أعيد سماعة التلفون الى مكانها:

ـ ألا يستحق الوزير الذي اختلط عليه الامر بيني وبين ابن عمي، ان يسقط في انتخابات البرلمان ويترك الكرسي لأمثال بنيامين نتنياهو؟!

أنا أحب شمعون بيرس..

قال عنه عدوه الصديق او صديقه العدو اسحق رابين انه "متآمر محترف" يتآمر على الناس ويتآمر حتى على نفسه.! وأنا لا اوافق على هذا الكلام!

وكنت قد سمعت من الملك حسين ان العداء بين رابين من جهة وزميله شمعون بيرس من جهة اخرى، قد سبب للملك احراجات وأزمات لا مبرر لها. فهو ـ أي الملك حسين ـ اذا امتدح رابين، غضب بيرس، واذا أسدى خدمة لبيرس، غضب رابين. ماذا نفعل؟!

ونقلت كلام الملك حسين للرئيس الراحل رابين فأجابني:

ـ أن قصتي مع بيرس تستحق ان تصبح كتابا كاملا او رواية كاملة يكون عنوانها: "قصة رجلين". تماما كما كتب "شارلز ديكنز" قصة "مدينتين"!

ولكن شمعون بيرس يبقى صاحب اكبر فضل علمي وسياسي في ايصال أسرار القنبلة الذرية من فرنسا والنرويج الى اسرائيل في أواخر الخمسينات..!

ولا بد لي من ان اروي جانبا من هذه القصة المثيرة كما عرفتها من مصادرها:

عندما جاء "ترجفللي"، النرويجي الى مقعد امين عام الامم المتحدة قرر تعيين الضابط النرويجي "الفرد روشر لوند" مستشارا عسكريا له في مقر الامم المتحدة بنيويورك. وبعد أقل من ستة شهور، وبالتحديد في فبراير

عام ١٩٤٨ ، أرسله للعمل مع القوات الدولية في القدس .

كان هذا الضابط ـ روشر لوند ـ يعمل رئيسا عاما للمخابرات النرويجية خلال الحرب العالمية الثانية برتبة كولونيل . وعندما جاء الى القدس لكي يتسلم منصبه الجديد ، التقى بالمستر "هرتسوغ" ـ الذي أصبح فيما بعد رئيسا لدولة اسرائيل وكان اسمه يومذاك "فيفيان هرتسوغ" ، وكذلك التقى مع "ولتر ايتان" رئيس الارتباط بين الوكالة اليهودية ومنظمة الهاجانا ! فاتفقوا على ان يعمل هذا الضابط النرويجي الكبير مستشارا للمخابرات الاسرائيلية ! والتقوا كلهم على مائدة العشاء في منزل "لوند" بالقدس ، وكان المستر "ترجفللي" ـ في مقر منصبه بالامم المتحدة على علم تام بكل ما أقدم عليه هذا الضابط النرويجي في القدس . وكان "ترجفللي" ، بميوله السياسية "كامل الصهيونية" ـ على وزن كامل الاوصاف !

وتفسير ولعه بالصهيونية يعود الى عقدة نفسية سببها وجوده كوزير لخارجية النرويج خلال الحرب العالمية الثانية عندما رفض بنفسه مساعدة عشرات من اليهود الذين طلبوا منه اللجوء الى النرويج للهروب من البطش النازي ، ولكنه ـ أي "ترجفللي" ـ رفض الطلب ومنع هؤلاء اليهود من الالتجاء الى النرويج وتركهم طعمة للبطش الهتلري ! وعندما انتهت الحرب ، ولألف سبب وسبب ـ بدأ "ترجفللي" يحرر نفسه من عقدة الذنب تجاه اليهود عن طريق الأخذ بيدهم ومساندتهم وتبني مطالبهم في صراعهم مع العرب . .

وبدأت العملية عندما راحت وفود "العمال" من النرويج تسافر الى الولايات المتحدة وتلتقي مع وفود العمال الامريكيين "وتقبض" منها المساعدات المالية ومعظمها اموال يهودية من مؤسسات امريكية يهودية ! ثم قررت النرويج ـ وكل الفضل في ذلك يعود الى أمثال السيد ترجفللي ـ اعطاء اسرائيل "المياه الثقيلة" الصالحة ـ وحدها ـ لانتاج القنبلة الذرية ، وكانت امريكا ـ يومذاك ـ الدولة الوحيدة القادرة على انتاج المياه

الساخنة، او المياه الثقيلة.. الصالحة لانتاج الذرة!

وتمت الاتصالات بين واشنطن وباريس.. واوسلو!

وبالتشجيع من اوسلو، قررت فرنسا، فتح ابواب خزائنها السرية والذرية امام الأيدي الاسرائيلية - وفي مقدمتها أيدي شمعون بيرس مدير الدفاع الاسرائيلي او نائب الوزير فيها مع السماح بنقل معظم الأدوات القادرة على انتاج الذرة الى اسرائيل!

وكان ذلك في أواخر الخمسينات!

يومذاك ... كانت حكومة "عمال" نرويجية، تتعامل مع حكومة "عمال" اسرائيلية! الاولى يرأسها السيد "اينار جيرهر" والثانية يرأسها دافيد بن غوريون، ويساعده شمعون بيرس!

وكان اول رئيس وزراء اوروبي يزور اسرائيل، هو زعيم حزب العمال الاشتراكي النرويجي يومذاك والاسم باللغة النرويجية "اربادار بارتي" Arbader Party.

هل نفهم بعد كل هذا الكلام لماذا وكيف ولدت اتفاقية اوسلو.. وما هو تاريخ اوسلو مع العرب، او تاريخ العرب من اوسلو؟

لقد سقط نتنياهو وجاء باراك..

وطلب مني التلفزيون الاسرائيلي ان أعلق على هذا "الحدث الكبير" في مقابلة اذاعية مطولة فقلت ما معناه ان الفرج في ذهاب نتنياهو لا يخص العرب وانما يخص اسرائيل التي أنقذها مجيء باراك من الضغوط الدولية، ومن النفور الامريكي ومن الاقتسام الاسرائيلي، ووضع حد لهذه "الشفقة" المصطنعة التي كان يبديها العالم تجاه فلسطين وعرب فلسطين لا حبا بفلسطين وأهلها وانما نكاية بالسيد نتنياهو.. وسياسته!

وقيل لي ان باراك لا يحب النقد. ولا يغفر لمن ينتقده..

كما قيل لي ان نتنياهو سيعود في يوم قريب، بفضل الجديد القادم

والمنتظر من اخطاء العرب، وبفضل العون المالي من كبار اصحاب الملايين، والذين يؤمنون اكثر من سواهم بمبدأ "اسرائيل الكبرى" و"القدس الموحدة الواحدة"، وان الصهيونية لا تقوم الا على ركيزتين قويتين تاريخيتين: الهجرة بلا حدود الى الداخل، والمستوطنات فوق كل متر من ارض فلسطين..!

وكنت كغيري ـ انتظر ظهور أسماء الحكومة الاسرائيلية الجديدة لكي أضع بقية النقاط فوق بقية الحروف، لولا انهم قالوا لي وبكل وضوح وصراحة ان أسماء الوزراء الجدد في قاموس "باراك" لا تعني كثيرا.. لانه ـ مثل سلفه ـ يؤمن "بالوحدانية" في العمل، وسواء كان دافيد ليفي هو وزير الخارجية أم كان غيره، فان باراك لن يعطي ليفي الكثير من المسؤوليات التي تتعلق بسياسة اسرائيل الداخلية والخارجية، وان ليفي ـ سيدرك هذه الحقيقة ـ ولو متأخرا ويعمد الى الاستقالة كما فعل مع... نتنياهو!

المهم ان باراك لا يطيق المنافسة ولا المشاركة.. وان صدره المليء بالأوسمة والنياشين يؤكد ذلك..

وانه مصمم على ان لا يقاسمه أحد من أقطاب "العمل" السابقين أي مجد او شهرة او نفوذ! ألم نراه يترك لشمعون بيرس وزارة ثانوية ويتركه بلا مكتب ولا موظفين؟! ألم نراه يكرر لشمعون بيرس ان عليه الالتفات الى مركز "رابين للسلام" في تل ابيب ولا يحشر نفسه او أنفه في الامور الاخرى؟

ورضي شمعون بيرس بأن يتحول الى وزير من الدرجة الثالثة لا يعتني الا بأمور مجهولة او مستقبلية او غير محددة، تاركا لغيره ان يرسم له طريق العمل...

وقد يكون بيرس من الطراز الذي تبهره وتؤثر فيه قوة الاموال ويعجبه منظر اصحاب الملايين الذين يسعى الى كسب صداقتهم..

لقد كنت في مدينة "لاس فيجاس" الامريكية التي اشتهرت مع أهلها وسائر زوارها في مزاولة القمار بكل أنواعه. وكان هناك صديقي المليونير السعودي السابق عدنان خاشقجي الذي كان قد اشترى دورا او طابقا كاملا في احد ارقى الفنادق في المدينة.

وعندما قيل لشمعون بيرس ان صديقه عدنان خاشقجي موجود في "لاس فيغاس" ركب السيارة واتجه الى عنوان مسكن عدنان، فلم يجده، وانما طلب من الحارس ان يدعه يتفرج على غرف الدور الذي يملكه المليونير السعودي! ودخل بيرس الى غرفة مجاورة لغرفة النوم فاذ به يصطدم برفوف وصفوف من الخشب الملون وعليها اكثر من الف حذاء رجالي لعدنان وألف حذاء نسائي للسيدة "لورا" الايطالية زوجة عدنان.!

ووقف بيرس يفحص هذه الاحذية، وراح يعدها، واحدا واحدا!

ثم راح يقلب في احذية "لورا" ويقلبها، ويقرأ اسماء الموديلات المحفورة بداخلها..

وكل هذا، وحاكم المدينة، مع حراسه، مع مساعديه، يقفون مدهوشين امام بيرس ولا ينطقون بكلمة واحدة!

أجل..

ان بيرس يحب اصحاب الملايين ويؤمن بفوائد المال وآثاره على مجريات السياسة العالمية عامة والشرق اوسطية خاصة!

وعندما كنت ازوره في مكتبه بوزارة الخارجية الاسرائيلية بالقدس، كان يتعمد احيانا ان يحدثني عن نفوذ المال اليهودي في العالم، ثم يطلب من عاملة التلفون ان توصله بوزير المال الالماني او الفرنسي في بون او في باريس كي يوصي كل منهما بضرورة تحويل المال المخصص من الدول المانحة الى منظمة التحرير والسلطة الفلسطينية لان ذلك "يساعدنا" ـ أي يساعد بيرس ـ على اقناع الفلسطينيين بمزايا السلام مع اسرائيل.

ثم يعود بيرس، على مسمعي ويردد للوزير الالماني وبالالمانية التي أفهم بعض كلماتها، العبارة التي تقول له بضرورة تحويل المال المطلوب في الموعد المطلوب، ودون أي تأخير:

ـ غدا! قبل السادسة مساء! قبل غروب الشمس!

ثم يكرر وهو يغمز لي بعينه:

ـ قبل السادسة مساء.! قبل ان يحل الموعد!

وهكذا بقي شمعون بيرس متمسكا بمزاياه، وطباعه وتصرفاته..

وبقي خصومه في حزب العمل، وفي خارجه، يحاربونه بلا هوادة، ويؤكدون انه رجل متآمر ان لم يجد من يتآمر عليه، فانه سيتآمر على نفسه!

وأنا لا اصدق ذلك!

ترى، أليس هناك بعض الشبه بين ما كان يجري بين "بيرس" وزميله ـ او رئيسه ـ اسحق رابين، من حسد وعداء وتآمر، وبين ما كان يجري، وما كنت أعرفه من حسد وعداء وتآمر بين توفيق ابو الهدى رئيس وزراء الاردن، وزميله سمير باشا الرفاعي.. بل بين توفيق ابو الهدى وكل رئيس للوزراء، او مرشح لرئاسة الوزراء في الاردن.. أعني المملكة الاردنية الهاشمية؟.

لقد جاء ابو الهدى ذات يوم لكي يقابل الملك عبد الله في مكتبه بقصر بسمان، ولكي يقول له، وبالحرف الواحد، وكنت جالسا معهما يومذاك، وابو الهدى يقول للملك عبد الله:

ـ" يا سيدي ان المنصب الوحيد الذي بقي محافظا على هيبته واحترامه في الاردن، هو منصب رئيس الحكومة. وقد سمعت يا سيدنا ان هناك رغبة ملكية في تبديل الوزارة الحاضرة واختيار السيد فوزي الملقي لرئاسة الوزارة الجديدة. وأنا لا أنصح بذلك بل اعترض عليه! ان السيد الملقي طبيب بيطري، ولا اعتراض لي على ذلك، ولكن رئاسة الوزراء في هذا البلد، وفي هذا الوقت بالذات لا تسمح باختيار أمثال فوزي الملقي، لكي

يصبح رئيسا للوزراء..»

وعندما انتهى ابو الهدى من كلامه، استأذن الملك عبد الله، ولثم يده، وانصرف عائدا الى منزله!

وقال لي الملك عبد الله وهو يصوب نظره الى سقف مكتبه:

ـ هذا الرجل، أعني ابو الهدى، لا يحب الا نفسه، ولا يكره الا من ينافسه.. ومن الصعب ان يجد له من ينافسه في حبه لنفسه.. انه كفاءة ممتازة ولكنه أناني بلا حدود!

ثم أضاف قائلا لي وكنت يومذاك اعمل معه:

ـ هيا واطلب لي فوزي الملقي في دار سفارتنا بباريس، واطلب منه ان يأتي لمقابلتي في عمان.. غدا!

واصبح الملقي رئيسا لوزراء الاردن. وبقي العداء على أشده بين توفيق ابو الهدى من جهة، وسمير الرفاعي من جهة اخرى.!

وأضيف:

ترى هل من الممكن ان ينتقل السياسي في الاردن بين مكتب التحقيق في المخابرات الاردنية العامة للتحقيق معه واهانته، وبين رئاسة الوزراء؟ وهل من الممكن ان يكون الرجل رئيسا للوزراء يوم الجمعة، ثم نزيلا على المخابرات الاردنية العامة او سجينا في منزله في يوم الاحد؟

لا أدري..

ولكني اقول ان ما جرى لصديقي الراحل، الشاعر، السياسي عبد المنعم الرفاعي، الذي كان ذات يوم رئيسا لوزراء الاردن في اكثر المراحل دقة وخطورة، يؤكد ذلك ويثبت صحته!

لقد جاء وقت على صديقي الراحل عبد المنعم الرفاعي، لم يكن يسأل عنه او يزوره أحد، سوى عاكف الفائز وأنا..!

وتضايق الرئيس الخصم "مضر بدران" من تكرار زياراتي لعبد المنعم في منزله بعمان فدعاني لمقابلته في دار رئاسة وزراء الاردن وفاتحني دون مقدمات :

ـ ما سر صداقتك مع.. بعض الافراد في عائلة الرفاعي؟

وقلت بلا اعتذار، وليس في سؤاله عندي أية غرابة :

ـ بالامس البعيد كان سمير الرفاعي الذي سبقك الى كرسي الرئاسة، في طليعة اصدقائي المقربين، وفي الحاضر الكئيب، اصبح ابنه زيد وشقيقه عبد المنعم من "عظام الرقبة" ـ كما تقولون في مجالس أنسكم الاردني يا دولة الرئيس!

ثم سألته :

ـ هل لدى دولتكم أي اعتراض على هذا الكلام؟

قال وفي لهجته بعض الحذر وبعض التحذير :

ـ ان صديقك عبد المنعم أصبح عميلا لسوريا، وهذا يشكل خطرا على الأمن القومي في الاردن! وعلى باب منزله تقف الآن قوة من المخابرات الاردنية للمراقبة. واذا استمرت زياراتك له، فان احدا لن يمنع المخابرات من القاء القبض عليك والتحقيق معك في دهاليز المخابرات العامة..

وكدت اصرخ في وجه مضر بدران مستغربا :

ـ ولو؟

ولكنه استمر يقول لي وهو يسلمني نسخة مطبوعة من قصيدة "للرفاعي" عن عمان يقول مطلعها :

عمان يا حلم فجر لاح واحتجبا

عفوا اذا محت الأيام ما كتبا!

وكنت أعرف أبيات هذه القصيدة عندما سمعتها لأول مرة من عبد

المنعم في منزله قبل ذلك بأسابيع. وكنت قد حفظت بعض أبياتها التي "تمسح الارض" ببعض رجالات الاردن عندما رحت القي على مضر بدران وكأني أكمل القصيدة حتى آخرها قائلا:

وملت نحوك بالأنات أكتمها

أبكي المنابر والأعلام والقببا

أبكي لوحدي، فحتى دمعتي فقدت

من طول غربتها خلاً ومصطحبا

أقبل الركن كم مسته من شفة

مثلومة بلغت اشواقها كذبا

في هيكل شاده التاريخ من شرف

وبارك الله فيه الدين والعربا

عمان يا زهرة في كف غانية

هل تذكرين وقد عشنا هوى وصبا

باحت بأحلامنا النجوى ورددها

واديك وانطلقت خلف البطاح ربى

وكم عقدنا خطانا والتقى وطر

على شهي رؤانا وانتشى طربا

ما بالك اليوم والآمال مشرقة

تسترخصين على آمالك اللقبا

تطاولت فيك "أشباه الرجال" فما

من منبر فيك الا انكر الخطبا

من كل منهزم سقط المتاع هوى
على الطريق وما أبلى وما تعبا
وكل أجوف خاو مد راحته
فاستنزل المال والألقاب والرتبا
وكل حرباء ماء الغصن لونها
فما وعت نسبا الا ادعت نسبا
حشد من الزمر الخرقاء ما حفلت
به الحياة ولا شدت به عصبا

بس. !

وأحسست بأن مضر بدران قد شعر وكأن كل بيت من أبيات القصيدة موجهة اليه شخصيا.. ويناله بالذات، فعاتبني قائلاً:

ـ أنا لست توفيق ابو الهدى لكي أسكت على تجريحك. وعبد المنعم ليس "سمير" لكي ينعم بصداقتك. والموقف ـ يا استاذ ـ حرج جدا ومتفجر. ونصيحتي اليك إما ان توقف زياراتك لمنزل عبد المنعم وإما ان تودعنا وتعود الى منزلك في سويسرا!

ولم أنقطع عن زيارات عبد المنعم. !

ولم أجمع حقائبي واغادر عمان الى سويسرا!

بل قابلت في اليوم التالي الملك حسين وأخبرته بتفاصيل ما جرى لي مع رئيس وزرائه! فاذ به يفاجئني بأنه يحفظ القصيدة المذكورة لعبد المنعم الرفاعي عن ظهر قلب، وانه لا يعطي أي اهتمام لما يقوله رئيس وزرائه. وان القصيدة المذكورة تروي قصة الآلام التي تجيش في صدر صاحبها الانسان الرقيق حيال بلده وأهله...

وانقطع اتصالي مع مضر بدران..

الى ان قامت حرب الخليج ووقف مضر بدران في البرلمان الأردني ينفخ في "القربة" المقطوعة ويملأ ارجاء المجلس بالادعاءات الكاذبة عن الانتصارات المزعومة لصدام حسين وللعرب كلهم، والاستسلام الكاذب للقوات الدولية..

عند ذلك، تذكرت تجربتي مع مضر بدران، وان عداءه لسوريا هو الذي جره لعداء عبد المنعم، وان هذا العداء هو الذي جعله يقع في هوى صدام حسين!

وعفوا يا عمان..

كم من الأفتراءات نسمعها ـ او نسمع عنها ـ باسمك.. وعلى حسابك!

وعلى مدى كل صفحة من صفحات هذه الذكريات، وفيما يتعلق بالاردن وقصتي معه، يبقى الملك، الجالس على عرش الاردن، هو وحده الذي يدفع ثمن هذه الخلافات المتأججة بين رجالات الحكم في بلده.!

بالأمس: توفيق ابو الهدى ضد الرفاعي.

والرفاعي ضد سعيد المفتي.

وابراهيم هاشم ضد الرفاعي والمفتي وابو الهدى.

واليوم: مضر بدران ضد عبد المنعم وضد زيد بن شاكر، وضد نفسه.

وزيد شاكر ضد حابس المجالي.

وطاهر المصري ضد أي مجالي! وضد أي مرشح لرئاسة الوزراء الأردنية.

والمجالي ضد الطراونة وضد أي منافس من الكرك.

وكلهم ضد الروافدة..

والجالس على العرش، وحده الذي يدفع الثمن..

قال لي ذات يوم "الحسين" غفر الله له، ولهم، ونحن وحدنا في غرفة مكتبه الأثري الأنيق بقصره في ضاحية وندسور بلندن:

ـ أنا زهقت وتعبت وصحتي لم تعد تحتمل.

ثم أضاف :

ـ لم أعد استطيع ان أنعم بساعة واحدة من استراحة نوم تستمر دون ان تنقطع ودون ان تنتهي. !

وتذكرت فورا، ما كنت قد سمعته من زوجته الملكة "نور" بعد ان تناولنا الغداء في قصر الملك المجاور لقصر بسمان، وكان معنا عدنان ابو عودة، قالت لي "الملكة" نور يومذاك وكأنها تستجير بي :

ـ ارجوك ان تنصح الملك بضرورة الخلود الى بعض الراحة التي يحتاج اليها ! قل له ان جده الملك عبد الله كان يستريح وكان يواظب على التمتع بقيلولة بعد الظهر، ولا يتأخر في السهر. ! قل له ان صحته ـ كما يبدو واضحا ـ ليست على ما يرام. !

وعندما أردت ان اكرر كلام "الملكة نور" على مسامع زوجها الملك حسين، قاطعني قائلا بصوت حزين :

ـ قلت لك انني متعب ! وانني اشعر بالزهق.. والمرض معا !

ثم أضاف وكأنه يقرأ صفحات الغد القريب :

ـ أنا لن اعيش طويلا. ان الداء الذي افترس الملكة "زين" والدتي وأفسد عليها صفو حياتها سيأتي دوري بعدها ويفترسني ! ان الجراحة الاخيرة لن تكون ـ حقا ـ هي الاخيرة.. !

ولمعت بوادر الألم في نظرة الملك حسين عندما شاهد احدى كريماته الصغيرات ـ ولعلها الابنة التي تبناها الملك بعد موت ابيها ـ فنادى عليها لكي تأتي للسلام على "الضيوف"، ولكنها تجاهلت نداء الملك، واستمرت تصعد سلالم القصر الى غرفتها، وقال لي الملك :

ـ هؤلاء الصغار هم أسعد الناس ! لا يدرون ماذا يدور حولهم ! لقد تركوا لنا الآلام والعذاب.. والمرض !

واستمر الملك يدق على وتر الألم والشكوى الى ان اردت ان أنقله الى موضوع آخر فقلت له وانا انظر الى صفوف الرفوف الملونة في مكتبه الأنيق بالقصر:

ـ لقد تسنى لي وأنا بانتظارك ان أقلب النظر في اسماء هذه الكتب التاريخية فاذ بي أجد امامي اكبر وأقدم انواع الكتب المتضمنة تاريخ بلادنا في فلسطين والقدس وعكا وغزة والكرك. !

ثم أكملت:

ـ ان المكان المناسب لهذه الكتب يا سيدنا هو قصرك في عمان مع تخصيص مكتبة عامة في داخل القصر تستقبل كبار المؤرخين والمؤلفين للاطلاع عليها دون السماح لأحد بأخذها او استعارتها..

قال الملك وكأنه لم يكترث لكلامي:

ـ من بعدي يأخذها "الاولاد" ويفعلون بها ما يريدون!

لا! لا! يا سيدنا!

ان ورثة الثورة العربية الكبرى لا يملون ولا ييأسون!

لا! لا! يا أبا عبد الله!

ان حفيد الرسول لا يتعب، ولا يقلق، ولا يستسلم!

والواقع ان الملك حسين قد انتهى قبل ان ينتهي! لقد مات الملك قبل أن يموت!

والواقع ان عمره السياسي والانتاجي والوظائفي قد انتهى قبل ثلاث سنوات ـ على الاقل ـ من وفاته كانسان من البشر!

وتلك الحقيقة كان يعلم بها شقيقه ـ "وقرة عينه" ـ الامير حسن وولده عبد الله وزوجته وبعض المقربين في القصر وعلى رأسهم الامير زيد بن شاكر.. والامراء من أبناء نايف وطلال!

وكان يشعر بأنه قد يموت دون ان تسمح له السلطات الاسرائيلية بزيارة المسجد الاقصى وأداء الصلاة والاطمئنان على عمليات ترميم "القبة" التي دفع ثمنها ثمانية ملايين دولار. !

لقد جاء الملك حسين الى القدس للاشتراك في مأتم "صديقه" اسحق رابين، وعندما انتهت المراسم وعاد الملك الى فندق الملك داوود للاستراحة ومواجهة العالم، طلب مني ان اطلب من بعض المسؤولين الاسرائيليين ـ وعلى مسؤوليته وباسمه ولسانه ـ انه راغب بزيارة المسجد الاقصى، واذا تعذر ذلك، فهو يرغب بالذهاب الى فندق الانتركونتننتال بالقدس ـ اصبح اسمه فيما بعد فندق "الاقواس السبعة" ـ الذي يطل بصورة مباشرة على ساحة الحرم الشريف في منطقة الطور ـ او جبل الزيتون ـ لكي تؤخذ له بعض الصور الفوتوغرافية التي يود الاحتفاظ بها.

ولكن اسرائيل رفضت ان تحقق للملك حسين رغبته المذكورة لسببين اثنين:

اولا ـ الخوف على حياته من أي اعتداء مبيت !

وثانيا ـ عدم ازعاج السلطة الفلسطينية التي قد ترى في كل ذلك "زحفا" تدريجيا من الملك حسين تجاه المقدسات لاستعادة سيطرته الكاملة عليها !

* * *

ولا شك عندي ان قصة تبديل ولي العهد السابق الامير حسن بن طلال، بالامير عبد الله بن الحسين الثاني، الذي اصبح فيما بعد ملكا، تحتل مكان الصدارة في أي كتاب سياسي او تاريخي يروي حياة الاردن المعاصرة، منذ تأسيسه حتى اليوم!.

ولا شك عندي ان الامير حسن، بقي يتمتع بثقة أخيه الملك حسين لمدة لا تقل عن ٣٤ سنة، وكنت دوما ألقاه، او أزوره في منزله لكي نتناول شاي الساعة الخامسة معا، وأتسلم منه الخطابات والرسائل التي أوصاه شقيقه الملك بكتابتها وايصالها الى شمعون بيرس، او رئيس بلدية القدس تيدي كوليك او الى الراحل "اسحق رابين" أو الى واحد من رؤساء دولة اسرائيل!

ولا شك ان الحسن ايضا يتمتع بثقافة سياسية ودراية وتجارب وأدب قل من يجاريه فيها بين حكام العرب داخل الاردن او خارجه. وكنت أشفق عليه من أحد مستشاريه العرب ـ الانجليز ـ السيد "سيسل حوراني" الذي عرفته جيدا عندما عمل فيما مضى مع الزعيم الفلسطيني موسى العلمي ثم مع الرئيس التونسي الحبيب بورقيبه ومع غيرهما من حكام العرب، ولم يقدم لأحد من هؤلاء الا بعض ما كان يقدمه لنفسه.. اعني، كان "الخير" للحوراني وحده والبقية للذين يعمل في خدمتهم!

ولكن "الحوراني" بقي يتمتع بكل مزايا المستشار الاعلامي، او كاتب الخطابات والرسائل، او المبعوث المتنقل بين الاردن وبريطانيا، وهو في معية "ولي العهد" ـ الامير حسن بن طلال في مكتبه الخاص بجوار القصر الملكي في عمان! وكنت أراه يوميا وهو يقيم في "شقة" مريحة بفندق الانتركونتننتال بعمان، ومعه الحرس الخاص والسيارة الخاصة وكل ما كان يضمن له الراحة والهناء! ومع "الانقلاب" الابيض الذي نفذه الملك حسين في الاسبوع الاخير من عمره، لم نعد نرى "الحوراني" في عمان. لقد عاد الى لندن بانتظار منصب استشاري جديد مع أي مسؤول او زعيم عربي آخر.! وعندما توفي موسى العلمي، دون ان يترك من بعده وريثا او وكيلا، هرع الحوراني الى مدينة اريحا في الضفة الغربية وتوجه الى مركز "المشروع الانشائي العربي" حيث كان يقيم موسى العلمي، مع مكتبه الخاص، وأوراقه السرية، وطلب من السيدة سرين الحسيني، ابنة شقيقة

العلمي ان تسلمه الاوراق الرسمية الخاصة بخالها الراحل. ورفضت "سرين الحسيني" ما طلبه منها الحوراني وقالت له ان خالها لم يترك وراءه أية اوراق.

ترى لماذا أراد "الحوراني" الاستيلاء على أوراق موسى العلمي !؟

ولمصلحة أية دولة، أو أية دوائر "أجنبية" كان ينوي ان يسلمها أو يوظفها؟

ان الفرق بين أمثال هذا الحوراني الذين تطوعوا للعمل في كنف كبار المسؤولين العرب منذ ايام لورنس حتى اليوم بحجة الحرص على المصلحة العربية، وبين أمثالهم من الخبراء او المستشارين ورجال المخابرات في دولة اسر ائيل مثلا، ان رجلا اسرائيليا كالمستر "افرايم هاليفي" نائب رئيس الموساد الاسرائيلي بالأمس، ورئيس جهاز الموساد حاليا كان ـ على مدى العشرين سنة الماضية ـ من أخلص الناس للملك حسين بن طلال وللاردن معا. ان الرجل ـ وهو في الستين من عمره ـ قد يخرج الى التقاعد في خلال عام واحد، ولا حاجة لأحد ان يمدحه او ينافقه. ولكنه كسب ثقة الملك الراحل بمصداقيته واستقامته. لقد كان "افرايم هاليفي" ومثله "داني ياتوم" يمثلان القوة الخفية او السحرية التي كان الحسين بن طلال يرى فيهما اليد التي أنقذت العرش الاردني من اكثر من انقلاب عدائي واحد، في السنوات الاخيرة! هذه حقيقة يجب ان تقال!

واذا أراد أحد ان يفتش عن الاسم السحري الذي ذلل الخلافات بين الاردن واسرائيل ففتح الابواب المغلقة امام اتفاقية السلام، فاني أدله على عدة أسماء اسرائيلية كثيرة ولكن يتصدرها ويمتاز عنها اسم "افرايم هاليفي" وزميله "داني ياتوم".

لقد تسنى لي ان اسمع ذلك من الملك حسين شخصيا. وليغفر الله لي ان كانت ذاكرتي قد اخطأت، أو أنكرت، أو أضافت، أو جحدت أو كشفت الأسرار!

ان ما قدمه أمثال هؤلاء من خدمات للملك حسين، لا ينقص عن الخدمات "المالية" التي اعتاد ان يقدمها للجانب الاسرائيلي، وبالأخص للرئيس السابق "بنيامين نتنياهو" اصحاب الملايين من يهود امريكا المتنفذين، من أمثال المستر "رون لاودير" ملك أدوات الزينة، والعطور والكوزماتيك، وابن السيدة "استير لاودير". الشهيرة في امريكا وفي خارجها وفي انحاء العالم. !

ان المستر "لاودير" ـ بالاضافة الى ملياراته في دنيا المال، كذلك هو رئيس الجمعيات اليهودية في الولايات المتحدة وهو الصديق الحميم ـ كما قلت ـ للسيد بنيامين نتنياهو.. بالأمس واليوم وغدا!

وكذلك الملياردير اليهودي "تيد هاريسون"، ملك البنوك والسفن والمصانع في سائر أنحاء العالم. والذي لم ينقل الى العالم الآخر الا في اواخر شهر سبتمبر من عام ١٩٩٩ بعد أن اطمأن على الوضع المالي للسيد بنيامين نتنياهو إثر خروجه من الوزارة الاسرائيلية.

ورغم كل ذلك، فان كل هذه الملايين لم تستطع ان تنقذ بنيامين نتنياهو من السقوط..

حتى الذين سبقوه في الليكود، من أمثال اسحق شامير كانوا يكرهونه ولا يثقون فيه.. ولا يطيقون الالتقاء معه!!

حتى خصومه في الحزبية والمبدأ من أمثال شمعون بيرس كانوا يعيبون عليه حبه المجنون "للسلطة" وخوفه الدائم من ان يفقدها!!

حتى المهاجرون الروس واليهود "السفراديم" كانوا يرونه غريبا عنهم.

حتى اليسار الاسرائيلي لم يعد يطيق ان يسمع باسمه. !

اما العرب، فقد وجدوا في شخصية "بنيامين نتنياهو" مادة خصبة بل ومطلوبة للهجوم والتهجم، مع التفنن في اختيار أفظع وأرذل الفاظ السباب! لقد قرر بعض اصحاب الاقلام الصحفية في مصر التلاعب باسم

نتنياهو امعانا في القذف. ! لقد اكتفوا من ابراز الجزء الاول من الاسم "نتن" للدلالة على رأيهم في الشخص ! وهذا كله لم يعد على "نتنياهو" الا بالفائدة الكبرى سواء لدى أبناء شعبه في اسرائيل، أم لدى الاوساط الصهيونية اليهودية في امريكا ! كان نتنياهو يستمع ويقرأ تراجم ما يكتبه عنه العرب، ويضحك ! وكان ينقل شتائم العرب الى رئاسة حزب الليكود ولا يستهل جلساته مع أقطاب ذلك الحزب، الا بتلاوة بعض السباب "العربي" عليه ! ! ورغم ذلك، فقد كان بنيامين نتنياهو معلما محترفا في توجيه السباب والشتائم للغير ! لقد التقيت به ابان حرب الخليج في حفل عام بقاعة فندق الملك داوود بالقدس، ولعله أراد ان يلفت الانظار الى رغبته في ان يهمس بأذني بعض الكلام، فسمعته يقول لي :

ـ سمعت أنك صديق للرئيس العراقي صدام حسين. . !

قلت : نعم ! هذا صحيح ! ولكن ضمن بعض التحفظ، ومع بعض الشرح والتفسير !

قال : عليك ان تقول له بأنه اذا اعتدى على اسرائيل او أرسل قذائفه فوق رؤوسنا، فاننا ـ عندئذ ـ سندوسه و "نفعصه" كما ندوس على الناموس والذباب. . والبعوض !

وأجبته ضاحكا :

ـ ترى هل تحول صدام حسين عندكم أو في رأيكم الى مجرد ناموسة ! ؟ ؟

أجاب وهو يضغط على أسنانه :

ـ أجل ! بالتأكيد !

قلت : ولكن امريكا ووزير خارجيتها "جيمس بيكر" تستجدي اليوم جميع دول العالم لكي تتحالف معها ضد العراق. هل تحتاج امريكا الى دول العالم لكي تحارب. . . ناموسة ؟

ولم يجب بنيامين نتنياهو. لقد تظاهر بالسلام على أحد اصدقائه

وتركني ومشى..

كان الرجل عنيفا في الفاظه وفي خطواته.

وقال لي بعد ان اصبح رئيسا للوزراء في معرض حديثه عن الصهيونية:

ـ ان الصهيونية أقوى من الفاشية وأصلب من الشيوعية، وأعظم من أي تطرف ديني او سياسي. ألا ترى ماذا جرى لما تسمونه عندكم بالناصرية؟ أين هي هذه الناصرية في هذه الايام؟ ان اليسار يريد ان يضعنا تحت رحمة العرب. لقد نسي اليسار اليهودي معنى "اليهود".

انتهى..

ومثل أبيه، واسمه "بن زيون نتنياهو"، عاش الابن بنيامين صورة للصلف والقسوة. ولكن الابن لم يستطع ان يقلد "أباه" في التأليف حيث اشتهر هذا الأب بتأليف أروع الكتب عن اليهود في اسبانيا في القرن الخامس عشر. ولكن الأب، وابنه، اتفقا على شيء واحد: كراهيتهم للعرب وعدم الايمان بفائدة أي اتفاق سلام معهم!

ولو عاش الملك حسين حتى اليوم لما ذرف دمعة واحدة على سقوط بنيامين نتنياهو! لقد خسر هذا الاخير ـ كما سمعت ذلك مرارا من الملك حسين شخصيا ـ كل صديق او حليف او مؤيد له في تلك البلاد. ومن واجب باراك واليسار وخصوم نتنياهو ابداء الشكر لهذا الرجل الليكودي المتطرف الذي نسف كل علاقة ود بين العرب الفلسطينيين من جهة، والليكود من جهة أخرى.!

ما علينا..

ان الكلام عن بنيامين نتنياهو كالكلام عن قصص او روايات "ألف ليلة وليلة".

وليس هنا مجال للدخول في الخصوصيات او القول ـ مثلا ـ بأن الرجل لم يتزوج "سارة" الا عندما اصبحت حاملا في الشهر السابع ولم يقبل

الزواج منها، الا تحت ضغوط مباشرة من الحاخام "يزرائيل مائير لاو" رئيس الحاخامين في تل ابيب!؟

وحتى شخصيات من أمثال ديفيد ليفي ـ قطب الليكود ـ ووزير خارجية العمال فيما بعد، لم ينس ان يسمي نتنياهو شخصيا باسم "نابليون... الكذاب.. الثعبان.. الخ".

ترى، أليس مما يدعو الى الأسف ان لا يمر على سقوط بنيامين نتنياهو اكثر من مائة يوم ـ فقط ـ حتى يدخل البوليس الاسرائيلي الى مسكنه الخاص في القدس، بعد ان يكسر مفتاح الباب الرئيسي ـ بحثا عن الهدايا والاموال والأسهم والسندات والاوراق المالية التي تسلمها نتنياهو "كرشوة" ابان وجوده في رئاسة وزراء اسرائيل!؟

لقد اعلنت السيدة "مينوحين" ـ المتحدثة الاولى باسم الشرطة الاسرائيلية انها ضبطت عشرات المواد الباهظة الثمن وبينها لوحات زيتية وفضيات وتحفا ذهبية تسلمها نتنياهو ابان الرئاسة واحتفظ بها بصورة مخالفة للقانون..

كما أعلنت الشرطة أنها فتشت منازل كبار أعوان نتنياهو وكبار مستشاريه وهما المدير العام لرئاسة مجلس الوزراء المستر "موشيه لادن" والمسؤول عن الخدمات لدى رئيس الوزراء المستر عزرا سعيدوف الذي أشرف على قسم البناء والاعمار في ديوان الرئيس. وأن نتنياهو قد أعطى وعودا خطية لبعض المتعهدين الكبار بأن يؤمن لهم الحصول على رخصة "بناء أسواق" عامة تعويضا لهم عن أشغال خاصة قاموا بها في منزل نتنياهو دون مقابل، كما ان الشرطة استجوبت المتعهد ـ المقاول "افنير عميدي" الذي قام بتنفيذ الكثير من الاعمال مجانا مقابل امتيازات أنعمت عليه من رئيس الوزراء شخصيا..

ترى أليس مما يدعو الى الدهشة ان تنبري "سارة" زوجة "نتنياهو" لكي

دمشق. وكانت بعض الاوراق الموضوعة داخل الصناديق تحمل اسم السفير السعودي في دمشق.. !.

وكان نوري السعيد، يسمي الجيش السوري، متهكما:

ـ هذا هو عسكر زنوبه!

وكانت الانقلابات العسكرية والمشاحنات الدامية المستمرة هي الطابع المستمر والدامي للحياة السياسية في دمشق وحلب وحماة!

وكان العرب الذين يحبون سوريا يشفقون عليها ان تكون ميدان تنافس في قبض الرشاوي المالية الهائلة من بغداد تارة ومن عمان او الرياض تارة اخرى..

وكان حسني الزعيم يمثل دور "باجي سقا".. او "علي الكسار" المصري!

وكان هاشم الأتاسي، يمثل دور الرئيس التائه وهو يصر على البقاء في المنصب الهام، وقد بلغ فوق الثمانين معتمدا على اولاده وأنسبائه!

وكان "الحناوي" مثالا للحقد. كالشيشكلي مثالا للتآمر والتقلب، كأكرم الحوراني مثالا للدس والنميمة والتخطيط للشر!

وكان جميل مردم، مثالا للعبقرية السياسية، وللجشع المالي. واسألوا عنه الشاعر السوري عمر ابو ريشة! وكان خالد العظم زوجا للسيدة "ليلى"... وردة الصالونات الدمشقية "الشهيرة"!

وكم تمنيت على كل من عرفت من رجالات سوريا أن يلتقوا بالسوري المثقف العالم الدكتور انور حاتم ـ سفير سوريا الأسبق في المكسيك وفي الفاتيكان، ويستمعون اليه وهو يروي لهم أسرار سوريا المخيفة التي عاشها وعرفها ابان عمله كمدير عام للرئاسة السورية في دمشق طيلة ربع قرن او يزيد!

لقد أسعدني القدر واستمعت الى هذا السياسي العبقري العالم على ايام

تشتم السيدة "سونيا" زوجة شمعون بيرس ـ رئيس الوزراء السابق ـ وتصفها "بالخادمة" التي لا تجيد أكثر من غسل الصحون او لعب الورق.؟

الزوجة، كالرجل ـ زوجها نتنياهو ـ مجبولة بالغرور، والفجور! والزوج ذهب لمقابلة "كلينتون" لاول مرة، وخرج كلينتون من المقابلة قائلا للناس: "لقد أشعرني المستر "نتنياهو" وكأنه هو رئيس امريكا الكبرى، وأنني ـ انا كلينتون ـ رئيس دولة صغيرة مثل اسرائيل ـ تقبض منا ثلاثة مليارات دولار في كل عام، وتعيش على مساندتنا لها وحمايتنا لأمنها"!!

ترى هل كان من الصعب ان نتساءل ونحن نطلع على كل هذه "الكلمات" الموجعة والصحيحة عن رئيس وزراء اسرائيل، لماذا تعثرت مسيرة السلام بين دمشق وتل ابيب، ولماذا ركب بنيامين نتنياهو رأسه وقرر ان ينسف كل الخطوات التي تم قطعها في عملية التفاوض مع سوريا واضعا كل المسؤولية على أكتاف حافظ الاسد وحده؟.

أنا عرفت سوريا من الداخل. وعرفت رئيسها حافظ الأسد!

عرفت سوريا في نادي الشرق حيث كان يسهر صبري العسلي ويلعب الورق ويدخن النارجيلة ويتحدث في السياسة ويبحث عن الجمال!

عرفتها في ندوات الزعيم فخري البارودي وسهراته وزواره وأسراره.. وبوهيميته!

عرفتها في قصر الرئاسة مع "هاشم الأتاسي"، وفي رئاسة الاركان مع "شوكت شقير" وفي مقر الحزب الشيوعي مع خالد بكداش.

ولم تكن ايام دمشق كلها عملا وسلاما، وانتاجا..!

ولم تسع القاهرة للوحدة مع سوريا بقدر ما سعت سوريا للوحدة مع عبد الناصر، انقاذا لمصلحة كل سوريا قبل أي شيء آخر!

وقد تسنى لي ان احضر معظم انتخابات الرئاسة والنيابة والحكم في

الوحدة مع مصر، ثم في مقر اقامته في جامعة "فريبورغ" السويسرية حيث يعمل حاليا استاذا للأدب الفرنسي القديم! في الجامعة المذكورة..

* * *

أجل، لقد جاء "الاستقلال" الى سوريا لكي تجيء في ركابه ويلات الشرور والفوضى والانقلابات.. والفساد!

وقد زرت أديب الشيشكلي في مكتبه. ثم زرت القطب السوري السيد فارس الخوري في منزله وبحضور زوجته والشاعر "ابو سلمى". وسمعت من فارس الخوري ـ الذي كان على وشك ان يفقد بصره في ذلك العمر المتقدم ـ عن شخصية أديب الشيشكلي وعن تصرفاته أشياء لا تشرف أصحابها ولا تليق بأي مسؤول عربي سوري! وكان يحضر الجلسة معنا صديقي الصحفي "هيكل" الذي كان زميلا لي في دار "أخبار اليوم"، وبادر على الفور وكتب ريبورتاجا صحفيا عن الموضوع وطار به الى القاهرة كسبق صحفي!

ثم وقع الانقلاب وهرب الشيشكلي الى بيروت ومنها الى امريكا الجنوبية حيث لقي مصرعه ـ بعد سنوات ـ بأيدي الدروز الذين إطهدهم وقتلهم ابان حكمه في دمشق!

ولم يكن "سامي الحناوي" أحسن حالا من أديب الشيشكلي. ولم تكن ايام الكتلة الوطنية أو هاشم الأتاسي او صبري العسلي او جميل مردم او غيرهم من أقطاب الكتلة او حزب "الشعب" السوري او البعث الحوراني أوفر حظا أو اكثر وطنية للبلد ولأهلها! لقد قرأت على الحائط الخلفي بمكتب أديب الشيشكلي في الرئاسة بيتا من الشعر يحذر المرء من شرور أقاربه ويقول:

أقــارب كالعقــارب في أذاهــم

فلا تأمــن الى عـــم وخـــال

فكم عـم أتــاك الغـم منــــه

وكـم خال من الخيرات خال !

ومن لا خير فيه لأهله، لن يكون فيه خير لشعبه او لبلده، او لحزبه!

وهكذا تدهورت الاحوال السورية من سيء الى اسوأ، وتدهور الاقتصاد السوري حتى حان موعد قيام الوحدة مع مصر في فبراير من عام ١٩٥٨ ! والوحدة التي بدأت بفضيحة ومؤامرة ـ وبطلها "عبد الحميد سراج" ـ لا بد وأن تنتهي بفضيحة ومؤامرة أشد هولا أبطالها الحوراني والبيطار وصلاح جديد والكزبري وغيرهم من محترفي السياسة السورية!

وليس هنا مكان "الذكريات" عن هذه الوحدة التي عشتها منذ اللحظات الاولى في حياتها حتى الجنازة!

لقد انتقلت من بيروت الى دمشق كي اكون على مقربة من احداث الوحدة في ايامها الاولى. وكان هناك عبد اللطيف بغدادي نائب عبد الناصر الذي طلب مني ان احضر له من بيروت كميات من دواء معين يهدىء الاعصاب اسمه: ميل تاون **Mil Town**، كما كان هناك عبد الحكيم عامر الذي سألني عن أخبار اللهو والسهر في ليالي بيروت! وابتدأت الاحداث تتوالى عندما أعلن عبد الناصر عن وجود مؤامرة أعدها الملك سعود للخلاص منه ومن عبد الحميد السراج ومن الوحدة بأسرها! وفي المساء سلمني عبد الناصر لائحة بأسماء مجموعة من الصحفيين اللبنانيين مع نسخ مطبوعة من وثائق مؤامرة الملك سعود ـ الشيك والصور والاوراق السرية ـ وطلب مني السفر فورا الى بيروت لكي يتم نشر الوثائق في الصحف اللبنانية مع مبالغ معينة من المال لكل اسم من أسماء الصحفيين الذين سيقومون بالمهمة! رياض طه.. وعفيف الطيبي.. وبديع سربيه..

والعلايلي.. والكعكي.. وغيرهم. وركبت سيارتي وعدت الى بيروت وأكملت المهمة قبل ان ينتصف الليل. !

وعاشت هذه الوحدة بالعواطف والخطب الحماسية وسهرات المشير لكي يحاربها شعب لا يؤمن بنظام الحزب الواحد، وامام ضغوط وتهديدات دولية وتدهور اقتصادي سوري، وتسلط تجاري ومالي برجوازي مصري! ورأيت صديقي الراحل المليونير اللبناني اميل البستاني أمام فندق "بلازا أتينه" في باريس وسمعته يقول لي: "قل لصديقنا عبد الناصر عند عودتك الى القاهرة، ان الوحدة القائمة بين مصر وسوريا قد اقتربت من النهاية. !"

وبالفعل، وفي يوم ٢٨ سبتمبر ١٩٦١ قامت البرجوازية الاقطاعية السورية بانقلابها ضد الوحدة مع مصر..

وهرب المشير عائدا الى القاهرة.

ولن أنسى منظر السيدة أم كلثوم ـ معبودة العرب ـ عندما جاءت صبيحة يوم الانفصال الى منزل جمال عبد الناصر في منشية البكري بالقاهرة وكنا هناك مع مجموعة من رؤساء تحرير الصحف، وقالت أم كلثوم لعبد الناصر وجها لوجه وكنت حاضرا:

ـ أنا جيت أهنيك يا ريس!

وعندما سألها عبد الناصر بكل أسى ودهشة:

ـ تهنيني على ايه؟

أجابت أم كلثوم ونظراتها الحادة تكاد تخرج من عينيها الجاحظتين:

ـ أهنيك إنك خلصت من اولاد الكلب دول. !

وعاد عبد الناصر وسألها وقد ازدادت دهشته:

ـ مين دول يا أم كلثوم؟ مين ولاد الكلب.. دول؟

وأجابت أم كلثوم بكل صلف:

ـ هم السوريين.. الشوام.. بتوع السمسرة، والتجارة واللعب على الحبال.!

وقاطعها ـ رحمه الله ـ قائلا وكأنه يهدئها:

ـ معلهش يا أم كلثوم. معلهش! ومفيش داعي للكلام ده! سوريا مازالت بلادنا!

ولا شك ان أم كلثوم عبقرية فنية وغنائية قل ان يجود بمثلها الزمن. ولكن الكلام عن أهل "اللعب على الحبال" ـ يعني الشوام ـ لا يليق بسيدة تاريخية اسمها أم كلثوم ولا يسمح لها بذلك. واذا كان اللعب على الحبال يعني النفاق، فان السيدة أم كلثوم هي سيدة الغناء وسيدة النفاق معا!

وقد رأيتها بنفسي ـ في حفلة افتتاح فيلمها ـ "فاطمة" ـ وهي جالسة في "البنوار" الخاص في سينما استوديو مصر بالقاهرة وقد مدت ذراعها وراء الملك فاروق وكادت تحتضنه..

وسمعتها في "ليلة عيد" ـ اقيمت بالنادي الأهلي في "الجزيرة" بالقاهرة وهي تشدو بأغنيتها المشهورة "حبيبي يسعد أوقاته" وفيها كلمات "الليلة عيد" وراحت تستبدل كلام الاغنية بكلام التغزل بالملك فاروق وتقول له حرفيا:

"الليلة عيد.. عز وتمجيد.. لك "يا مليكي" !

وراحت تعيد الكلام مرة تلو المرة تلو المرة..

ونهض صديقنا الراحل مصطفى أمين لكي يبشر الجمهور المصري بأن الملك فاروق قد أنعم على السيدة أم كلثوم بنيشان "الكمال" وأصبحت تتمتع بلقب: "صاحبة العصمة السيدة ام كلثوم!"

وليس سرا أنها اصبحت أقرب الناس الى الرئيس عبد الناصر والى سائر افراد عائلته.. وفي مقدمتهم السيدة "تحية" زوجة الرئيس.

وليس سرا ان حفلات أعياد الثورة في نادي الضباط بمصر لم تكتمل ـ ولو مرة واحدة ـ الا بوجود السيدة ام كلثوم ومعها المطرب الذي اخترعته

الثورة المصرية: عبد الحليم حافظ، حتى ولو دامت السهرة الى طلوع الفجر. !

وعندما رحل عبد الناصر الى الرفيق الأعلى، وجاء أنور السادات الى الحكم حاولت ام كلثوم ان "ترفع التكليف" وتنضم الى عائلة انور السادات كما انضمت قبل ذلك الى عائلة عبد الناصر، لولا أن "جيهان" تلك "النمرة" الذكية كانت لها بالمرصاد وأسدلت الستار بينها وبين زوجها!

لقد كان بعض الأمراء السعوديين الاثرياء هم السوق المطلوب والمختار لكي تسافر اليهم ام كلثوم ـ بصورة خاصة وسرية ـ بعد كل حفلة شهرية من حفلاتها، وتهديهم "التسجيلات الخاصة" من اغنيات "انت عمري، وانت الحب، والحب كله.. وفكروني.." وتعود مثقلة بحمل الهدايا والجواهر.. والنقود!

وعندما اختار صديقنا الامير طلال بن عبد العزيز السيدة ام كلثوم لكي تحيي حفل زواجه في بيروت وبادرت ام كلثوم لكي تنقل الخبر السار الى صديقها الصحفي مصطفى امين الذي بادر فورا ونشر الخبر على الصفحة الاولى من "اخبار اليوم"، وجاءت الاوامر من الملك سعود بضرورة اتمام الحفل بدون غناء. اي، الغاء دور ام كلثوم في الحفل! وبمعنى آخر، ضياع مبلغ الستة آلاف جنيه استرليني التي كان متفقا دفعها لام كلثوم مقابل الغناء.

واتهمتني ام كلثوم ـ أنا بالذات ـ بأني المسؤول عن تسريب خبر الزواج الى صحيفة "اخبار اليوم" وما ترتب على ذلك من خسائر مادية لها..

ورغم اني لم اكن اعرف بالخبر الا عندما قرأته منشورا في صحيفة "اخبار اليوم" التي كنت أعمل فيها. واني كنت مسافرا يومذاك في رحلة صحفية الى الاردن لتغطية اخبار الانتخابات البرلمانية هناك، الا ان ام كلثوم

أصرت على الاتهام لكي تبرىء نفسها امام الامير طلال وتستوفي الأجر كاملا!

وعاشت الأخلاق..

وفي احدى حفلاتها الشهرية التي كان صديقي هيكل يدعوني معه لحضورها، دخلت مع هيكل في احد فصول الاستراحة المعتادة لكي نصافح السيدة ام كلثوم، ونهنئها. واذ بي أسمع ام كلثوم تسأل هيكل بكل شغف وكل دلال:

- قل لي يا هيكل. قل لي حبيبي، عايزني اغني لك ايه الليلة دي؟

ولم تقصد ام كلثوم شخص هيكل بقدر ما كانت تقصد في شخص هيكل، شخص جمال عبد الناصر؟!

بس..

ومن الملك فاروق .. الى عبد الناصر.. الى انور السادات.. الى العائلات المالكة والامراء الاثرياء.. عاشت ام كلثوم تغني:

أعطني حريتي أطلق يديا

انني اعطيت ما استبقيت شيا!

وتغني كذلك: للوفاء.. للاخلاق الحميدة.. للكرم الحاتمي.. للترفع.. للتصوَف.. للحرمان.. للهوى.. للعشاق..!!

وليست المصيبة في كلام عاطفي مخدر كانت تغنيه لنا وللعرب كلهم، ام كلثوم، بل المصيبة كلها في ان الأمة العربية، من خليجها الثائر الى محيطها الهادر كانت تصدق كلام ام كلثوم وتصفق له وتترنم به كالحشاشين وتنام عليه كالمخدرين!

لقد مات فريد الاطرش، وفي نفسه أمنية وحسرة!

كان يقول لي دوما انه أعد الحانا "جديدة" لام كلثوم بعد ان وضع فيها

عصارة روحه. ولكن ام كلثوم كانت ترفض تلك الالحان.. لا لسبب.. سوى ان صاحبها هو الفنان الدرزي الشامي السوري.. فريد الاطرش!

ومرة اخرى: عاشت العروبة!

أعود للحديث عن سوريا ومجيء رئيسها حافظ الاسد الى سدة الحكم، وأقول بأن اهل القدس ـ وأنا منهم ـ لم نستقبل البعث السوري أو حزب البعث او مبادىء "البعثيين" في أواخر الاربعينات والخمسينات، الا من خلال اشخاص كعبد الله الريماوي، وعبد الله نعواس، والشاعر كمال ناصر وعبد المحسن وابو ميزر! وكان شعارهم واحدا: "من السجن الى البرلمان"!

وأطلق جلوب باشا سراحهم واحتلوا مقاعد البرلمان الاردني ايام وجود المملكة الاردنية الهاشمية في الخمسينات.

ولكننا لم نسترح اليهم ولا الى مبادئهم..

وكنا نشعر بأنهم مزيج من الانتهازية والغوغائية والانانية والتآمر.. وحب الظهور!

وكان صديقي الدكتور "البزاز" في الاردن يملك الكثير من خفة الدم، والتنكيت، ولكنه كان دوما جادا في انتقاداته المرّة للآخرين.. سواء في عمان، أم في دمشق!

وقد يكون حزب البعث العربي الاشتراكي ـ عند مولده ـ من أطهر وأنقى الأحزاب السياسية العربية في الوطن العربي. ولكن الأسماء التي التصقت به او التصق بها، مع الأسماء التي استغلت انتسابها اليه واستغل الحزب أسماء رجاله، كل هذا لم يكن مرضيا ولا متجاوبا مع الأماني القومية الصحيحة.

ولعل الانقسامات المدوية التي وقعت داخل صفوف هذا الحزب، قد نقلت العدوى والميكروب الى الكثير من الاحزاب العربية السياسية خارج

الارض السورية والعراقية وداخلها. !

وخلال عهد دراستي في جامعة بيروت الامريكية، كانت اخبار "ميشيل عفلق" مؤسس حزب البعث ـ مع صلاح البيطار ـ عام ١٩٣٩، تتسرب الى اوساط الطلبة في رأس بيروت فتشدنا اليه.. وتثير اهتماما به!

وخلال الشهور المباشرة التي سبقت عام "النكبة" في فلسطين ـ أي في عام ١٩٤٧، اعلن ميشيل عفلق انه يتولى رسميا زعامة "البعث"! وتساءلنا: هل هناك اتفاق في المواعيد؟

ولم يستطع عفلق ان يتولى أي منصب وزاري في بلده الا بعد الانقلاب الذي قام به سامي الحناوي حيث تولى وزارة "التربية" ولفترة لا تزيد عن اسابيع قليلة، مع حكومة هاشم الأتاسي!

وفجأة، انضم عفلق مع حزبه البعثي عام ١٩٥٣ الى اكرم الحوراني في حزب واحد جديد اصبح اسمه "الحزب العربي الاشتراكي"! وكان طبيعيا ان يبتلع الحوراني تدريجيا هذا الضيف الجديد!

ثم توالت الاحداث التي لم تكن تبشر خيرا كثيرا!!

لقد أبعدوا عفلق عن الحزب في عام ١٩٦٥!.

لقد فشل انقلاب عفلق في فبراير ١٩٦٦.!

لقد هاجر عفلق الى البرازيل عام ١٩٦٧ لكي يعود بعدها الى العراق بعد عام واحد.!

لقد ترك عفلق العراق عام ١٩٧٠ بعد خلاف مع السلطة ولم يعد الى العراق الا في عام ١٩٧٤!

ثم تولى حافظ الاسد السلطة في سوريا، وصدر الحكم باعدام ميشيل عفلق.!

وعاش عفلق منفيا في بغداد وفي باريس! وقد اشترت له حكومة العراق قصرا ثمنه ملايين الفرنكات في باريس لاقامته ـ حتى وفاته عام ١٩٨٩...

وفي كل خطوة من خطواته، عاش عفلق يثير الشبهات ويخلق الخلافات ويؤجج الفتن.. الامر الذي لم يعد على سوريا بأي خير.. ولم يمنح العمل السياسي السوري أية عافية!

وفي ايام الوحدة بين مصر وسوريا، كان ميشيل عفلق الزبون الدائم الذي نراه في كافيتريات "سميراميس" وهلتون طيلة ساعات المساء، وبرفقته الصحفي المصري المعجب به: احمد بهاء الدين وبعض المحررين في روز اليوسف و "صباح الخير"!

ولم يكن عبد الناصر يحب عفلق او يعجب به.! وكان "البعث" السوري برئاسة عفلق من أشد المعارضين للناصرية في سوريا وفي العراق معا! وبعد عام ١٩٦٣ اصبحت الناصرية شيئا مخالفا للقانون، ونظاما غير شرعي في دمشق!!

وخلال زياراتي المتكررة للعراق طيلة سنوات الحرب مع ايران، وخلال اجتماعاتي المتكررة مع صدام حسين ونائبه طارق عزيز، كنت اشعر ـ وبكل وضوح ـ ان اصابع ميشيل عفلق هي التي تنفخ في نار الخلافات المشتعلة بين حكام سوريا وحكام العراق، وبالتحديد بين صدام حسين في بغداد، وحافظ الاسد في دمشق، وهي التي منعت، وما زالت تمنع، أي تقارب او اتحاد بين البلدين.

كان العرب يتمنون مثل هذا التقارب وينتظرون مجيئه.

وقال لي ميشيل عفلق في احدى لقاءاتي معه في بغداد عام ١٩٨٠ وفي معرض هجومه على حافظ الاسد الذي ـ في نظره ـ قد استغل البعث لمصلحته:

ـ "لقد انضم "الاسد" الى التنظيمات البعثية واشترك في انقلاب مارس ١٩٦٣، واصبح قائدا أعلى للقوات الجوية وعضوا في قيادة "البعث" العامة، كما كان من أنصار الجناح العسكري أثناء الصراع الداخلي في

البعث بين العسكريين والسياسيين، الى ان سيطر على مقاليد الحكم في فبراير ١٩٦٩ في انقلاب ابيض، وأفسح المجال أمام حزب البعث، وبمساندته المباشرة والمتبادلة، لكي يسيطر على كل الفعاليات السياسية في سوريا. !".

ثم اضاف يقول لي وكأنه يقرأ في منشور حزبي:

ـ وباسم البعث جرى التقارب بين دمشق ومصر وليبيا...

وباسم البعث اشترك الأسد في حرب اكتوبر...

وباسم البعث تدخل الأسد في لبنان عام ١٩٧٦ وما زال!

ترى، هل استفاد البعثيون من الأسد، أم الأسد هو الذي استغل البعث واستفاد منه؟

وسألته:

ـ ولماذا لا تعمل أنت لتوحيد الصفوف بين بعثكم في بغداد، وبعثكم في دمشق!؟ وماذا استفاد "بعثكم" هنا في بغداد ـ مثلا ـ من أمثال امين الحافظ الذي سمعناه يقول لأقطاب العرب في اول مؤتمر لهم في القاهرة للبحث في قضية تحويل مياه الاردن: "أنا قادر على ازالة اسرائيل في غضون ثلاثة ايام. !"

وأضفت:

ـ" لقد جاء امين الحافظ من وظيفة ملحق عسكري في الارجنتين لكي يصبح رئيسا لمجلس قيادة الثورة والرجل الاول في سوريا عن طريق التقرب اليك ـ أنت يا مؤسس البعث ـ والى زميلك صلاح البيطار!

ولولا صلاح جديد ـ في عام ١٩٦٦ لبقي امين الحافظ رئيسا لسوريا حتى اليوم. ! بالرغم من حكم الاعدام ضده في عام ١٩٧١ بقي هذا الحافظ مستمرا في عدائه وفي دسائسه ضد دمشق!"

ولم يحب ميشيل عفلق.. السياسي المسيحي الارثوذكسي الذي تربى في احضان الشيوعيين في باريس في الثلاثينات لكي يصبح "رسول" القومية العربية في الاربعينات والخمسينات. غير اني تعمدت ان أنقل تفاصيل كل ما جرى الى صديقي ـ أبو مازن ـ طارق عزيز لئلا ينالني ميشيل عفلق بلسانه السليط لدى الرئيس صدام حسين الذي لا أحمل له الا المحبة والتقدير!

المهم أننا اكتوينا بنار البعث ودخان عفلق حتى يومنا هذا.

وبقينا نتساءل كفلسطينيين ومشردين وأبناء نكبة: لقد ولت الناصرية، وسقطت الشيوعية، ألم يحن الوقت لنرى نهاية هذا الصراع البعثي؟!

ان ثوب "البعثية" ـ وقد دخل هذا الشرق في نفق السلام، وانطلقت نداءات شمعون بيرس لخلق "شرق اوسط جديد"، لم يعد مقبولاً في كاتالوج "الموضة" السياسية الجديدة.!

لقد اندمج المصير السوري مع المصير اللبناني بالنسبة للسلام القادم مع اسرائيل.! والمبادىء البعثية التي كانت تجاري الموقف في الاربعينات وما بعدها لم تعد صالحة في هذه الايام، ولا في الغد القريب!

ان مشكلة الارض السورية المحتلة في الجولان وفي جنوب لبنان هي المحك الأول والأكثر صعوبة...

ولا تنوي اسرائيل ان تعيد الجولان الا بعد ان تطمئن على أمنها الجغرافي، والسياسي، والمائي!

ان خيرات الجولان مخفية فوق الارض ـ من عنب وخضراوات وفاكهة وخيرات وزراعة ـ مع تحت الارض بما يختزن هناك من مياه تبقى ضرورية قصوى لاسرائيل كي تصل بها الى صحراء النقب والتي لولاها لبقي النقب مجرد صحراء بلا حياة!

وقد ترضى اسرائيل ان تتنازل عن حقوق العنب الممتاز الموجودة فوق

ارض الجولان والتي تضمن لمصانع النبيذ الاسرائيلي أجود أنواع النبيذ في العالم من ماركة "ياردين" وغيرها! ولكن لا أمل ان اسرائيل ترضى ان تتنازل عن منابع الأنهر الكثيرة الموجودة تحت ارض الجولان والتي تصب في البحيرة، وفي نهر الاردن، وفي الانابيب الخاصة، التي تؤمن للاسرائيلي أهم أسباب الحياة! روافد بانياس والليطاني وغيرها.

لقد اعتدت ان ازور الجولان وأن أقضي في ربوعه وبين قراه ومدنه اياما كثيرة. وفي كل مرة كنت اقول لنفسي:

ـ أنت أيها الصحفي.. لقد سبق لك وزرت الجولان وزرت الخطوط الامامية المحصنة عشرات المرات. لقد زرتها مع جمال عبد الناصر، وعبد الحكيم عامر، ومجموعة من كبار الضباط في ايام الوحدة. هل نسيت؟ هل تذكر يوم سحبك عبد الناصر من يدك وأنت تقف بجواره فوق تلة صغيرة تشرف مباشرة على بحيرة طبريا وعلى سهول حطين وقال لك عبد الناصر: "تعال يا نشاشيبي وانظر معي الى سهول وطنك!". هل نسيت؟! انك اليوم تزور الجولان مجددا لأكثر من مرة! هل تذكر التحصينات الهائلة التي كانت تملأ سفوح ارض الجولان وخنادقه وتمنع أي معتد من الوصول اليه؟ ترى كيف سقط الجولان يا ناصر؟ كيف تلاشت هذه التحصينات العسكرية المخيفة في أقل من اسبوع واحد!

ولم أكن قادرا على الجواب..

لأني لم أكن قادرا على الكلام!

وبعد..

كنت دائما ادعو الله وأصلي للخالق ان تتقارب العلاقات بين سوريا والعراق لكي تصبح وحدها الجواب العملي والفعال والرد القومي المطلوب على اتفاقية الخيانة التي أجراها انور السادات مع اسرائيل وسحب بها الوجود المصري القوي الهائل من معركة المصير بين العرب

واليهود.

وتسنى لي ان ازور بغداد بعد ظهور كامب دافيد الى سطح الانحراف والدجل السياسي! وقابلت صدام حسين وأعجبت بقوة اعصابه، وصلابته، وايمانه بالعراق وبالعرب، وكراهيته لامريكا وحلفائها.

ومعه، قابلت طارق عزيز، الرجل الذي تحمل من أهوال السياسة وأثقالها وأخطارها ما لا يقدر عليه بشر..

وتنقلت بين البصرة وبغداد والموصل وتذكرت قول صدام حسين لي في احدى الامسيات بمكتبه:

ـ ان العراق يشبه سفينة كبيرة محملة بالخيرات والكنوز. وقد يطول وجود هذه السفينة في بحور الضياع والغربة والصعاب! وقد تشتد من حولها الاعاصير والزوابع! ولكنها ـ أي السفينة ـ ستبقى تتابع مسيرتها بهدوء وسلام. ولن تغرق، ولن تتكسر، ولن تفقد قدرتها على الصمود. وقد نخسر كثيرا، ونضحي بالكثير، ولكننا لن نركع، ولن نستسلم، ولن نوافق على توطين اللاجئين الفلسطينيين في بلادنا لكي يعودوا ـ هم ـ الى فلسطين.!

وبعد انتهاء هذا اللقاء الرئاسي مع صدام، دعاني طارق عزيز لتناول العشاء معه في منزله. وكانت الساعة قد اقتربت من الرابعة صباحا. وبدلا من الأكل راح الصديق ابو زياد يروي لي تفاصيل الخلاف البعثي بين بغداد ودمشق، او بين صدام والاسد، او بين جناحين عربيين قويين تفتقرهما الأمة العربية وتحتاج الى كل جندي في كل لواء من كل جيش من جيوشهما!

ومع طلوع الفجر، انتهى حديث العشاء او عشاء الحديث مع الرجل الجنتلمان في حياة بغداد.

وتمتم لساني ـ وللمرة الألف ـ باستمطار اللعنة على الرجل الذي كان السبب.

لقد سبق لي وعرفت اسمه ولقبه قبل ان يروي لي طارق عزيز أسرار الموقف..

انه.. الفيلسوف ميشيل عفلق!

أعود الى قصة "ابريق الزيت" أعني مسيرة السلام مع اسرائيل.

لعل اسوأ ما كانت تواجهه عملية السلام بين دمشق وتل ابيب، هو نوعية الوسطاء المتبرعين والمحترفين في هذه العملية!

مثلا؟ أنا اعرف تماما من هو صديقي وزميلي الصحفي البريطاني "باتريك سيل".. المؤلف والمختص بالامور السورية.

وباتريك سيل، روى في مؤلفاته ومقالاته الكثيرة عن حافظ الاسد وعن سوريا، أن سوريا ـ وحدها ـ هي المسؤولة عن حرب "الايام الستة" في عام ١٩٦٧، وبالتالي فهي ـ أي سوريا ـ تستحق ان تخسر الجولان!

وباتريك سيل متزوج من سيدة سورية الاصل كانت مطلقة الشاعر الفلسطيني محمود درويش!

وعندما زار دمشق وتل ابيب في عام ١٩٩٩، كان ينقل للاطراف عكس ما كان يسمعه منهم.. وفي زيارته الاخيرة للشام، لزم باتريك سيل غرفته في الفندق ولم يبارحها لكي يقابل احدا، او يناقش مسؤولا او يتعرف الى وجهة النظر الرسمية السورية من أحد..

وقال لي اكثر من مسؤول سوري: ان باتريك سيل لا يستحق ان يكون وسيطا في السلام.. ومثله اكثر من نائب عربي اسرائيلي ـ ودعونا من ذكر الأسماء ـ من اعضاء الكنيست الاسرائيلي.

ومثله وزير نرويجي، ومبعوث اسباني، ورئيس ايطالي وخبير روسي ومتطوع مصري، وكلهم أثبتوا انهم "اقل" و "أصغر" و "أتفه" من القيام بعملية وساطة ناجحة وحيادية بين سوريا واعدائها، حول اخطر واكبر قضية سياسية تواجه الشرق الاوسط!

لقد ادرك السوريون هذه الحقيقة مؤخراً، كما ادركتها اسرائيل..

وتجدد الأمل في الوصول الى حل سريع يرضي جميع الاطراف ويرضي الحق والعدل والشمول!

لقد عاد "مارتن انديك" سفيرا لامريكا في اسرائيل.

ومنذ ست سنوات، كان انديك مجرد موظف من موظفي الخارجية الامريكية.

وذات يوم، دعا "مارتن انديك" مجموعة من السفراء والدبلوماسيين العرب لمقابلته.

وجاء السفراء..

وقال لهم المستر انديك بدون مقدمات:

ـ سمعت على لسانكم أنكم تشكون لانكم تشككون في موقف امريكا من النزاع العربي الاسرائيلي! أنتم تتهمون امريكا بالانحياز للجانب اليهودي. انا اريد أن اقول لكم بأن ما سمعتموه عن هذا الموضوع هو صحيح مائة بالمائة، نحن مع اسرائيل، وان تخوفكم وهواجسكم في هذا الشأن لها ما يبررها.. لانها صحيحة مائة في المائة!

وانتهى الاجتماع..

واليوم.. يعود المستر "انديك" الى تل ابيب سفيرا لامريكا ـ كما كان ـ منذ عامين اثنين قبيل مغادرته تل ابيب الى واشنطن.

لماذا؟ لماذا؟

هل اقفرت واشنطن من السفراء الامريكيين الأكفاء للمجيء الى تل ابيب وتمثيل مصالح امريكا فيها؟

لا أظن..

قالوا لي: ان "مارتين انديك" سياسي محترف! وجريء! ويهودي! ومثابر. وحيوان سياسي! وطموح بلا حدود. وكل هذه الصفات جعلته المرشح الدبلوماسي المطلوب لدى السيدة الدبلوماسية الامريكية المميزة: مادلين اولبرايت.

لقد أنستنا الاحداث المتلاحقة ان نسأل الناس عن أصل هذه السيدة وعن شروشها وعن ميولها وعن اهدافها.! قالوا لي ان "ايهود باراك" رئيس الوزراء الاسرائيلي بعد نتنياهو هو الذي أعرب لواشنطن عن رغبته في ان يعود "مارتين انديك" سفيرا لامريكا في اسرائيل. قالوا لي ان معنى مارتين بالعبرية هو مردخاي بالعبرية! وقالوا لي ـ سرا ـ ان عملية البناء قد بدأت او ما زالت مستمرة لانشاء الدار الفخمة والضخمة التي ستصبح مقرا للسفارة الامريكية في القدس بعد ان توافق امريكا على نقل مقر سفارتها من تل ابيب الى المدينة المقدسة.. ولا يستعمل كلينتون حق الفيتو ضد هذا القرار!

وقد سألت ـ ذات يوم ـ الوزير والسفير والسياسي العراقي الراحل "نجيب الراوي"، وكان قد قضى السنوات الثلاثين الاخيرة من سنوات عمره، لاجئا في مدينة "جنيف" السويسرية لماذا لا يعود الى مقر وطنه في العراق؟ وأجابني نجيب الراوي بكل أسى:

ـ انا الآن في الثمانين من عمري. واذا عدت الى بغداد لن اجد احدا أعرفه، ولن اجد احدا يعرفني! لقد رحل الاصدقاء والرؤساء والسياسيين وجاءت مجموعات جديدة من الضباط والسياسيين الشبان الذين لهم مفهومهم الخاص في العمل السياسي.. والاجتماعي!

وانتهى كلام نجيب الراوي..

وعندما عدت من "غربتي" في سويسرا واستقريت في مقر وطني ـ في القدس ـ تذكرت كلام نجيب الراوي عما ستكون حاله لو انه عاد الى

بغداد.. لكي يستقر فيها!

رأيت القدس في غير حالها! وان كل ما فيها قد تغير! لم يبق فيها الا بعض قدسيتها او بعض قداستها او بعض مقدساتها! صحافتها تغيرت. اسواقها تغيرت. شوارعها وميادينها.. اسوارها.. دورها.. كلها تغيرت. حتى زعماؤها وقادتها الجدد الذين جاء بهم "جيمس بيكر" وزير خارجية امريكا الأسبق من بوابة القنصلية الامريكية في القدس الشرقية وجعل منهم زعماء ومفاوضين، قد رأيتهم ولم أعرفهم.! وقرأت عنهم ولم أقابلهم.!

من قال ان القدس قبل عام ١٩٦٧ هي القدس في اواخر عام ١٩٩٩؟

ان لي في القدس ذكريات لن يقوى عليها الزمن. بعضها في ايام الانتداب حتى عام ١٩٤٨..

وبعضها في عهد الحكم الاردني حتى عام ١٩٦٧..

وبعضها بعد الاحتلال الاسرائيلي حتى كتابة هذه السطور...

كانت رجالات مصر، وقنصلية مصر في حي القطمون بالقدس، هم المقر والاصدقاء والأمل المرجو.!

وكانت الزيارات التي كان يقوم بها باشاوات مصر وأدباؤها ومقرئي القرآن من افراد شعبها، وكبار الفنانين والعازفين منها، هم الاصدقاء الذين اعتادوا على مجلسي وعودوني على مجالسهم.. من المازني.. الى العقاد.. الى سامي الشوا.. الى البسيوني.. الى احمد أمين.. الى جلال اباظة.. الى محمود فوزي.. الى محمود عزمي.. الى محمد عبد الوهاب.. الى فريد الاطرش الى العشرات من وجوه مصر، وزينة أهلها.

وكان محمود فوزي ـ الرئيس المصري فيما بعد ـ من خيرة اصدقائي.

لقد كان هذا الدبلوماسي الشهير، وأعني بالذات، الدكتور محمود فوزي، مخلصا لرجالات الحكم المصري على أيام الملك فاروق، وخاصة في حفاوته المطلقة بالملكة "نازلي" وكريماتها الجميلات الساحرات

فوزية وفائزة وفتحية وفائقة، خلال زياراتهم للقدس وحيفا وتل ابيب!
كذلك كان الدبلوماسي الآخر، الدكتور محمود عزمي بارعا في الانتماء السياسي صوب الف جهة اوروبية، وماركسية، وفرنسية، خلال جولاته وزياراته المتكررة لنا في مدينة القدس..!

لقد كان محمود عزمي آية نادرة في الذكاء والألمعية والأدب! وكان متزوجا من سيدة روسية اضافت اليه بعض ما كان ينقصه من مبادىء يسارية متطرفة.. وأدب روسي!

وكان صديقا مخلصا للأديب الفلسطيني خليل السكاكيني ولابنه سري السكاكيني الموظف في القنصلية الامريكية بالقدس.

وكان لقاء الرجلين ـ واحيانا كنت أنا ثالثهما ـ على شرفة مقهى "البيكادلي" في شارع "مأمن الله" بالقدس.

وفي الصباح كان محمود عزمي يلتقي مع أقطاب "الوكالة اليهودية" والمستشرقين من كبار موظفيها. وكان يقطن في فندق متواضع في شارع "مأمن الله" ويدخن النارجيلة، وينادي باختراعاته اللفظية واللغوية في بعض الكلمات العربية الشائعة كأن يقول مثلا: الدبلوماتي بدلا من "الدبلوماسي" و "المشفى" بدلا من المستشفى.. و "الفلسطي" بدلا من الفلسطيني.. الخ.

وعاش محمود عزمي في مصر، واصبح من كبار الكتاب والمعلقين والصحفيين ـ من "الجهاد" الى "الاهرام" الى "السفور" الى "اللطائف المصورة" الى "اخبار اليوم"! الى ان اختارته الثورة المصرية مندوبا لمصر في مجلس الامن الدولي.. حيث سقط على المنبر ولفظ أنفاسه خلال القائه كلمة مصر "الغالية" في مجلس الامن دفاعا عن بلدي! وكان ذلك في خريف عام ١٩٤٥!

ترى، هل يتفق التاريخ الشخصي مع المنصب الخطير عند سرد

الذكريات الحقيقية عن شخصية جبّارة وعملاقة مثل شخصية الدكتور محمود عزمي. !

أعني: هل كان في "خلفية" الدكتور محمود عزمي وفي مبادئه وميوله ما يسمح له، او يؤهله، لكي يحتل منصب ممثل مصر لدى أخطر هيئة دولية؟. أعني: مجلس الأمن؟

لقد عاش محمود عزمي ٦٥ عاما مدافعا عن حرية الصحافة وعن استقلال الشعوب وعن العدالة المطلقة..

ولكن..

هل كان كل ذلك بدافع ينبع من داخل الدكتور عزمي شخصيا أم بدوافع خارجية موجودة في مكاتب سرية واجنبية في عالم مدينة القدس المجبول بالأسرار والألغاز؟.

كان صديقي محمود عزمي ضد النظام الملكي في مصر، وانتقد مرارا المخصصات الملكية ـ الباهظة ـ كما كان ضد اتفاقية عام ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا..

مرة اخرى.. هل كان ذلك كله نتيجة دوافع وطنية كامنة في روح الدكتور عزمي، أم ان الامر يعود الى أوامر صادرة من موسكو.. ومن اليهود؟

أنا أعترف دوما بأني قد أتعبت اصدقائي ولكنهم أتعبوني أكثر بكثير!

كما كان عباس محمود العقاد ـ في زياراته المتكررة ـ للقدس وليافا ابان سنوات الحرب العالمية الثانية، لا يتردد في زيارتي وقبول دعواتي لتناول طبق "المجدرة" الفلسطيني في منزلي بالقدس. !

وكان العقاد من أبرز وأشرف اصدقائي. وكان يقول في عام ١٩٥٨ ايام زمالتنا في دار "اخبار اليوم" بالقاهرة حيث كان العقاد يكتب "اليوميات" مرة في الاسبوع، واكتب أنا في كل يوم اربعاء.. كان العقاد يقول ابان

الهجوم السوفيتي الاعلامي على جمال عبد الناصر، وتطوعنا للرد عليه دفاعا عن الوحدة، وعن جمال عبد الناصر وعن العرب قال العقاد:

ـ ان اجهزة الاعلام السوفييتي لا تكترث بالرد على أحد من اجهزة الاعلام المصري او العربي، باستثناء كاتبين اثنين: "أنا وعباس العقاد، والثاني هو زميلنا في "الاخبار"، الكاتب الفلسطيني ناصر النشاشيبي" !

ثم كتب العقاد هذا الكلام في يومياته بالاخبار!

وترجع صداقتي مع العقاد الى ايام الحرب العالمية الثانية عندما جاء ثلاثة من عمالقة مصر هم العقاد والمازني وسامي الشوا الى فلسطين للمساهمة في برامج محطة الشرق الادنى للاذاعة العربية، الموجودة في مدينة يافا والمخصصة للدفاع عن الحلفاء ضد النازية وحلفائها.

وذات ليلة جاء الثلاثة ـ العقاد والمازني والشوا ـ الى القدس لتناول العشاء في فندق الملك داوود بدعوة من الزعيم السياسي فخري النشاشيبي الذي كانت تربطه بهم صداقة وثيقة.

وعلى باب فندق الملك داوود، وقف أحدهم خلف الجدار وأطلق الرصاص باتجاه الضيوف الثلاثة...

وكتب محمد التابعي في "آخر ساعة" يصف الحادث بأن العقاد روى ان المجرم كان يستهدفه وحده. بينما المازني والشوا أكدا انهما المقصودان بالاعتداء. والحقيقة ان العملية كلها كانت موجهة ضد "فخري" بسبب عدائه السياسي للكثيرين من رجال السياسة!

في ذلك الحادث، "انبطح" الشوا على الارض، وهرب العقاد الى وراء الباب، وراح المازني يصرخ "يا ولاد الكلب"، بينما وقف المضيف مادا يده في وجه الرصاص وكأنه يحمي ضيوفه من الخطر!

وفي تلك الليلة، هرعت الى الفندق لمعرفة التفاصيل، وسمعت العقاد ـ بعد ان تمت عملية التعارف ـ يصف لي بعض ما جرى له ولرفاقه قائلا

بلهجة التهكم والسخرية:

ـ ايه ده؟ يعني انتم في القدس بتكرموا ضيوفكم بالرصاص؟

ومنذ تلك الليلة دخل عباس محمود العقاد، قلبي!

وبقيت ازوره في منزله بالقاهرة، وأواظب على جلساته الاسبوعية الأدبية المفتوحة في ايام الجمعة.. بالاضافة الى اللقاءات الخاطفة في دار أخبار اليوم..! وكان دوما يمثل في نظري الأديب العملاق، شكلا وموضوعا! وكان أعظم ما فيه كراهية طه حسين له مع حسده ولؤمه! وكانت كوفية الصوف لا تفارق رقبته خوفا من نزلات البرد. وكان أعرف أدباء مصر، بأدباء الشام ولبنان والعراق! وكان أديبا شجاعا لا يأبه ولا يخشى حاكم أو ملك أو رئيس أو.. ديكتاتور! لقد وقف في قاعة البرلمان المصري يصيح في وجه الملك فؤاد:

ـ أنا أضرب أكبر رأس في البلد!

وكان عند الأدباء والصحفيين يمثل مدرسة أدبية كاملة، بكل ما فيها من مجلدات، وأساتذة، ومراجع.! وبقي العقاد الذي حارب الملك فؤاد، وتصدى لمعظم زعماء مصر، هو العقاد الذي لزم الحياد "الشريف" تجاه ثورة ٢٣ يوليو، فلم ينزلق في النفاق ـ كما فعل طه حسين وتوفيق الحكيم ـ ولم يتطرف في العداء كما حاول سواه.

وهكذا، بدأ الهوى المصري يتسلل أو يتسرب الى قلبي منذ عام ١٩٤١.

وبعد ذلك بعامين اثنين فقط، أي في عام ١٩٤٣ نشرت في أخبار اليوم مقالا عن بلدي كان عنوانه: "فلسطين مديرية مصرية". وقامت قيامة اليهود والانجليز. ودعاني المستر "تويدي" مدير دائرة المطبوعات في حكومة الانتداب لمقابلته ومناقشة المقال المذكور، الذي يطالب بأن يكون حل القضية الفلسطينية عن طريق ضمها كلها الى مصر لكي تصبح مع أرضها

وسكانها مجرد مديرية من مديريات مصر..!.

وبعد ذلك، كتبت مقالا آخر في مجلة "آخر ساعة" المصرية، كان عنوانه: "أنا اشكو مصر للمصريين" وضمنته العتاب لمصر لأنها لا تحبنا كما نحبها، ولا تتجاوب معنا كلما نادينا اسمها..

ثم كتبت مقالا آخر في مجلة "روز اليوسف" ـ عند صديقي الراحل احسان عبد القدوس كان عنوانه: "لا يفل الحديد الا الحديد". يعني: لكي نقاوم الصهيونية، علينا ان نتحالف مع قوة مصرية عربية قادرة على التصدي والمقاومة.

وبعدها.. وبعدها..

ودعاني الملك فاروق لمقابلته في قصر "عابدين"، وسلمني جائزة "الصحافة الشرقية" التي تحمل اسمه تقديرا لمقال لي نشرته في جريدة "الاجبشان جازيت" باللغة الانجليزية، وكان عنوانه: "لماذا نرفض تقسيم فلسطين؟".!

ورغم كل ذلك، وكلما حاولت ان انتقد في مصر، كاتبا مصريا، او خطوة مصرية، او مطربا مصريا، تصدى لي بعض المصريين الذين يتظاهرون بحب مصر، ويدفعون كل من لا يجاريهم في غيهم وجهلهم وتعصبهم، بالعداء لمصر "المحروسة" وتطاولاً عليها وكراهية شعبها!

وعندما زار انور السادات القدس، لم يقنع احدا من العرب بمزايا مثل تلك الزيارة المشئومة. وبادرت الى مهاجمتها. وقالت اجهزة السادات في مصر انني أُهاجم مصر.!

وعندما تكشفت لي الوثائق والحقائق عن صهيونية ـ العميد ـ طه حسين، وأفرزت له فصلا خاصا في كتابي "حضرات الزملاء المحترمين" وقلت فيه "بعض" ما كان يستحقه هذا "العميد" العميل، بادرني العشرات من محرري "المصور"، و"روز اليوسف" و"الاهرام" و"صباح الخير" بالشتائم

غير المؤدبة بحجة انني أشتم مصر.. كل مصر!

وكانت مصر عندي، أكبر وأكرم من ان نحصر أمجادها وتاريخها وجهادها وثوراتها، في شخص انور السادات أو في شخصية طه حسين!؟

وجاء يزورني في باريس صديقي الراحل الموسيقار محمد عبد الوهاب لكي يقول لي ان "زملائي" السابقين في مصر يتهمونني بالعداء لمصر، فأجبته بما معناه ان عبد الوهاب التلميذ الوفي لذكرى استاذه وراعيه احمد شوقي، هو الذي ـ من خلال شوقي ـ اصبح الصديق الوفي لأديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي!. وقرأت على مسمع عبد الوهاب ما قاله محمد اسعاف النشاشيبي عن عروبة مصر. منذ اكثر من ثمانين عاما في صفحات كان عنوانها "العربية المصرية" قال اسعاف النشاشيبي في المقال المذكور: ان لم يكن المصري هو العربي، فليت شعري من يكون العربي.. ان أقوى القوم عربية، بل العرب العرباء، أعرفهم بأدب العربية، فأهل مصر هم القبيل المقدم في العربية، وهم سادات العرب.. وما يجادل في عربية المصرية، ومصرية العربية الا كافر بالشريعة الكونية والا محترق محتقد على هذه الاسلامية، والا وغد سمسار باع الشرف الغالي رخيصا في سوق الحلوج والفرنج والحكومات الاجنبية، والا غبي جاهل، ولهذا يقال بلسان مسلم بن الوليد:

قد أطلعت على سري واعلاني

فاذهب لشأنك ليس الجهل من شأني!

ثم يقول "أديب العربية" في ذلك المقام:

..."ان المصري هو وارث ذاك المجد، والمصرية هي وارثة العربية، وان لم يكن المصري هو العربي فليت شعري من يكون العربي، وان لم تكن مصر دار العربية، فأين ـ يا قوم ـ في الدنيا دارها.! مصر: مصدر العلم والمدنية وموئل العرب والعربية.."!

وسألت صديقي الموسيقار محمد عبد الوهاب:

- هل تعلم صلة القرابة بين هذا الأديب الكبير محمد اسعاف النشاشيبي.. وبيني؟

وأجابني عبد الوهاب على طريقته:

- هو عمك يا ناصر.. مش كده؟

وأجبت: لا يا محمد! انه خالي. شقيق والدتي. ومعلمي وفخر عائلتي! وقديما قال النبي "صلعم":

- كادت المرأة ان تلد أخاها!

- أليس كذلك يا محمد؟ وهل من المعقول ان يكون دربي تجاه مصر، أو موقفي من أهل مصر، الا درب المعلم خالي وموقفه؟!

واقتنع صديقي عبد الوهاب. ولم يقتنع بعض زملائي من حملة الأقلام في ديار مصر.!

وغيره... وغيره...

وفي شهر العسل الذي قضيته في ربوع مصر، دعاني الزعيم المصري الكبير مصطفى النحاس باشا للغداء في منزله. وأجلسني مع زوجتي على رأس المائدة ومعنا حرمه السيدة زينب الوكيل.

وعاتبني النحاس باشا، بعاطفته الأبوية، عن بعض ما كنت اكتبه في صحف أخبار اليوم المناهضة "للوفد المصري" والمؤيدة للثورة، ضد النحاس باشا. وأهداني تحفة فنية ما زلت احتفظ بها. كما أغدقت حرمه السيدة زينب الوكيل على زوجتي وعلي من كرمها وعطفها الشيء الكثير..

وهكذا كان الحال مع مكرم باشا عبيد، ابن سعد زغلول!

وهكذا كان الحال - حالي - مع انطون الجميل، رئيس تحرير الاهرام، والشاعر الكبير كامل الشناوي، وتوفيق دياب، والشاعر محمد الأسمر،

واحمد رامي، ومصطفى وعلي أمين، وعبد الحميد يونس، وعلي الجمال، وصالح جودت، واحسان، ووالدته السيدة روز اليوسف، وفكري اباظة، واخيرا، صديقي القديم محمد حسنين هيكل!

هذه صفحات تاريخ وذكريات ومواقف، لا يمكن ان تضيع! وأنا مدين لمصر، بثقافتي الصحفية، في كل ما كسبته من تجارب ومعرفة. مصر هي جامعتي ومدرستي وملعب ذكرياتي ومشعل ذاكرتي.. أمس واليوم والى ما شاء الله..

وعندما أجريت العملية الجراحية في مستشفى المؤاساة بالاسكندرية عام ١٩٤٧ بيد الجراح العالمي الدكتور احمد باشا النقيب ـ طبيب خاص الملك فاروق ـ وأفقت من تأثير البنج ـ او المخدر ـ وجدت حول سريري في المستشفى من جاء يزورني ويطمئن علي ويمسك بيدي ويحمل لي الزهور والكلمات الحلوة. واذ بالذين جاءوا هم محمد التابعي، وتوفيق الحكيم واحمد الصاوي محمد وزكي عبد القادر وكامل الشناوي ومحمد عبد الوهاب. وكانت يد صديقي التابعي تمسح العرق المتصبب من وجهي. وعندما اكتمل العلاج وسألت عن فاتورة المستشفى لكي أدفعها قبل ان أغادر الغرفة، أخبرني الدكتور "النقيب" ان احدا لن يدفع الحساب، لا أنا ولا هو ولا الملك فاروق لان الحساب ـ في ضآلته ـ لا يستحق الدفع. ولم اصدق! وعندما شعر الدكتور انني مصر على الدفع، ركب القطار وعاد الى القاهرة بعد ان كتب على فاتورة المستشفى كلمة واحدة:

ـ مجانا!

والكرم الذي أحاطني به الدكتور الباشا النقيب في الاسكندرية هو مثل الكرم الذي أشعرني به الممثل اسماعيل ياسين الذي لم يترك مسرحية واحدة من مسرحياته الناجحة الا ودعاني لحضورها في اول يوم من ايام العرض! وكذلك سعد الدين وهبة. وكذلك عبد السلام النابلسي. وكذلك

رمسيس نجيب. وكذلك عبد الحليم حافظ. وكذلك رجا عبده. وكذلك محمد عبد المطلب. وعبد الغني السيد واحمد فؤاد حسن. كلهم ارتبطوا معي، وارتبطت معهم بأحلى أواصر الصداقة والمحبة.

لقد كانت مواعيدي مع حفلات "نجوم المدينة" ـ وراعيها صديقي الراحل ـ مذيع بيانات عبد الناصر ـ الاستاذ جلال معوّض، كمواعيدي مع أحلى وأعز الذكريات. ولم أتحدث للناس من كل قلبي وبكل أعصابي وكل وجداني كما تحدثت في برامج الاذاعة المصرية لسامية صادق وهمت مصطفى.

ولا شك ان هناك الكثير من الجاذبية بين الصحافة من جهة والفن من جهة اخرى..

كنت أشارك في سهرات زميلي مصطفى أمين في منزله بالزمالك، ومعنا الشناوي والملاح، وأنيس منصور، وسعيد سنبل، واحمد رجب، ومعنا في صدر المائدة الفنانة المصرية اللعوب "شادية" التي استبدت بقلب مصطفى امين ردحا من الزمن لم ينته الا عندما دخل مصطفى السجن متهما بالجاسوسية لامريكا، وكشفت المخابرات المصرية ان مصطفى أنفق على "شادية" في شهر واحد ثمانين الف دولار.!!

وكان كمال الملاح مغرما بالممثلة الحسناء "لبنى عبد العزيز".

وكان "موسى صبري" الزوج غير الشرعي، للمصرية اللبنانية صباح! ومن قبلها للراقصة "هاجر حمدي".!

وكان كامل الشناوي، العاشق المولّه، للمطربة نجاة الصغيرة التي اصبحت بفضله وجهده وفيض رعايته، نجاة الكبيرة.. "جدا"!

ولولا التعقل والخوف من مخابرات جمال عبد الناصر، لوقعت شخصيا في هوى الممثلة الحسناء سعاد حسني وصدق في شخصي "الضعيف" قصيدة نظمها "كامل الشناوي" حول هذا الموضوع: "حبيبها لست

وحدك !"

ما علينا ! ولن انشر التفاصيل وأنا اليوم في خريف العمر.. !

وكان علي أمين يداري حبه للممثلة فاتن حمامة عن طريق التخفي وراء زوجته "خيرية خيري". ابنة اللواء خيري باشا !

ومن قال ان الصحافة لا تغري أهل الفن، او ان أهل الفن لا يعشقون أهل الصحافة ؟.

كانت شقتي في القاهرة، تقع في عمارة "ليبون" رقم ١٢، في شارع الجبلاية بالزمالك. وكانت هذه العمارة أرقى وأحدث عمارات السكن في القاهرة. وكان معظم نجوم الفن والطرب يسكنون في نفس العمارة. وكانت شقتي تقع في الطابق الثامن، وكانت جارتي هي الممثلة الحسناء "لبنى عبد العزيز"، وكانت الممثلة فاتن حمامة تسكن في الشقة التي تعلو شقتي في الدور التاسع مع زوجها ـ يومذاك ـ عمر الشريف ! وكانت سامية جمال في الدور الثاني، ومثلها الممثلة المخضرمة ليلى فوزي وزوجها المذيع المعروف جلال معوض.. وغيرهم.. وغيرهن.

وكانت الزيارات متصلة بيننا وخاصة من الجارة العزيزة فاتن حمامة التي كانت تزورنا ـ مع عائلتي ـ لكي تشكو لنا ان زوجها عمر الشريف يأتي من السهرة متأخرا.. وثملا.. وانها تداويه بشرب "الحليب" ولكنه لا يلبث ان يلفظ الحليب من جوفه على "المخدة" المشتركة مع "فاتن" بمجرد ان يبدأ في النوم. !

وكانت سامية جمال مولعة بالاستماع الى تسجيلات فريد الاطرش حتى الثالثة صباحا ! وذات مرة نصحتها بأن توقف المسجل وتختار كتابا تطالع صفحاته وتستفيد مما بداخله، واذ بسامية تجيبني بكل صراحة :

ـ يا حسرة ! انا ماعرفش اقرأ يا استاذ ! انا أمية لا اقرأ ولا اكتب ! اهلي ما علمونيش !

اما ليلى فوزي فانها مولعة بلعب الورق وتقضي سهراتها مع شلة الكونكان.. والبوكر!

وعمر الشريف يقضي عمره في اجازات خاصة جدا يقضيها خارج منزل الزوجية او يعالج الضجر فيها بالشراب والقمار!

وكان علي أمين ـ عملاق الصحافة ـ يسكن في الطابق الرابع في نفس العمارة، وكانت زوجته السيدة "خيرية خيري" ـ يومذاك ـ من أقرب صديقات فاتن! وكان علي أمين سعيدا بهذه الصداقة التي كانت تمكنه من البقاء بجانب معبودته.. فاتن حمامة!

وكانت فاتن تكره الممثلة المصرية "ماجدة" ولا تطيق المقارنة بينها وبين "ماجدة" بأية صورة من الصور!

قالت لي ذات يوم بالتلفون وهي غاضبة:

ـ ارجوك يا ناصر! انا مش عايزة تجيب اسمي مع ماجدة.. ابدا.

ـ ليه يا فاتن؟

ـ هي حاجة وأنا حاجة.. تانية!

لا بأس..

كانت مجموعة "اساسنورات" الدار تجمع بيني وبين افراد تلك المجموعة من الممثلات والفنانات ونتبادل ـ بعض الاحيان ـ احدث نكات أهل الفن، عن أهل الفن وآخر تشنيعات أهل الفن عن أهل الفن..

عن عبد الحليم والحب الضائع مع حبه الكبير سعاد حسني..

وعن فريد الاطرش وخصومته مع "مصطفى امين" بسبب شادية!

وعن فضائح موسى صبري مع خدامة صباح..

وعن قرب طلاق ام كلثوم من حسن الحفناوي!

ونضحك.. ونتواعد على اللقاء!

ان أهل الفن في مصر، قد يجمعهم الفن وحده، ولكن هناك الحسد، والغيرة، والتشنيعات، والمنافسة المستمرة، والتي كانت تفسد كل ما كان الفن يحاول ان يجمعه. كانت تحية كاريوكا تروح لكل راقصة مصرية تحاول منافستها وبالكلام البلدي الذي يقول:

ـ يا بنت ال ... يا فارة جربانة.. يا إبرة مصدية على التل مرمية.. يا صَديارد، يا بيت ما دخله حدا!"

وكان عبد الوهاب يتهكم امامي على اسلوب فريد الاطرش في الغناء قائلا:

ـ تصور يا ناصر واحد مطرب عايز يغني كلمة يا حبيبي. فاذا به يقطعها حتت.. ويلفظها يا.. ح.. ب.. يبي.. مع التشديد على حرف الباء!

وقد جاء لزيارتي ذات يوم الاستاذ محمد كريم المخرج السينمائي المصري المعروف. وقال لي "كريم" انه ـ بالاضافة الى عمله في الاخراج، فانه ـ ايضا ـ المدير العام لنادي "السينما" المصري الذي يضم حوالي مائة عضو سينمائي بالاضافة الى المئات من السينمائيين المصريين الذين يشتغلون في الاخراج والتصوير والسيناريو وما اليها.

وقال لي محمد كريم، وهو من أنشط وأقدر المخرجين المصريين في الخمسينات والستينات، حيث أقدم على اخراج الأفلاح الناجحة لمحمد عبد الوهاب، على عكس زميله المخرج اليهودي "توجو مزراحي" الذي كان يدس السم في الدسم ويحشر على السنة ممثل الفيلم كلاما لا لزوم له عن العرب واليهود في فلسطين.. الخ.

وطلب مني محمد كريم ان اوافق على قرار مجلس نادي السينما وتعييني استاذا محاضرا في الشؤون السياسية لطلبة النادي.

وعندما سألته ماذا يعني بالشؤون السياسية، أجابني:

ـ أعني شرح القضايا العربية الساخنة، مثل حلف بغداد، وتحويل مياه

نهر الاردن، وقضية الجزائر، والعلاقات بين مصر وبريطانيا، وثورة عدن.. الخ..

وعندما سألته ان كان بين تلامذة النادي، بعض الاخوة العراقيين الذين يحملون الجنسية العراقية، أجابني على الفور:

ـ طبعا. هناك حوالي خمسين فتى وفتاة عراقية يدرسون الفن السينمائي وينتسبون للنادي...

ثم أضاف:

ـ وهؤلاء التلاميذ هم ـ اكثر من غيرهم ـ المعنيين والمتحمسين للاستماع الى محاضراتك السياسية..

قلت: ولكني أخشى لو انهم خضعوا للامتحانات في نهاية العام وسقطوا، لكان مصيرنا على ايديهم كمصير عميد كلية الحقوق في بغداد، على يد ذلك التلميذ العراقي الذي رفض العميد ان يسلمه نسخا سرية من الاسئلة المطلوبة قبل موعد الامتحانات فما كان منه الا ان أطلق عليه النار!

وضحك محمد كريم وقال:

ـ معلهش يا استاذ، الثورة بتاعتنا عايزة كده!

وبعد اسبوع واحد رحت ألقي المحاضرات في تمام الساعة الثامنة من ايام الاثنين والاربعاء والسبت، وانقضت مدة شهر على خير. وجئت الى دار المعهد لكي ألقي بقية المحاضرات، فلم أجد التلاميذ، سألت عنهم فقيل لي انهم أعلنوا الاضراب العام جوابا واحتجاجا على اعتقال فرنسا للزعماء الجزائريين في تونس! وأنهم ـ أي التلاميذ ـ لن يعودوا الى المحاضرات الا بعد الافراج عن زعماء الجزائر..!

وقد قيل قديما: "ذهب ذلك "المتردد" لأداء الصلاة فوجد باب الجامع مقفلا... وعاد أدراجه وهو يردد عبارته المشهورة:

ـ جت منكم يا أسيادنا.. مش مني!

وانتهت علاقتي بنادي السينما المصري على خير. !

ولا شك ان الاختلاط برجال مختصين في ميدان السينما والانتاج والتصوير، لا يخلو من فائدة.. لقد تعرفت خلال عملي في نادي السينما المصري على العشرات من كبار أهل الفن في مصر.. من هنري بركات الى مديحة يسري الى محمد فوزي.. الى عبد الغني السيد.. الى عائلة "بيضا" للاسطوانات الغنائية.. الى غيرهم. وفي نادي السينما بمصر ـ أجل في نادي السينما بالذات ـ التقيت بالشاب السعودي "الجنتلمان" كمال أدهم الذي كان صهرا للملك فيصل آل سعود، والذي كان يصعد ـ يومذاك ـ اولى خطواته صوب المال والشهرة والنفوذ وكان يتردد على القاهرة في فصل الشتاء.

لقد تعرفت على كمال أدهم، وأدهشني مدى ثقافته وتواضعه. وبعد تلك الليلة بثلاثين سنة، جلس كمال أدهم يروي لي في منزله بلندن لماذا ضاعت الضفة الغربية من يد الملك حسين وذلك عندما قرر الملك فيصل بن عبد العزيز ان يرسل ولده الوزير سعود الفيصل الى عمان برفقة خاله كمال أدهم للحديث عن مستقبل الضفة الغربية..

قال لي كمال أدهم عن لقائه في ذلك الوقت مع الملك حسين والحديث حول الضفة:

ـ قال لنا الملك حسين أن مفتاح الضفة الغربية يكمن في المال! أنا أحتاج ـ والكلام للملك حسين ـ الى اربعمائة مليون دولار ـ فورا ـ والى اربعمائة مليون دولار اخرى تدفع فيما بعد لاستعادة الضفة والاحتفاظ بها..!

وسكت كمال أدهم..

ثم قال لي: ونقلنا هذا الكلام للملك فيصل الذين احتفظ به، مع كل تفاصيل الموضوع حول الضفة، في احد أدراج مكتبه، ذلك ان الملك

فيصل لم يكن "حاتميا" للانفاق على مثل هذه المشاريع. وبالتالي ـ ومع الايام ـ نامت الفكرة، وبقيت اسرائيل في الضفة، واستغلت "المنظمة" الموقف واستخلصت الضفة من يد الملك حسين ومن أنيابه!

ولا شك ان كمال أدهم كان الساحر الذي يقف وراء حروب الكلام بين السعودية واليمن وأنه المؤسس والممول للشركة السعودية للابحاث والنشر التي تمخض عنها صدور جريدة "الشرق الاوسط" ـ الصحيفة الدولية في لندن والتي اشتراها صاحبها الحالي الامير سلمان بن عبد العزيز من مؤسسها القديم الشيخ كمال أدهم.

وكنت كلما مررت بمستشفى الملك "فيصل التخصصي" في الرياض. او كنت كلما رأيت مولد فكرة او مشروع خيري من مشاريع فيصل بن عبد العزيز، تذكرت على الفور كمال أدهم. ذلك انه لم يكن مجرد صهر عادي للملك الراحل بقدر ما كان هو المستشار الاول والاقوى عند الملك وعند زوجته الملكة "عفت". !

لقد عرفت كمال كنزا من كنوز المعلومات الاقتصادية والسياسية والمخابراتية. وكنت أتمنى عليه دوما ان يكتب مذكراته ويجمعها في كتاب.. ولكنه، كالكثيرين من رجال السياسة الذين لو كتبوا او نشروا لتسابق الملايين الى قراءة ما يكتبون، او كالذين لو قالوا "ريان يا فجل" لهرع الناس الى حفظها وترديدها! ولكنهم لا يكتبون ولن يكتبوا. !

ولو كانت الأحكام في الامور الخاصة تخضع لمقاييس الكفاءة والثقافة والاخلاص، لكان كمال أدهم، أولى من غيره بأن يحمل لقب صاحب السمو "الامير" كمال أدهم. !

واذا كان الفضل ـ كما يقال ـ هو ما شهدت به الأعداء ـ فان جميع اجهزة المخابرات في امريكا وفي اوروبا وفي تل ابيب قد شهدت لكمال بأنه كان كفاءة ممتازة، يعرف كل الأخبار، ويجمع كل الأسرار، ويناور على

جميع الجبهات، ويحلل الأمور بالمنطق، ويرفض الاشاعات بالعقل، ويسافر كثيرا، ويقرأ كثيرا، ويحب الجزيرة ـ بشطريها ـ الحجازي والنجدي، كثيرا كثيرا..

وكان جمال عبد الناصر اذا أراد ان يصفي حساباته القديمة مع الملك فيصل السعودي، لم يجد سوى كمال أدهم لكي يرميه بالتهم والأكاذيب من طراز السيد "عشرة في المائة" او صهر "الملك الذي اصبح ملكا" او "اسألوا السيد كمال أدهم بتعمل ايه عندكم الشركات اليابانية للبحث عن البترول في مناطق الخليج"؟!.. الى آخره.

وكان كمال أدهم يتحمل كل هذا الأسى بصدر واسع وصبر عجيب! لم يغضب ولم يشكو ولم يبحث عن وسطاء، وانما مضى في طريقه يخدم صهره الملك "الفيصل" وزوجته الملكة "عفت" بكل اخلاق الكبار..

وكنت أزوره يوميا خلال وجوده في مسكنه بلندن واستمع منه الى تعليقاته وتحليلاته وأخباره! وليغفر الله لي أنني سمحت لنفسي ان أنشر بعض تلك التعليقات المبطنة بالأخبار دون ان استأذنه! وغضب كمال أدهم! وكان من حقه ان يغضب! واتصلت بالصديق المشترك الصحفي العراقي "فاروق" ـ زميل كمال في كلية فكتوريا لكي يخفف من ويلات الغضب. وسافر فاروق الى "المعادي" ـ حيث يقطن كمال وحادثني من هناك ـ وعلى مسمع من كمال ـ قال لي بأن صديقك القديم يريد ان يسمع صوتك، وقال لي كمال بكل أدب وكل كياسة وكل دبلوماسية:

ـ عفا الله عما مضى..

وأجبت ضاحكا:

ـ هكذا كان يقول لنا هنري كيسنجر يا شيخ كمال..

وبعد..

هذا العربي المسلم.. الذي جاء مع أفراد عائلته طلبا للحج ـ وبينهم

شقيقته الملكة "عفت" ـ التي عندما رآها الملك فيصل لم يتردد في الاقتران بها ورزق منها مجموعة من أذكى الأمراء، وأكثرهم ثقافة وأقواهم خلقا.

هذا المستشار الذكي الأمين، الذي صدر الأمر الملكي باقالته من منصبه كمدير عام لجهاز الأمن العام في المملكة بعد ظهر يوم "خميس"، فلم يغضب، ولم يعجب، بل حزم حقائبه وذهب يودع شقيقته الملكة "عفت" في منزلها "بجدة" قبل ان يركب الطائرة الى القاهرة..

أنا اعتبر كمال أدهم انموذجا للعقلية المتطورة التي أوكلت لها مهمة المخابرات العامة، واستوعبت كل مسؤولياتها ومتطلباتها وكسب احترام زملائه من رجال امريكا واوروبا، كما أحاط صهره الملك فيصل بهالة من التقدير والاحترام، أمام ملوك العالم..

لقد هاجموه وقالوا أنه كسب كثيرا، وهذا صحيح! ولكنه لم يكن وحده بل كان هناك اشرف مروان صهر عبد الناصر مع مجموعة المنتفعين بشركة كان اسمها "التصنيع الحربي"!

وهاجموه وقالوا انه انحاز في العمل العام الى جانب "اولاد فيصل" ـ اولاد شقيقته، وهذا بالمرة غير صحيح!

لقد التقيته في نيويورك وفي واشنطن.. ومعا ركبنا الطائرة الخاصة العائدة من مطار كنيدي الى مطار هيثرو..

ولم يكن في الطائرة سوى ثلاثة: كمال والصديقة الحسناء "سارة".. وكاتب هذه السطور، كانت طائرة ـ كما قلت ـ خاصة.. جدا! وفي منتصف الطريق اطفئت أنوار الطائرة استعدادا للنوم. ودخل كمال الى غرفة النوم واقتسم مع السكرتيرة الحسناء نصف الفراش المعد للضيوف.

ولعل أحلى منظر غرامي رأيته في حياتي هو لكمال أدهم وقد وضع رأسه في منتصف الفراش وترك النصف الباقي "لسارة" الحسناء كي تضع رأسها

الى جانب رأسه..

وكان الرجل يجيد لعبة الحب كما يجيد لعبة الحرب.

ولولا كمال أدهم لما تمت اتفاقية كامب دافيد، التي لم اتردد في استمطار اللعنات عليها.

وكان نفوذه في بلاط أنور السادات، يغزو ويسيطر ويدخل ولا يدق على الباب.!

وكانت سيطرته على الملك الحسن، وعلى التهامي، وعلى مناحيم بيغن تدعو الى الدهشة والاعجاب!

ولعل أعجب العجب في شخصية كمال أدهم انه كان ينتج وينجز وينتصر ثم ينسب الفخر الى سواه.

ولعل ما يدعو الى الاكبار والاحترام في نفسه انه صاحب قلب كبير يحب التحف الشرقية، والرسوم الشرقية الزيتية والنسخ القديمة الأثرية من كتاب القرآن الكريم.!

ولا اعرف شخصا يترك خمسة اجهزة للتلفزيون تذيع نشرات الأخبار في مكتبه في وقت واحد وعلى مدى الاربع وعشرين ساعة!

وطالت سهرتنا في تلك الليلة في نادي السينما بمصر.

وجاء فريد الاطرش الى دار النادي لكي يأخذنا كلنا الى العشاء في منزله ويسمعنا بعدها بعض ألحانه الجديدة. وكانت معنا في تلك الجلسة المغنية المصرية الايطالية ـ "داليدا" ـ او "بنت شبرا" كما كانت تسمي نفسها وفي دمها الكثير من مصر، ومن ايطاليا ومن جنسيات اخرى.

وكانت داليدا فتاة طموحة لا تتردد في التضحية بأي شيء ثمنا للشهرة وللنجاح. في تلك الليلة قالت لنا داليدا انها نجحت في الفوز بلقب ملكة جمال مصر، وان الممثل عمر الشريف هو الذي منحها الوسام وسلمها القرار..

وكانت داليدا ـ ويا لسخرية القدر ـ قد أعلنت فور فوزها بلقب ملكة الجمال أنها تتمنى ان تتزوج.. عمر الشريف!

ولكن عمر الشريف، الولد الشاطر ـ لم يتزوجها فهاجرت داليدا الى باريس ومنها الى لبنان، ثم عادت الى باريس واشترت شقة في حي "مونمارتر" المطل على باريس وسط منازل الفنانين والشعراء!

ومرة أخرى يتدخل القدر في حياة داليدا..

لقد تزوجت، وانتحر زوجها!

وتزوجت للمرة الثانية، وانتحر زوجها الثاني!

قالوا انها الوحدة؟ وقالوا انه الضجر. وقالوا انه اليأس.. وأنها العزلة!

وذهبنا مع "فريد" الى منزل "داليدا" وسمعنا منها بعض اغانيها المختلطة بعبارات فرنسية وايطالية وعربية...

واخيرا، اقتنعت داليدا، ان عليها ان تهجر هذه الحياة وأن ..تنتحر!

وانتحرت داليدا..!

ولم يبكها سوى مخرج مصري ناجح اسمه "يوسف شاهين"!

ولم يستفد من وراء موتها سوى والدتها وشقيقها وشريكها في المطعم الذي كانت تملكه في حي مونمارتر في قلب باريس!

وجاءت والدتها تزورني في القاهرة وتشكو لي من مقال قديم كنت قد كتبته عن داليدا وجعلت عنوانه: "بنت شبرا.. أم بنت كلب؟" وراحت والدة داليدا تردح لي في وسط دهشة الصحفيين واستغرابهم وتلطم وجهها وتصرخ بالعامية والايطالية:

ـ لا.. لا.. داليدا مش بنت كلب.!

واضطررت ان اترك المكتب وأتسلل من باب جانبي هربا من والدة داليدا.. التي كانت تصر على ان ابنتها فتاة مصرية ـ مائة في المائة ـ وأن

الصحافة هي التي هاجمتها، وقست عليها وقادتها الى الانتحار..

وهذا غير صحيح..

ان أحداث هذا الشرق الاوسط قد استطاعت ان تطأ على التاريخ بالأقدام، وان تشوه الحقائق، وأن تجعل من الحبة قبة ثم تلون القبة بالألوان..

وضياع الحقائق التاريخية أوصلنا الى ضياع الحقيقة.

وما زلنا نسأل: من معنا؟ ومن علينا؟

وما زلنا نقرأ أسماء لم نكن نعرفها ولا نسمع بها او عنها طيلة الثمانين سنة الماضية!

لقد دخلنا في بحور من الفوضى والدس والدجل والأكاذيب.!

واختلط الحابل بالنابل، واستغل العدو جهلنا وضياعنا وراح يكتب فصول التاريخ على هواه..

وما زلت أتذكر في هذا المعنى، مثلا واحدا..

لقد روت لي الصحفية الاسرائيلية السيدة "سمادار بيري" محررة الشؤون العربية في جريدة "يديعوت احرونوت" انها تعرفت على مدير مكتب الملك حسين في عمان من خلال كارت توصية حملته من طرف ثالث صديق للملك وللمدير.. معا.

والتقت الصحفية مع المدير الخاص لمكتب الملك حسين! وكان اسمه ـ للعلم ـ السيد علي شكري. والسيد علي شكري هو حفيد السيد حسن شكري رئيس بلدية حيفا في الثلاثينات وفي أيام الانتداب البريطاني على فلسطين.

وكان والده، كجده، كمعظم افراد عائلته، من أكارم عرب فلسطين ومن أعلاهم شأنا وأرفعهم منزلا.

وعندما ارادت الصحفية ان تعرف اسم المدينة التي جاء منها السيد علي شكري، أجابها على الفور:

ـ انها حيفا..

وعندما سألته عن المنطقة التي كان أهله يعيشون فيها في مدينة حيفا، أجاب:

ـ في الكرمل! وفي هادار الكرمل.. بالذات!

وعندما استرسلت في الاسئلة لكي تعرف المزيد عن السيد شكري ـ مدير مكتب الملك حسين ـ تبين لها أن عائلتها اليهودية كانت تسكن في الدار المجاورة لدار حسن شكري.. وانهم ـ ليسوا جيرانا فحسب، وانما كانوا اطفالا متحابين يلعبون معا، ويتنزهون معا...

واستبدت العاطفة بالسيد شكري، فراح يسرد ذكرياته المبللة بالدموع.! وآه على الزمان الذي كان فيه العرب واليهود اصدقاء واخوانا. وآه.. وألف آه على أيام حيفا التي كانت فيها عائلة شكري صديقة لعائلة سمادار بيري، بعيدا عن العداء والدسائس والتعصب والكراهية! كان ابن شكري يتكلم بقلبه وأعصابه، ولكن الصحفية النشيطة الذكية الحلوة ـ شقراء مع مسحة الشرق المخملية ـ فقد بقيت تتحدث بلغة العقل والواقع.! هو يتحدث عن أيام زمان! وهي تتحدث عن أيام الواقع والدولة والاستيطان والهجرة المفتوحة!

لا بأس فقد انعقدت أواصر الصداقة من جديد، بين المدير الخاص لمكتب الملك حسين، وبين أنشط صحفية في "يديعوت احرونوت".. للشؤون العربية!

وتمضي الايام، واحتفل مركز رابين وسط جامعة تل ابيب بذكرى وفاة رابين، وذكرى التوقيع على معاهدة السلام بين الاردن واسرائيل، وكنت بين حضور تلك المناسبة، ودعتني الصحفية سمادار بيري للجلوس

بجوارها في الصفوف الامامية داخل القاعة، ولكني، وقد فرغت من احتضان الامير الحسن بن طلال الذي جاء يشارك في المناسبة، قد عدت الى مقعدي بين رجال الصحافة..

الشيء المهم الذي لفت نظري ان الامير الحسن قد اصطحب معه مجموعة من الشبان الاردنيين الذين كانوا يعملون معه أيام المسؤولية، ومن بينهم السيد علي شكري.

في هذه المرة، وفي تلك الليلة وجدت ان اسم السيد شكري قد اصبح يحمل لقبا جديدا هو: "رئيس الديوان الملكي الهاشمي".!

وظهر اللقب مع الاسم عدة مرات في تسلسل البرامج. وليس عندي اعتراض ان يصبح السيد شكري هو رئيس الديوان الملكي، وانما اعتراضي ان يحسب اليهود ان للديوان الاردني الملكي اكثر من رئيس واحد: السيد الكباريتي في عمان، والسيد شكري في تل أبيب!

ألم أقل لكم اننا اليوم نعيش في ضياع كامل؟ ألم أقل لكم ان بلدي اليوم، ليست بلدي التي عرفتها على مدى السبعين سنة الماضية؟.

ألم أقل لكم ان حرب الجهلة ضد المتعلمين، وحرب الإمعات ضد العائلات، وحرب الشحاذين ضد الأغنياء، وحرب "الضواحي" ضد العاصمة، وحرب المتزعمين ضد الزعامات، وحرب الاشاعات ضد الحقائق.. كلها ما زالت حروبا مشتعلة ومخيفة؟!.

ولا أعرف وطنا يخضع للخطوط الحمراء والبيضاء والسوداء والارقام والحروق A وB وC .. كما يخضع الوطن الفلسطيني. هل هكذا ظهرت الحلول لمشكلة الالزاس واللورين بين فرنسا والمانيا؟ هل هكذا كانت حلول المشاكل المتعلقة بين انجلترا واسكتلندا؟ هل هكذا يتصرفون في قبرص، وفي يوغوسلافيا؟

هل نحن في سبيل استعادة وطن أم في سبيل شراء البصل والفول من

سوق الخضار؟ أنا لا اعرف قاموسا للسياسة او الحرب يقول بأن قرار الانسحاب الاسرائيلي من أية منطقة لا يعني "بالفعل" سحب الجيش الاسرائيلي من تلك المنطقة!

أنا لا اعرف ان الحقوق الثابتة للأمم تخضع وتنتظر اللقاءات والمؤتمرات بعد اللقاءات والمؤتمرات بحثا عن حلول ترضي هذا وترضي ذاك واذا لم يرض الاطراف لا تأتي الحلول!

أنا لا اعرف ان اوسلو الثلاثية الاخيرة في اكتوبر ـ نوفمبر ١٩٩٩ حسب اقوال السلطة وبلسان قيادتها:

١ـ لم تكن جلسة مفاوضات!

٢ـ وكانت مجرد وضع النقاط على الحروف!

٣ـ وان الاتفاق قد تم لمفاوضات مقبلة..

ما هذا العبث؟ ما هذا الاستخفاف؟ ما هذا التنكيت؟

حتى القدس لم تسلم من الطعن والتهريج.. واللعب على الحبال! تارة القدس لنا! وتارة لنا "ابوديس" وحدها! وفي الصباح تكون المقدسات لنا، وبعد الظهر يطل علينا السيد "الروافده" لكي يعلن بأنه على استعداد لاعادة المقدسات الينا ان نحن طلبنا منه ذلك.

ترى هل تساوت اولى القبلتين وثالث الحرمين الشريفين وقبة الصخرة مع مزرعة واحدة في ممتلكات السيد الروافده في الكرك او اربد؟.

كنت دوما اقول ان القدس مثل فندق الخمس نجوم لا يدخله ولا ينعم به الا من يستحقه.!

ولكن القدس، بفضل السياسة المتعمدة من طرف اسرائيل قد تحولت الى أقذر مدينة في الشرق الاوسط، وتحول أهلها الى أفقر شعب في الشرق الاوسط. ولن ينفع ألف احتفال او مهرجان بالسنة الألفية الجديدة القادمة في اعادة القدس الى سابق طهرها وكرامتها! انها اليوم دمية رخيصة تباع

في سوق النحاسة. انها ملعب لتجارة الحشيش والأفيون. انها ـ وفي ايام السبت خاصة ـ ملتقى بنات المدرسة مع الشباب العربي العاطل عن العمل والباحث عن الحب في شارع صلاح الدين!

تسألني عن المسؤول؟

لا أدري!

لقد جلسنا ـ أنا والشاعرة الفلسطينية الكبيرة ـ فدوى طوقان نتشاكى في صباح يوم حار عما أصاب بلادنا.. وبالأخص مدينتنا ـ من قهر وتشويه وتدمير، واذا بفدوى تقول وكأنها تتحدى:

ـ ولكني أحبها.!

قلت: كلنا يا فدوى نحبها!

قالت:

ـ هل تذكر بيت الشعر العربي الذي يقول:

وقد تعشق الأرض التي لم يطب بها

هواء ولا ماء ولكنها وطن!

ولم أجب؟. كانت لمعة الدمع تحاول ان تسبقني للفرار من عيني.

ورغم كل هذا الحب فقد باع "أحدهم" حجارته في القدس بدولارات دنسة.. لليهود!

وباع معها منزله، او شقته، او حانوته، ثم راح يكمل المأساة ويقوم بتمثيل دور الضحية التي يزعم فيها ان اليهود قد اعتدوا عليها وصادروا املاكها.!

مثل هذا المقدسي لا مكان له في قدس السماء!

لقد كذب على نفسه، وعلى الله، وعلى القدس، وعلى العرب، ومضى كخرقة بالية الى مجاري القاذورات وبعدها الى زوايا النسيان!

لقد غرقنا في بحور التأخر واللامبالاة..! لقد جهلنا حقائق الموت وحقائق الحياة!

حتى عظماؤنا لم نعد ندري أسرار موتهم بعد موتهم!

كان صديقي الدكتور منصور فائز، الطبيب الخاص للرئيس المصري جمال عبد الناصر من أعز اصدقائي، وكنت سعيدا باشرافه على معالجتي خلال ١٥ سنة من وجودي في مصر. وكنت أزوره في عيادته بعمارة الاوقاف ـ مقابل دار الاهرام القديمة ـ لا سعيا وراء العلاج المطلوب، لنزلة برد او التهاب في الأمعاء، وانما للاستفادة من آرائه العامة، وخاصة من أخباره عن مرض عبد الناصر! وكنت أُدهش كيف ان طبيبا عبقريا مثل منصور فائز لا يقرأ كتابا ولا مجلة طبية وانما يقضي كل دقيقة من أوقات فراغه في لعب القمار؟!.

كان جرس التلفون يدق بلا انقطاع في مكتبه بالعيادة في ساعات النهار، وكان الحديث كله يدور أين، ومتى، ستلتئم شلة اللعب في ذلك المساء. وعندما توفي عبد الناصر، وقرأت ان بعض كبار الأطباء المشرفين على علاجه ـ في تلك الساعة المشؤومة ـ قد تأخروا في المجيء الى سريره لانقاذه من الخطر، قلت لنفسي متأكدا ان منصور فائز كان أحد هؤلاء الأطباء الذين تأخروا في الوصول، ربما كان مشغولا في ترتيب جلسة "بوكر" بدأت بعد طعام الغداء ولم تنته في موعدها، او ربما كان مضطرا للبقاء في جلسة "ورق" حيث لا يحق للاعب الذي يكسب كثيرا ان يهرب بما كسب!

ومثل هذا الكلام ينطبق على الأطباء الخصوصيين الذين كانوا يشرفون على صحة الملك حسين بن طلال ـ منذ سفره من عمان الى يوم عودته ثم وفاته! كنت أعلم ان الدكتور سمير فراج من أخلص الناس للملك حسين، ولكن هل كان ايضا من أخلص الأطباء؟. بل هل كان الدكتور سمير فراج من

أقدر رجال الطب الاردني للاشراف على صحة ملك، ضربه السرطان الخبيث مرة بعد مرة، وكانت العناية الطبية به محتمة ومفروضة بل ومقدسة!

لقد تعرفت على الطبيب الخاص للملك حسين يوم أمره الملك بالاشراف على علاجي بعد اصابتي بنزلة برد شديدة مفاجئة وغير محتملة إثر عبوري نهر الاردن قادما من القدس. لقد نقلتني السيارة الملكية يومذاك ـ من قصر الملك ـ الى المدينة الطبية، وكان الدكتور سمير فراج بانتظارنا. وأخضعوني لسلسلة فحوص طبية دامت لمدة خمس ساعات ومكنتني من ان اعرف شيئا عن شخصية الدكتور المذكور، ولا شك ان البدلة العسكرية وبألوانها المختلفة وشرائطها الحمراء والصفراء أمر يلفت النظر ويثير الانتباه، ولكن الدهشة كلها تأتي عندما يتحول اهتمام الطبيب من المريض ـ الذي كنت أنا ـ الى بدلته العسكرية، وأوسمته التي كان حريصا على أن يشرحها لي.! وعلى عكس ما اعتدت أن أراه من منظر الألبسة البيضاء للأطباء الكبار في مستشفيات بيروت، والقاهرة ونيويورك وتل ابيب، كان كل أطباء المدينة الطبية يتمسكون بلباسهم العسكري وقبعاتهم الرسمية..!

وسألت الطبيب الخاص عن الأوقات المعينة التي تتم فيها زياراته للملك، فأجاب انه يزور الملك في الصباح ويفحصه وبعدها يذهب الى عمله...

وسألته عن نوع هذا "العمل" الذي يجعله يترك الملك ويأتي الى العيادة في المدينة الطبية بدلا من البقاء في غرفة خاصة ملحقة بالديوان الملكي ليكون في خدمة الملك ليلا نهارا.!

أجاب: هكذا يريد سيدنا...

قلت: ولكن عليك ان تنقذ سيدنا من نفسه. اعني، عليك ان تلازم

سيدنا بالرغم من ارادة سيدنا ! لقد طلبت مني الملكة نور - زوجة الملك - ان اواظب على توجيه النصح للملك بضرورة الخلود للراحة في ساعات ما بعد الظهر، وقد يكون هذا من شانك أنت. ومن واجبك ايضا. !

ثم قلت:

- ان الملياردير عدنان الخاشقجي ليس ملكا وليست حياته أغلى من حياة الملوك، ولكني اذكر جيدا، ان المستشفى الصغير الملحق بالسفينة "نبيلة"، التي كان يملكها مع كل احتياجات المستشفى مع طبيب خاص وطبيب باطني وممرضتان، بقيتا معنا لمدة شهرين كاملين ونحن في زيارة سلطان "بروناي" في أقاصي آسيا.. !

أجابني طبيب الملك حسين: لك يا أخي ان تتحدث مع سيدنا في هذا الموضوع.

ولكني لم اتحدث مع أحد، لأني لم اشأ ان أتعرض لأحد !

ان مثل هذا النوع من الاحاديث داخل دواوين الملوك، او في قصور الحكم لا تخلو من أخطار. انها كالقنابل المتفجرة. او كسلة الصواريخ التي لا تعرف اتجاهاتها واصاباتها الا بعد انطلاقها. !

وهكذا بقينا نجهل أمراضنا، ونجهل امراض زعمائنا، ونجهل الأسرار الكبرى المتعلقة بحياة هؤلاء الناس او بموتهم. !

وبعبارة أسهل: لم نعد ندري لماذا نعيش وكيف نموت !

وعندما مات الحسين بن طلال قلت وأنا أرثيه في التلفزيون الاردني انني كنت - حتى ذلك اليوم - اظن ان الملوك لا يموتون ! فاذ بالملوك مثل بقية البشر، وانهم مثلنا يموتون !

ولن انسى قصة المرض والأكل.. مع الملك خالد آل سعود. كنا في مدينة جنيف - السويسرية - التي كان يزورها الملك السعودي خالد بن عبد العزيز مرات كثيرة في الصيف والشتاء وكان يملك فيها قصرا منيفا

يطل على البحيرة الحالمة..

وصفقة شراء هذا القصر، لها قصة سيأتي ذكرها في مناسبة أخرى، اما الآن فيكفي ان اذكر جانبا من جلسات الملك خالد المسائية في القصر المذكور، والتي كانت يحضرها الدكتور رشاد فرعون، ونجيب الراوي، والدكتور شيح الارض، بالاضافة الى أخيه سلطان.. وأنا!

وكان من جملة الحضور صحفي سوري اسمه فوزي أمين، كان فيما مضى يصدر في دمشق مجلة اسمها "الضاحك الباكي" ولكن الذين قرأوا المجلة يقسمون بأنها تدعو الى البكاء لا الى الضحك!

واستطاع فوزي أمين، بذكائه الفطري ان يتسلل الى نقاط الضعف في شخصية الملك خالد وان يعرف بأن الطعام الشهي ـ يبقى القوة الخفية التي تتحكم في كل خطوة من خطوات الملك خالد.

وعلى الفور قرر فوزي أمين ان يتحرك..

واتصل بوالدته الشامية التي تقيم عادة في دمشق وطلب منها ان تترك كل مهام المنزل وتنصرف الى اعداد الأطباق الشهية من الطعام الذي يحبه الملك السعودي..

وأملى عليها لائحة مفصلة بأنواع الطعام المطلوبة، مع أسماء الايام المطلوب اعدادها ثم ارسالها فورا على الطائرة الى جنيف..

الاثنين: كوسا محشي. الثلاثاء باذنجان محشي. الاربعاء: مقلوبة باذنجان!

الخميس: "امام يا ولده". الجمعة: كبة حلبية. السبت: ورق عنب محشي مع كرشات خروق صغير! الأحد: زغاليل مدفونة بالرز..

ولا تنسو "حلو" البحصلي.. او الصمدي.. او "اصابع زينب" او بقلاوة "جبري"!

وبدأت هذه "الصواني" من المأكولات الشامية تصل تباعا على متن

الطائرات القادمة من دمشق الى سويسرا.

هذه طائرة سعودية أو سويسرية تحمل أطباق المحشي.

وغدا طائرة سورية تحمل أنواع الحلو..

وكلها ـ للعلم فقط ـ مأكولات ممنوعة ومحرمة على الملك خالد الذي كان يخضع لمراقبة طبية شديدة مع علاج مكثف لأمراض تتعلق بقلبه الضعيف!

وكل هذا، والطبيب الخاص للملك ـ وكان من اصل باكستاني ـ لا يعرف شيئا عن هذه المؤامرة على حياة الملك المريض بسبب انشغاله في شراء القمصان السويسرية الملونة من اسواق جنيف.

وكان الملك خالد حرصا منه على اخفاء الموضوع عن الحاشية، يخفي أطباق الأكل في خزينة الثياب بعيداً عن الأنظار!

وكان فوزي أمين يتابع ـ بكل نشاط ـ زيارة الملك في المساء والاطمئنان منه عن رأيه في أطباق المحاشي والمقالي!

وكنت بدوري أراقب هذه التمثيلية المحزنة التي أعدها وأخرجها وقام بدور البطولة فيها زميل صحفي قديم قد يكون له تاريخه مع رجالات سوريا القدامى من أمثال فخري البارودي وميخائيل ليان وفرزت المملوك. ولكن لا مجال هناك لأي مبرر يجعلنا نسكت عن مسلك رجل عربي واع يعرض حياة ملك عربي وقور جليل للموت من اجل الحصول على بضعة دولارات امريكية أو فرنكات سويسرية!

وقررت ان أكشف المؤامرة للطبيب الباكستاني الذي كان يشرف على صحة الملك وكان أيضا موضع ثقته.

وقلت للطبيب كل شيء. الطعام الذي كان يتسلل خلسة الى غرفة نوم الملك والجهة التي تحمل هذا الطعام للملك والمكان الذي يختفي فيه الطعام بعد وصوله الى القصر...

وجن جنون الطبيب وهرول صاعدا الى الطابق العلوي من القصر ودخل على غرفة نوم الملك وحمل أطباق الطعام وعاد بها متسللا الى الخارج!

ثم دخل على الملك وقال له ان "جيوشا" من النمل السويسري الاحمر والذي يحمل أخطر انواع الميكروبات قد استولت على أطباق الطعام والحلو الموجودة في غرفة نوم الملك مما دعا الطبيب الى حجز تلك الاطعمة واتلافها في مياه البحيرة!

وسكت الملك ولم يجب!

ودق جرس التلفون في منزلي في جنيف وسمعت صوت زميلي السابق جدا، فوزي أمين يسألني عن المكان الذي تباع فيه الخزائن الخاصة لهذا الطعام والمحاطة عادة بسياج دقيق يمنع دخول النمل الى الطعام.

سألته: هل تسألني عن خزانة اسمها: "النملية"؟

قال بسعادة: تماما! أين استطيع ان اشتري النملية؟!

قلت بكل برود:

ـ هنا في جنيف لا يصنعون خزانة "النملية" ولا يحتاجون اليها لان ليس عندهم نمل يا عزيزي!

قال بحدة: بل انا اعرف ان النمل موجود ويسمونه النمل الاحمر!

قلت: ان معلوماتك عن النمل مغلوطة وليس هناك نمل احمر ولا اصفر!

وانتهت المحادثة على وعد ان نعود ونلتقي في جلسة المساء عند الملك خالد في موعد صلاة المغرب...

وانتظرنا في المساء وصول الصحفي فوزي أمين، ولكنه لم يصل. لقد ذهب الى مطار جنيف لاستقبال الطائرة القادمة من دمشق واستلام الطعام المرسل من الوالدة العزيزة..

وانقطعت أخبار فوزي أمين!

وجلسنا الى مائدة العشاء من دونه..

وطلب الملك خالد من الدكتور رشاد فرعون ان يجري الاتصالات التي قد تدلنا على أخبار فوزي أمين..

وبعد لحظات دخل علينا الدكتور رشاد فرعون وهو يضرب كفا على كف ويقول ان سيارة قد ضربت فوزي أمين وهو يعبر الشارع الرئيسي المجاور لمطار جنيف وأنهم حملوه الى مستشفى كانتونال الحكومي!

وتضايق الملك خالد ولم يكمل الطعام..

وتبرع الامير سلطان سائلا بدهشة:

ـ ماذا كان يفعل فوزي أمين في مطار جنيف، كان أولى به لو جاء من منزله رأسا الى هنا كما اعتاد ان يفعل..

ورماه الملك خالد بنظرة حادة لم يكمل بعدها الحديث.. وهرول الدكتور فرعون، ومعه الدكتور مدحت شيخ الارض الى مستشفيات جنيف يبحثون عن رجل عربي ضربته سيارة مسرعة اسمه فوزي أمين!

وعثروا عليه في الطابق الارضي، في غرفة متواضعة من غرف الدرجة الثالثة في مستشفى الكانتونال بمدينة جنيف. ولكن الملك خالد بطيبة قلبه، وكرمه، وعطفه، ثم شعوره بأن فوزي أمين قد اصيب بسببه. وقد أمر ـ فورا ـ بنقل فوزي أمين ـ الى جناح خاص في الدرجة الاولى وان تكون كافة تكاليف العلاج على حساب خالد بن عبد العزيز!

وبقي فوزي أمين يتلقى العلاج على نفقة الملك خالد لمدة عامين كاملين!

وفي ذلك المساء، وفي قصر الملك خالد على شاطئ بحيرة جنيف، جلس بجانبي دكتور الملك الخاص ـ أعني الباكستاني ـ وهمس في أذني قائلا:

ـ ان الله يمهل ولا يهمل!

قلت بسذاجة: مش فاهم!

قال على الطريقة الباكستانية الصارمة الجادة:

- لولا تدخلي في الوقت المناسب، لاستمرت المؤامرة وتعرضت حياة الملك للخطر..

قلت: الفضل لله اولا، ولك ثانيا..

وهز رأسه موافقا. ولم يقل انه كان سارحا في شراء القمصان الملونة وغائبا عن الأحداث الجارية، وغافلا عما كان يقوم به "فوزي أمين" في أوسع عملية تموين بين دمشق و.. سويسرا...

ترى، هل الى هذا الحد "المتواضع" تنحط الرعاية الطبية لملوكنا الطيبين؟.

ترى وهل كانت الرعاية الطيبة لملك المغرب الحسن الثاني ولافراد عائلته أحسن حالا من رعاية الأطباء لملوك الشرق ورؤسائه؟!

بدأت علاقتي بالمغرب العربي في زيارة صحفية سمح لي بها او دعاني اليها جلالة الملك محمد الخامس، والد الملك الراحل الحسن الثاني وجد الملك الشاب الحالي محمد السادس! وتمت المقابلة في فندق "مونترو بالاس" بمدينة مونترو السويسرية في صيف عام ١٩٥٤.

وجلسنا على التراس المطل على بحيرة "ليمان" نتحدث عن عذاب النفي - تارة - وعن فرحة الحرية تارة أخرى!

وكان ابنه الثاني - مولاي عبد الله - لم يتزوج بعد من ابنة رياض الصلح، وبالتالي لم يكن هناك أي حرج عندي من ان اسأل كما أشاء، وأن يجيب "السلطان" على اسئلتي كما يشاء!

وأشهد ان أول ما كان قد شد اهتمامي في شخصية محمد الخامس هو بساطته التي تشبه بساطة الدراويش! بسيط في ملبسه! بسيط في غطاء رأسه! بسيط في كلامه! بسيط في اسلوب معاملته مع الجرسون

السويسري عندما طلب لي فنجانا من الشاي. !

والشيء المميز في شخصية محمد الخامس، هو ميله الى التذكير المُلح بما جرى له في أيام المنفى: "كانوا يسكبون لنا ماء الشرب في علب السردين! وكانوا يرفضون لنا النوم على سراير حديدية او خشبية، ويفرشون لنا "المراتب"على الارض!! وكانوا يمنعون عنا الرسائل القادمة الينا من الأهل! وكانوا يحاولون الحاق الاهانة والأذى بابني عبد الله بالشتائم وسوء المعاملة! ورفضوا السماح لنا بجهاز راديو.. او تلفون! ورفضوا السماح لنا بالاطلاع على الصحف! تلك هي طبيعة المعاملة الفرنسية لخصومهم. وقد يدخر لك الحارس الانجليزي ـ مثلا ـ بعض الاحترام، أو بعض الراحة، أو بعض الحقوق، أما الفرنسي فلا شيء! أنت عند الحارس الفرنسي مجرد سجين.. ومجرد عدو.. ولا يحق للعدو أو السجين التمتع بأي قسط من معاني الحرية والكرامة!.."

ومد السلطان يده اليمنى الى الخلف وراح يمسح كتفه الأيسر بضربات خفيفة وهو يقول لي:

ـ "كان الجو في الجزيرة مثقلا بالرطوبة. والرطوبة هي عدوي اللدود! وأنا أشكو أوجاع الروماتيزم في مفاصلي. وولدي عبد الله يشكو من أوجاع في ظهره. وزادت رطوبة جزيرة المنفى من آلامنا! إنني اتوق للعودة الى الوطن بفارغ الصبر لكي أسلم نفسي للأطباء. !"

والواقع ان وجه السلطان، في تلك المقابلة لم يكن يطفح بالصحة بقدر ما كان مائلا الى الصفرة والتعب والذهول والذبول!

وبعد ذلك بسنوات، كنت أعمل سفيرا متجولا للجامعة العربية عندما طلب مني "حسونة باشا" ان أقابل جميع السفراء العرب المعتمدين في لندن وأن أتحدث معهم في مواضيع الحلف الاسلامي أولا، ثم الأحلاف العسكرية، ثم تحويل مياه الاردن...!

وبدأت العمل في مقابلة مع الأميرة المغربية "عائشة"، سفيرة بلاد المغرب في بلاط سان جيمس.. والشقيقة الكبرى للملك الحسن!

كان موعدي معها في الحادية عشرة صباحا، وفي منزل السفيرة، لا في دار السفارة.

ومشوا بي الى صالون الدار، فإذ بي أمام غرفة مظلمة تكاد تلتهب من فرط دخان السجائر وغبار السهر وسوء التهوية..

وبعد ساعة كاملة من الانتظار، هبطت سمو السفيرة من غرفتها في الطابق العلوي، ومدت يدها تصافحني وهي تقول:

ـ ان الجو في لندن لا يساعد على ان يترك المرء.. فراش نومه!

ثم تابعت وكأنها تعتذر:

ـ أنا في العادة أصحو في العاشرة، ولكني اليوم تأخرت قليلا..

ثم مدت يدها الى الصندوق الفضي المليء بأنواع السجائر، وأخذت منه سيجارة، التهمت منها رأسها المشع وهي تسحب الدخان الى داخل رئتيها ثم تقول لي:

ـ ان يومي لا يبدأ الا مع.. سيجارتي سواء مع قهوة، او بدون قهوة.. مش مهم. السيجارة وحدها هي المهم!

وعندما فاجأتها السعلة الاولى قالت وهي تسعل بعنف:

ـ هذه هي لعنة السجائر!

ورحت انتظر هدوء العاصفة وانقطاع السعال لكي ابدأ في الحديث. وبعد لحظات جاء المطلوب وقلت للسفيرة الاميرة او الاميرة.. السفيرة:

ـ في بلادنا يتحدثون في هذه الايام عن العروبة والاسلام، ترى من ـ في بلادكم او في رأيكم الرسمي، يسبق الآخر، العروبة تسبق الاسلام، أم الاسلام يسبق كل شيء!؟

قالت باصرار وكأنها قد غزت جبل طارق وفتحت بلاد الاندلس:

ـ بل الاسلام يسبق كل شيء! نعم.. كل شيء!

قلت: ولكن لبنان ـ مثلا ـ بلد عربي ولكنه ليس مسلما!

أجابت: هذا "اللبنان" مشكلة.. نبحث لها عن حل!

قلت: ولكنه عضو في الجامعة العربية التي أعمل سفيرا لها في بلاد العالم.. فما هو الحل عند سموك لمشكلة لبنان؟

قالت وهي تحدق بصورة خط مستقيم في وجهي:

ـ هل أنت سفير.؟

قلت: نعم.

قالت: سفير من؟

قلت: سفير الجامعة العربية!

قالت: وهل أصبحت هذه الجامعة العربية دولة حتى يكون لها سفراء؟

قلت: الموضوع يحتاج يا سيدتي الى شرح طويل.

قالت: كثيرا ما تختلط عندي الامور في الاسماء، والمواقع، والأحداث، وعندما قيل لي أول أمس ان سفيرا للجامعة العربية سيأتي لمقابلتي ظننت أنك مدير مكتب الجامعة في لندن ـ وهو كما أذكر شاب لبنان ومسيحي واسمه "رزق"، هل أانت رزق؟

قلت ضاحكا ومتفجرا:

ـ الرزق يا أميرتي على الله!

ـ أنت لست لبنانيا..

قلت: لا.

قالت: ولا أنت مصريا.!

قلت: لا..

قالت: اذن نعود الى موضوع لبنان. ان الحل الذي أراه لمشكلة لبنان ـ العربي وغير المسلم ـ هو ان يبقى لبنان كما هو ونبقى نحن كما نحن.

ثم قالت بلغة نصفها فرنسي ونصفها الآخر مغربي:

ـ أنا لا اريد ان أتعرض الى لبنان بأي سوء. ان اخي ـ مولاي عبد الله ـ متزوج من لبنانية وكلنا نحبها! هل تعرف أننا أصهار لأهل لبنان؟

قلت باختصار وأنا أهز رأسي:

ـ نعم! أعرف!

قالت: هل تعرف من هي زوجة أخي مولاي عبد الله؟

قلت مع هزة رأس اخرى:

ـ نعم أعرف.

قالت وكأنها تصر على التحدي:

ـ هل تعرفها؟ هل قابلتها شخصيا؟

قلت مع ابتسامة بلهاء وجواب مختصر:

ـ نعم.. أعرفها!

ولشدة دهشتي واستغرابي سمعت شقيقة ملك المغرب وسفيرة بلدها في لندن تترك الحديث عن العروبة والاسلام لكي تسألني بكل صراحة او جرأة او سخرية:

ـ وما هو رأيك في زوجة أخي يا زميلي سفير الجامعة؟ هل رأيت صورتها في مجلة "باري ماتش"؟

وأجبتها وقد قررت أن أدخل في اللعبة حتى النهاية، غير مبال إن كانت الاميرة جاهلة.. أم متجاهلة:

ـ أنا أعلم أن زوجة الأمير تنتسب الى عائلة لبنانية كريمة.. وأن لها "٤" شقيقات.. وأن اختها الصغرى متزوجة من سفير لبناني.. وأختها الاخرى

كانت متزوجة من أمير سعودي.. والصغرى في التسلسل متزوجة من ابن شخصية لبنانية مرموقة. أما الأخت الكبرى فقد كانت متزوجة من صحفي فلسطيني ـ يسمونه في لبنان "جورنالجي"، ويصفونه في صالونات بيروت الشرقية باللاجىء.. "ريفيوجي" وعندما تزوجها الفلسطيني كسب عداء نصف أهل لبنان وربع أهل حلب ولعنة ثلث أهل الخليج وحسد قبضايات بيروت! وغضب عليه أهل بلده لأنه تزوج من لبنانية ولم يتزوج من.. مقدسية أو من احدى بنات عائلته.!

وسألتني الأميرة بكل سباطة، أو كل سذاجة، أو كل جهل أو تجاهل:

ـ وما هي أخبار هذا الصحفي حاليا. هل تعرفه. لقد سمعت انه صحفي مشاغب ومشاكس ونمرود وأنه يحب المعارك ويهاجم الملوك والرؤساء ولا يعجبه سوى جمال عبد الناصر.. رغم أنه من عائلة فلسطينية محترمة. هل هذا صحيح؟ وما هو اسم عائلته؟

قلت للأميرة المغربية مقاطعا وكأني اريد ان اهرب بها ـ ومعها ـ من هذه التمثيلية اللغزية الى قصة قد تذكرها بالمستوى التافه الذي قد يصل اليه ذكاء بعض "السفيرات" العربيات في الوطن العربي، قلت:

ـ كان عبد الحميد غالب سفير مصر في لبنان هو الداء السحري الذي جعل كل مسيحيي لبنان يكرهون مصر، وعبد الناصر، والعروبة! كان أبعد الناس عن المسلك الحميد والاستقامة في العمل! وكانت زوجته تتحدث اللغة العربية وكأنها سيدة برازيلية جاءت الى الشرق من سان باولو! لقد سمعتها مرة، على مسمع من الموسيقار "محمد عبد الوهاب" تسأل زوجها ان يدعونا الى تناول الافطار في دار السفارة لانها تريد ان تطبخ لنا بنفسها الطبق المعروف الذي يأكله "النسانيس"؟! ودهش عبد الوهاب وسألها عن اسم هذا الطبق الذي تأكله "النسانيس" وتلعثمت السيدة المصرية حرم السفير عبد الحميد غالب وأجابته باللغة الفرانكو ـ آراب: أنا بسأل عن

الشيء اللي اسمه زي الفستق الحلبي.. "البستاتش".!

وقاطعها زوجها السفير يسألها:

ـ أوعي تكوني بتسألي عن اسم.. الفول!

وأجابت السيدة زوجة السفير التي تشبه كارمن ميراندا:

ـ هو ده! الفول.. الفول.. طبق الفول!!

قلت وما زلت في دهشة من هذه الغيبوبة... الملكية:

ـ هل تسمح لي سمو الأميرة ان نعود الى موضوع العروبة والاسلام!

قالت بكل بساطة: أنا أجبتك! الاسلام اولا والاسلام آخرا.. وليس عندي أي رأي آخر.!

قلت: وماذا عن المؤامرة اليهودية لتحويل مياه نهر الاردن؟

قالت بكل بساطة: أنا سأطلب من أخي ان يطلب من صديقه اليهودي "بن عمار" ـ زعيم الجالية اليهودية في المغرب ان يمنع جماعته في اسرائيل من الاعتداء على مياه الاردن..

قلت: وماذا عن الحلف الاسلامي؟

قالت:

ـ اسأل عنه الملك سعود! نحن لا نستورد حلول قضايانا من امريكا!

ثم سألتني الأميرة عما اذا كنت مستعدا لتناول طعام الافطار في معيتها. وكانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهرا. ورائحة السجائر الخانقة لم تترك لي أية شهية للأكل، والأجوبة الملكية عن المشاكل العربية لن تحظى بتقدير حسونة باشا، مع التمثيلية العجيبة التي تعمدت الأميرة ان ترسمها وتؤدي فصولها "عني"، كل هذا جعلني أشكر الأميرة المغربية على حسن استقبالها وأن أعد بأن أبرق بمضمون حديثها "الشيق" الى أمانة الجامعة العربية، وأن استأذن بالانصراف..

وهرعت أجري الى الباب الخارجي بحثا عن نسمة هواء واحدة لم يفسدها دخان مكتب الأميرة!

فعلا كدت اختنق!

ولم أعد اسمع بعدها عن دنيا المغرب العربي لولا أن شخصية مغربية فذة اسمها: عبد الخالق الطريسي قد دخلت حياتي.

وكان "الطريسي" سفيرا للمغرب في القاهرة.

وكان مقربا من عبد الناصر..

وكان منزل السفارة مجاورا للعمارة التي أسكن فيها بحي الزمالك.

وعندما جاء الملك الحسن للقاهرة في عام ١٩٦٣ ضيفا على عبد الناصر، دعوته للعشاء في منزلي بناء على رغبة منه. وطلب ان يكون العشاء في صورة سهرة، يحييها فريد الاطرش وترقص فيها سامية جمال ولا يحضرها سوى سفير لبنان وسفير المغرب.

وهكذا كان لولا ان الموعد المتفق عليه بيننا كان في تمام التاسعة مساء، ولم يحضر جلالة الملك الحسن الى منزلي الا في الرابعة صباحا حيث كان فريد الاطرش، مع افراد فرقته الموسيقية مع سامية جمال مع سفير لبنان جوزيف ابو خاطر، مع الجرسونات، قد انصرفوا للنوم...

وعندما وصل الملك الى منزلي في تلك الساعة المتأخرة قال لنا على الفور:

ـ أنا أعتذر ولكنها ليست غلطتي. لقد صحبني عبد الناصر لزيارة المعرض الصناعي المصري المقام على ارض الجزيرة لكي يثبت لي نجاح مشاريعه الصناعية في مصر. ولكني اعتقد ـ رغم هذه الزيارة ـ ان المصانع المصرية التي بناها عبد الناصر لا تقدر على انتاج "مسمار واحد"!

وقهقه الملك الحسن وسألني:

ـ أين فريد الاطرش؟

قلت: ذهب لكي ينام. وكل المدعوين كذلك.

قال: لا بأس. بعد ساعة واحدة ستذهب معي في السيارة الى منزل عبد الناصر لكي نمر عليه ونأخذه معنا الى المطار. ان طائرة "الكارفيل" الملكية المغربية تنتظرني لكي تحملني عائدا الى بلدي!

في تلك السهرة تعرفت قليلا على الجو الملكي الخاص بالملك الحسن عندما استمعت الى حوار مفتوح دار بين الملك وسفيره في القاهرة السيد عبد الخالق الطريسي، وهو أيضا من أقطاب حزب الاستقلال المغربي ومن المجاهدين القدامى.

سأل الملك سفيره عن "أقرب" موظفي السفارة الى قلبه؟ فأجاب السفير انه "زياد المفتي" المستشار في السفارة!. قال الملك: هل له شقيقة؟ قال الطريسي: لا! قال الملك هل له زوجة جميلة؟ قال الطريسي: لا! سأل الملك هل هو جميل الصورة؟ قال الطريسي: أجل يا أمير المؤمنين. انه جميل الطلعة.

وعندها صرخ الملك الحسن يسأل سفيره:

ـ هل أصبحت تعشق الجنس الآخر يا عبد الخالق!

ولكن عبد الخالق بقي لا يعشق الا المرأة..

وفي آخر شهور عمله في القاهرة، وقع في حب فتاة مصرية ـ قبطية ـ صغيرة تعيش في حي الزمالك وتزوره في مكتبه! وكان السفير يغدق عليها الهدايا من كل نوع! وكان ينشد لها القصائد الاندلسية التي لم تكن تفهم شيئا من معناها. وكان يغني لها الموشحات الاندلسية وفي مقدمتها موشح:

يا ليل طل او لا تطل	لا بد لي ان أسهرك
لو كان عندي قمري	ما بدت أرعى قمرك

وعندما احتفل "الطريسي" بزفاف ابنته في مصر، كان شاهد الحفل ووكيل العروس الرئيس عبد الناصر! ثم انتقل "الطريسي" عائدا الى بلده

بعد ان استهلك معظم ما كانت تنتجه مصانع الدخان في مصر، ولندن، من سجائر وسيجار... وتنباك!

وهذه هي نماذج الانسان المغربي الذين عرفناهم على مدى السنين:

ـ طيبة قلب بلا حدود. ونهم للحياة يبحث عن الجمال والحب والموسيقى والغناء! وكان الأمير مولاي عبد الله عندما يستمع الى لحن افريقي راقص، تهتز أوصاله وأطرافه رغم أنفه! وكان أحلى نغم عنده هو اغنية "يا مصطفى يا مصطفى" يغنيها بوب عزام! وكان موضوع الصحة او رعايتها او الاهتمام بها يأتي دوما في آخر القائمة. كلام ينطبق على عامة الناس، كما ينطبق ايضا على الحكام والملوك. لقد بقيت اغنية "جريت وجريت" المغربية تدق قلبي حتى هذا اليوم بصوت مطربتها ـ سميحة ـ المصابة بأمراض كثيرة! وبقي صوت عبد الهادي يرافقني عبر البحار والجبال. وليس في الدنيا سحر كسحر طنجة، او أغادير، او مراكش، واذا كان أهل لبنان يفخرون بعشرة اشجار "أرز".. فان في جبال المغرب مليون شجرة أرز. ولكن ذلك كله لم يستطع ان يوفر للمغرب مالا يغني المواطن "الرجل" عن الهجرة الى الخارج، او يضمن للمرأة حياة عادية داخل بلدها. ولولا "المساعدات" السعودية ـ والامريكية ـ لعجزت الخزانة المغربية عن دفع رواتب الموظفين!

والكل يمزج الجد بالهزل..

وعندما قابلت الملك الحسن في فندق كريون بباريس عام ١٩٦٥ وتحدثنا في كل شيء الا في السياسة، قال لي وهو يودعني على باب شقته الملكية في الفندق:

ـ لو سألك الصحفيون المتجمهرون في صالون الفندق عن سبب مجيئك لمقابلتي، قل لهم أننا تحدثنا في امور طارئة حول قضية: "الشرق الاوسط"!...

ويا قضية "الشرق الاوسط" كم من الآثام ترتكب باسمك..

ترى هل كان عجيبا بعد كل هذا ان يتحول موت هذا الملك الى سر من الأسرار؟ وأن يموت الملك خلال ساعات قليلة متتابعة ومتناثرة من ساعات الصباح؟

قال لي المطرب عبد الحليم حافظ بعد عودته من أول زيارة له الى المغرب:

ـ لن أعود الى المغرب بعد اليوم، لقد أهلكني الملك الحسن سهرا، وغناء.. وتلحينا..!!

وكان معروفا ان الحسن لا يطيق النوم، ولا يطيق الأكل، ولا يطيق البعد عن المرأة، أو المال، أو النفوذ، أو اللذات!

وبحثا عن المال والمرأة والنفوذ واللذات، سقط الملك الحسن في أقل من ساعات ثلاث.. أليس مما يدعو الى الدهشة والأسى ان تبقى هذه المرأة هي القوة السحرية التي تسيطر في وجودها وفي غيابها على "جميع" تصرفات الحاكم العربي؟

... وكذلك على جميع تصرفات الحاكم.. الشرقي؟

وكذلك، على جميع تصرفات الحاكم.. المسلم؟!

وسأروي فيما بعد مشهدا شهدته بنفسي من حياة الرئيس الاندونيسي، سوكارنو.. الذي كنا نهتف بحياته وجهاده عندما كنا نهتف بحياة "باندوغ" والحياد الايجابي، وعدم الانحياز!

هذا السوكارنو، لم يكن اكثر من فضيحة جنسية متعفنة ومتنقلة منذ خروجه من ارض وطنه، ومجيئه الى مصر ووصوله الى المغرب في زيارة رسمية.

وكل ما كان يفعله سوكارنو علنا، كان يفعله الملك الحسن وشقيقه وافراد عائلته سرا. وعندما كان مولاي عبد الله يشكو من تصرفات شقيقه

الملك، ومن شكوكه، ومن اعتقاده بأن كل أقاربه ـ ومنهم مولاي عبد الله ـ يعملون في وكالة المخابرات الامريكية ويتآمرون على الملك مما جعل هذا "الملك" القلق يقطع ـ ذات مرة ـ علاقته بأخيه، ويأمر الجيش بمحاصرة منزله، وأن مولاي عبد الله يتآمر مع عديله السفير اللبناني في الرباط ـ سعيد الأسعد ـ على العرش المغربي.. أقول، عندما كنت أسمع عبد الله يشكو من الحسن كنت أردد في سري المثل الشعبي المعروف:

ـ فتش عن المرأة! وفتش عن الصحة! وفتش عن المرض! وفتش عن السهر والملذات!

وفي قصور المغرب، نساء ذكيات متآمرات ودساسات وطموحات لا تقل الواحدة منهن دهاء ولا مكرا عن جواري السلطان عبد الحميد!

لقد رأيت "مولاي الأمير" عبد الله من بعيد، وهو يودع مكة والمدينة ويسافر عائدا ـ بلا رجعة ـ الى بلده كي يموت! وكنت اسكن في شقة تجاور شقته في "قصر المؤتمرات" ـ بجدة في السعودية المعد لاستقبال كبار الضيوف. وكانت الدنيا رمضان، وجو القداسة يخيم على المدينة. وعندما جاء نفر من الامراء السعوديين لمرافقة الأمير الصديق الى المطار في رحلة الوداع الاخير، لم أملك الا أن اتجه صوب مكة وأنا اتمتم بعض كلمات تدعو لصديقي الأمير المعذب مولاي عبد الله بالرحمة والشفاء، وتدعو على شقيقه ملك الملوك بالنقمة والحساب!

لقد استبد المرض المخيف بكل تصرفات الملك الحسن وجعله أسير هواجسه وشكوكه، تماما، كما قال لي المستر "برجنسكي" مستشار الامن القومي على ايام كارتر، في معرض حديثنا يومذاك عن مرض شاه ايران وأثره على قرارات الشاه في سنواته الاخيرة، قال لي "برجنسكي" حرفيا ونحن في مكتب الشيخ ناصر ـ وزير الاعلام الاسبق ـ في الكويت:

".. ان احدا لم يكن يدري مدى خطورة حالة الشاه الصحية وآثارها

المدمرة على قراراته. وقد قابل برجنسكي الرئيس الفرنسي جيسكار ديستان وسأله ان كان على علم مسبق بأمراض الشاه او انه قد سمع شيئا عن هذا الموضوع من الأطباء الفرنسيين الذين كانوا يعالجون الشاه خلال وجوده في طهران، فرد جيسكار ديستان بالنفي، لكنه قال انه يعتقد جازما ان أمراض الشاه كانت تنعكس مباشرة على كل قراراته وتجعله معرضا دوما للأخطاء القاتلة وسوء التقدير، سواء بالنسبة لايران، أم بالنسبة لقضايا العالم.."

تماما..

تماما كما كان الحال بالنسبة لأمير المؤمنين الملك الحسن، ملك المغرب السابق، غفر الله له وطيّب ثراه.

* * *

ثم أنتقل الآن الى "ملعب" آخر من ملاعب الذكريات!

لقد اراد الحسن ان يحارب الزعيم الجزائري احمد بن بيلا، وان يسقط الطائرة الجزائرية على حدوده مع الجزائر، وان يفتعل الازمات مع جمال عبد الناصر، الأمر الذي دعا الاعلام المصري الرسمي ـ بلسان الوزير عبد القادر حاتم، لكي يطلب مني ومن زملائي في دار الجمهورية بوجوب شن الحملة المركزة على الملك الحسن. يومذاك حاولت ان اعتذر بداعي القربى او المصاهرة، ولكن الضغط لم يخف والاعتذار لم يعد مقبولا اذ كتبت مقالا افتتاحيا كان عنوانه:

"هذا الحسن ليس بالحسن!"

وأكملت الكلام بحديث للنبي "صلعم" يقول فيه:

"روى الحسن عن أبي الحسن عن جد الحسن أن أحسن الحسن الخُلق الحسن!"

وأنهيته قائلا: "ولكن خُلقه ـ هذا الملك ـ ليس بالحسن!".

وبالطبع، قرأ الحسن الذكيّ مقالي وهدد بقطع العلاقات معي!

وأجبت الرسول الذي حمل لي هذا التهديد: المسامح كريم!

سعيدة.. يا سعيد!

كان من بين زملائي في جامعة بيروت الامريكية نفر من عائلة "سعيد" بالقدس، أعني من العائلة العربية المسيحية المعروفة التي كانت تسكن حي "الطالبية" في بيت المقدس، وكان وجهاؤها ـ يعملون في التجارة والاقتصاد.

وبينما انخرط بعض وجهاء المسيحيين العرب في القدس في العمل السياسي، مثل شبلي الجمل، وعزت طنوس، واميل الغوري، ومغنم مغنم ـ سكرتير حزب الدفاع الوطني ـ ويعقوب فراج، وفؤاد سابا، وغيرهم، نرى البعض الآخر من هؤلاء المسيحيين قد احترف العمل التجاري والمالي مثل قسنطدي سلامة، وجلاد، وشكري ديب واولاده، ويوسف البينا، وعائلة "سعيد" التي ينتمي اليها الكاتب المؤلف الشهير ادوارد سعيد.

وكما ان أهل السياسة أمعنوا في ممارسة العمل السياسي الفلسطيني، كذلك اكتفى أهل المال والاقتصاد بحدودهم "الحياتية" ولم يكن لهم أثر يذكر في العمل السياسي العام في عاصمة فلسطين.

وفي جامعة بيروت الامريكية، تعرفت وأنا المقدسي، الى نفر من أبناء

عائلة سعيد، منهم جورج الذي انخرط في سلك الكهنة وشقيقته الآنسة "ايفلين سعيد"، ولكنني لم أتعرف على ادوارد الا بعد ان راح يمطرنا بالمؤلفات "الاستشراقية" من مقر عمله في جامعة برنستون بمدينة نيويورك..

وأبادر وأعترف بأن ادوارد سعيد قد أفاد العرب وأفاد المكتبة السياسية بهذه الطفرة المميزة من كتاباته، رغم أنه لم يصل بعد الى مستوى جورج انطونيوس في كتابه "يقظة العرب"، ولا الى البرت حوراني او فائز صائغ او حتى كلوفيس مقصود وهشام شرابي. ذلك، واقولها بلا تردد ولا تحامل أن في كل ما قرأناه لادوارد حتى اليوم كنا نفتقد "ضربة " الحقد، او ضربة التحدي، او ضربة الشكوى او ضربة الألم التي كنا نحس بها في كلمات صايغ والخالدي وتحليلات المؤرخ التاريخي البرت حوراني.

هنـاك آلام شـرقية وفلسطينية وعربية تنبض دما وشوقا ودموعا لم يشعر بها ادوارد سعيد! هناك تظلم انساني عاطفي وتوجع قومي وصراخ مقدسي طويل لم يظهر في كلمات ادوارد سعيد. هناك صراحة دموية في اختيار الكلمة والعبارة. وهناك أمور كثيرة تعمد هذا العربي المثقف او الامريكي المستعرب ان يتجاهلها مكتفيا بالتفجع على ضحايا "الهوكوست" ومتعمدا ان لا ينال هنري كيسنجر، او مادلين اولبرايت، او مارتين انديك او دينس روس ـ وكلهم من أبناء العم الأعزاء ـ بكلمة واحدة.

ولعل هذه النرجسية الواضحة في تصرفات ادوارد سعيد قد دفعته الى فتح المعارك المتلاحقة كلما شعر بأن نجمه قد اقترب من الأُفول. لقد اصبح هذا المواطن السعيد نسخة اخرى من دون كيشوت في محاربته لنسخة جديدة من طواحين الهواء.

وقد دخل ادوارد في حرب طويلة وغير مبرر لها ضد الرئيس ياسر

عرفات، بادر الى مهاجمة ألف خطوة من خطوات السلام الذي تسعى اليه منظمة التحرير في السنوات الخمس الاخيرة، لانه بقي بعيدا عنها ولانه أراد ان يكون وصيا "امريكيا" عليها! وكل كتاباته تحمل اسمه مقرونا بلقب البروفيسور.

عال، ولكن لماذا الحرص على هذه "البروفيسورية" في عالم فلسطيني عربي شرقي لم يعد يهمه التمسك بالالقاب الاكاديمية بقدر ما تهمه استعادة حقوقه.. استعادة كرامته، ثم لماذا التغني "باللجوئية" وعذاب اللاجئ وآلامه و"أملاكه" بينما هو يعلم ان معظم أهل حي "الطالبية" في القدس من المسيحيين ومنهم طنوس، ومغنم، وكعيبني، وسلامة، والجمل، ليس بينهم السيد وديع سعيد أو أخوه او زوجته من الذين تعرضوا مباشرة ـ دون غيرهم ـ الى القهر الاسرائيلي فتركوا منازلهم وأموالهم وهربوا.!

ولعل ادوارد قد نسي أنه محسوب على أهله من الفلسطينيين، كما ان أهله من الفلسطينيين محسوبون عليه.. أعني المكاسب للفرد تصب في خانة المكاسب للمجموع، والخسائر للفرد كذلك.

ورغم ان كل جامعات فلسطين، تشعر بالفخر والاعزاز عندما يقترب اسم "ادوارد سعيد" من اسمها. ولكن ادوارد اكتفى كما يبدو من كل جامعات فلسطين بجامعة واحدة هي جامعة بير زيت، لا بأس ولكن. جاء يزورني الدكتور محمود عباس الاستاذ المحاضر في نابلس وفي القدس وفي رام الله لكي يقول لي:

ـ ماذا عن جامعة النجاح، وجامعة القدس، وجامعة بيت لحم وجامعات الخليل وغزة. ألا تستحق واحدة من تلك الجامعات ان "يشرفها" ادوارد سعيد بمحاضرة ولو موسمية، واحدة؟ نحن لا نريد ان نصدق همسات الخبثاء الذين يعيدون الاسباب الى قضايا دينية!

واخيرا، قرر الدكتور ادوارد سعيد، المفكر الجامعي الذكي ان يكتب عن ... تحية كاريوكا!

وأنا لا اريد ان أصدق ان ادوارد سعيد - اياه - ما زال شابا يافعا مفتونا بقده الممشوق ووجهه الطفولي وشعره الاسود، وأنه ما زال ينعم بأحلام المراهقة وشجونها.!

والا ما الذي يجمع بين عقل ادوارد سعيد وجسد السيدة الراقصة تحية كاريوكا؟

أنا اعرف تحية كاريوكا جيدا على مدى الخمسين سنة الماضية، كما أنني عرفت عائلة ادوارد سعيد، وبالأخص أعمامه "بولس ووديع سعيد" اصحاب مكتبة "فلسطين العلمية" التي كنت اشتري منها الكتب الانجليزية ايام الانتداب. وكان مقر هذه المكتبة في زاوية خلفية تكاد تكون مظلمة، ومتفرعة من شارع "يافا" بالقرب من مبنى بلدية القدس، وبالتحديد بالقرب من المبنى العام الذي شيدته بلدية القدس لكي يلبي حاجات السواح الاجانب اذا فاجأتهم نوبات الاسهال او ضغط البول او غازات المعدة.

لقد عرفت تحية ورقصاتها، كما عرفت ادوارد ومؤلفاته، وبكل صراحة، ووضوح، لا أجد أي رابط بين الرقص والفكر، ولا بين شارع محمد علي، او شارع عماد الدين وحي كلوت بيك من جهة وجامعة برنستون الامريكية من جهة اخرى.؟

ترى ما الذي يجعل استاذا كبيرا مثل ادوارد سعيد يصر على زيارة الراقصة تحية كاريوكا في منزلها لكي يسألها وبكل دلال وكل صراحة وكل الحاح:

- كم مرة تزوجت يا تحية؟

هل ذهب اليها - وهو الفلسطيني الشاكي - لكي يهنئها على "تمصير"

الرقص الشرقي واستعادة عرش هذا الرقص من اللبنانية بديعة مصابني كما "استعاد" يوسف وهبي عرش التمثيل المصري من "اللبناني".. الشامي.. جورج ابيض!؟

وهل يليق بكاتب استحل لنفسه أمجاد الدفاع امام العالم عن القضية الفلسطينية، ان ينتهي به العمر لكي يتغنى براقصة مصرية.. "ويتغنى بابتسامتها الصغيرة التي كانت تطفح على الوجه المستغرق في تفكير ذاتي... وكأنها كانت تتأمل جسدها ذاتيا.. وتستمتع بحركاته.. وكانت ابتسامتها تطهرها بفضيلة التركيز المنصب على دواخلها العميقة وافكارها الشاردة في النفس.."!!

أية دواخل؟ أية أفكار؟ أية نفس؟ أية فضيلة؟

هل تحول ادوارد سعيد الى كاتب فني مسرحي سينمائي واصبح اسمه بديع سربيه او مصطفى القشاشي صاحب مجلة "الصباح" او جليل البنداري في "أخبار اليوم".

في الماضي غير البعيد، عرفنا في القاهرة وفي بيروت نماذج بشرية صحفية وسياسية... ومخابراتية من أمثال المستر "هاري كير.." – رئيس تحرير مجلة النيوزويك الامريكية، ومساعده النشيط السيد اللبناني "سمير سوقي" - رحمه الله - وكان كل منهما مغرما ودودا ومتعلقا جنسيا بالسيدة تحية كاريوكا.

وكنا نعلم ان أسرار تلك العلاقة لم تنحصر في الجنس وحده، وانما تعود الى جذور سياسية - سرية - تجعل من تحية كاريوكا شيئا مهما بالنسبة لرئيس واحدة من أرقى مجلات العالم.

ترى هل جاء ادوارد سعيد لكي يمشي على خطى معلمه أو زميله الامريكي القديم، ودعونا من ذكر الاسماء، ويتعلق بأهداب تحية اخلاصا منه لذكرى معلمه.. والوكالات التي كان يعمل فيها سرا؟!

رحم الله السيد "هاري كير" .. الصحفي الامريكي الشهير.

ورحم الله "سمير سوقي" .. مساعده اللبناني .!

ورحم الله تحية كاريوكا .!

لقد حل موسم الشتاء وحان موعد القاء المحاضرات والخطب. وحمل لي البريد دعوة للاستماع الى محاضرة ـ جديدة قديمة ومكررة ـ للبروفيسور ادوارد سعيد عن العرب والعالم..

ورميت الدعوة في سلة المهملات!

ان من يعاشر تحية كاريوكا، ويتغزل بها ويفرد لها المقالات الطويلة، لا يحق له ان يكتب عن .. بلدي. ولا يحق لي ان استمع اليه أو اقرأ له!

لقد قال لها: وداعا تحية!

وأنا أقول له: وداعا يا بروفيسور..

وبعد هذا ...

ترى ماذا يهم ستة ملايين لاجئ فلسطيني لو عرفوا أم لم يعرفوا ان البروفيسور ادوارد سعيد لم يكن يحب والده الامريكي الهوى والجنسية بقدر ما كان يحب والدته.. مثلا! وماذا يهم اللاجئ الفلسطيني في مخيمات نهر البارد في لبنان، او "البقعة" في الاردن لو عرف أو لم يعرف ان ادوارد سعيد يحب التركيز على المتناقضات في حياته العامرة وأنه رجل شديد الغضب..

ترى، هو شديد الغضب على من؟

هل عضب على والده الذي ـ وباعترافه شخصيا ـ لم يكن يحترم جمال عبد الناصر ولم يعطه الاهمية التي يستحقها؟.

ان والد ادوارد سعيد الذي حارب مع القوات الامريكية في الحرب العالمية الاولى ونال الجنسية الامريكية قبل ان يعود الى فلسطين هو والد

ادوارد سعيد الذي يعترف في كتابه قائلا أن حبه لامريكا هو من النوع العنيد والرافض، وهو لا يريد ان يخفي مشاعره المتناقضة نحو امريكا، بالاضافة الى التناقض الديني.. ذلك "انني ـ يعني ادوارد سعيد ـ أنتمي لعائلة مسيحية كانت مجرد اقلية وسط الاغلبية المسلمة". ها هو يعترف قائلا ان بعض أفراد عائلته كانوا ينظرون الى الاسلام كدين "قديم".. مضى عليه الزمن.. وان امريكا ـ ايضا ـ تنظر الى الاسلام كدين قديم..."!

ولست أشك في ان هناك اكثر من رابط واكثر من علاقة قوية بين تفاصيل الحياة الخاصة كما رواها في كتاب ترجمة حياته، الدكتور ادوارد سعيد، وبين آرائه ونظراته الخاصة حول القضية الفلسطينية عامة، وحول الحلول المطروحة على بساط المفاوضات بشكل خاص!

يقول الدكتور في مقال نشرته "الاهرام" القاهرية في اوائل شهر نوفمبر ١٩٩٩ ونقلته عنها جريدة "الجيروزاليم بوست" الاسرائيلية في آخر يوم من الشهر المذكور بالحرف الواحد:

... نحن اليوم لا نملك الارادة العسكرية ولا الارادة المعنوية لانشاء دولة فلسطينية حقيقية... اذ كيف نستطيع ان نفرغ الجزء العربي من القدس من السكان اليهود، وكيف نستطيع ان نقلع المستوطنات؟ اننا لا نملك القدرة على تنفيذ هذه الامور، وليست المفاوضات الجارية حاليا قادرة على ان تجد الحل! فما هي احتمالات قدرتنا على انشاء دولة فلسطينية مستقلة؟ لا شيء!! ان السلطة الفلسطينية لا تملك التأييد الشعبي لكي تفعل ما سبق لها وفعلته او اتفقت عليه في "اوسلو"! وليس هناك خليفة لياسر عرفات قادر على أن يسير في طريق السيطرة التي يسير فيها عرفات حاليا! ان "... القانون الفلسطيني ليس ديمقراطيا. وحل "التقسيم" هو ارث استعماري! ويجب بعد اليوم ان يصبح تفكيرنا محصورا في التعايش وان يصبح الحل في الالتفات الى السياسة المحلية التي تعالج مشاكل الظلم ـ البعد عن العدالة ـ وعدم المساواة، وغيرها على الطبيعة

بعيدا عن سياسة مؤتمرات القمة المخادعة مع كلينتون، وبدون أوسلو المأساوية!!!"

انتهى كلام ادوارد سعيد كما ورد في صحيفة "الاهرام" المصرية، واذا عدنا الى التدقيق في تفاصيل ترجمة حياته كما وردت بقلمه ولسانه في الصحف، في آخر ايام نوفمبر ١٩٩٩، لوجدنا ما يلي:

١ـ ان ادوارد سعيد اكتشف ـ انه يحتفظ بحب كبير للقاهرة وللمصريين. ! عال..

٢ـ ومن المفارقات في حياته ان تعليمه جعله يعرف عن الغرب اكثر مما يعرف عن حضارة بلاده وتقاليدها..! عال ثم عال!

٣ـ وليس في الادب العربي تلك الاعترافات المقلقة التي يجدها ادوارد سعيد في كتابات رجال مثل "جون ستيوارت ميل"، و "جان كاك روسو"!!

٤ـ وكل المدارس التي انتسب اليها ـ ادوارد سعيد ـ كانت ـ باعترافه ـ مؤسسات كولونيالية ـ استعمارية، "شنيعة" ـ والتعبير لادوارد سعيد ـ لم تعلمه الا القليل وكان سجل وجوده وحياته فيها "مشينا" ـ.. عال ثم عال ثم عال!

٥ـ وينهي ادوارد كلامه في التغني بفضائل الصدق، مهما "كانت الظروف مخجلة والاعترافات محرجة"!

فعلا.. انها اعترافات محرجة.. ومخجلة معا!

ومن المؤسف ان يكون الكاتب الاستاذ الذي جند نفسه محاميا عن قضايا العرب والعروبة لا يعرف عن حضارة بلاده الا أقل مما يعرفه عن الغرب..

هل بعد هذا نعجب ان تصدر عن ادوارد سعيد مثل هذه الآراء المشينة؟

ان "القدس" في نظر ادوارد سعيد قد ضاعت وولت وانتهت.! وان المستوطنات التي تحاصرها، اصبحت حقيقة واقعة، لا يمكن الاقتراب

منها. !

وليس أمامنا الا القبول والاستسلام!

وسامحك الله يا ادوارد.. يا سعيد!

ان الحل الذي يراه ان لا دولة للفلسطينيين، ولا تجزئة جغرافية بين الفلسطينيين واسرائيل، وانما تعايش تكون الغلبة فيه للأقوى وللأغنى. !

ومن هو الأقوى.؟ ومن هو الأغنى؟.

ان ادوارد سعيد يفتخر مزهوا بصراحته، ولكنه لا يستطيع ان يفخر.. بوطنيته!

ومرة أخرى: سامحه الله!.

* * *

سؤال: من هو السلطان؟

جواب: السلطان هو البعيد عن.. السلطان!

قيل لي ان الشريف ـ سابقا ـ والأمير لاحقا زيد بن شاكر غاضب علي ـ جدا ـ لانني وصفته في مقال واحد لي بأنه يعتني "بالديكور" اكثر من اعتنائه بالمضمون، وأنه يحرص على مظهره الخارجي اكثر من حرصه على القيام بواجباته الخطيرة!

وكان الملك حسين ـ رحمه الله ـ قد اطلع على المقال المذكور في حينه وعندما التقينا في قصره بلندن قال لي انه ضحك كثيرا لمضمون المقال، وأنه قال للأمير زيد بن شاكر ـ في وجهه ـ ان كلامي مضبوط، وخفيف الروح، ولا داع لأن يغضب الأمير..!

وحقيقة الامر انني كنت احرص على لقاء الامير زيد كلما زرت العاصمة الاردنية، لكي اطلب منه ان ينقل للملك بعض الحقائق المتعلقة بالأوضاع الهامة في الضفة الغربية عامة، وفي القدس وجيرانها، خاصة.

وتعددت اللقاءات، وتعددت معها رسائلي للملك الذي كان يشكو مختلف الآلام في صحته، وخاصة في المسالك البولية، ولم يكن معقولا ولا مبررا ان أثقل عليه ـ على الملك ـ بمقابلات وأخبار تقول ان تيدي كوليك ـ رئيس بلدية القدس مثلا ـ قد حملني دعوة للملك لزيارة القدس، او أن "شمعون بيرس" يعتقد بأن على الاردن ان يسرع الخطى في مسيرة السلام لئلا تدخل سوريا على الخط وتأخذ الاهتمام والوقت من الاردن، او أن أحد المتبرعين الانجليز لمدرسة الملك عبد الله في ضواحي القدس قد أرسل تبرعا للمدرسة بقيمة أربعة ملايين دولار مما يفرض على الملك أن يبعث اليه برسالة شكر على هذا التبرع السخي.. أو ان الحكومة الاسرائيلية

تبحث في مصير مبنى القصر الملكي "الخاص" الذي شرع الملك حسين في بنائه فوق احدى تلال "شعفاط" ـ شمالي القدس، ثم توقف البناء بعد حرب ١٩٦٧ . . الخ.

وكنت على يقين ان الأمير الشريف، يقوم بابلاغ الملك كل الرسائل التي حالت ظروف الملك الصحية أن اقوم بابلاغها بنفسي، غير اني تبينت فيما بعد، ومن خلال اسئلة وأجوبة متعددة مع الملك حسين في عدة لقاءات في عمان ولندن وباريس، أن الشريف ـ وكان يومذاك رئيسا للديوان الملكي الهاشمي ـ قد احتفظ برسائلي لنفسه ولم يطلع الملك عليها. !

وكنت اسأل الملك حسين عن موضوع الأوقاف الاسلامية في القدس ـ مثلا ـ وأن بعض الموظفين في الأوقاف الاسلامية يستحقون رواتب "المعاش" بعد احالتهم الى التقاعد، وأن احدا لم يدفع لهم استحقاقاتهم المالية. وكان الملك يرد علي بأنه لا يعلم شيئا عن الموضوع بالرغم من رسائلي المتعددة اليه حول هذا الموضوع وغيره.

وأنا لست ضد الأمير الشريف، شخصيا.

وقد تسنى لي أن احصل في لندن على أوراق مهمة تتعلق بأعمال الأمير المالية المختلفة لو أني نشرتها لأقمت الدنيا ولم أقعدها. ولكني لم أفعل ولن أفعل! ولكنه يعلم أيضا أنني احبه، وأن صداقتي معه تعود الى سنوات طويلة مضت عندما كنت أسكن في سويسرا وكان الأمير يزورها لماما مع عائلته. وكذلك فاني أشعر بالامتنان للأمير الذي كان دوما ـ هو صاحب الدعوة لتناول طعام الغداء في قصره بعمان، بحضور جلالة الملك حسين وكبار رجال القصر. وان هذا القصر الذي شيده الأمير زيد واختار له أفخم الاثاث والرياش قد جاء آية في الرونق، والذوق، والتجانس، ورفعة الاختيار. . والثراء!

وقد يكون للأمير ألف عدو وألف خصم وألف حاسد في دنيا القوات

الاردنية المسلحة او في نادي المرشحين لرئاسة الوزارة، ولكني لست واحدا منهم! لقد أدى هذا الأمير أجَل الخدمات لوطنه، ولمليكه، وعندما صدرت الارادة الملكية باختياره "أميرا" بدلا من "الشريف"، كنت اشعر ببعض القلق وبعض الحزن عندما رحت اسائل نفسي كيف يحق "للأمير" الهاشمي الصديق بعد اليوم ان يصبح رئيسا للوزراء.!

المهم أنني لم اشأ ان يغضب هذا الفارس الهاشمي مني او من أي قريب لي، لاني أعلم انه اولا: غني عن الغنى! وثانيا ان له أفضال مالية على الديوان وعلى العائلة المالكة! وثالثا: انه صاحب فضل في ترتيب وانشاء الجيش العربي الاردني! ورابعا. انه مخلص حتى عظام رقبته الى الملك والى العائلة الهاشمية.

وقد يكون الصحفي ـ أي صحفي ـ يشعر "بالدين" نحو أشقائه من حكام العرب في الدول العربية، ولكني ـ والحمد لله ـ اشعر الى جانب ذلك وبالاضافة اليه ان اخواني في بعض الدول العربية يحملون بعض "الدين" المعنوي والعاطفي والسياسي بالنسبة لي..

ولم أغضب على الاردن، ولم أقطع شعرات معاوية مع مليكه وحكامه بالرغم من الكثير من الضربات والطعنات التي أصابتني على مدى الخمسين سنة الماضية، من حكام الاردن..!

في صباح ذات يوم من عام ١٩٥٦، دخل علي في الديوان الملكي الاردني، وفي مكتب وزير البلاط بالذات، المجرم العراقي "الاعلامي" المسمى يونس بحري، وبيده مسدس محشو بالرصاص، وصوب المسدس في وجهي، وشتمني وشتم جمال عبد الناصر وشتم الثورة المصرية.. وكان ثملا ورائحة الخمر تفوح من فمه القذر!

لماذا؟ لأني هاجمت "جلوب باشا" واذاعته السرية في عمان، والتي كانت تشتم الثورة المصرية وتردح لعبد الناصر!

في ذلك الصباح، كنت مدعوا لمقابلة الملك حسين قبل عودتي الى بيروت. وكانت الملكة "دينا" زوجة الملك يومذاك هي التي قامت بترتيب المقابلة وابلاغي برغبة الملك في اللقاء معي والتحدث عن أمور اردنية مهمة! وكان حاضرا معي في المكتب الامير "حسن بن عون" عم الملكة دينا الذي شهد تفاصيل هذا الاعتداء الرخيص، من عميل نازي رخيص!

ولولا ارادة ربي وحكمة الامير حسن، لكنت اليوم في عداد الموتى برصاص مجرم عراقي مأفون اسمه يونس بحري، كان جلوب باشا قد استأجره من أسياده وعهد اليه بمنصب اعلامي في عالم عمان!

ولم يغفر لي هذا الباشا الاستعماري انني خلال وجودي كمراقب عام للاذاعة الاردنية لم أسمح باذاعة خطبه الممجوجة، ولم أساير هواه كما يبدو من الرسالة الموجهة لي من رئاسة الوزراء بعد الشكوى التي قدمها جلوب ضدي!

المهم، لقد انتهى حادث الديوان الملكي على خير وعدت الى بيروت وعندما علمت زوجتي بما جرى رفعت التلفون من منزلنا في بيروت وقالت للملك حسين بصوت متهدج:

ـ بالامس، قتلتم أبي! واليوم تريدون قتل زوجي!

ولكنه رحمه الله، وبكل اعصابه وعواطفه النبيلة اعتذر عن الحادث وأبدى أسفه، وأقسم لها انه بريء منه..

وهذا صحيح! وانا اصدق الملك حسين، ولكن لا اصدق أحد اقربائه من المتنفذين الذين أساءوا الى البلد والى الشعب. هذا "القريب" ـ الذي مضى اليوم الى رحاب ربه، قد صمم على ان يتمم في بيروت ما لم يستطع ان ينفذه ضدي في عمان حيث أرسل ورائي ثلاثة من حراسه الخصوصيين وأمرهم بالاعتداء علي.. واغتيالي!

وتمت محاولة القتل امام مطعم "سعد" في حي الزيتونة ببيروت! وتولى

التحقيق في المحاولة، رئيس الوزراء دولة سامي بك الصلح الذي كان مرتبطا بالقرابة مع زوجتي. كما ان كميل شمعون رئيس الجمهورية اطلع على التفاصيل وأمر بسجن المعتدين الثلاثة.

وسألوهم في التحقيق عن الجهة التي ارسلتهم لقتل النشاشيبي، وأجابوا بصوت واحد:

ـ انه فلان.. او "الشريف" فلان..

رحمه الله.. وغفر الله له!

ومرة اخرى، ان الراحل الخالد الحسين بن طلال ـ طيّب الله ثراه ـ لم يعلم بهذه المحاولة. وبالتالي لم يرض عنها، واستنكرها. انه اكبر من مثل هذه الاعمال الصبيانية التي كانت دوما تؤدي الى اتساع الهوة بين عمان من جهة، وبين شعب الضفة من جهة اخرى..

ومحاولة ثالثة..

جاء صلاح سالم ـ عضو مجلس قيادة الثورة المصرية الى بيروت، وحقق انتصارا هائلا في وجه معارضي الثورة، وخصوم عبد الناصر في لبنان! وكنت يومذاك من أسرة "اخبار اليوم" وآخر ساعة.. والاخبار! وكان طبيعيا ان اكتب عن زيارة صديقي وأخي صلاح سالم الى لبنان، وعن حفاوة اللبنانيين به خلال وجوده في بيروت، او خلال مقابلته لرجال الدين المسيحي في بكركي..

ولم تعجب مقالاتي رجال المعارضة المصريين من أمثال عائلة "ابو الفتح" وحلفائهم الذين كانوا يسمون ثورة مصر بـ"ثورة البكباشية"! ويطلقون على جمال عبد الناصر لقب البكباشي.! وفي منتصف الليل، دوى في حي الصنائع في بيروت، صوت انفجار كبير، حطم زجاج بناية التأمين الوطني التي كنت اسكنها في ذلك الحي..

وهرعت قوات الامن ورجال البوليس للتحقيق..

وجاءت النتيجة تقول بكل وضوح وبساطة:

ـ انه اعتداء على كاتب هذه السطور..

وقبل ذلك بسنوات قليلة، وكنت اعمل مع ملك الاردن المؤسس عبد الله بن الحسين وأتنقل معه في سيارته الملكية ـ من نوع كاديلاك ـ بين عمان.. والشونة. ولمرات ثلاث متتالية حاول خصوم الملك نسف السيارة الملكية بالديناميت والاسلاك والقنابل الموقوتة، والقضاء على "جميع" ركابها.! نعم! على "جميع" ركابها!

ولمرات ثلاث، يتدخل القدر وتفشل المؤامرات..

وكنت على علم تام بتفاصيل هذه المؤامرات، وعندما زارني الصديق أمير اللواء حكمت باشا مهيار، مدير الامن العام، وسرد على مسمعي تفاصيل ما كنت لا اعرفه عن هذه المؤامرات، ووضع النقاط فوق الحروف، وسمى الاشياء بأسمائها، طلبت منه ان يكتب مذكراته وينشرها على الناس كي تتكشف الحقائق بلا رتوش ولا حذف. ولكن أمير اللواء حكمت باشا لم يكتب مذكراته! قال لي انه يحتاج الى اذن ملكي خاص من الملك حسين لكي يكتب! واتصلت بالملك حسين ورجوته ان يأمر "حكمت باشا" بسرد الحقائق التي يعرفها جيدا عندما كان رئيسا للامن العام في الاردن. ولكي يعرف الشعب من هم اعداؤه.

ومات الملك حسين ولم يصدر الأمر حول هذه المذكرات. ولم ينشر اللواء حكمت باشا مهيار، مذكراته!

وما زال كاتب هذه السطور على قيد الحياة.

وفي بغداد، جاء طه باشا الهاشمي ـ الذي جاء ذات يوم الى فلسطين لكي يحارب اليهود وينقذ عرب الوطن من ويلات العدو، فاذا به يعود الى بغداد فاشلا مقهورا، ويلجأ الى العمل السياسي كي يعوض في السياسة ما عجز عنه في الحياة العسكرية.

وقاد الباشا دفة المعارضة وخاض معركة الانتخابات البرلمانية ضد القصر الملكي، وضد الحكومة، وضد نوري السعيد.

وانتهت معركة الانتخابات.

وسألت الباشا المذكور في مكتبه ببغداد عن رأيه في "نزاهة" الانتخابات الاخيرة عام ١٩٥٤، وأجابني بالحرف الواحد:

ـ ماكو تزوير. ! ماكو تزوير!

أي ـ لم يكن هناك تزوير!

وأبرقت برأي الباشا الى اخبار اليوم التي تولت نشره على الصفحة الاولى، وتولت جميع صحف بغداد نقل الخبر والرأي على صفحاتها بعناوين بارزة.

ولأسباب لم ادركها حتى كتابة هذه السطور، لم يرض الباشا الهاشمي بما جرى، فحمل نفسه ودخل علي في غرفتي في فندق "زيا" ببغداد وقال لي بالحرف الواحد أنه لم يقل لي ان الانتخابات نزيهة!! وعندما أجبته بما سبق وسمعته منه حرفيا "ماكو تزوير" أجابني الباشا بحدة وعنف:

ـ ماكو تزوير يعني.. ماكو تزوير. ولكن لا تعني النزاهة. ! شنو أغاتي؟ أي: ماذا تريد يا استاذ؟

وسحب مسدسه..

وهات يا شتائم على مصر وعلى عبد الناصر وعلى صحفه واذاعاته ومراسليه.. الى يوم الدين!

وأبرق باشا العنتريات الى "اخبار اليوم" ينفي تصريحه ويتهم الذين أشرفوا على الانتخابات بالتزوير!

وقال لي مصطفى أمين بالتلفون من القاهرة انه متأكد من "جنون" طه الهاشمي، ولذلك لن ينشر له تكذيبه! وطرت من بغداد عائدا الى بيروت قبل ان يفتقد الباشا الهاشمي خبر التكذيب، ويعاود محاولة قتلي.!

أجل: من عمان.. الى بيروت.. الى بغداد.

وقديما قيل ان السلطان هو البعيد عن السلطان. ولكن هل في مقدور الصحفي الباحث عن الاخبار والأسرار، ان يبقى بعيدا عن السلطان، الذي هو مصدر الاخبار؟!

لا أظن..

وقد عشت حياتي الصحفية كلها، قريبا من السلطان ومن أخبار السلطان! وكنت صديقا لجمال عبد الناصر ولنوري السعيد معا وفي وقت واحد! وكان الحكم في لبنان ينافس المعارضة في الاحتفال بي! وبقيت صديقا للأمراء السعوديين "نواف وطلال، وسلمان، وفيصل بن فهد"، وعشرات غيرهم، عندما كان عبد الناصر وصحافته على خصومته المعروفة مع السعودية! وكان "محمد احمد محجوب"، الزعيم السوداني المعروف يزورني في مكتبي بالقاهرة، ويعلم ان معظم اصدقائي السودانيين الطيبين هم خصوم حزب "الأمة"، واعداء عبد الرحمن المهدي باشا.!

وكان الدكتور سيد نوفل مساعد أمين الجامعة العربية يزودني بأسرار الجامعة نكاية برئيسه حسونة باشا، أمين الجامعة العربية!

ان قوة الصحافة مستمدة من قوة الصحفي! والصحفي الضعيف لا يعكس صحافة قوية! والمهنة كلها مرآة لأهلها ولأبنائها. ولن توجد صحافة جبارة بأقلام صحفيين هازلين.. ولا توجد صحافة جريئة بأقلام صحفيين جبناء. وظلموا الصحافة عندما وصفوها بالبحث عن المتاعب!

انها حرفة البحث عن الحقيقة.. وعن الدفاع عنها.. وعن الاستشهاد في سبيلها!

لقد تسنى لي وانا بالقرب من "السلاطين" أن أتعرف على الكثير من الأسرار المتعلقة بقضايا بلدي. وكانوا يقولون ان "الملك عبد الله" هو اول مسؤول عربي طرق باب "السلام" مع اليهود. وهذا خطأ. وكنت أعرف انه

خطأ. كان الملك فاروق هو اول ملك عربي ينشد السلام مع اسرائيل. وعندما اتصل الوزير "الياهو ساسون" بالملك فاروق ـ من باريس ـ ينشد الصلح مع القاهرة، أرسل فاروق احد مساعديه، "كمال رياض" الى باريس مع تعليمات واضحة بضرورة الوصول الى سلام مع اليهود! وكان ذلك في شهر سبتمبر ـ ايلول ـ من عام ١٩٤٨.

في ٢١ "ايلول" سبتمبر عام ١٩٤٨، تمت المقابلة بين ساسون من جهة و "رياض" من جهة اخرى، وأعلن رياض ان مصر تريد السلام مع اسرائيل شريطة ان تسترد مصر بعض اجزاء صحراء "النقب" لكي تصبح تلك الصحراء تحت سيادتها وتستطيع عندئذ ـ أي مصر ـ ان تقول للجيش البريطاني بالانتقال الى النقب بدلا من البقاء على حدود السويس.

ثم جاء حسني الزعيم ـ ديكتاتور سوريا الصغير لكي يدق على أبواب اسرائيل طلبا للصلح في ٣٠ مارس من عام ١٩٤٩.

وأرسل حسني الزعيم بعد ١٧ يوم فقط من استيلائه على السلطة في سوريا مندوبا خاصا الى لجنة الهدنة السورية ـ الاسرائيلية ومعه تعليمات واضحة بضرورة الاتصال مع الكولونيل "مردخاي ماكليف" رئيس الجانب الاسرائيلي في اللجنة المذكورة واعلامه باستعداد سوريا التام لعقد صلح مع اسرائيل مقابل ان تأخذ سوريا "٢٥٠" مائتي وخمسين الف لاجئ فلسطيني، وان تكون الحدود المشتركة هي منتصف مياه بحيرة طبريا، وان تعقد اسرائيل اتفاقية عسكرية مع سوريا للتعاون العسكري المشترك بينهما في المستقبل..

وبعد أقل من مائة يوم، سقط حسني الزعيم قتيلا!

وجاءت بعدها مفاوضات لوزان! وجاء "محمد نمر الهواري" على رأس وفد من اللاجئين الفلسطينيين للاجتماع مع اليهود في لوزان باسم شعب فلسطين!

ولكن؟

لم تعترف به الوفود العربية الى مؤتمرات لوزان، ولم تقبل به، ولا بالوفد الذي يرأسه، فعاد الى اسرائيل ومعه وفد اللاجئين المشردين!

وسأل موشيه ساسون ـ امامي ـ الملك عبد الله، وكان ذلك في ابريل عام ١٩٥١ قائلا له على درجات قصر رغدان الملكي:

ـ لماذا هذا الاصرار الملكي، من طرفكم على السلام مع اليهود؟

وأجاب الملك على الفور:

ـ "اذا لم نصل الى سلام معكم، فان حروبا متتالية أخرى ستقوم في المستقبل بيننا وبينكم، وستكون نتيجتها ـ وللأسف ـ لصالحكم أنتم، ولذا، فان من مصلحة شعبي ـ الاردني والفلسطيني ..... الوصول، وبسرعة ممكنة، الى عقد السلام".

يومذاك..

جاءت اشارة تلفونية للملك عبد الله من الوزير الاسرائيلي ـ الياهو ساسون ـ في باريس بضرورة الالتقاء معا للاتفاق على عقد سلام مع الاردن. وقام الملك بالاتصال مع عبد الله التل في نوفمبر ١٩٤٨ وطلب منه مضاعفة الاتصالات مع موشيه ديان. وطلب "ديان" حصر المباحثات مع "التل" داخل موضوع القدس وحدها، بينما قال "عبد الله التل" ان الملك يطالب بممر واسع يربط الضفة الغربية مع قطاع غزة وان يكون "الممر" المذكور تحت السيادة الاردنية المطلقة لان الاردن يبقى بحاجة الى ميناء او "بور"، تلك الكلمة التي كان السفير "عبد المجيد حيدر" ـ سفير الاردن في لندن يومذاك ـ يرددها ويستعملها مطالبا اسرائيل بأن تعطي الاردن هذا الـ... "بور" الذي تحتاج اليه!

وبالطبع، جاء الرفض الاسرائيلي القاطع لمطالب الملك عبد الله حول الميناء، وحول القدس، وحول الف طلب وطلب!

وانهارت المفاوضات بأكملها !

وانتهى كل شيء !

هذه أحداث عشت بنفسي معظم ساعات ايامها وليس فيها ما يحسن لذكرى أحد، او يتهم أحدا، او يرمي حفنة تراب على قبر احد.. او يكتب المذكرات الجديدة تمجيدا لأحد واتهاما لأحد !

لقد دخل الملك فاروق حرب فلسطين لانه كان يعلم ان الجيش الاردني هو الجيش الوحيد القادر على تحقيق أية مكاسب اقليمية للملك عبد الله في تلك الحرب، كان يقول دوما: لا ارى قوة عسكرية لليهود والقوة الوحيدة هي قوة جيش الاردن !

وكان فاروق يضرب أخماسا بأسداس ويخشى لو ان الاردن كسب اية اراض فلسطينية في "الجنوب" يصل بها الى منطقة "رفح"، ويحقق بعدها اتحادا مع العراق، فانه بذلك يشكل حصارا على مصر، ويصبح القوة الأعظم في المنطقة ! وعندما قرر العرب تعيين الملك عبد الله قائدا عاما للقوات العربية الى فلسطين، جن جنون فاروق وفقد صوابه !

ويا ويل بعض العرب، من بعض العرب !

ويا ويل فلسطين عندما ظن أهلها أن العرب قادمون لانقاذهم، فاذ بالمصري يأتي لمصلحته، واذ بالاردني يحارب لمصلحته، واذ بالسوري يولول ولا يفعل شيئا، واذ باللبناني يقرع الطبول فوق صخور.. "الناقورة" ولا يتقدم بعدها خطوة واحدة الى الارض السليب !

ويا ليت ذلك الدبلوماسي المصري، "عبد المنعم مصطفى" كتب مذكراته عن هذه الفترة لكي يؤمن "بعض الناس" من المتشككين ببعض ما اكتب في هذه "الملاعب" بأن الحقيقة المجردة عن حرب فلسطين وعن موقف العرب من "حرب فلسطين"، ما زالت سرا لم يكتشفه المؤرخون ولا العارفون ببواطن الامور !

لقد تسرب لي من مكتب رئيس وزراء الاردن نص الرسالة الخاصة التي ارسلها المستر وارين كريستوفر بوصفه وزيرا لخارجية امريكا في العاشر من يناير من عام ١٩٩٥ الى صديقي الدكتور عبد السلام المجالي رئيس وزراء الاردن يهنئه فيها على مساعي السلام ويشيد بقوة ارادته، وتصميمه ومثابرته على خدمة بلده.

وأنا لم استأذن احدا في نشر هذه الرسالة التي سيستغلها خصوم "المجالي" وكأنها شهادة استسلام من امريكا، او صك تعميد من وزير خارجيتها، ورغم ذلك فاني انشرها لما تقوله بعض سطورها من الاشادة بدبلوماسية مسؤول اردني كبير ارتفع بعقليته فوق مستوى الاحداث، واراد ان يكون رجل دولة، لا مجرد رئيس وزراء.

قال الوزير وارين كريستوفر في رسالته الخاصة الى الدكتور عبد السلام المجالي، رئيس وزراء الاردن:

عزيزي السيد المجالي.

"... وانت تغادر منصبك، أرجو ان تسمح لي بالاعراب عن اعجابي بدورك المميز والطويل في خدمة بلدك...

"... لقد جرى دمج اكثر من مرحلة واحدة من خلال فترة عملك كرئيس للوزراء، ووزير للخارجية، ووزير للدفاع في الاردن، وجرى انجاز الكثير خلال هذه الفترة بل وأكثر مما كنا نحسب او نظن. لقد ترأستم الوفد الاردني المفاوض بخبرة وانتظام منذ مؤتمر مدريد وخلال مفاوضات صعبة مما أوصلنا الى معاهدة سلام بين الاردن واسرائيل، والحكومة التي ترأستموها وتقدمتم مسيرتها تمشي اليوم بكل ثقة صوب تنفيذ بنود اتفاقية السلام التي ستضمن التفاهم بين شعب الاردن واسرائيل. ومن خلال هذه المسيرة، لقد تبدلت معالم الارض بصورة لا تقبل النقض، والفضل في ذلك لكم أنتم ولكم الحق في الشعور بكل الكرامة في تحقيق ذلك.."

ثم هناك الاشادة بالرئيس "المجالي" لما قام به من اشراف حيادي ونزيه على معركة انتخابات البرلمان الاردني عام ١٩٩٣. ولما قام به من مساع لاعادة الثقة بين حكومتي الاردن وامريكا.

وينهي رسالته بقوله:

"... ومرة اخرى، فاني أحيي انجازاتك التي قدمتها في سبيل الاستقرار والتقدم في الاردن، وفي سبيل السلام في الشرق الاوسط خلال مدة وجودكم كرئيس لوزراء الاردن.

مع تحياتي الخاصة

المخلص: وارين كريستوفر

بس..

والسلطان هو البعيد عن السلطان..

ولكني رغم ذلك، شعرت بأني ما زلت "سلطانا" وانا قريب من الدكتور عبد السلام المجالي.

كان الرجل قويا في منصبه لانه كان زاهدا في المنصب!

كان يقول لي في اكثر من مناسبة:

ـ لو لقيت الملك وسألك عني قل له انني لست زعيما ولا رئيس قبيلة ولا سياسيا مثل وصفي التل مثلا. يكفي ان يغمز لي الملك بطرف عينه عندما يريد مني استقالتي وعندئذ سأقدمها لجلالته في دقيقتين.. اثنتين!

وعندما ارادت جالية اهل القدس في الاردن اقامة حفل تكريم للمجالي، وطلبوا مني ان اكون خطيب الحفل، قال لي المجالي بكل وضوح:

ـ لك ان تمدحني كما تشاء، ولكن عليك ان تمدح الملك قبلي وألف مرة بدل الواحدة. انا أعلم انك صديقي وانك لا تتأخر في مناصرتي على رؤوس الاشهاد، ولكن "غيري" لا يتحمل ذلك، ولا يقبله. انا هنا مجرد

رئيس وزراء، وسأبقى رئيسا ما دامت المصلحة تفرض ذلك. اما غير ذلك فاني ـ وانا الطبيب المختص ـ على استعداد للاستقالة والانتقال الى منزلي المتواضع بجوار مدينة الكرك.

أجل، كان عبد السلام المجالي، صديقا لي، وكذلك، كان عبد الله التل من كبار اصدقائي، وكان يراسلني ويزورني كما يتبين ذلك من احدى رسائله المنشورة بجانب هذه السطور. وكنا كلنا نحُب القدس، ونُحب الناس، ونُحب الملك، ونُحب الطيبين..

ولست هنا في معرض الحديث عن سياسة الاردن او رجال سياسته، ولكني اشعر بالفخر ان سمير الرفاعي لم يصادق كاتبا او صحفيا كما صادقني، وان البلاط الهاشمي لم ينعم على كاتب او صحفي بأعلى اوسمة الدولة: الاستقلال، والكوكب، والنهضة، كما أنعم بها علي. !

وفي آخر لقاء لي مع الملك حسين قبل سفرته الاخيرة الى امريكا دار بيننا الحوار التالي عندما اراد مني البقاء في عمان لكي أتولى منصبا وزاريا.

قلت له: انا يا سيدنا اريد ان أبقى حرا، بعيدا عن المناصب والقيود. وان أعيش ما تبقى لي من سنوات قليلة، كما اريد وكما أشتهي..

ثم قلت له:

ـ لقد اقتربت ساعة الرحيل ـ ساعتنا ـ يا سيدنا..!

وقاطعني الملك بصوت حزين باكي يقول:

ـ ومن الذين يضمن طول عمره يا أخي؟ من يضمن سنة واحدة من سنوات عمره؟ انا اشعر بأني على وشك الرحيل.. قبل أي واحد منكم. !

ودمعت عيناه.. وتعانقنا.

وافترقنا...

ولم أره بعدها الا من وراء سيارته المحصنة وهو يطوف شوارع عمان مودعا في يوم ماطر.. حزين.. وباك!

رحمه الله !

وأنا لا اعرف ملكا او حاكما كان يشعر "بالضعف" الشديد أمام اجهزة الاذاعة والتلفزيون، كما كان الملك حسين بن طلال..

كانت الاذاعة هي هواه الكبير. !

وكان التلفزيون هو ملعبه.. الواسع !

وكلما جاء الملك حسين الى لندن في زيارة رسمية او زيارة خاصة، كان يطلبني بالتلفون لكي يقول لي بأنه سيلتقي في ذلك اليوم مع الموظفين او رجال التسجيل او الاعلاميين في اذاعة لندن، لانهم يريدون ـ هم ـ منه ان يحدثهم عن أخباره...

وهكذا أصبحت اذاعة لندن هي المحطة الاولى في قطار الملك حسين فوق الاراضي البريطانية..

اذاعة، ثم تلفزيون...

او تلفزيون، ثم اذاعة...

او اذاعة وتلفزيون ومؤتمر صحفي !

ولم لا !؟ ان الاذاعة، وخاصة "الاذاعة البريطانية" هي المدرسة الاولى التي عاش الملك حسين وهو يتلقى منها الدروس المهمة في السياسة، والتعليق، والأخبار. !

واليوم، انها اذاعة الأزمات..

والناس لا تسمع الاذاعة البريطانية الا في المصاعب والمشاكل والانقلابات. ! والأزمات !

وكان العصر الذهبي للاذاعة البريطانية عندما بلغت الحرب الباردة بين الشرق والغرب ذروتها، وكانت تلك الاذاعة احدى اقوى الاسلحة الاعلامية في العالم ضد الامبراطورية السوفييتية.. الراحلة !

وفي الفترة الزمنية بين بداية الستينات ومنتصف السبعينات كان اسم الاذاعة البريطانية يضاهي أعظم وأرقى وأخطر الاسماء في العالم! في تلك الفترة كان كبار أهل الادب والفن والغناء والتمثيل في العالم العربي يتسابقون في الوصول الى دار الاذاعة البريطانية للمساهمة في برامجها! في تلك الفترة، جاء يزور اذاعة لندن ويساهم في برامجها عمالقة عرب ومصريين ولبنانيين وعراقيين. مثل يوسف وهبي، ومحمد عبد الوهاب، وفريد الاطرش، وعبد الحليم حافظ، وامينة رزق، وفيروز، ومحمود تيمور، وعباس العقاد، والمازني، وفي تلك الفترة ـ بالذات ـ دعاني الاعلامي والاذاعي المعروف الاستاذ حسن الكرمي للمساهمة في ندوة اذاعية يشترك معي فيها الاستاذ السفير والوزير ورئيس الوزراء العراقي السابق عبد الرحمن البزاز...

وقبلت الدعوة، لانها من اذاعة لندن!

كنا لا نصدق الخبر السياسي اذا لم تذعه محطة لندن! وكنا لا نحترم الرأي الأدبي ان لم يصدر عن مذياع لندن. وكانت اذاعة لندن تتمتع بهيبة خاصة ترغم الملايين من المستمعين على احترامها حتى الحسد! وكان اللحن الموسيقي الخاص المرافق لنشرة أخبار لندن يثير فينا العزم والتحدي والاحترام. وكنا نشعر بالقوة ما دامت اذاعة لندن تصل الينا وتذيع اخبار العالم واخبارنا. وكان أعمامنا وأقاربنا الذين انقطعت بهم سبل العودة بسبب الحرب العالمية الثانية، يتحدثون الينا من مذياع لندن، وينقلون الينا اخبارهم ويملأون صدورنا بالاطمئنان عنهم ونسمع ابن العم الذي يتلقى العلم في اكسفورد يقول لنا عبر مذياع لندن وكأنه جالس معنا:

ـ "مساء الخير يا جماعة، انا بخير! اطمئنوا! انا مشتاق اليكم كلكم والى أكلة المقلوبة! او الملوخية!"

ويصفق الجميع، وتبكي الامهات، وتضحك البنات. وترتفع الدعوات

الى الله ان تنتهي الحرب ويعود المغتربون الى أهلهم. !

انها دار الاذاعة البريطانية..

وها أنا ادخلها بخطوات قصيرة مع الدكتور البزاز وكأني أدخل محرابا!

وحملتني الذكريات الى اليوم الذي جئت فيه الى دار اذاعة لندن، بدعوة من المستر _وايت هيد" مديرها العام، لكي ادخل في دورة تدريبية مختصرة بعد اختياري من الملك عبد الله، مديرا عاما للاذاعة الاردنية في رام الله في عام ١٩٥١...

وكم من الأسماء المشعة مرت على هذه الاذاعة..

وكم من المطربين والاذاعيين والممثلين والزعماء، دخلوا هذه الدار واشتركوا في برامجها..

وكم من الأسماء العربية ـ والفلسطينية ـ مرت من هنا، وتدربت هنا، واشتهرت هنا، وأحبها الملايين في مختلف اقطار الشرق الاوسط؟!

كنت وكأني أكاد ارى أمامي أشباح الذين سبقوني الى هنا، وتركوا بصماتهم عند الباب الرئيسي وعلى باب المصعد، وعند غرفة الحراسة، وأمام خشبة الاستقبال..

أين حسن الكرمي؟ أين عبد الرحمنن بشناق؟ أين فؤاد جميعي؟ أين عارف حجاوي؟ أين ماجد سرحان؟ أين ليلى طنوس أين؟ أين فلانه وفلانة وفلانة من نجمات العمل الاذاعي الموفق؟ أين سعيد العيسى؟ أين محمود الحوت؟ أين اصحاب تلك الاصوات الجلية المجلجلة التي نذرت نفسها ابان القصف النازي لمدينة لندن لكي تتحدى الغارات وتتحدى الموت وتبقى في داخل الاستوديو تهاجم النازية وتلعن هتلر وتصيح: هنا لندن! هنا لندن! "لقد ساهم العرب بشبابهم وصفوة عقولهم الى جانب "الحلفاء" ووقفوا مع الانجليز رغم وعد بلفور، ورغم اكاذيب الانتداب ورغم السياسة البريطانية الموالية لليهود في فلسطين! ولم يكن العرب ـ كلهم ـ نازيون

كما يزعم خصوم العرب. ولم يصفق كل العرب لهتلر كما تزعم ابواق الدعاية الصهيونية!

حقا! قامت ثورة في العراق عام ١٩٤١ ضد بريطانيا بسبب فلسطين، وهتف بعض المصريين في الاسكندرية بعدها "الى الامام يا روميل" نكاية بالسياسة الانجليزية التي حاصرت قصر "عابدين" في ٤ فبراير وفرضت مصطفى النحاس باشا رئيسا للوزراء! ولكن مصر الرسمية وبلسان احمد ماهر باشا، اعلنت موقفها الموالي لبريطانيا. والملك عبد الله في عمان ــ وضع كل امكانيات بلده في خدمة بريطانيا. ونوري السعيد في العراق، وامين عثمان في مصر، وعبد الرحمن الشهبندر في دمشق، وراغب النشاشيبي في فلسطين مع اكثر من خمسين رئيس بلدية وزعيم قبيلة ومئات من المتنفذين والتجار واصحاب الاملاك، كلهم أرسلوا العرائض والرسائل الى المندوب السامي في فلسطين يعلنون تأييدهم للحلفاء ويتمنون لبريطانيا النصر في الحرب..

لقد وافق حزب "الدفاع الوطني" في فلسطين على سياسة الكتاب الابيض. وقد يكون صحيحا ان المفتي ذهب الى برلين لمحالفة ادولف هتلر. ولكن بقية فلسطين كلها لم تذهب الى برلين ولم تحالف هتلر! لقد تعمدت الدعاية الصهيونية ان تطمس حقيقة الموقف الفلسطيني العربي من الحرب العالمية الثانية وان تصور "جميع" زعماء فلسطين وكأنهم طوابير من "الجستابو" او عملاء المانيا النازية في تلك الايام. ولكن راغب النشاشيبي لم يكن عميلا نازيا. ولا عاصم السعيد، ولا حسن شكري، ولا سليمان طوقان، ولا مصطفى الخيري، ولا موسى العلمي، ولا عادل الشوا، ولا الشيخ اسعد الشقيري، ولا جورج انطونيوس، ولا مغنم مغنم، ولا هاشم الجيوسي، ولا عوني عبد الهادي، ولا الآلاف من المخاتير، والتجار، واصحاب الكلمة، كانوا ـ لا سمح الله ـ من مناصري هتلر. لقد وقف اهل فلسطين العرب ـ رغم جراحهم ـ الى جانب الحلفاء، لسان حالهم يقول:

"لعل وعسى". وتمنوا للانجليز النصر انتظارا لنهاية الحرب والوصول الى الحل العادل لقضيتهم، ولكن اليهود ـ وحدهم ـ هم الذين أشعلوا نار الثورات ضد بريطانيا في فلسطين، بينما بريطانيا تحارب هتلر في اوروبا انقاذا لليهود من معسكرات الموت! ليسوا عرب فلسطين هم الذين قتلوا اللورد موين، أو نسفوا فندق الملك داود، او علقوا الجنود الانجليز على أشجار البرتقال! كان بن غوريون يقول: "سنحارب الانجليز وكأن ليس هناك هتلر، وسنحارب هتلر وكأن ليس هناك كتاب ابيض"! وعندما اقرأ أي كتاب تاريخي لأي مؤرخ صهيوني حول تلك الفترة، اشعر بالتقزز والكآبة! ذلك ان الكاتب الصهيوني قد مضى في الافتراء، وان "الكاتب" او المؤرخ "العربي"، من أمثال دروزة، والعظمة، وهواة التأليف في بعض جامعات فلسطين، قد مالوا الى اهوائهم وكذبوا على الله وعلى الناس وأمعنوا في الجهل وفي التجاهل وراحوا يوزعون اوسمة الوطنية المزيفة على فريق من زعماء فلسطين، ويوزعون اتهامات الخيانة على فريق آخر. ترى، وقد وصلنا ـ اليوم ـ في قضيتنا الى هذا الحال الرديء، هل يبقى من حق أحد من هؤلاء او من هؤلاء ان يدمغ احدا بالخيانة او يرفع احدا ـ في التاريخ المعاصر كله ـ الى مستوى القديسين والانبياء والزعماء والمجاهدين الأبرار؟.

أعود الى قصتي مع اذاعة لندن واقول، انني تلقيت دعوة من الاستاذ حسن الكرمي، للمساهمة مع الدكتور عبد الرحمن البزاز في ندوة اذاعية خاصة، بكل ترحاب، وقبلتها بكل فخر. فقد كان صديقي الراحل عبد الرحمن البزاز يشغل منصب سفير العراق في لندن، وقد عرفته قبل ذلك في مصر، استاذا محاضرا، ومؤلفا حجة، وخطيبا مفوها، وزعيما وطنيا لا يشق له غبار..!

ولعلي ـ وأنا اقبل الدعوة ـ قد أحببت يومها ان التزم جانب الحيطة والحذر، ولا أتعدى الخطوط الحمر التي وضعها لنا أمين الجامعة العربية في معالجة قضايانا. لقد كنت يومذاك سفيرا متجولا للجامعة العربية في دول

العالم، وهناك دول اعضاء في الجامعة لا تؤيد الوحدة العربية، ولا الوحدة الاسلامية، ولا تتنازل عن كيانها او عن استقلالها لأحد. وكنت ـ بالطبع ـ ملتزما رغم أنفي للسياسة الرسمية لهذه "الجامعة" ما دمت قد رضيت ان اكون سفيرها المتجول! ولعل عذري انني سأتحدث للناس من اذاعة بريطانية عالمية ليس فيها جنون احمد سعيد، ولا جمود اذاعة عمان، ولا قيود اذاعة دمشق! ان لهذه الاذاعة في قلبي كل المحبة.

اذ عندما زرت لندن في عام ١٩٤٩ ضمن وفد صحفي اعلامي اردني بدعوة من الخارجية البريطانية، وسألوني بعد الوصول الى لندن عن الأماكن الهامة التي أتمنى ان أزورها في بريطانيا، أجبتهم أريد ان أزور مبنى صحيفة التايمز.. وغرفها.. ومكاتبها!

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم دار الاذاعة البريطانية!

ـ ثم ماذا؟

ـ ثم غرفة الحرب التي كان ينام فيها ونستون تشرشل طيلة ايام الحرب العالمية الثانية، بالقرب من دار البرلمان.

ودخلنا مبنى الدار، وصعدنا الى غرفة الاستوديو، ووجدنا حسن الكرمي بانتظارنا..!

نسيت ان اقول ان تاريخ هذا الكلام يعود الى منتصف شهر اغسطس من عام ١٩٦٥. أي منذ "٣٦" سنة بالتمام والكمال!

ولا تسلني، خلال هذه السنوات الطوال، ماذا جرى لعبد الرحمن البزاز؟ وماذا كان مصيره؟ وأين هو الآن؟.

ولا تسلني كيف كان جزاء المخلصين الوطنيين الأبرار في العراق، في دنيا "البعث" السياسي..؟!

لقد رحل البزاز معذبا وشهيدا الى جوار ربه، وبقي كلامه نابضا امامي

في هذه التسجيلات الحية، والمحفوظة في مكانها داخل دار الاذاعة البريطانية في لندن!

في ذلك الحوار الذي أجراه حسن الكرمي معنا ـ البزاز، وأنا، كان سؤاله الاول والأهم يدور حول ضرورة الوحدة العربية، أي، هل الوحدة العربية أمر ضروري للعرب..

وأجاب البزاز بما يحب..

ثم سألني الاعلامي حسن الكرمي عن أهم انجازات الجامعة العربية.

وقلت ان الجامعة كانت السبيل الأكبر الى أحتمال قيام الوحدة العربية وانها ساعدت على استقلال سوريا ولبنان وساعدت في الجلاء عن ليبيا وساعدت على عقد الاتفاقيات الثقافية والاقتصادية بين دول الجامعة، وكان نشاطها الثقافي في تأسيس معهد الدراسات العربية، وانشاء المكتبة الملحقة بهذا المعهد من أهم انجازات هذه الجامعة.

ثم قلت:

لقد عملت الجامعة العربية على توحيد المناهج العلمية بالتعاون مع المجمع اللغوي، مما أسدى أجل الخدمات الى اللغة العربية! ثم ان الجامعة نجحت في عقد اتفاقيات مختلفة، ومهمة، مع المنظمات الدولية ـ الأونيسكو ـ منظمة العمل الدولية ـ منظمة الصحة العالمية.. الخ.

وسألنا الكرمي مقاطعا:

ـ ولكن بعض الدول الاعضاء في الجامعة تتمتع بنفوذ اكثر من نفوذ غيرها.

وأجاب البزاز بأن الشعوب العربية هي أمة واحدة، ولا يضيرها ان يكون لمصر دور خاص في نشاط الجامعة..

وقلت أضيف الى كلام البزاز وكأني مسخَراً للدفاع عن مصر:

ـ ان مصر لا تفرض رأيا على أحد. ان طبيعة الاشياء هي التي تفرض

نفسها. ومصر جزء من هذه الأمة، وهي المقدمة دوما لكل معركة عربية. ومصر لا تتحكم وانما تخدم، وهي لا تتآمر، ولا تتدخل، وانما تستجيب لما فيه مصلحة الأمة العربية..

ودار النقاش حول "ما هو المراد بالوحدة العربية". ثم نقاش آخر: ماذا تعني الوحدة بمعناها السياسي؟.

ثم سؤال آخر: هل من حاجة لقيام الوحدة العربية؟

ثم سؤال آخر: كيف نرى ـ البزاز وأنا ـ قيام هذه الوحدة؟

ثم سؤال آخر: ما هو جوابنا ـ البزاز وأنا ـ على أعداء الوحدة العربية الذين يتظاهرون بألف سبب وألف عذر لمنع قيام الوحدة؟

ثم سؤال آخر: هل الوحدة تعبير عن التغيير المطلوب، أم انها علاج لأوضاع ليست في مصلحة الأمة؟

الى آخره.. الى آخره..

وليت كل عربي، في العراق، يسأل اذاعة لندن عن هذه التسجيلات لكي يدرك ـ ولو بعد فوات الاوان ـ أي بعد رحيل عبد الرحمن البزاز ـ نوعية الرجل العملاق الذي نادى بالوحدة والاتحاد، والتجمع، ولم الشمل، قبل أي سياسي عربي آخر.!

وليت كل عربي في بلدي.. في فلسطين.. او فيما تبقى من فلسطين، يسأل عن هذه التسجيلات ويستمع اليها لكي يعرف ان كاتب هذه السطور لم يكن يوما ضد مصر، او ضد الجامعة العربية، او ضد الوعي العربي من اجل استعادة كل ما ضاع من ارض بلده.. او ضد ما ينادي به المواطن العربي المؤمن تحت كل سماء عربية!

هذه التسجيلات أهديها باسم روح عبد الرحمن البزاز، وباسمي الى كل شاب وكل فتاة عربية من طوابير الجيل العربي المعاصر!

أجل..

هكذا كانت اذاعة لندن ! وفي هذا الفلك السماوي الواسع كانت تدور.. وتعمل.. وتغزو العقول والقلوب !

ترى، ماذا جرى لها اليوم؟ أعني ماذا جرى لاذاعة لندن، وأين اختفى الصوت المدوي القائل: هنا لندن !

أين. ؟؟

لقد تقوقعت هذه الاذاعة، عندما انتهت الحرب "الباردة" ولم يعد للخارجية البريطانية من حاجة اليها. لقد تولى ادارتها مدير بريطاني كان خبيرا في القضايا التركية ومديرا للقسم التركي، ولا علاقة له بالعرب، او العروبة. وراح هذا المدير يعمل على تقليص ميزانية الاذاعة.. مع زيادة ساعات العمل. وتحول المذيع العربي في اذاعة لندن الى مجرد موظف.. لا الى اعلامي متخصص ولا الى انسان مبدع وفنان. وبدأ هذا التدهور يأخذ مجراه ويثبت أثره في منتصف الثمانينات. وبدأت القضايا القانونية تأخذ طريقها الى محاكم لندن للبت في الخصومات الطارئة بين المدير من جهة، وعشرات من الموظفين، من جهة اخرى. وتخلت الخارجية البريطانية ـ المسؤولة عن دفع الاموال ـ عن مسؤوليتها تجاه هذه الاذاعة.

وفجأة، قرر هذا المدير المتخصص في القضايا التركية، منذ زمن طويل، ولا يعرف سواها، ان يقضي على جميع البرامج الترفيهية في اذاعة لندن، بجرة قلم !

يعني: لا موسيقى ولا برامج موسيقية !

لا غناء ولا سهرات !

لا اذاعات خارجية ولا مواسم ولا أعياد !

لا منوعات، لا ترفيه. لا "ما يطلبه المستمعون". لا احتفالات.

وأراد هذا المسؤول البريطاني ان يبرر هذه "المذبحة" التي تعرضت لها اذاعة لندن، فقال بأن الاذاعة لا تستطيع ان تنافس بقية الاذاعات العربية في

المواد الموسيقية التي هي ـ اصلا ـ تخرج عن تلك الاذاعات من غناء وموسيقى، وتنبع عنها وتنتج باسمها! يعني: لا تستطيع اذاعة لندن ان تنافس اذاعة القاهرة في امتلاك الاغاني الجديدة، او المنوعات الفنية الجديدة، لان اذاعة القاهرة تملك كل الامكانيات التي تفتقر اليها اذاعة لندن في هذا الميدان!

والحل، هو ان تتحول اذاعة لندن الى نسخة من اذاعة وتلفزيون "سي.ان.ان". أي أخبار وتعليقات بلا تسلية ولا طبل ولا زمر!

يضاف الى ذلك ان الميزانية المالية للاذاعة البريطانية ـ وخاصة القسم العربي ـ قد تقلصت الى الثلث..

يعني: لم يعد عندهم فلوس!

وهكذا، ومنذ مارس ١٩٩٩ انتهى البرنامج الترفيهي المعروف من اذاعة لندن، واقتصرت البرامج على مواد سياسية واخبارية فقط.

وهكذا "طار" الموظفون الذين كانوا يشرفون على أي برنامج ترفيهي، وأحيلوا على التقاعد. وانتهى جيل كامل من العمل الاذاعي الناجح من دار اذاعة لندن! كان رئيس وحدة المنوعات والموسيقى ـ وهو اذاعي قديم، ويضرب على العود، ويعرف أذواق الناس، قد تسلم الامر الذي يضع حدا لأحلامه.. وعمله، وتقوقع هذا الرئيس في منزله يبكي حظه، ويبكي الماضي الزاهر لمحطة لندن! لقد تكاثرت المشاكل فوق رأس اذاعة لندن حتى اصبحت مملة. وعندئذ، حان الوقت لإسدال الستار.

ترى هل هناك أوجه شبه بين الانسان من جهة، وبين الاذاعات من جهة اخرى؟.

يولد الانسان ويقوى ويشتد وينتصر، ثم يبدأ العود في الضعف حتى يصل الى الموت..

وكذلك الاذاعات..

وكذلك المدن.. الكبرى!

أجل.. المدن الكبرى. مثل القدس ويافا وحيفا وعكا والمجدل وغيرها من المدن الفلسطينية التاريخية الكبيرة. هذه المدن أين ذهبت؟ ومدينة يافا ـ بالتحديد ـ أين تقلصت، ولماذا تهدمت؟ ومتى يسأل عنها عربي واحد؟.

ولماذا لا تبادر حكومة اسرائيل الى تعمير الاجزاء المتهدمة من مدينة يافا العربية الغالية؟.

ولماذا تركت حكومة اسرائيل جميع الأحياء العربية المتهدمة في مدينة حيفا ـ مثلا ـ خرابا وبدون تعمير؟.

ان الداخل الى مدينة يافا ـ وكانت الى أمس القريب وخاصة في ايام الانتداب البريطاني على فلسطين، هي عروس البحر الابيض المتوسط. كانت يافا هي مركز الصحافة والسهر. وكانت أغنى مدينة في فلسطين حيث بيارات البرتقال. واليوم تحولت مدينة يافا الى مدينة أشباح. أنا أدخلها خائفا، واخرج منها حزينا، وأعيش بداخلها متحطما يائسا باكيا! ان الداخل اليها يبقى متهما عند رجال الأمن بأنه يتعاطى المخدرات!

ماذا جرى ليافا.؟

مقابرها اندثرت. وبيوتها تحطمت. وشوارعها تساوت مع الرمل. وأسواقها بلا معالم. وأكبر شوارعها ـ وكان اسمه شارع "الاستقلال" ـ لم يبق منه الا الشجر!

أين ذهبت يافا؟ أين المنشية؟ أين العجمي؟ أين شاطئ الشباب؟ اين المقابر المختلطة بين المسلم والمسيحي؟ أين شارع بسترس؟ أين شارع المستقيم؟ أين مطعم "السلام" وأين مطعم "المدفع" المطل على البحر؟ أين القهوة التي كانت ملعب لقاءاتنا مع رجال الصحافة والقلم في يافا من أمثال ابراهيم الشنطي، ويوسف حنا، وعيسى العيسى، وعبد الله القلقيلي

والشيخ المظفر والأفغاني شاعر فلسطين ورشاد البيبي وسعيد العيسى وعميد الامام وعشرات بل مئات غيرهم؟.

كان عميد الامام شابا طموحا.. وثريا.. وجاء الى القاهرة لكي يدخل دنيا الصحافة من باب المال. وراح ينفق ويسهر ويوزع الهدايا بلا حساب. واخذوه الى مجلة "روز اليوسف" المصرية مع صديق مقدسي له اسمه اسد طجّو! وطالت الغربة وانتهى مال عميد الامام وانفض من حوله الخلان والأصحاب والزملاء.

وعندما ادرك عميد الامام خطورة حالته، انصرف الى الشراب حتى أدمن عليه! وصدق فيه وفي حاله يومذاك قول الشاعر عمر ابو ريشة:

ويعب الدخان حتى استحالت

رئتاه مجامرا لدخانه

خالعا معطف الوقار مُكبا

فوق شهواته طليق عنانه

لا تلوموه في ضلال خطاه

رب رجس الطهر من أركانه!

وانتهى الحال بعميد الامام، الى سيجارة وكأس.. ومرض!

ورأيت نص نعيه امامي في "دار الجمهورية" بالقاهرة وحزنت..

لم احزن على عميد الامام فقط.

انه بعض وطني. ان وطني ـ وحده ـ هو الذي يستحق مني الحزن.. والدموع!

* * *

وكنا نغضب على اذاعة لندن، وعلى غيرها من الاذاعات الاجنبية

العالمية المهمة، ان هي تعرضت لنا، او لقضايانا بالنقد والتجريح؟!

وكنا نسمح لأنفسنا ان نلهو ونلعب ونتاجر بالمحرمات، ونستغل النفوذ ونزرع سهول بلادنا "بالحشيش" ونوظف "البلطجية" في دوائر الدولة ونخص المجرمين بالاموال والهبات، ثم نغضب ان وصل الخبر الى اذاعة لندن، وتولت نقله واذاعته في احدى نشراتها الأخبارية..؟!

وكان سفراء لبنان في لندن، مع مدير مكتب الجامعة العربية في الستينات والسبعينات والثمانينات، مع بعض الزعماء اللبنانيين اللاجئين الى لندن ابان الحرب اللبنانية الأهلية، يشكون من اذاعة لندن، ويتهمونها بالعداء للعرب عامة، وللبنان خاصة..!

وفي هذا تحامل لا مبرر له على اذاعة لندن واتهامات لا اساس لها من الصحة..

لقد قلت للصديق الراحل "تقي الدين الصلح" خلال مأدبة عشاء أقامها لنا الزميل سليم اللوزي في منزله بلندن:

ـ أولى بنا ان نراعي مسلكنا العام بدلا من اان نوزع التهم على الاذاعات والصحف ونتهمها بالعداء للعرب!

ثم اضفت: هل احدثك عما جرى لي عندما دعاني الرئيس اللبناني فرنجية لزيارته في منزله الصيفي في "اهدن" بلبنان..؟

كان ذلك في عام ١٩٥٩، وركبت السيارة الى طرابلس ومنها الى "زغرتا" ومنها الى اهدن، وتناولت الغداء في ضيافة الرئيس فرنجية ثم ودعته وقفلت راجعا الى بيروت. ولكن الرئيس فرنجية، أراد ان يطمأن على عودتي الى بيروت، فاتصل بأحد مساعديه واسمه السيد "رينه معوض" الذي اصبح فيما بعد ـ ولا تسلني كيف ـ رئيسا للجمهورية، وأمره بأن يرتب لي سيارة تاكسي خاصة تنقلني من زغرتا الى بيروت...

".. وسألت عن عنوان السيد رينه معوض فقيل لي انه يلعب الورق في

القهوة عند مدخل المدينة. وذهبت الى القهوة ووجدت ان السيد "معوض" قد أعد لي سيارة تاكسي تنقلني الى بيروت وتأخذ مني الأجرة كاملة! وركبت السيارة من باب المقهى المذكور، واتجهت صوب طرابلس. ولكن.؟

لم تكد السيارة تقطع مائة متر حتى أوقفها رجل مسلح وبيده "كلاشينكوف" وعلى خاصرته مسدس!

وصاح الرجل وهو يأمرني بالنزول من السيارة: انزل!

وعندما حاولت ان اسأله، او أناقشه، صوب الكلاشينكوف الى صدري وهو يقول:

ـ انشاء الله فاكر حالك في بيروت؟ هون يا خواجة في نظام..! هون في دور..! في صف..! في ناس بتفهم..!!

وسألت السائق عما يجري حولي فأجابني ان "رينه معوض" قد اختار هذا التاكسي ولم يسأل عن غيره مما أغضب بقية السائقين!

وتشجع الرجل المسلح من كلام السائق وراح يطلق النار في الهواء!

وفي أقل من دقائق تجمع حولي اكثر من عشرين سائق تاكسي وكلهم يحملون السلاح بأيديهم ويهددون ويتوعدون!

وقلت لهم انني ضيف الرئيس فرنجية، فأجابوا ان الرئيس فرنجية رجل.. أزعر!.. رجل جاهل!.. رجل لا يفهم!

قلت: وانني صديق السيد رينه معوض، فقالوا:

ـ رينه معوض رئيس عصابة!

قلت: ولكني ضيفكم وفي بلدكم؟!

قالوا: اذن اترك هذا التاكسي وارجع الى موقف التاكسيات في وسط المدينة، وابحث لك عن سيارة أخرى تحملك الى بيروت!

قلت : هاتوا لي سيارة الى هنا وأنا مستعد ان أدفع الأتعاب .. كاملة !

قالوا وعيونهم تقدح شررا :

ـ بلاش مشاكل وارجع الى موقف التاكسي أحسن لك !

ونزلت ماشيا على قدمي لكي أبحث عن سيارة تاكسي...

وسرت صوب وسط المدينة فاذ بسائق التاكسي يلحقني مطالبا بأجرته. وعندما سألته ان "يحاسب" رينه معوض أجاب : مستحيل !

وبقيت وسط المدينة، تحت أشعة الشمس الحارقة، انتظر أن أجد تاكسي ترضى ان تحملني الى بيروت، وجاء سائق آخر وأخبرني انه مستعد ان يحملني بسيارته الى زغرتا.. أي الى ثلث الطريق. قلت موافق. ووصلت زغرتا فاذ بي أجد أنني قد انتقلت من نار.. الى نار! وبقيت في "زغرتا" اسأل، وأتوسل، وانتظر حتى غروب الشمس! وطلبوا مني مائة ليرة لبنانية كاملة لكي تنقلني سيارة تاكسي الى بيروت ووافقت! ولم تكد تقطع مسافة قصيرة حتى مد السائق يده صوب وجهي قائلا: تسمح تدفع لي الأجرة. ولم اناقش. ودفعت المائة ليرة كاملة، وساد سكوت قصير لم يقطعه سوى صوت السائق يقول لي :

ـ كان اتفاقنا على مائة ليرة، ولكن سعر البنزين قد ارتفع مؤخراً وعليك ان تدفع عشرين ليرة اخرى. !

قلت : ولكني ضيف فرنجية، ومعوض وزعماء اهدن.. !!

قال : طظ يا فرنجية.. ويا معوض.. ويا زعماء اهدن !

ولم اصل الى بيروت الا في العاشرة مساء. أي ان رحلتي الى اهدن والعودة منها قد استغرقت عشر ساعات كاملة !

واستمع صديقي تقي الدين الصلح الى قصتي وقال باسما :

ـ ان هذه القصص ليست غريبة عن أهل الشمال !! كل هذا لا يخرج عن المألوف !

قلت وكأني أشتم وألعن وأسدد الحساب: انها ليست غريبة عن الشمال ولا عن الجنوب ولا عن أي شبر من ارض لبنان! هل هكذا تفخرون ان لبنان هو بلد الحرية.. وبلد الأمن.؟ هل تشكون من الاذاعات لانها نشرت قصص الخلافات التقليدية ـ او العشائرية او القبلية ـ بين عائلات الدويهي، وفرنجية، في الشمال؟

وقال ضاحكا:

ـ ولكن.. الزعامة اللبنانية في جنوب لبنان تمارس زعامتها بأساليب القرون الوسطى.. بالقهر، والأمية، والاستعباد، والتعصب!

قلت: وهذه الزعامة اللبنانية في زحلة، والبقاع، تمارس زعامتها بزراعة الحشيش وتهريب المخدرات..!

قال تقي الدين:

ـ ولماذا استثنيتم بيروت؟ ان الزعامات في المصيطبة، والمزرعة، وراس النبع، والخندق الغميق، والطريق الجديدة، تعيش على الرشوة، والدس، والأكاذيب وسوء استغلال النفوذ!

قال اللوزي بصراحته المعهودة:

ـ لقد اضطر تقي الدين بك الصلح ان يدفع نصف مليون ليرة لبنانية الى "جوزيف سكاف" ـ زعيم "زحلة" والمخدرات ـ لكي يأخذه على لائحته الانتخابية.. في الانتخابات البرلمانية الماضية.! أليس كذلك يا تقي بك؟

وقد استدان تقي بك المبلغ المطلوب من البنك بكفالة السيدة حرم رياض بك!

قلت: وذات يوم كنت مع اميل البستاني في زيارة لقرى "الجنوب" اللبناني ورأيت ان زعامة كامل الاسعد واحمد الاسعد "ونحنا رجالك كامل بك".. والسيدة الراحلة "ام كامل".. انما تعود بالحياة السياسية في لبنان، ألف عام الى الوراء.. او أكثر.!!

ترى لماذا نحصر الكتابة كلها في صراعنا ضد اليهود ولا نلتفت مرة

واحدة، الى صراعنا ضد أنفسنا؟

لماذا نلوم نتنياهو ولا نحاسب "لحد"؟ لماذا نتحدث عن السرقات في اسرائيل ولا نتحدث عن السرقات والاختلاسات وعمليات النهب والتزوير في بيروت، وفي قلب حكومة بيروت، وفي بعض صحف بيروت، وفي مجتمعات بيروت المخملية الراقية؟ لماذا نسرد ونكتب وننشر عشرة آلاف مقال عن السلام، ومسيرة السلام، واسرائيل، وباراك، وشارون، ولا نكتب مقالا واحدا عن الجوع في جنوب لبنان، والحشيش في شرقي لبنان، والمحسوبية وقبض الرشوات عند بعض اصحاب الأقلام في لبنان؟ لماذا نتنياهو وباراك فقط وشارون ولا نذكر "الحريري" او الحص او رؤساء الجمهورية السابقين واللاحقين والحاليين الا بكل خير واجلال واحترام.؟

لعلهم تركوا مهمة فضح الأسرار الى غيرهم.. الى اذاعات لندن ومونت كارلو.. وباريس! واستمروا ـ هم ـ يخرقون القانون وينهبون الشعب ويتعاملون مع الوطن الكبير وكأنه مزرعة خاصة كان يملكها بالامس الشيخ محمد الجسر، او كامل الاسعد، او ابو علي سلام، او الشيخ عبد الحميد كرامي، او عثمان الدنا، او عبد الله اليافي، او سامي بك، او سكاف او الجميل، او فرعون او بسترس، واصبح يملكها اليوم، حضرات الأبناء وحضرات الأحفاد..

وعندما قيل لي ان شقيقة الرئيس الاندونيسي السابق سوكارنو قد اصبحت نائبة للرئيس الاندونيسي الجديد في تلك البلاد ـ بلادها ـ دعوت الله ان ينقذ اندونيسيا من حكامها.!

وقد دعوت كثيرا، قبل ان تنجح هذه السيدة في الوصول الى مقعد "نائبة الرئيس" ان تسقط في الانتخابات ولا تصل الى مقعد واحد من مقاعد الحكم!! أنا أعرف انها سيدة مسلمة. ولكنها شقيقة الرئيس الراحل "سوكارنو" الذي كان سبة عار، وخزي، وسواد، بالنسبة لكل مسلم في

حياة اندونيسيا ! لقد جاء هذا الرجل الى مصر في زيارة رسمية عام ١٩٦٣ ، وكان مضيفه في مصر هو الرجل الثاني في مصر ، أعني المشير عبد الحكيم عامر ! وعندما جاءتني الدعوة لحضور عشاء وسهرة غنائية في منزل السينمائي المصري سمير ذو الفقار بشارع الهرم احتفالا بسوكارنو ، توقعت ان أجد من المفاجآت ما لا حصر لها ولا عدد . !

وبالفعل ، وصل سوكارنو برفقة المشير عامر ، وكلاهما قد أخذ ما فيه الكفاية من الخمر . . والحشيش .

وقد حشدوا للحفل خمسين راقصة مصرية ، وثلاثين فتاة مانيكان ـ يعني ماذا ؟ مع فرقة موسيقية كاملة ، وراقصات شهيرات من نوع فيفي ، وميمي ، "وفلانة فؤاد" ، وسهير ، ونادية ، وسمر ، وسلوى . . وغيرهن .

وكانت المنافسة واضحة بين الراقصات والفتيات حول اختيار الفساتين الاكثر اغراء والاكثر ابرازا لمفاتن الجسد ، مع التركيز على تعرية معظم اجزاء الصدر وكل اجزاء السيقان . . !

وسألت الصديق الموسيقار الكبير احمد فؤاد حسن عن سر هذه الحفلة ، فأجابني بكلمة واحدة ، وخافتة :

ـ انه سوكارنو . . سوكارنو يا استاذ . . سوكارنو !

ورأيت ان اختفي وراء الحضور وأقبع في زاوية مظلمة من زوايا السرادق الضخم الذي أقيم في بستان الدار ، بحيث لا يراني المشير ولا أراه . . يعني : لا عين ترى ولا قلب يحزن !

ولكن . .

لم تمض لحظات فقط حتى رأيت امامي منتصبا كعامود الكهرباء ، الصديق القديم "علي شفيق" ياور المشير عامر ورفيق سهراته ومجونه . وسحبني علي شفيق من يدي وهو يقول لي : المشير شافك من بعيد ، وعايزك تيجي تقعد معاه . ؟

ـ أين يا علي شفيق؟

ـ هناك.. في صدر السرادق!

ومشينا صوب المكان الذي كان يجلس فيه المشير، والى يمينه سوكارنو، فاذ بالمشير مشغول في تلك اللحظة بمداعبة صدر الراقصة "نجوى فؤاد" تاركا لضيفه الرئيس سوكارنو ان يداعب بأنامله الاندونيسية الرقيقة صدر الراقصة "فيفي عبده"!

وأردت ان اعود، فلم استطع..

وأردت ان أجلس بجانب المشير فلم أجد مكانا فارغا.

ورأيت نفسي واقفا كالصنم امام مشهد يحرك الاصنام..

وسمعت صوت المشير ـ الرجل الثاني في مصر ـ يقول لي بصوت عال:

ـ مالك واقف يا ناصر، اقعد وقل لي اخبارك. والناس بتقول عليّ ايه يا ناصر؟ بيقولوا اني بحشش.. صحيح؟

في تلك اللحظة، وصل "احدهم" وهو يحمل نارجيلة صغيرة محشوة في رأسها بالحشيش والدخان الأبيض يتصاعد منها، ومد ذراعها الى المشير الذي وضعها في فمه وراح يسحب دخان الحشيش قائلا لي بصوت متقطع:

ـ قال بيقولوا عني اني بتعاطى الحشيش! شوف الكذب.. شوف التجني يا ناصر.!

ثم سحب نفسا آخر، وسعل في وجهي وقال:

ـ طيب وماله الحشيش؟ هو حد شريكي؟!

ثم أعاد النارجيلة الى الساعي الواقف امامه وغمز له ان يناولها الى سوكارنو.. فتناولها سوكارنو وسحب منها نفسا طويلا وهادئا وقال للمشير على مسمع منا:

ـ هذا حشيش امبريالي!

وهرعت الراقصات الى ساحة الرقص...

وهات يا هز.. وهات يا اثارة.. وهات يا جنس!

وكل هذا وأنا اقف امام المشير وسوكارنو، كالأسير الضعيف المغلوب على أمره، الذي لا يستطيع ان يجلس، او ينسحب، او يتكلم..

وفي اللحظة المناسبة، وكانت الساعة قد بلغت الواحدة صباحا، استأذنت حرس المشير بالسماح لي بالعودة الى منزلي. وعندما سألتني زوجتي أين كنت، أجبتها مع اليأس والسخرية:

ـ كنت في الصحراء الغربية في معية المشير عبد الحكيم عامر، وهو يجرب الصواريخ الجديدة التي سيحرر بها.. فلسطين!

وأكملت:

ـ وكان معنا الرئيس سوكارنو الذي تعهد بأن يضع جميع امكانيات "اندونيسيا" من أجل تحرير مدينة القدس!

ومنذ تلك اللحظة قلت لنفسي ان موعد الحرب الجديدة قد اقترب، وأن نكبة عسكرية اخرى تنتظرنا على الابواب..!

لقد كان في تلك الحفلة اكثر من خمسمائة مدعو..

ولا شك ان كان بين الضيوف اكثر من عميل واحد لاسرائيل!

ولا شك ان بين الحضور، مندوب او مراسل لمحطة لندن، وباريس، او مونت كارلو، شاهد بأم عينيه ما شاهدته بأم عيني.

لماذا العتب على لندن او باريس او مونت كارلو؟.

* * *

ومضت الايام..

وحملتني الطائرة الى لوس انجلوس..

ونزلت في فندق "بيفرلي هيلز" الذي يملكه سلطان "بروناي".. المسلم الورع..

وركبت السيارة التابعة للفندق ورحت اتجول في شوارع المدينة.!

وكان السائق موظفا في الفندق ومهتما جدا بأن يحدثني عن كل شارع وكل قصر وكل شيء مهم في بيفرلي هيلز.!

وعندما وصلنا الى فسحة من الارض الخلاء، وفي وسطها حجارة محترقة، وتماثيل محطمة، وأبواب خشبية قديمة ومكسرة، وقف السائق الى جانب الطريق قائلا لي:

ـ هل تسمح لي أن احدثك عن هذا المكان؟

ولم ينتظر جوابا مني حيث راح يقول:

ـ الى هنا جاء منذ أسابيع شيخ عربي ثري جدا، واشترى القصر الذي كان قائما فوق هذه الارض كما اشترى حديقة القصر مع كل ما كان فوقها من تماثيل بشرية.. كثيرة!

وأكمل قائلا:

ـ ونحن هنا في امريكا نصنع التماثيل الحجرية او الرخامية وننصبها في وسط الحدائق للزينة والديكور..

ثم أكمل:

ـ ولكن الشيخ العربي الثري الذي اشترى القصر واشترى معه الحديقة، قد سلط كل اهتماماته صوب التماثيل وحدها حيث بادر الى تلوين التماثيل بالاحمر والاصفر، مع تلوين الاجزاء او الاطراف التناسلية، بأحجامها الطبيعية للرجل وللمرأة معا، بألوان زاهية وفاقعة ومختلفة، تلفت النظر

وتخدش الحياء وتلعن الآداب والتقاليد!

واصبح الناس يمرون في كل مساء امام القصر والحديقة الواسعة ويتفرجون على مجموعة التماثيل العارية الملونة التي غرسها الشيخ الثري العربي في وسط الحديقة...

وبدأت اصوات الاحتجاج تصل الى حاكم البلدة!

ثم تحولت الاحتجاجات الى استنكارات.. وتهديدات!

وعندما لم يفعل الحاكم شيئا يرضى به سكان المدينة، او يخفي تلك التماثيل المخجلة وراء سور من الخشب او القماش او أي شيء، حمل أهل البلدة ما استطاعوا حمله من كاز وكبريت، ودخلوا الى حديقة القصر، وأشعلوا النار في القصر وفي الحديقة معا!

ولمدة اسبوع كامل، كان حادث هذا القصر هو موضوع الاحاديث وأخبار الصحف الاذاعات في سائر ولايات امريكا..

لماذا نلوم الصحف؟

لماذا نعتب على الاذاعات.؟

صحيح لماذا؟

وعندما قامت صحيفة "باري ماتش" الباريسية الواسعة الانتشار بنشر صفحات طويلة عن الفضائح التي "صنعها" وفجرها أحد شيوخ البترول في الخليج العربي، وعن تلك الممثلة الصبية الصغيرة السويدية الحسناء التي جيء بها اليه عن طريق "قواد" ـ لبناني، فافترسها.. وشكت عليه.. وتدخل البوليس.. والقضاء.. والحكومة.. وتحولت سمعة العرب في عاصمة النور الى نكتة جنسية قذرة يتداولها الوزراء والسفراء، في مجالسهم.. الخاصة!

نعم! ان الشيخ قد تمتع بالفتاة.. طال عمره او قصر!

والقواد، تمتع بالأجرة والمال.. دخل السجن أم لم يدخل!

ولكن العرب وحدهم، هم الذين دفعوا الثمن أمام الرأي العام الفرنسي، وأمام صديقهم الرئيس الفرنسي جاك شيراك، بالذات!

ان ملاعب الذكريات لا تتسع الى سرد كل هذه "الفضائح" التي جاءت تسعى لي وتحكي وتسمي الاشياء بأسمائها دون أي عناء مني..

يكفي ان يقال في باريس انك عربي، لكي يسألك عامل الاستقبال في الفندق الباريسي:

ـ هل أنت وحدك.. أم لك رغبة في ان لا تبقى وحدك!

ومثل هذا الحوار لا يسمعه الاسرائيلي القادم من تل ابيب الى فرنسا، ولا يسمعه التركي، ولا اليوناني، ولا الايطالي ولا الايرلندي، وانما يسمعه فقط، أفراد الشعب الذي أفقدته اللذة الجنسية:

اسمه، وكرامته، وماله، وسمعته!

وإنا لله وأنا اليه.. راجعون!

* * *

وبعد...

لي في عاصمة الانجليز واحات كنت استظل بها. ولي فيها استراحات فكر ونقاش وعلم كنت أبحث عنها! ولي فيها نخبة من الاعلاميين والأدباء والصحفيين الذين بقوا معي، على مر السنين، لا اناقشهم لكي اختلف معهم، ولا يسألونني لكي يثيرون ألمي او يستفزون مشاعري. بعضهم من الأهل في دنيا المشرق العربي، وبعضهم من الانجليز، او الفرنسيين، او من شمالي افريقيا.!

وعلى مر السنين، وخلال فصول شتاء عاصفة وباردة ومخلوطة بالرياح

والثلوج، كنا نتحدى البرد، ونلتقي ونتحدث. وفيما يلي بعض تلك الاحاديث في ملاعب الذكريات:

قلت لهم ان بين حاشية شمعون بيرس ـ إياه ـ شاب اسمه: "آفي جيل". وهو المستشار السري عند بيرس لجمع التبرعات من كافة انحاء العالم. تسألونني لماذا التبرعات. اجيبكم ان شمعون بيرس لا يتقاضى أجرا على محاضرات يلقيها، ولكنه يطلب المال لكي يضعه في صندوق بيرس للسلام.

تسألوني: ولكن بيرس ـ كما قلت سابقا ـ هو المتآمر الأبدي وبالعبرية **Pinkas Sherol** كما قال عنه رابين في كتابه المعروف "دفتر خدمة" أي خدمة الجيش.

قلت لهم ان بيرس ـ كما يقول عارفوه ـ قد تآمر على كل أقطاب حزب العمل، كما انه ـ هو ـ الذي أرغم اسحق رابين على ان يوافق على اتفاقية اوسلو بعد ان تعاون مع "بيلين" ـ لا مع الفلسطينيين..

وقلت لهم ان رئيس جهاز الموساد ـ واسمه "افرايم ليفي" كان منذ ثلاث سنوات سفيرا لاسرائيل في بروكسل، وعلى ايام "اوسلو" كان نائبا لجهاز الموساد، كما كان هو بالذات أقرب صديق الى اسحق رابين. وقد سألوه ذات شمعون يوم: كيف رضي رابين ان يوافق على اوسلو؟ فأجابهم: لقد أرغمه على ذلك بيرس الذي كان يسيطر على سائر اجهزة وكوادر حزب "العمل" الاسرائيلي بحيث كانت السيطرة الفعلية على الحزب له وحده، وليست لرابين. ومن هنا خشي رابين على مركزه في الحزب فوافق على اوسلو مرغما. وقد كان رابين رئيسا للحكومة في شهر سبتمبر من عام ١٩٩٣ ويومذاك كان "باراك" رئيسا للاركان، وكان هو ومؤسسة "الموساد" ضد اوسلو. ولكن شمعون بيرس استطاع ان يضحك عليهم جميعا وان يرغمهم على الموافقة على اوسلو.

قالوا يسألونني: يعني ماذا؟

قلت: يعني ان باراك يعرف كل ذلك، ويتذكر كل ذلك ولا ينسى مدى قوة شمعون بيرس في التآمر!

سألوني: وماذا عن نتنياهو... وباراك؟

أجبتهم: كان نتنياهو يقوم بتنفيذ عدة اعمال سرية وعسكرية يأمره بها.. باراك! جرى ذلك في الجولان السوري، وفي العراق، وفي غور الأردن الشرقي، وفي سيناء حيث جرت اعمال سرية تسلل خلالها نتنياهو مع قوات اسرائيلية الى خلف خطوط "العدو" بأوامر مباشرة من.. باراك!

كان باراك برتبة كولونيل. وكان نتنياهو برتبة ملازم أول..

ولا لزوم للشرح، ولا للتعليق!

* * *

وفي عام ١٩٤٥ دعاني الزعيم الفلسطيني موسى العلمي لكي اكون سكرتيرا اول وفد فلسطيني يذهب الى القاهرة لكي يمثل عرب فلسطين في توقيع ميثاق جامعة الدول العربية!

وكان ذلك بالتحديد في ٢٢ مارس عام ١٩٤٥!

يومذاك، قال لي عبد الرحمن باشا عزام وكأنه يقرأ أمامي من بلاغ حربي:

- أنا أقول ما يلي: اولا: العرب هي أمة المستقبل.

ثانيا: سأحارب من أجل استقلال العرب في كل بلد من بلاد العالم.

ثالثا: انا صاحب الفضل في استقلال اندونيسيا!

رابعا: انا مدين في احترافي العمل "العروبي" لأحمد باشا ماهر، ولمحمود فهمي النقراشي باشا!

وهكذا..

وبينما دخل عزام باشا الى دنيا العروبة من ميادين الجهاد في ليبيا، دخل بعده الى العروبة، عبد الخالق حسونة، من باب الشؤون الاجتماعية. ودخل اليها محمود رياض ـ من باب مديرية المخابرات الحربية في قطاع "غزة" في عام ١٩٤٨ ومديرا لادارة فلسطين في القيادة العامة للقوات المسلحة بعد قيام ثورة يوليو.

اما الشاذلي القليبي، فقد جاء الينا من بلدية قرطاج التونسية التي كان رئيسا لها عام ١٩٦٣، ومن المجمع اللغوي في القاهرة عام ١٩٧٠..

اما عصمت عبد المجيد ـ الدكتور في القانون الدولي من باريس ـ فقد جاء الينا بعد ان اصبح سفيرا لجمهورية مصر العربية لدى الامم المتحدة من ١٩٧٣ الى ١٩٨٣.

صلوا من أجل العرب..

* * *

والشيء بالشيء يذكر
في ملاعب الذكريات!

وعلى مدى الخمسين سنة الماضية، عرفت في مدينة "جنيف" السويسرية، أعلاما عربية تمثل القمم في السياسة والدبلوماسية والأدب والاقتصاد!

من بينهم نجيب الراوي، أقدر سفراء العرب في مصر... منذ اربعين سنة!

يرحمه الله ويغفر له.

ومن بينهم الدكتور مدحت شيخ الارض، الوزير والسفير السعودي منذ ايام الملك عبد العزيز الى يومنا هذا.. وما زال قويا! وما زال قصيرا! وما زال ثريا! الى أن رحمَه القدر وانتقل "الشيخ" الى رحمة ربه!

ومن بينهم الرئيس العراقي الراحل مزاحم الباجهجي الذي جاوز "التسعين" رافضا ان يغادر "جنيف" الى بغداد ومثابرا على المشي، والقراءة، وتبادل الكلام، وزيارة مدينة "ديفون" في ساعات المساء!

ثم حانت ساعة الرحيل ومات مزاحم الباجهجي.

رحمه الله.. بعد أن ترك لولده الوحيد ـ عدنان ـ أوراق ذكرياته!

ومن بينهم زهير مردم، وأكرم عجة، وغازي عيطه، ومروان ارناءوط، وفؤاد اليوسف، وعبد الله تماري، والعشرات من أبناء سوريا، ولبنان، وفلسطين!

ومن بينهم، وفي مقدمتهم، السياسي اللبناني الكبير صائب سلام، رئيس وزراء بلده، وزعيم بيروت المسلم، السني لمدة تزيد عن نصف قرن!

وكان صائب بك ـ كما اعتدت أن أناديه ـ كنزاً لا ينضب من الأخبار والذكريات! لقد قضى مؤخرا ثلاثة أعوام كاملة وهو يملي مذكراته على الزميل اللبناني شكري نصر الله، مشترطا عدم نشرها الا بعد وفاته.!

وصائب بك ليس غريبا عن فلسطين، وعائلة "سلام" التي أنجبت "ابو علي سلام" وأولاده: مصباح ومحمد، وكريماته رشا وعنبرة، لهم في بحيرة "الحولة" ـ في شمالي فلسطين "أحلى" الذكريات.

وفي السنوات العشر الاخيرة كان صائب بك هو الجليس الذكي الذي كنت أسعى لزيارته في منزله في جنيف، والاستماع الى آرائه النشيطة، والصريحة في أحداث الأمس، وأحداث اليوم.. وفي ثورة لبنان أيضا!

وصائب بك ـ مثلا ـ لا يطيق الرئيس اللبناني السابق الجنرال فؤاد

شهاب، والكراهية بينهما متبادلة، وكان الجنرال يقول لي بأنه يكره السجائر، وينفر من دخان السيجار لولا ان صائب سلام "يتعمد" كلما جلس معه في السيارة الواحدة ان يشعل سيجاره الكوبي الطويل وأن ينفث الدخان في وجه الرئيس شهاب!

قال لي فؤاد شهاب معلقا على هذا العمل غير الحضاري: "صائب بك يعتقد ان مشاركة المسلمين في الحكم في لبنان تستلزم ان يتمسك صائب بالسيجار الكوبي الهافاني وان أتمسك أنا بالسيجارة اللبنانية.. !"

وعلى عهد صائب بك في رئاسة الوزارة جرت في بيروت عملية اغتيال الشخصيات الفلسطينية الثلاثة، ومن بينهم شاعرنا الكبير كمال ناصر، وعلى الفور بادر صائب بك الى تقديم استقالته..

وفي عام ١٩٥٨، كان صائب سلام هو بطل العصيان اللبناني ضد كميل شمعون معتمدا في ذلك على مساندة الرئيس المصري الراحل جمال عبد الناصر، معنويا، وماديا.

وقد تعاون صائب مع جمال عبد الناصر - وبلا حدود - ثم انقلب عليه! وعندما يقرأ الناس مذكرات صائب سلام، بعد عمر طويل - حسب وصيته - سيعرف الناس كيف تنقلب المحبة الى عداوة، وكيف تتحول قلوب العطف والتأييد والمناصرة، الى قلوب مليئة بالحقد والكراهية!

وقد تعاون صائب سلام مع معظم الشخصيات السياسية اللبنانية ثم نفض يده منها. كان يستمع بكل سعادة الى كل من يمدحه ولا يعلق الا بكلمة واحدة وكأنها علامة استفهام قائلا: "والله... والله!"، وفي غمرة أحداث حرب لبنان كان يقول لي بلهجته اللبنانية "قلبي يا ناصر يتخزق لان لبنان يتفتت!"، وكان فخورا بأنه صاحب نظرية "الفهم والتفاهم والتفهم" مع الفلسطينيين المتواجدين في لبنان، كما انه فخور بكونه صاحب مؤسسة "المقاصد اللبنانية" ومستشفاها والتي اعتمدت كثيرا على التمويل

السعودي، والعراقي والخليجي!

وفي غمرة الاحداث، ارتبط صائب بك بصداقة مع ريمون إده، ثم كرهه واحتقره وأبعده! وتصادق مع كمال جنبلاط ثم نفر منه! وحالف "عبد الحميد غالب" السفير المصري في بيروت، ثم قطع علاقته معه! وبقي على خصومته الدائمة لعائلة "الصلح" وبالتحديد لسامي بك الصلح وولده عبد الرحمن، وأنصاره، ولابن عمهم تقي الدين الصلح ايضا!

وكان المربي الفلسطيني احمد سامح الخالدي، قد تزوج من السيدة عنبرة سلام، شقيقة صائب بك.. وهي غير زوجته الاولى التي أنجب منها صديقنا "المؤرخ" وليد الخالدي، والذي بادر وتزوج من السيدة "رشا سلام" شقيقة صائب وشقيقة زوجة أبيه... ايضا! وكانت السيدة "عنبرة" من أرقى سيدات بلدها. وكذلك كانت شقيقتها الصغرى السيدة "رشا". ولعل أحلى ما في سائر افراد عائلة سلام البيروتية، يتجلى في لهجة كلامهم المخلوطة بالطابع المحلي البسطاوي.. ذلك الطابع الخاص الذي كان صديقي الطبيب الراحل نمر طوقان ـ فخر المجتمع والطب في بيروت ـ أبرع الناس في تقليده... أمامنا!

واستطيع ان أقول بالفم المليان ان صائب سلام هو أجرأ مسلم سني لبناني بعد رياض الصلح، وعيبه الاكبر حبه للسلطة وللظهور.. والنفوذ.. والمال!

كما أستطيع أن اقول ان غرام صائب سلام بالسلطة قد دفعه الى الكثير من "الزحف" على البطون ـ ضد بعض الآراء وضد بعض المبادىء وضد بعض الثوابت!

وليس سرا أن صائب بك أراد في أواخر العشرينات او قبلها ـ لا ادري ـ أن يتزوج من شقيقة زوجة الرئيس اللبناني الماروني سليمان فرنجية لولا معارضة والده! وليس سرا أن "عنجهية" صائب سلام او بعض غطرسته، انما

تعود الى اعتقاده بأنه من طائفة اسلامية بيروتية مهضومة الحقوق.. وان عليه ان يعيد لها حقوقها حتى ولو كان ذلك باظهار الجفاء والعداء نحو "الماروني" ونحو الشيعي.. ايضا!

بقيت كلمة واحدة تروي قصة صائب سلام الوطنية.. كلها!

انها قصة وقوفه مع أهلي من الفلسطينيين في لبنان ودفاعه عنهم منذ عام ١٩٧٣ حتى خروجهم من الارض اللبنانية! وكان رغم عواطفه "الفلسطينية" لا يسمح ـ مثلا ـ لمسؤول فلسطيني متطرف مثل "ابو اياد" ان يقول في طرابلس الشام ـ ذات يوم ـ بأن الطريق الى القدس تمر في بيروت! وعندما سمع صائب بك هذا الكلام قال لي عبر الهاتف في جنيف: "اسمع يا صديقي ناصر، ان كلام ابو اياد لا ينفع الا ابو اياد!"

ثم استطرد:

ـ حتى ابو اياد لا يستفيد من مثل هذا الهراء!!

وعندما شن ابو اياد هجوما عنيفا على "بيير الجميل"، زعيم جرب الكتائب، بادر صائب سلام الى دعوة بيير الجميل الماروني المتعصب الى طعام الغداء والتقط معه مائة صورة فوتوغرافية وزعها على الصحف!

وكان صائب بك شديد الصراحة مع أعدائه، ومع اصدقائه على حد سواء. وكان ذات يوم في حفلة كوكتيل، وكان السفير الامريكي حاضرا ويتحدث الى الصحفي سليم اللوزي. وسمع صائب صوت اللوزي وهو يقول للسفير الامريكي بلهجة انجليزية مكسرة:

ـ أنا لا اتحدث الانجليزية! أنا أتحدث الفرنسية!!

وقاطعه صائب قائلا للسفير:

ـ لا تصدقه يا سعادة السفير!! ان معرفته بالفرنسية كمعرفته بالانجليزية. كلها: صفر على صفر!.

وعاش صائب سلام في السنوات العشر الاخيرة من عمره، كتلميذ

صغير في مدرسة زوجته الست "تميمة مردم".

هكذا رأيته في جنيف: الست "تميمة" هي الزوجة السورية الأصل لصائب بك وهي التي كانت ـ بكل حب وتقدير ـ تشرف على مأكل زوجها وعلى علاجه، وعلى عدد السيجار المسموح بتدخينه، وعلى ساعات النوم، وعلى ساعات العمل!

لقد اشترى لنفسه شقة في احدى بنايات جنيف وكانت تشرف على البحيرة الحالمة، وتشجع على عقد الجلسات. واشترى جهاز "فاكس".. وكمبيوتر.. ووضعها كلها في مكتب صغير، وقال لي وهو في التسعين من عمره:

ـ أنا الآن مستعد للعمل!

سألته بدهشة: أي عمل تعني يا صائب بك؟

أجاب: سأكتب مذكراتي. او أمليها على أحد.

قلت: لو كنت مكانك لاختصرت مذكراتي في صفحة واحدة تقول لمن سيأتي بعدك:

اولا: ان عائلة "سلام" بريئة من جريمة بيع "الحولة" لليهود.

ثانيا: أنا مسلم سني، بيروتي ومن حقي ان ادافع عن طائفتي وان أهاجم خصومها.

ثالثا: كانت هجرتي القديمة الى فلسطين هي المدرسة التي علمتني أبجديات القضية الفلسطينية.

رابعا: التقيت خلال دراستي في بريطانيا مع نفر من أبناء العائلات الفلسطينية، ومنهم صديقي الراحل عزمي النشاشيبي الذي علمني كيف يستطيع التلميذ المغترب في بريطانيا ان يدرس، ويسهر، ويعشق، ويقضي اجازات آخر الاسبوع في باريس، ورغم ذلك ينجح ويعود الى أهله حاملا شهادة الماجستير!

صائب سلام هو "قبضاي" مسلم في حي "المصيطبة" في بيروت. انه نسخة واحدة ويتيمة لا تتكرر ولن تتكرر. وسيفتقده السيجار! وستبكي عليه القرنفلة الحمراء في صدر الجاكيت. وسيسأل عنه كل من عشق اللهجة البسطاوية من فم صائب سلام، ولم يعد يسمعها.

اما أنا، فلم أعد بعده الى جنيف! ولم اعد أمر في شارع "مالينو" في جنيف. ولن أقف عند الرقم "٢٤" في الشارع المذكور لكي ارفع نظري الى أعلى وأبحث عن صائب سلام واقفا على شرفة شقته، وبيده السيجار، والى جانبه الست "تميمة" وأنادي عليه بالفرنسية:

ـ بونجور يا صائب بك!

لقد أفردت لصائب سلام فصلا خاصا في كتابي "حديث الكبار" الذي صدر منذ عشر سنوات. وانشرح صدر صائب بك لما كتبته عنه، ولما قاله ـ هو ـ بنفسه. وفي خلال ٤٨ ساعة فقط انقلب سرور صائب بك الى عتاب وغضب، عندما اتصل به ولده البكر من بيروت وأخبره انه غير راض عن كلام أبيه!

ولم أزعل من زعل صائب بك. ولم أدهش من تدخل ابنه. ذلك انني كنت أعلم مدى حب الأب لولده، ومدى حرصه على أن يقود هذا "الولد" الى مقاعد النواب في برلمان لبنان!

وأخيرا..

لقد عاش صائب سلام، انموذجا خاصا ومتميزا للكياسة وأدب المجاملة مع اصدقائه ومحبيه.

وعندما أهديته كتابي عن الزعيم الفلسطيني الراحل موسى العلمي ـ وكان العلمي من اقرب اصدقائه ومحبيه ـ أرسل لي كتابا ينبض بالمحبة والتقدير ـ ويرى القارئ صورة منه في صفحات هذا الكتاب ـ قال فيه:

جنيف ٢٧ / ١٢ / ١٩٨٦

عزيزي الاستاذ الكبير ناصر

أصحافي أنت، أم أديب، أم محقق تاريخي؟ إني لأراك قد جمعت المجد من أطرافه!

هذا بالاضافة الى مجد الحسب والنسب. وكأنه لم يكفك حسبك العائلي. فعرفت، وأصبحت مقبولا، بنسبك المقدسي، ورحت تغنيه قطرات من دماء قلبك النابض حنينا، وجئت تسكبها بقلمك الرائع أنشودة بعد أنشودة!

وها هي ما أتحفتني به في هديتك القيمة عن موسى العلمي، وما أجمل هداياك التي تواصلني بها، وكلها قيم وجميل، واحتفظ بها شاكرا لك فضلك.

"ويا منصف الموتى من الأحياء" أنت لم تنصف "العلمي" فحسب، بل إنك خلدته، وهو يستحق!

مع أطيب تمنياتي وخالص مودتي

صائب سلام

يكفي..!

* * *

كنت دوما أعيش تحت تأثير مخدر قوي اسمه: الدول الاسلامية! او الشعوب الاسلامية! او النفوذ الاسلامي والعالمي! وكنت أمشي "أسير الفكرة الخطأ حول قدرة بعض دول المسلمين على مناصرتي! وكنت دوما أظن بأن الاماكن الاسلامية في بلدي، ستبقى بخير ما دام هناك دول اسلامية، او رؤساء او ملوك او حكام اسلاميين تنتمي الى معاني تلك الاماكن السماوية وتعمل على صيانتها والدفاع عنها!

وعندما ذهبت الى باكستان في عام ١٩٦٥ بدعوة من رئيسها المارشال أيوب خان.. لم أكن أدري ان أيوب خان ـ إياه ـ قد لعب أكبر الادوار في فضيحة سياسية دبلوماسية كبرى اسمها قضية "بروفوميو"، وبطلتها جاسوسة انجليزية من بائعات الهوى اسمها "كريستين كيلر"، ومركزها لندن، وأحد أطرافها وزير الدفاع البريطاني، مع الملحق العسكري السوفييتي في العاصمة البريطانية.

وعندما تعرفت الى أيوب خان في جولاتي يومذاك بين كراتشي، واسلام أباد، وبيشاور، عرفت مدى حبه للهو، والمظاهر، والسهر، والهوى، والنساء.! لقد تفحصت اسلوب حياته، ومعاملته لأفراد عائلته، وولعه بالموسيقى والرقص والغناء، وزهده في العمل الجدي مما أضاع على باكستان ـ في نهاية الامر ـ نصفها الشرقي الذي اصبح معروفا فيما بعد باسم بنغلاديش!

وكان أيوب خان، يشتم جمال عبد الناصر على مسمعي! وكان يسألني لماذا لا يتحالف "هذا الزعيم المصري" المسلم عبد الناصر مع نهرو.؟ وهل أصبحت الهند أقرب الى المسلمين من باكستان؟ ولماذا يؤيد "اليوناني" البطريرك مكاريوس في قضية قبرص ضد تركيا المسلمة؟!

وعندما قابلت السيدة الجليلة شقيقة محمد علي جناح في منزلها بالعاصمة، سمعتها تحذرني من أيوب خان، وتؤكد لي بأنه رجل بلا اخلاق،

ولا مبادئ.. ولا اسلام! ولا ما يحزنون!

ـ لماذا؟

ـ هكذا هو.!

ـ وأين المعارضة؟ أين المسلمون؟

ـ هو أقوى منها.. ومنهم!

ـ وأنت؟

ـ أنا لا أزوره ولا يزورني! ولا أراه ولا يراني!

ورأيت ان أذهب الى "كشمير" لكي أرى مشكلتها على الطبيعة! وليست سويسرا بجبالها وثلوجها أجمل من كشمير!

وحجزوا لي مكانا في أكبر فندق في المنطقة. ولدى وصولي الفندق رأيت حراسة غير عادية تقف على الباب الرئيسي، وتكاد تحاصر المبنى وكل ما فيه! وسألت عن السبب فقيل لي ان شخصية باكستانية رفيعة المستوى قد وصلت منذ يومين، وأن هذه الشخصية تحتل الشقة الكبرى في الفندق!

ونسيت كشمير ورحت اسأل عن اسم الشخصية التي تنزل معي في الفندق حتى عرفت أنه رئيس وزراء الباكستان الراحل السيد "ذو الفقار علي بوتو..".

وسألتهم: هل هو وحده أم مع عائلته؟

وأجابوا: ليس وحده، ولا هو مع عائلته!؟

وسألتهم: هل استطيع ان أطلب منه موعدا للمقابلة؟

وأجابوا: لا! انه لن يقابل أحدا.

ثم غمزوا لي بطرف عيونهم وأعطوني الاشارة المطلوبة والتي تقول ان "بوتو" قد اعتاد أن يأتي الى كشمير وينزل في ذلك الفندق، وبرفقته أجمل

امرأة باكستانية من زوجات الضباط الباكستانيين التي وقع بوتو في حبها!!

قلت: ـ هكذا.. "وعلى عينك يا تاجر" ـ كما يقال؟

قالوا: ـ اجل! هكذا وعلى رؤوس الأشهاد!

ولم تمض شهور، حتى سقط "بوتو" واعتقل الجيش هذا الرئيس السياسي المغامر، وعذبوه، وشنقوه بعد ان مثلوا بوجهه وجسده بصورة لم تعد زوجته الشرعية قادرة على ان تتعرف عليه قبل وفاته!

ترى هل كان الرئيس "بوتو" يعلم شيئا عن أحوال ملايين المسلمين المعذبين الذين طردتهم الهند من اراضيها عام ١٩٦٥ ولجأوا الى الغابات المحيطة بما كان يسمى باكستان الشرقية او "بنغلاديش" ـ حاليا ـ وعاشوا وسط أمراض الكوليرا، وأفاعي الموت، والكواسر من نمور وفهود وأسود وضباع.؟!

أنا شخصيا، طرت فوق مخيمات هؤلاء اللاجئين المسلمين ورأيت نكبتهم بأم عيني عندما اعطاني ايوب خان طائرته الخاصة الصغيرة لكي أحلق بها فوق الحدود، وأشاهد جرائم الهند ضد المسلمين وأرى أدهى وألعن مأساة بشرية في التاريخ المعاصر!

ما علينا.!

فقد زرت ايران ـ بعد باكستان ـ على عهد الشاه، وعلى عهد الخميني، وفي الاول رأيت كيف أحالت اسرائيل عرش الطاووس الى جزء من "الموساد"، وفي الثاني رأيت كيف ينتقم الجهل والتعصب والفوضى من العلم والتسامح والنظام، باسم الثورة وباسم الاسلام!

لقد دعاني المليونير وتاجر السلاح ورجل الاعمال "يعقوب نمرودي" ـ صاحب جريدة "معاريف" الاسرائيلية، لزيارة الجنرال الايراني رئيس اركان الجيش الايراني سابقا، والذي يقيم حاليا في فيلا خاصة بجوار مطار "هيثرو" بلندن.

وكان الجنرال قد تجاوز الثمانين من العمر! وكان اسمه: غلام رضا أزهاري!

ورأيت في صدر الصالون صورة زيتية رائعة لفتاة ايرانية رائعة حلوة الملامح، شرقية الصفات، وعندما رأتني زوجة الجنرال أحدق في الصورة، سألتني ضاحكة:

ـ هل تعلم من هي صاحبة الصورة؟

وتولت هي الاجابة قائلة بكل دلال:

ـ انها.. لي. أنا.!؟

ثم أضافت:

ـ وقد كنت ذات يوم صبية حلوة.. وأمر الشاه ـ رحمه الله ـ أكبر رسام في ايران بأن يرسمني بالزيت لكي يعلق الرسم في مكتبه الخاص بقصر "المرمر" بضاحية "شميران". ولكن زواج الشاه من "فرح ديبا" جعل الشاه يعيد الصورة لي تجنبا للاحراج وقال لي يومذاك: "أنت أحق مني في الاحتفاظ بها!"

ثم قالت وكأنها لا تأبه لزوجها الجنرال العجوز الجالس بجانبها:

ـ كنت ذات يوم أعز مخلوقة على قلب الشاه. وكدت اصبح زوجته لولا أن تدخل القدر، "وأهداني" الشاه الى زوجي الحالي ـ وكان رئيسا للاركان ـ وأمره بأن يتزوجني.!

ورأتني أفتح فمي مندهشا لهذه القصة العجيبة، فقالت ضاحكة:

ـ هل يدهشك ان يعشقني الشاه "الامبراطور"، ثم يتجنب الفضيحة ويهديني لرئيس اركانه ويأمره بأن يتزوجني؟

قلت كالهارب من الاعتراف:

ـ مطلقا! لم يعد شيء يدهشني!

يومذاك.. تعرف يعقوب نمرودي الاسرائيلي وتاجر السلاح الذكي على الجنرال الايراني ـ السالف الذكر ـ وقدم له الكثير والغالي والنفيس من هدايا العرس الكبير!

وبعدها، ومنها، وعليها، بدأ "يعقوب نمرودي" يقطف الثمر، ويعقد صفقات السلاح بين اسرائيل وايران، لكي يصبح واحدا من أغنى اغنياء الشرق الاوسط!

وكنت أحسب ان خلفاء المسلمين وحدهم، وفي العصور الخالية البعيدة، وعند بني "أمية" او بني العباس، وحدهم يهدون الجواري او النساء الى مساعديهم ومستشاريهم للاقتران بهن. واذ بشاه ايران ـ وفي ايامنا هذه ـ يجدد هذا الكرم ويهدي احدى معشوقاته العزيزات الى رئيس اركان جيشه لكي يتزوجها بعد ان تنازل له الشاه عنها، او بعد ان عثر على امرأة غيرها!

وفي ايران ـ بالذات ـ رأيت كيف يكون التعصب "الفارسي" البغيض ضد كل من هو ليس فارسي..!

وعندما تحدثت باللغة الانجليزية مع زعيم المعارضة ـ وكان اسمه يومذاك "ابو الحسن حائري زاده" ـ رفض ان يجيبني بالانجليزية، وأصر على التحدث معي بالفارسية وحدها!

وعندما زرت برفقته مبنى البرلمان، وصعدنا الى المنصة المخصصة لجلوس رئيس المجلس، ومددت يدي أحاول ان افحصها او أتحسس نوع الجلد الذي يغطي أطرافها، اذ بالزعيم المرافق يصرخ في وجهي أن أسحب يدي ولا ألمس شيئا قائلا: "هذا فقط من حق الرئيس الايراني!".

وعندما زرت الجنرال زاهدي في مكتبه بالقلعة لكي اسأله عن مصير الدكتور "مصدق" ـ الرئيس المعتقل بعد فشل انقلابه ضد الشاه، أجابني زاهدي بكل صلف وغرور:

ـ أنتم في مصر أكثرتم العطف والدلال على الدكتور محمد مصدق! أنتم لا تفهمون امورنا الداخلية! أنتم تحشرون انوفكم في قضايانا! هذا "حبيبكم" محمد مصدق قد أصبح سجينا عندنا.!

قلت: نحن أحببناه نكاية بالانجليز.. فقط لا غير!

قال: وأنا اعتقلته ارضاء للانجليز، فقط لا غير..!

قلت: ولكن الانجليز هم أعداؤنا واعداؤكم، أليس كذلك؟

أجاب بنفور:

ـ من قال لكم هذا؟! الانجليز هم الانجليز وهم اصدقاؤنا، وأنتم أحرار في اختيار اصدقاؤكم واعداؤكم.

وكان الصديق الراحل عبد المنعم الرفاعي يومذاك، سفيرا للاردن في ايران، وكان معي يستمع الى هذا الحديث!

وعندما عاد الشاه من روما لكي يسدد حساباته مع خصومه، لم ينس ان جمال عبد الناصر كان صديقا للدكتور مصدق، وأن حسين فاطمي ـ وزير خارجيته ـ كان متعاطفا مع الاردن ومع العرب، فأطلق العنان امام حركة مجنونة اسمها: "فدانيان شاه" لكي تحاصر مباني السفارات العربية في طهران، وتكتب عبارات التهديد القذر على المداخل الرئيسية للسفارات.

وعندما جاء العدوان الثلاثي على مصر ـ من بريطانيا وفرنسا واسرائيل ـ كان شاه ايران هو أول المصفقين والشامتين، تماما كما كان اول المؤيدين لاسرائيل ـ بالمال والعتاد ـ في سائر حروبها ضد مصر والعرب والمسلمين منذ ذلك اليوم حتى ساعة سقوطه.

لقد سافرت الى "رامسار" في بحر قزوين، ورأيت السيدة زوجة رئيس الوزراء ـ تلعب "البوكر" في قصر "داربند" منذ ساعات الظهر حتى ساعات الفجر!

ورأيت مشهد "حسين فاطمي" وهم يسوقونه الى ساحة الاعدام لانه

هاجم امريكا والغرب لحساب.. فلسطين، والمقدسات!

وقرأت الصحف الايرانية الصادرة اثر فشل الانقلاب وعودة الشاه من روما، وشممت في كل سطر من سطورها رائحة الحقد والكراهية ضد العرب، ورائحة المحبة والتأييد صوب .. اليهود.!!

وكان منتظرا ان يحكم الشاه حتى يسقط، وان تستمر عملية هدر اموال الشعب الايراني على المواخير، والاحتفالات، ومرور "٢٥٠٠" سنة على قيام العرش الشاهنشاهي في موقع "بيرس بوليس" التاريخي بجوار مدينة شيراز الايرانية، حتى تفلس الخزينة ويجوع الشعب وتقوم الثورة.!

ولكن..

وقلت لاكثر من صديق ايراني من رجال ثورة ايران، وانا اقابلهم في لندن او جنيف او باريس:

ـ من عادة الثورات الكبرى ان تنقلب من الداخل الى الخارج، وان تفتح في جدرانها ابوابا تخرج منها الى العالم الواسع، وان تلتفت الى القضايا المهمة التي كانت تتجاهلها او تبتعد عنها لاسباب داخلية، وان تصبح السياسة المحلية مجرد ركيزة مؤقتة للخوض في رسم وممارسة سياسة خارجية واسعة..

".. أما أنتم بعد الثورة؟"

وكلامي كان موجها للكثير من شباب ثورة الخميني في لندن وجنيف وباريس، "فقد رأيناكم تمعنون في البحث عن المزيد من قضاياكم الداخلية"، وتقيمون المحاكمات، وتعدون المظاهرات، وتكتبون المقالات، وتوزعون التهم والبراءات، وتسوقون الخصوم الى الموت، وكل ذلك بعيدا عن مشاكل المسلمين وقضاياهم في القدس والأقصى.. وفلسطين.. مثلا!

لقد اكتفت ثورة ايران منا، باطلاق اسم بلادنا على شارع فرعي كان

يحمل اسم.. اسرائيل، داخل طهران فأصبح اسمه: منظمة التحرير!

تشرفنا..

إذ ليس هكذا يفهم الاسلام معنى الجهاد.. المطلوب! وليس هكذا تكون حماية المقدسات الاسلامية من أيدي الطغاة والاعداء!

فقط لا غير!

وليست "بروناي" وسلطانها وأحوالها، أقرب الى الاسلام والمسلمين من ايران!

لقد اكتفت "بروناي" من الاسلام بأن شيد سلطانها في هذه البقعة الصغيرة من الارض عشرات المساجد.. التي لا يؤمها أحد.. والتي لم تقنع أحدا!

وبقي السلطان وعائلته ـ وحدهم ـ ينعمون بالملايين من دولارات الدخل اليومي .. من البترول!

وقادني السلطان "حسن بلقايه" لكي أتفرج على أكبر قصر للضيافة في العالم أقامه في قلب العاصمة.! ورأيت مئات من الغرف والحجارة والأدوار والسلالم، رصت كلها بلا ذوق ولا هندسة.. ولا معنى!

ولم يستفد منها أحد. وعندما احتفل السلطان بعيد استقلال بلده ـ عن الانجليز ـ رأيت امامي وحولي عشرات من سماسرة البيع والشراء في عالم الزينة والمجوهرات والذهب. ولم يبق تاجر واحد للمجوهرات في فرنسا وبريطانيا او سويسرا الا وأرسل مساعديه الى "بروناي" لكي يتولون عملية بيع الذهب واللؤلؤ والماس الى السلطان وأفراد عائلته بمناسبة عيد الاستقلال.!!

وجميع هؤلاء التجار والسماسرة ينتمون الى "أولاد عمنا" من أحفاد وأبناء ابراهيم.. عليه السلام!

وقد أراد صديقنا عدنان خاشقجي ان يهدي لزوجة السلطان الجديدة

تمثالا من الذهب الخالص مرصعا باللؤلؤ والمرجان بمناسبة عيد ميلادها ـ السعيد ـ وكان ثمنه حسب تقديرات هؤلاء الخبراء حوالي خمسة ملايين دولار، وإذ بالسلطان يأتي في المساء لزيارة عدنان الموجود ـ وكلنا هناك ـ على ظهر الباخرة "نبيلة"، ومعه رجال الحرس وهم يحملون هدية للآنسة "نبيلة خاشقجي" ـ ابنة عدنان ـ مكونة من عقود مليئة بحبات اللؤلؤ الاصفر ـ النادر جدا ـ ومسحوبة بخيطان من الذهب الخالص، ومرصعة بأكثر من عشرة تيجان صغيرة ملونة بأغلى أنواع الجواهر. !

وقال السلطان لصديقه عدنان خاشقجي على مسمع منا:

ـ أعذرني! فقد حرصت ان أحمل الهدية لابنتك بنفسي قبل ان تغيب شمس هذا اليوم، ويمر عيد ميلادها وتضيع المناسبة. !

والحقيقة ان عدنان خاشقجي اراد ان "يُبهر" السلطان بهديته الثمينة فاذ بالسطان ـ وهذه هي من طبائع السلاطين الأغنياء ـ يرفض ذلك، ويصر على ان يهدي ابنة عدنان بما لا يقل عن ثمانية ملايين دولار! وبما يزيد عن الهدية التي حملها عدنان اليه.

قلت: عاشت القدس وعاش المسجد الأقصى!

أريد ان اقول ان الشخص الوحيد الذي استفاد من وجود هذه المنافسة الحادة بين سلطان بروناي من جهة والخاشقجي من جهة اخرى هو المصري الشاطر السيد "محمد الفايد".. الذي طار الى بروناي وقدم ولاءه للسلطان وبكل هدوء وبساطة وتواضع، فاذ بالسلطان يدخله في شراكته، ويصبح "الفايد" مالكا لمخازن "هارودز"، وفندق "دورشاستر" في لندن، وفندق "ريتز" في باريس، وفندق "بيفرلي هيلز" في لوس انجلوس!

نسيت ان اقول انني في غمرة الاحتفالات بعيد استقلال بروناي ـ وهي جزء من الوطن الاسلامي البعيد ـ عاتبني سلطان بروناي ان احدا من الدول الاسلامية ـ العربية ـ لم يحضر للمشاركة في تلك المناسبة السعيدة!

وعلى الفور اتصلت تلفونيا بصديقي المسؤول المميز في "الرياض" ونقلت له عتاب السلطان، فأجابني:

ـ مين هو هذا السلطان؟ وأين هي بروناي؟ ومتى احتلها الانجليز؟ ومتى أعلنوا استقلالها!؟

وقررت أن اشتري "نسخة" جديدة من كتاب "ألنكبات" للأديب الكبير الراحل امين الريحاني وان أعيد قراءته للمرة المائة!

ومرة اخرى، نسيت ان اقول ان كل هذا الثراء الفاضح لا ينقذ منازل بروناي عندما تهطل الامطار من الغرق، ولا يقضي على أخطر انواع الزواحف ـ كالأفاعي والعقارب السامة ـ عندما يأتي موسم الفيضان وتخرج هذه الزواحف الى اليابسة!

وما ينطبق على سلطان بروناي، يصح مثله على حاكم باكستان الرئيس الراحل ضياء الحق..

قابلت ضياء الحق، في بلده، ثم في بروناي بالذات، عندما جاء مهنئا بالاستقلال! ودار معه الحديث ـ حديث حاد ـ الذي اسمح لنفسي بنشر بعض مقاطعه:

قلت له: هل ستصل باكستان قريبا الى صنع القنبلة الذرية؟

وكان هذا في آخر الثمانينات..

وأجابني ضياء الحق:

ـ لماذا تبادرني بهذا السؤال؟ وهل تظن انني عندما اصنع القنبلة الذرية سأقدمها هدية الى "ياسر عرفات"، لكي يلقيها فوق يهود اسرائيل!؟

وأجبته على الفور:

ـ نحن يهمنا ان تبقى باكستان قوية في وجه.. الهند!

وأجابني في فتور:

ـ اهتموا أنتم باسرائيل، واتركوا مشاكل الهند.. لنا!

قلت: ولكن حماية المقدسات الاسلامية في القدس ليست مرتبطة بنا وحدنا! انها من شأن مليار مسلم في انحاء الدنيا.. وأنتم منهم!

قال: عندما يعلن العرب "عجزهم" عن حماية تلك المقدسات الاسلامية سنتولى نحن المسلمين مسؤولية حمايتها!

هكذا وبكل تبجح وصفاقة!

فقد نشرت حديث ضياء الحق وقامت فوق رأسه الزوابع وعمد مسرعا الى تكذيب الحديث!

ومرة اخرى: فقط لا غير!

ولا استطيع ان أنسى ما سبق لي وسمعته من الرئيس التركي الجنرال "عصمت اينونو" عند لقائي معه في منزله وسط جزيرة من جزر الدردنيل، في عام ١٩٥٨، وبعد اسابيع قليلة من قيام الوحدة بين سوريا ومصر!

يومذاك، لم يسألني عصمت باشا اينونو عن أخبار المقدسات الاسلامية في القدس الشريف..

ولم يكترث لكي يسألني عن أحوال المسلمين في الجزء الفلسطيني الذي احتلته اسرائيل عام ١٩٤٨..

فقط، بادرني عصمت باشا اينونو، خليفة "اتاتورك" لكي يقول لي:

ـ قل لجمال عبد الناصر، وقد اصبح اليوم على رأس دولة عربية قريبة منا وتقف على حدودنا الجنوبية، ان لا يفكر مطلقا باثارة موضوع لواء الاسكندرونة معنا! لأنه لو فعل، فاننا سنقضي عليه.."!!

أجل! سنقضي عليه!

* * *

وبعد...

في بعض ملاعب هذه الذكريات، فصول تنبض بالحب، او الحنين، أو الشجن.

ولكن ذكرياتي عن كبار الحكام المسلمين في عالمنا الحالي، لا تدعو الا الى .. الأسى!

لقد تعرفت على رئيس ماليزيا وعلى بعض أشقائه، وبدلا من ان يدور حديثهم عن الاسلام والمسلمين، حصروا الحديث معي في فوائد السباحة والرياضة.. والتزلج على الماء!

افرحوا واسبحوا يا مسلمين!

فان عدد المسلمين الصينيين المسموح لهم بالسفر الى الحج من بين الستين مليون مسلم من سكان الصين الكبرى لا يزيد عن خمسين حاج في كل عام..! أكرر خمسين فقط!

وسألت سماحة المفتي الصيني للمسلمين في مقاطعة "سينغ يان" في زيارتي للصين عام ١٩٦٤، ان كان في نيته ان يطالب السلطات الصينية بزيادة عدد الحجاج المسلمين المسافرين من الصين الى مكة المكرمة.!

وأجابني على الفور:

ـ نعم! سأطالب برفع العدد الى مائة!

والف مبروك.. سلفا!

ثم ان عندي كلمة مختصرة أصبح عنوانها: على هامش المذكرات.

لقد جاء الأب المفجوع يسألني عن أخبار ولده المفقود!!

لم أسمع منه الا عبارة واحدة ومكررة:

ـ أين ولدي؟

ولا أعرف كيف حصل هذا الأب على عنواني ولا المصدر الذي أعطاه

رقم تلفوني، ولكني سمعت صوته عبر الهاتف يطلب ان يحضر لمقابلتي. وجاء في الموعد المضروب.

ورأيت امامي رجلا محطما، كلماته دموع، ونظراته آهات، وحركاته حزن وأسى! وقال لي أن ولده الوحيد، واسمه "زاخر" ـ أي زكريا ـ قد دخل لبنان مع الجيش الاسرائيلي في عام ١٩٨٢ ولم يعد... لقد ضاع! مفقود! وعمره ١٧ سنة؟!

وهناك ثلاثة جنود اسرائيليين غيره ما زالوا في عداد المفقودين:

الاول واسمه: سلزمان.

والثاني واسمه: ياهو داكاتس.

والثالث اسمه: أراد.

واستطرد يقول لي انه رجل وافر الثراء وانه مستعد ان يدفع مليون دولار عدا ونقدا، لمن يأته بأي خبر عن ولده الوحيد المفقود!

انه لا يدري ان كان ولده ميتا أو انه ما زال على قيد الحياة. لقد طرق جميع الابواب، وقابل معظم رؤساء العرب، وزار دمشق وتونس وبيروت والقاهرة.

واخيرا، نجح في ان يجعل من قضية ولده المفقود، قضية رسمية امريكية، وان يتخذ الكونغرس الامريكي قرارا يكلف فيه وزيرة الخارجية يومذاك مادلين اولبرايت ـ بأن تقدم للكونغرس تقريرا مفصلا مرة في كل ٩٠ يوما عن أخبار الجندي المفقود "زخريا بولميل"، وعن المساعي المبذولة للعثور عليه..

واستنجد الوالد الحزين بي، كي اساعده.

وقلت له ان ما عجز عنه حافظ الأسد، وعرفات، وحسني مبارك، والرئيس كلينتون، ودولة اسرائيل، لا يقدر عليه مواطن مقدسي فرد، من عرب القدس...

ولكنه قال مستنجدا: ارجوك ساعدني!

قلت: سأكتب قصة ابنك، واسمك، وتفاصيل مأساتك وسأترك للناس ـ لغيري ـ مهمة مساعدتك!

ويا أهل الشرق:

ـ هل عندكم خبر عن شاب اسرائيلي مفقود في لبنان منذ عام ١٩٨٢، عمره يومذاك ١٧ سنة، ولونه ابيض، ويتكلم الانجليزية بلهجة امريكية، ويتمنى ان يعود الى أهله.

والجائزة عند والد الجندي في القدس هي: مليون دولار عدا ونقدا.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه:

ـ ترى كم هناك من جنود عرب مفقودين منذ عشرات السنين، دون ان يسأل عنهم أحد؟!

وكم هناك من شباب عرب ضاعوا في حرب سوريا أو لبنان او مصر او الاردن او ايران، وانقطعت اخبارهم ولم يتدخل الكونغرس الامريكي، او مادلين اولبرايت، للبحث عنهم!

الفرق بين الانسان الفرد العربي، والانسان الفرد الاسرائيلي اليهودي، فرق كبير.

ولا لزوم للمقارنة..!

* * *

ثم أنتقل الى موضوع آخر..

قال لي زميلي الراحل محمد التابعي ذات يوم، ان الحياة بلا ذكريات تصبح صحراء، والحياة بلا نسيان تصبح جهنم! لذا تبقى الحياة عند

العقلاء خليط بين الذكريات.. والنسيان!

وهناك ذكريات قد تعمدت ان أنساها.

وكذلك هناك ذكريات أقوى من النسيان.

وبعض ما نسيت، لا أندم عليه.

وبعض ما بقي، لا افرط به ولا أنساه.

وهذه عينات من ذكريات لم أنسها!

..وقد لا أنساها مطلقا.!

دعاني السيد شوكت حماد، مدير البنك العربي في مصر للعشاء والسهرة في منزله. وكان هناك الامير ـ أمير الرياض وصديق الأدباء والصحفيين ـ سلمان بن عبد العزيز، وعبد الحليم حافظ ومحمد حسنين هيكل، واحسان عبد القدوس، ومحمد عبد الوهاب وبعض السيدات.

واقترح عبد الوهاب على الحضور الدخول في لعبة جديدة ملخصها ان على كل فرد من الحضور ان يختار لنفسه اغنية موسيقية يرددها بصوته، واذا اعتذر عن الغناء عليه ان يختار من بين الحضور من يقوم مقامه!

ورضي الرجال ـ كلهم ـ بالغناء مع اعتذار السيدات عن مجاراتهم!

وغنى شوكت حماد اغنية محمد عبد الوهاب "يا لوعتي يا شقايا يا ضنى حالي"! كان شوكت حماد هو العاشق الدائم للحب والغناء.. ومحمد عبد الوهاب!

وغنى هيكل اغنية سودانية كان قد حفظها عندما كان مندوبا لدار "اخبار اليوم" في الخرطوم قبل ٤٥ سنة!

وغنى عبد الحليم حافظ مقاطع من اغنية الليالي.. "تعمل ايه فينا الليالي؟"، ثم اعتذر بداعي المرض وضرورة النوم المبكر!

وغنى عبد الوهاب مقطعا من اغنيته الوداعية: زعق الوابور على السفر

قلتله رايح فين.. رايحين تغيبوا سنة ولا تغيبوا اثنين؟

وغنى احسان اغنية "الأم" لوالدته السيدة "روز اليوسف" لكي تعطيه بقية راتب ونفقات آخر الشهر!

وغنيت بدوري اغنية "احنا الشعب.. احنا الشعب.. اخترناك من قلب الشعب.. يا فاتح باب الحرية.. يا ريس يا كبير القلب."

وصاح الحضور: يحيا النفاق! تحيا المسايرة!

وكان معنا الشاعر الصحفي ومؤلف الأغاني الحلوة اسماعيل الحبروك، وروى لنا الامير سلمان القصة التالية عن اسماعيل الحبروك عندما سأله الامير سلمان عن "الحالة" الداخلية في مصر فأجابه "الحبروك" مع غمزة في العين: بعدين.! وعاد الامير وسأل الحبروك عن رأيه في "الحالة"، فأجابه "الحبروك" مع اشارة باليد: سنحكي غدا يا سمو الامير. نؤجل الكلام للغد"!

وفي اليوم التالي التقى سموّ الامير سلمان مع اسماعيل الحبروك في نادي "الجزيرة" بالزمالك، وبادر سلمان يسأل الحبروك عن الاخبار، فطلب منه الحبروك ركوب السيارة معا والتوجه الى شارع الهرم. وعند وصولهما الى الهرم، قال الامير للحبروك: تفضل تكلم وقل لي ما هي الاخبار وما هو رأيك في الحالة الحاضرة في مصر.؟ هيا.. ليس معنا أحد.. واسمعني رأيك بصراحة!.

وارتاح الحبروك وقال للامير: الاخبار عال! والحال زي العسل. والشعب مبسوط.. وكل شيء على ما يرام يا سمو الامير!

وانفجر الامير سائلا: ولماذا لم تقل لي هذه الآراء "الخطيرة" عندما سألتك عنها في المنزل وفي النادي وفي كل مكان؟.

وأجاب الحبروك: لأني لا اريد ان يسمعني أحد.. يا سمو الامير!

وسأله الامير: لماذا؟ هل في كلامك ما يسيء الى الحكام.. الى عبد

الناصر.. الى المخابرات مثلا؟

وأجابه الحبروك: مطلقا! ولكن كلامي يسيء الى الشعب المصري.. وحده!

ثم أضاف:

ـ الشعب المصري كلامه غير كلامي، ولو سمعني الشعب اقول هذا الكلام أو أمدح الثورة لضربني بالجزمة!

ورحم الله ايام زمان...

كان بعض ما يجري في مصر يذكرني ببعض ما كان يجري في بلدي.!

أنا اقول ان اكبر ضربة أصابت الجزء الشرقي من مدينة القدس ـ أي الجزء العربي منها ـ ليست في حصار المستوطنات للمدينة فحسب، ولا في تقليص حصة العرب من الماء والكهرباء فحسب، ولا في اهمال البنية التحتية للمدينة ـ من طرق وأرصفة ومجاري ـ فحسب، بل في طمس جميع "ملاعب" الرياضة في مدارس شرقي القدس، وغرس المباني المختلفة فيها..!

كان هناك اكثر من ١٥ ملعبا لكرة القدم، مع عشرة ملاعب لكرة السلة، او التنس، او الكرة الطائرة، موزعة بين احياء الشيخ جراح، وسعد وسعيد، والمصرارة، ووادي الجوز، وطريق رام الله، وقد اختفت كلها وتركت اولادنا وأحفادنا يمارسون لعبة الكرة في الشوارع العامة وسط السيارات والحافلات!

وكانت هوايتي ايام الشباب ان أمارس رياضة المشي وسط هذه الملاعب الرياضية التي تربيت فوق ارضها، وتنسمت هواء الصحة والعافية من ترابها.

واليوم، أتلفت حولي فلا أجد ملعبا واحدا في بلدي يحمل لي نسمات الامس ويذكرني ببركات شبابه!

ووأسفاه...

ولعل في هذا الحديث "الساخر" عن تونس ما يخفف من هموم الحديث العابس عن القدس...

كانت السهرة في منزل الرئيس الليبي الساق مصطفى بن حليم، في لندن كلها سياسة، وكلها ذكريات! وكلها نكت سياسية!

وكان بين الحضور حسيب صباغ، وشريكه الخوري، وسامي العلمي، ومجموعة من ابناء فلسطين.

ومصطفى بن حليم، يشعر بالضعف الشديد تجاه اهل فلسطين لان زوجته من عائلة "كنعان" النابلسية من فلسطين، ولان الرجل الذي اختارها له هو مؤسس البنك العربي، عبد الحميد شومان... رحمه الله.

وجاءت ذكرى زعيم تونس "الحبيب بورقيبه" الذي تجاوز التسعين من عمره.

وروى مصطفى بن حليم الذي تولى رئاسة الوزارة في ليبيا اكثر من مرة القصة التالية، التي تثبت ذكاء بورقيبه وخفة دمه وطلاقة لسانه.!

قال الرواي ان الحبيب بورقيبه قرر ان يهرب من تونس ويعبر الحدود الى مصر. وعند نقطة بوليس الحدود المصرية، أراد بورقيبه ان يقابل ضابط المركز لكي يستأذنه في دخول الاراضي المصرية هربا من ملاحقة الفرنسيين..

ودخل بورقيبه مكتب الضابط المصري فوجده متعبا يغالب النوم. ودار بينهما الحوار التالي:

ـ أنا الحبيب بورقيبه.

الضابط: قلت اسمك ايه.!؟

بورقيبه: انا الحبيب بورقيبه واريد ان أعبر الحدود هربا من الفرنسيين.

الضابط: وحضرتك بتشتغل ايه..؟!

بورقيبه: انا رجل سياسي..

الضابط مقاطعا: يعني مصر ناقصة رجال سياسة. قل يا حضرة انت عايز ايه..؟!

بورقيبه: انا مش عايز حاجة.. انا عايز ادخل الحدود والجأ الى مصر كلاجئ سياسي...

الضابط: مش كفاية اللاجئين اللي عندنا. يعني انت مصمم على ان تؤذي مصر.؟

بورقيبه: لا لزوم لهذا الكلام! أنا لم احضر لكي اؤذي مصر. انا رجل مجاهد اطلب الحرية لوطني...

الضابط: أمال جاي هنا تعمل ايه.؟

بورقيبه: قلت لك انني مجاهد من اجل استقلال تونس...

الضابط: ولكنك الآن على حدود مصر! اسمع يا حضرة اذا كنت عايز تحرر وطنك تونس، يبقى لازم ترجع دلوقت لوطنك تونس! .. كده والا ايه؟

بورقيبه: ولكني مطارد، واذا عدت الى تونس ستعتقلني السلطات الفرنسية وترمي بي في السجون!

الضابط: يبقى حضرتك عايز تبقى مجاهد من دون ان تدخل السجون؟

ثم عاد يسأل:

- انت قلت لي اسمك ايه.؟

وأجاب بورقيبه:

- أنا الحبيب بورقيبه يا حضرة الضابط!

وعاد الضابط يسأل:

ـ وهل انت موظف في حكومة تونس؟

قال بورقيبه:

ـ ابدا.. انا سياسي!

قال الضابط: ما هو عملك بالضبط، قل لي يا استاذ.. قل!

وضرب بورقيبه كفا على كف، وقال كلمته المشهورة وهو يتذكر صفحات جهاده الطويل من اجل تونس، والتي لم يسمع بها حضرة الضابط المصري:

ـ يا خسارة المسعى! ويا خيبة المسعى!

واصبحت عبارة بورقيبه على كل لسان في تونس الخضراء!.

وعاد بورقيبه الى تونس..

وصدر الامر باعتقاله وسجنه في "منارة" بحرية تطل على البحر الابيض المتوسط! وبقي بورقيبه سجينا في تلك المنارة البحرية لمدة خمس سنوات لم يكن معه خلالها الا الشاعر "ابو الطيب المتنبي".

لقد سمحت له السلطات الفرنسية بأن يأخذ معه ديوان الشاعر المتنبي الى السجن الانفرادي في أعلى المنارة..

واستطاع بورقيبه ان يحفظ كل قصائد المتنبي عن ظهر قلب!

وراح يعيدها، ويستشهد بها، ويكررها حتى ذلك اليوم.

* * *

والى موضوع آخر...

العالم بأسره، يعرف الموسيقار محمد عبد الوهاب، مطربا، وملحنا، وبلبلا مغردا..

ولكن صديقي الموسيقار، أراد ان يصبح معي طبيبا مداويا يفهم في الحساسية، والكرويات الحمر، وما اليها، فأرسل لي الكتاب التالي المنشور في احدى صفحات هذه المذكرات، وهو يدرك تماما مدى مشاركتي له في الكثير من مشاعر الوسوسة والشكوى من الكرويات الحمر.. والكرويات البيض!

"... عزيزي ناصر

"... قبلاتي. وصلني خطابك الشربات. وأنا على وسوستي فهي على آخرها! ويظهر ان الوسوسة لها مواسم، وموسمها عندي الآن.. مع البرد والزكام. وقد سألت لك عن أكبر دكتور في التحاليل عن الكرويات البيضاء، وأخبرني بأن الحالات النفسية في بعض الاحيان تحدث هذا الاضطراب المصطنع ولا قيمة لهذا. نحن في الانتظار وقبلاتي وتحياتي أيها الحبيب والى اللقاء".

محمد عبد الوهاب

والامر الذي لا شك فيه ان صديقي الموسيقار هو أقدر خلق الله على "معالجة" خلق الله. انه كفاءة ممتازة في العلاقات العامة، وفي المجاملة، وفي الاتصالات المباشرة، وفي السؤال المستمر عن رأي اصدقائه في كل لحن من ألحانه، وكل حفلة من حفلاته!

وعلى عكسه تماما، تتصرف السيدة ام كلثوم ابراهيم وكأنها تعيش أبدا او كأنها "وصية" على اموال الدنيا، او كأنها تخشى الفقر والجوع، او كأنها لا تنوي ان تعالج احدا، او تساير أحدا، او تسأل عن أحد.

ولكن ام كلثوم، ترتدي ثوب التواضح والرقة عندما تكون في حاجة الى

أحد يساعدها أو يتفضل عليها بالهدايا ! لقد رأيتها في بيروت، وهي تساير صاحب سينما "ركس" السيد احمد الجاك، الذي لا يساوي قشرة بصلة لولا انه صاحب دار سينما تحتاج اليها ام كلثوم لاحياء حفلاتها. انه من كبار "القبضايات" في عالم بيروت.

ورأيتها وهي تغني للشيوخ، ولبعض النساء في بلدة "بادجشتاين" النمسوية، لانها تحب اموال الشيوخ، ولا تنفر من حب النساء !

ورأيتها تذوب رقة وهي في ضيافة الشيخ الكويتي.. "فلان" على شاطئ بحيرة جنيف السويسرية.

اما فيما عدا ذلك، فان ام كلثوم تبقى الفرس الهائجة، او اللبؤة الكاسرة في معاملة الآخرين.

وفي ١٣ اكتوبر من عام ١٩٥١، ظنت ام كلثوم انها ستقف مع الملك فاروق ضد الملك عبد الله، عندما تطالب دار الاذاعة الاردنية الهاشمية ببضعة دنانير مقابل أجرها عن خمس اغنيات، ضمنتها الاذاعة في برامجها..

وعلى الفور ارسلت لي ام كلثوم الرسالة التالية أنشرها كما هي في صفحة اخرى من هذه الملاعب.

قالت لي أم كلثوم في رسالتها بالحرف الواحد:

القاهرة في ١٣ اكتوبر سنة ١٩٥١

حضرة الاستاذ ناصر الدين النشاشيبي

مراقب محطة الاذاعة الاردنية

بعد التحية،

لاحظت انكم تذيعون اسطواناتي التي سجلتها في شركة كايروفون وبيانها كالآتي:

نهج البرده

غلبت اصالح

هلت ليالي القمر

ظلموني الناس

ولما كان الاتفاق بيني وبين الشركة ينص ان لي وحدي حق الحصول على ريع اذاعة هذه الاسطوانات فاني اطلب منكم ان تتوقفوا عن الدفع لشركة كايروفون وتبادروا للاتفاق معي على اذاعة هذه الاسطوانات مستقبلا.

التوقيع: ام كلثوم ابراهيم

وبالفعل: توقفنا عن الدفع لشركة كايروفون، ولم نبادر للاتفاق مع السيدة ام كلثوم، واستمررنا في اذاعة اغانيها.. بالمجان!

ولا يغلب ام كلثوم، الا اذاعة رام الله!

* * *

في بلادي شاعر كبير اسمه ابو سلمى!

وهذا الشاعر كان استاذي في المدرسة الرشيدية بالقدس، وعلمني أن أحفظ المختارات من الشعر العربي القديم، الذي يعكس أروع صفحات التراث والتاريخ والفن والأدب!

وكان أبو سلمى ريحانة شباب في حياة القدس ومهرجاناتها وحفلاتها.

وكان مواطنا ثائرا من رأسه الى أخمص قدميه! يمشي بخطوات خاصة، ويرتدي الطربوش بوضع خاص، ويتكلم بلهجة خاصة، واذا أحب نشر حبه على الناس، واذا ثار شبت النار في خطواته ومواقفه ومحطات حياته!

ولم يكن غريبا ان يصبح ابو سلمى شاعراكبيرا. انه سليل عائلة كل من فيها أديب او شاعر او اعلامي. كان والده هو الشيخ سعيد الكرمي، أي حجة الأدب والعلم في فلسطين، وكان من بين أخوته، حسن الكرمي الاذاعي والأديب الفلسطيني المعروف، وكذلك عبد الغني الكرمي، وكذلك محمود الكرمي، وكل من فيهم لغوي او صحفي او شاعر او أديب او كاتب كبير!

ويكفي أبو سلمى فخرا انه صاحب القصيدة التي طلبها ــ كاملة ــ الرئيس جمال عبد الناصر للاطلاع عليها بعد ان سمع عنها، وهي قصيدة "الملوك" ومطلعها:

انشر عن لهب القصيدِ

شكوى العبيد الى العبيدِ

ايه ملوك العرب لا

كنتم ملوكا في الوجودِ!

وأيضا، يكفي أبو سلمى انه القائل يخاطب المندوب السامي البريطاني

في فلسطين:

جبل المكبر طال نومك فانتبه

قم واسمع التكبير والتهليلا

جبل المكبر لن تلين قناتنا

حتى نحطم فوقك "الباستيلا"!

هذه أبيات لا يقدر ان يأتي بمثلها شعراء فلسطين بالامس، ولا "شعراء" الرموز والابهام والتلفزيون في هذه الايام..!

وقد أبى أبو سلمى - رفيق غربتي في بيروت والشام والقاهرة - الا ان يكتب لي مرة بعد مرة.. بعد مرة!

وهذه احدى رسائله وفيها الكثير من مرارة الشكوى وأنين البلاء.

قال أبو سلمى منذ اكثر من اربعين سنة، ومن دمشق الفيحاء:

عزيزي ناصر الدين

"سلامات وأشواق وبعد، فقد حمدت الله على أنك اصبحت لاجئا فلسطينيا - مثلي بعدما نزعت عنك الجنسية الاردنية، اقولها غير شامت ولكنني أحب ان يشعر كل عربي انه لاجئ فلسطيني حتى يهدر البحر ويطغى حتى يحطم السدود والحدود، ونعود الى ارضنا الحبيبة وهي أجمل وأحلى ارض، نبني بيوتنا ونزرع سهولنا من جديد.

..."اننا نحمل صور النكبة في عيوننا كما تعلم، وبها نبصر أشلاء حمانا، وكلما قلنا الفجر توارى خلف ظلمات. اننا نشكو ايضا الاهل الذين لم تسر النكبة في عروقهم فيظلموننا. لا يعطوننا جميع الحقوق. ونحن من نضر العروبة. وشظايانا التي وحدت بين العرب، ألا تذكر قولي:

وشظايانا اللواتي وحدت

بين أهلينا ولم يبق سوانا

لن تتم الوحدة الكبرى اذا

لم يلح في الوحدة الكبرى حمانا

"... فلسطين ألهبت الحرف العربي ولكن بعض الاهل لا يكتبون بالحرف العربي، يجنون على أبناء فلسطين فيحرمونهم من حقوق المواطنين. وهم يعلمون ان هذه النكبة نكبة لو مالت على أي شعب لجعلته هباءا، ولكننا كنا نحن شعب فلسطين، أصفى كلما اشتد لهيب النار طاب.

"... اقرأ لك وخصوصا ما تكتبه عن فلسطين فأرى دموعنا تترقرق خلف الحروف يا ناصر الدين!.. اننا نحن ـ الفلسطينيين ـ الذين سنزرع الاشواق في ارض فلسطين. يرفع الاهل الحدود والسدود بيننا ولتجتمع بقايا الشعب حتى نكون الشعلة، كما كنا الوقود، فيلتقت العالم مرة ثانية الى هذا الشعب، شعب التضحيات والبطولات..!"

أرسل اليك ديواني الجديد "اغنيات بلادي" عساني اقرأ كلمة عنه في يومياتك، وهذا الديوان هو ثاني ديوان بعد ديواني القديم "المشرّد".

"... أرجو ان تكون أنت والاسرة جميعها بخير وصحة وسعادة.

وحفظك الله

المخلص

أبو سلمى

٢٣/٥/١٩٥٩

* * *

وفي عام ١٩٥٨ ، طلبوا مني في مؤسسة فرانكلين الامريكية ان أتولى ترجمة كتاب عنوانه بالانجليزية :

"High Moments"

وتعني : الدقيقة ، او : المرحلة ، او : التحول الفاصل ، في حياة مجموعة من الشخصيات العالمية منذ قبل التاريخ حتى اليوم.

ولكني اشترطت على مستشار المؤسسة الامريكية المذكورة أن اضيف الى سلسلة الشخصيات الاجنبية والعالمية الموجودة في الكتاب أسماء ثلاثة من الشخصيات العربية الكبرى وهم : الملك عبد العزيز ، ورياض الصلح ، والملك فيصل الاول ملك العراق الراحل . كما طلبت من زميلي مصطفى أمين ـ عملاق الصحافة المصرية ، ان يكتب فصلا خاصا عن الزعيم المصري الخالد سعد زغلول ، وطلبت من المؤرخ المصري الكبير عبد الرحمن الرافعي ان يكتب الفصل الخاص عن الزعيم مصطفى كامل ، وتولى الزميل الصحفي المعروف كمال الملاخ كتابة الفصل الخاص عن الفنان صانع التماثيل ـ محمود مختار الذي يتوسط تمثاله "نهضة مصر" أكبر ميادين مصر !

واخترت للكتاب المترجم اسم :

"عندما دخلوا التاريخ . ."

وجاءت الترجمة ، كالاخراج ، كالصور ، كالعمل الفني ، كلها موفقة ورائعة وتستحق من يقرأها !

وبيع الكتاب بالآلاف في مصر وفي امريكا وفي العالم العربي ! وعندما وصل الى مسامع صديقي الزعيم الفلسطيني الكبير عوني بك عبد الهادي ، نبأ هذا الكتاب ، بادر وأرسل لي بالبريد المستعجل الرسالة التالية :

جبل عمان ـ عمان

٣١ / ٣

اخي العزيز ناصر النشاشيبي

أُقبلك كثيرا وارجو ان تكون والحرم المصون بخير وعافية وسعادة، تناولت الغداء اليوم عند صديقنا واخينا الاستاذ اكرم واطلعت على كتاب "عندما دخلوا التاريخ"، وأنت تعرف اني أحب قراءة كل ما يخطه قلمك، فهل لي ان آمل الحصول على نسخة من هذا الكتاب الذي اذا وصلني سأقرأه من الألف الى الياء وأذكرك بالخير، على ان اشكرك شخصيا في وقت قريب.

والله تعالى يحفظك أيها الاخ العزيز

عوني عبد الهادي

اما الرجل المناضل اكرم زعيتر، فقد قرأ الكتاب في منزله وفي بلدته ـ نابلس ـ وكتب لي قائلا بخط يده، وكما يرى القارىء في الرسالة المنشورة في هذا الكتاب. قال اكرم زعيتر:

"... وبعد فكتابك يا صديقي منجم الماس! وهو مدرسة رجولية لا يقرؤه متدبر واع حتى يقبس منه شعلات فتوة ومروة... ان الفصلين الرائعين اللذين أبدعتهما عن فيصل الاول وعبد العزيز آل سعود قد نما عليك، وجاءا عنوان فؤادك، ومن قرأ مقالك عن فيصل وتذوق الرأي المخمر فيه خال انك لزمته لزوم الظل حتى نفذت الى طويته، وسريرته ومسحت عن سيرته غبرات لا يفتأ يثيرها محتقدون أشربوا في قلوبهم الجحود واستنزلهم الهوى ـ وآفة الرأي الهوى".

ثم يقول لي مشكورا في رسالته:

"حياك الله كاتبا مجليا وأدام للأدب جمال براعتك وروعة ببراعتك!

نابلس في ٦ / ٦ / ١٩٥٦

* * *

وبعد...

معظم الرجال العرب، يكرهون اجهزة التسجيل وينفرون منها! والزعيم العربي الذي يرضى بأن يتحدث للناس دون انقطاع لمدة ساعات كاملة، نراه يتوقف عن الكلام فجأة، او يتلعثم، او يتأتأ عندما يضع احدهم جهازا للتسجيل على مقربة من وجهه!

لماذا؟

لان العرب يخافون الحقيقة.. ويخشون البراهين والوثائق!

وزعماء العرب يكرهون جهاز التسجيل الذي قد لا يسمح لهم بالتقلب او الانكار، او دفن كل الكلام في يوم الغد الذي ورد على لسانهم في يوم الأمس.

وليس أسهل على الزعيم العربي من ان ينكر كل شيء ويقول: لا! لم أقل! لا! لم يحدث!!

وليس أهون على السياسي العربي من ان يتنكر للماضي من أجل ان يكسب الحاضر والمستقبل!

والمسألة كما نراها مسألة اخلاق.. وشجاعة أدبية.. وجرأة.. وسلوك صحيح ليس الا! والمسؤول العربي الذي يخشى جهاز التسجيل هو الزعيم العربي الجبان، او المتقلب، او الضعيف الشخصية، او الوصولي.

ترى ماذا يصنع الصحفي ـ مثلي ـ امام هذه الحالات؟

لقد اعتدت ـ في ايام الجمعة والاجازات ـ ان التقي مع مجموعة من الشخصيات السورية واللبنانية والمصرية في مصر ونقضي سحابة اليوم في الحديث والنقاش. وكان الزعيم والسياسي السوري الكبير ـ احسان بك الجابري ـ في تلك اللقاءات يسمعنا شيئا من شعره الذي لا هو شعر ولا هو نثر! وجاء ذات مرة وهو يحمل لنا قصيدة من نظمه تعمد في أبياتها ان يرد على قصيدة نزار قباني ومطلعها: "أيظن."

وكم تمنيت ان أعمد الى تسجيل تلك القصيدة ـ العصماء ـ في جهاز خاص!

انها تروي ـ بلسان صاحبها قصة "الهوى والشباب" عند زعيم سياسي "حلبي" جاوز الخامسة والثمانين من العمر! وكان هو يسمعنا القصيدة ـ وغيرها ـ وكنا نصفق ونضحك! وكان معنا محمود رياض، والوزير الميداني، والسفير انور حاتم، وغيرهم من شخصيات دمشق وكلهم يتمنى الاحتفاظ بنسخة "صوتية" من تلك القصيدة، ومن أمثالها.

وبقيت اسأل نفسي: ماذا، وكيف، وما هو الحل؟

الى ان جاء الفرج من عند صديقي الامير المثقف، الأديب، سلمان بن عبد العزيز، وأهداني جهاز تسجيل لا يستطيع "احسان الجابري" ـ عضو المجلس الاتحادي بين مصر وسوريا واليمن ـ ان ينفر منه او يقاومه..

وكانت فرحتي بالجهاز لا حدود لها.

وأرسل لي ـ رعاه الله ـ مع الهدية كتابا رقيقا يروي نبل أخلاقه ويحكي كريم سجاياه...

قال بخط يده:

عزيزي الاستاذ ناصر الدين النشاشيبي

أبعث اليك بخالص تحياتي. وبعد يسرني أن ابعث لك برفق حامل هذه الرسالة الاستاذ وديع شماس، آلة التسجيل الذي سبق قلت لك عنها حينما كنت في لبنان، ويسرني ان تتقبلها كهدية من صديق لصديق. وأملي ان تكون طبق رغبتكم. عزيزي الاستاذ ارجو ان تكون السيدة عليا بصحة جيدة كما وارجو ان تبلغها ازكى تحياتي وتمنياتي الطيبة.

في ختام هذه الرسالة ارجو الله ان اراكم عن قريب في لبنان او القاهرة مثل ما اخبرتني سابقا.

مع تحياتي للجميع

التوقيع: سلمان بن عبد العزيز

التاريخ ٢٨ / ٤ / ١٣٧٧هـ

* * *

ثم بعد...

وكل من في مصر، يعرف من هو المحامي حماده الناحل، القطب القضائي والخطيب المفوه، والسياسي المحنك!

وكان "حماده" لا ينقطع عن زيارتي في بلدي.. ثم عدنا والتقينا في القاهرة.. مرة بعد مرة!

وعندما فقدت أخي الصغير في حادث مأساوي مفاجئ، جاء "حماده" من القاهرة الى القدس لكي يشرف بنفسه على سير التحقيق.

وأنا اعترف بأن حماده الناحل ـ منذ منتصف الخمسينات حتى وفاته، بقي أعز الاصدقاء المصريين الى قلبي. كان شهما، وكان رجلا..!

وعندما رزقت بولدي ـ رياض ـ بادر هذا الصديق الالمعي، وكتب لي رسالة ضمنها مفهومه الذكي للأبوة، وتوابعها، ومدى تأثير ذلك على نفسية الأب وتفكيره وشخصيته.

لقد احتفظت برسالة حماده الناحل لمدة نصف قرن، وها أنا أنشرها كاملة في هذا الكتاب.

قال:

أخي ناصر الدين

قرأت في تأثر عميق ـ وفي يومياتك اليوم، ما نشرته تحت عنوان "ولدي".

ولقد أخذ تأثري الوانا.

وجدتني سعيدا لك ولحرمك، فسيكون ولدكما بسمة حياتكما، وسرا فوق تلك الاسرار العميقة التي تربطكما، لعله سيكون اقواها.

وجدتني شامتا فيك. اذ سيكون لولدك سلطانا عليك، تخضع له وتزهو به، فتعرف كيف ينبعث الزهو من الخضوع، وبالنسبة لك أنت الذي ثرت على كل سلطان.

"... ان مشاعر جديدة قد اضافتها الأقدار الى مشاعرك. كنت تحتقر الحياة، وسوف تحبها، وكل الذي جد فيها، ان عضوا جديدا قد أضيف الى اعضائها. هو منك، وامتداد لك. وعهدي بك تحب الناس. وتؤثر الاصدقاء منهم، ولكنهم سيصبحوا جميعا اصدقاءك، وتخف قسوتك على خصومك، ويتسع أفق نظرتك، لان نظرتك الى الدنيا، سوف تحبوها دنياك الجديدة. رضا وأملا.

"... وكان عهدي بك أميل الى التشاؤم، وستغدو منذ اليوم أكثر المتفائلين تفاؤلا وعملا.

كم أنا سعيد بك وسعيد لك وسعيد به وله.

حماده الناحل

٩/١١/١٩٥٥

* * *

.. ثم وبعد!

أنا شخصيا لم أكن بعيدا عن ملاعب الهوى والغرام. ولم تكن حياتي كلها صوم وصلاة وتعبد واعتكاف في مساجد الله..

واذا كان استاذي الدكتور زكي مبارك قد غازل وتغزل "بليلى" واحدة في العراق، فان في حياتي مائة ليلى في العراق وفي كل بلد عربي!

والكاتب الصحفي الذي لا يحب لا يختلف عن الحداد الذي يشوي القطعة من الحديد في النار قبل ان يصنع منها مسمارا.

وأنا أحب الحب. وقد عشت عمري أحب الجمال وأمشي وراءه. وأحلى محاضراتي التي كتبتها وألقيتها انما كانت في كليات البنات في بيروت، او في معاهد البنات في القاهرة. والعاطفة المشحونة بالنار قد ظهرت كلها في مقالاتي الخاصة المنشورة في مجلة "الشرقية" النسائية في باريس، وفي مجلة "ياسمين"، وفي مجلات "بنت النيل" و "وأيل" في القاهرة وباريس!

وأنا اعترف ـ دون أي حرج ـ انني قبل زواجي ـ قد أحببت ممثلة سينمائية مشهورة في مصر وأحببت قبلها مطربة مصرية مشهورة، وأحببت فتاة حجازية صاحبة لقب، وأحببت كريمة رئيس وزراء الاردن، وأحببت زعيمة حركة نسائية في بغداد، وأحببت كريمة ملك ماليزيا، وأحببت الآنسة "لي" سكرتيرتي الخاصة خلال زيارتي للصين، وأحببت فتاة فلسطينية مثقفة وصحفية من بلدي، وأوشكت أن أتزوجها، وأحببت فتاة شركسية واخرى تركية في حلب واسطنبول. ومع كل حب مع كل واحدة من هؤلاء، كاد المأذون يكتب عقد الزواج.

ويبقى السؤال الذي يطرح نفسه:

ـ لماذا ـ اذن ـ لم اتزوج من واحدة من هؤلاء؟

وجوابي هو:

انني لم اكن أحب الفتاة لحسابها او لأجلها او لصفاتها أو ميزاتها! أنا

أحببت المطربة لاني احب الغناء والطرب !. وأحببت الممثلة لاني أحب السينما والقصة والسيناريو والاخراج ! وأحببت كريمة رئيس الوزراء لانني عشقت الوصول الى أسرار رئيس الوزراء ! أنا لم أحب الفتاة وانما أحببت أباها !. وكذلك البنت صاحبة اللقب من الحجاز. كان حبي لها ليس موجها لذاتها وانما كان موجها "لمكة" و"المدينة" وحنين كل مسلم لدنيا الاسلام في جزيرة العرب. والفتاة الفلسطينية التي أحببتها كان حبي لبلدي يسبق حبي لها ! أنا أحببت فيها فلسطين.. و"بيت عور التحتا" و"بيت عور الفوقا" أكثر من حبي لها ! وأنا أعترف بأني أحببتها كثيراً.. وأحببت وجهها الحلو وشعرها الداكن، ونظراتها الدافئة وحديثها المثقف وغمزاتها الذكية وكل ما فيها !. ولكني أحببت "القدس" فوق حبي للبشر !

وتلك الفتاة العراقية من زعيمات الحركة النسائية، لم التفت لها ولم أهتم بها بل، ولم أحبها الا عندما رأيت نوري السعيد بقوته ونفوذه ولقبه وتاريخه، يطارحها أشعار الغرام ! كنت في مصيف سرسنك في شمالي العراق وكنا ضيوفا على القصر الملكي. وكان صلاح سالم قد جاء من القاهرة لكي يتفق مع نوري السعيد على ميثاق دفاع عربي جديد ضد الحظر الشيوعي. وكانت هي ـ هذه الفتاة العراقية ـ ترتدي ثوب السباحة وتغطس في الحوض بعد ان تلهب أنظارنا برؤية قوامها البض. وصدرها العاجي وخصرها المنحوث من تمثال ملكات الجمال في اساطير اليونان !

ولم أهرب منها الا عندما علمت أنها يهودية، ومن عائلة "اصفر" ـ او صفرا ـ العراقية المشهورة !

ان بنات اليهود في العراق، لهن خطوة كبرى لدى بلاط "الامير" عبد الاله، وعند الباشا ورجاله ! والباشا الذي كان يزور مدينة "حيفا" ـ في فلسطين، ابان الانتداب البريطاني ما زال يشعر بالامتنان والشكر للخدمات "الاجتماعية" التي كان ينالها من الوكالة اليهودية واجهزتها، وكان اكبر اطباء مستشفى "هداسا" في القدس يشرفون على علاج أسرة الباشا، الذكور

منهم والاناث! وكان الاخصائي اليهودي العالمي البروفيسور "زاندك" يتولى معالجة أسرة الباشا والسيدة المصرية حرم ابنه "صباح"، كما كان الجراح اليهودي المشهور البروفيسور "مانديل" ـ من أصل نمساوي ـ يجري العمليات الجراحية للباشا وأفراد العائلة! من هنا لم يكن الباشا غريبا عن تلك الفتاة اليهودية اللعوب عندما سرقت أنظار الجميع وهي تقطع مياه حوض السباحة ذهابا وإيابا بكل الدلال والحلاوة والاغراء.!

وطالت اقامتي في مصيف "سرسنك" على حدود ايران! وما زال صلاح سالم، مبعوث قيادة الثورة يواصل مفاوضاته مع العراقيين حول الميثاق المقترح للدفاع العربي! وكان نوري السعيد يتمسك "بحلف بغداد" ويرى فيه الدرع الوحيد القادر على حماية العراق من الخطر الشيوعي، بينما الثورة المصرية، تحارب حلف بغداد اكثر مما تحارب الشيوعيين!

وكنت أدخل مع الصباح المبكر على الجناح الخاص الذي يقيم فيه "صلاح سالم" في قصر الضيافة، لكي أسمع منه تفاصيل سير المفاوضات وأنقلها للقاهرة.

وعندما خرجت من لقائه ذات يوم في موعد مبكر، وكانت الساعة لم تتجاوز السادسة صباحا، وجدت امامي تلك الفتاة اللعوب ابنة عائلة أصفر، او صفرا اليهودية في البصرة..

وكانت ترتدي قميص سبور وبنطلون قصير، وحذاء عال، وتلف رقبتها بمنديل من الحرير يتدلى برفق فوق صدرها لكي يستقر في السهل الذي يفصل بين الموجتين!

وكانت تجلس على كرسي خشبي وبيدها كتاب مفتوح على آخر صفحاته!

وسمعتها تبادرني بالتحية قائلة باللهجة العراقية العامية:

ـ الله بالخير أغاتي!

وأجبتها باللهجة ذاتها:

ـ الله بالخير يابا!

وضحكت ونهضت من مقعدها لكي تسألني ان كنت ذاهبا صوب حوض السباحة، وعندما أجبتها بالايجاب، وضعت يدها في يدي ومشت بجانبي وهي تسألني:

ـ هل ستطول اقامتك في سرسنك؟

قلت: لا! سأعود برفقة الصاغ صلاح سالم الى القاهرة.

قالت: وهل زرت البصرة..؟

قلت ضاحكا: سأزورها عندما تعودين اليها.

قالت: وهل أخبروك انني .. بصراوية؟

قلت: ان كل الوزراء والشخصيات في سرسنك لا تتحدث الا عنك!

قالت: وصلاح سالم.. هل يتحدث عني ايضا؟

قلت: وماذا يهمك من صلاح سالم؟

أجابت: انه شاب رياضي.. وجذاب.. ووجهه الخمري يعجبني كثيرا.. وصوته يشجيني.. وهو مليء بالحركة والنشاط.

وبعد لحظة سألتني:

ـ ترى هل استطيع ان أقابله؟

ـ كيف.. ولماذا؟

ـ أنت تعرفني عليه..

وبدأ الفأر يلعب في صدري! ولم أكد أصل الى ساحة حوض السباحة حتى التقيت امامي السيد "تحسين قدري" رئيس التشريفات الملكية وبادرني قائلا:

ـ أنا أبحث عنك. تعال معي.

ولم يكن صديقي تحسين قدري يبحث عني. وانما كان يبحث عن تلك الفتاة اليهودية لان الامير يريد ان يدعوها لتناول طعام الافطار معه..

ومال تحسين قدري على اذني وقال:

ـ سأخرج من عند الامير بعد دقائق ويهمني ان اقول لك شيئا!

وذهب مع الفتاة الى جناح الامير..

وبقيت وحدي افكر في طبيعة هؤلاء اليهود العراقيين.. أو هذه اليهودية العراقية!

بعضهم ـ بعض اليهود ـ هاجر من العراق الى اسرائيل. وكان نوري السعيد، وتوفيق السويدي وولده "لؤي"، وصالح جبر وعلي جودت الايوبي وجميل المدفعي، هم الزعماء العراقيين الذين ذللوا الصعاب وفتحوا أبواب العراق امام هجرة اليهود الى اسرائيل..!

وعندما وصل هؤلاء اليهود الى تل ابيب منذ خمسين سنة، شغلوا جميع الوظائف الاعلامية في الاذاعة والمطبوعات! وفتحوا الصحف! وانشأوا المجلات. وأعدوا البرامج الخاصة واليومية في دار الاذاعة الاسرائيلية! وبعضهم راح الى المهام السرية في دوائر المخابرات! أما الوظائف الاعلامية في "التلفزيون الاسرائيلي" فقد بقيت محصورة في يهود.. مصر، الذين هاجروا الى اسرائيل.. وهكذا جرت المساواة بين يهود العراق للاذاعة، ويهود مصر للتلفزيون.!

وقفت انتظر مجيء تحسين قدري رئيس تشريفات البلاط!

وعندما رآني أشار بيده ان اذهب اليه، ومشينا معا، وسمعته يهمس في اذني وكأنه ينصحني ويحذرني:

ـ ما هي علاقتك بهذه الفتاة البصراوية؟

قلت: تماما، كعلاقة أي فرد غريب يقيم في هذا القصر.!

قال: هل تعجبك؟

قلت مع شبه ابتسامة :

ـ نعم . .

قال : هنا يكمن الخطر ! انها يهودية !

قلت : أعرف ذلك . .

قال : وبقية القصة مفهومة . . ولا لزوم للشرح !

قلت : ولكن الامير دعاها لتناول طعام الافطار معه . .

قال : الامير يعرف شغله . وأنت "مالك" ومال الامير . ؟

قلت محاولا ان اطمئن رئيس التشريفات حول الموضوع :

ـ ان صلاح سالم سيعود غدا الى مصر ! وسأعود معه ! وقد لا أرى هذه الفتاة بعد اليوم . !

ثم أكملت ضاحكا باللهجة العراقية العامية :

ـ ما كو خطر يا باشا ! ما كو خطر بتاتا !

وانقضت مدة اقامتي في سرسنك . وعاد الصاغ صلاح الى مصر ، وعدت معه في نفس الطائرة . ومضت مدة من الزمن مقدارها "٢٢" سنة كاملة . وبقية القصة وحدها تحمل كل معاني المفاجأة والدهشة . . والخطر .

لقد وقعت مأساة حرب الايام الستة . ! وضاعت القدس وسيناء والضفة والجولان !

وطرت الى القدس من سويسرا لكي أودع أبي في ساعات عمره الأخيرة . .

وكنت أدخل الباب الرئيسي لفندق الملك داود بالقدس ، عندما رأيت امامي فتاة في عمر تلك الفتاة البصراوية ، وفي ملامحها ، وفي قامتها ، وفي اناقة صدرها وسيقانها وضحكتها !

إنها هي !

وبادرت هي بالذات الى تحيتي بالسلام وقالت وكأنها ارادت ان تؤكد لي شخصيتها :

ـ أنا أعمل هنا في الاذاعة الاسرائيلية. تعال زرنا. ونحن بحاجة الى أمثالك من الخبراء في الشؤون المشتركة!

وأجبتها دون وعي :

ـ أنا عائد غدا الى سويسرا! ولن أبقى هنا، ولن أعود الى هنا..!

ومنذ "٤٠" سنة، لم أعد أرى أية فتاة "بصراوية"، او "عراقية"، او مذيعة في اذاعة اسرائيل، أو .. جاسوسة تبحث عن الأسرار في غرفة الصاغ صلاح سالم، وشقة الامير، عبد الاله في مفاوضات "سرسنك" على الحدود العراقية مع ايران!!

* * *

وبقيت القدس ـ أغلى المدن وأحلاها ـ هي الرابط الأقوى الذي يشد أبناء الامة العربية الى بعضهم بعضا! وقد يعثر المرء على ألف مدينة كنيويورك، ومائة مدينة مثل روما، او باريس، او مدريد، او القاهرة، او بيروت، ولكن لن يعثر أحد على اكثر من "قدس" واحدة! انها المتحف الحي لأغلى كنوز الارض، وهي الموئل الأبدي لديانات السماء..!

لذا، استمر الصحاب الاوفياء في مشارق الدنيا ومغاربها. يكتبون لي، وأكتب لهم، عن مدينتي الغالية.!

ومن بين الذين كتبوا لي، القائد العربي الاردني المعروف، عبد الله التل،

وهذه احدى رسائله لي في شهر نوفمبر من عام ١٩٥٩.

قال :

عزيزي الاستاذ ناصر الدين النشاشيبي المحترم

تحية صادقة وبعد، فقد قرأت كلمتك المؤثرة المنشورة في "آخر ساعة" تاريخ ١٨ / ١١ / ١٩٥٩، وأحب ان اؤكد لك ان جهادك الصحفي في سبيل وطنك الاول طوال العشر سنوات الماضية، أفضل بكثير، وأجدى من خدماتك لو بقيت في الاردن وصرت وزيرا كما صار كثيرون ممن هم دونك فضلا وعلما ومنزلة.

اما حنينك الى القدس العزيزة فانه يهيج في عاطفة المحبة لتلك الديار الحبيبة التي خلفت فيها تاريخي وذكريات، وخلفت أنت فيها الاهل والوطن والاصحاب.

ويسرني بمناسبة هذه الخواطر والذكريات التي تمر بنا، ان أقدم اليك الصورة المرفقة وستجد فيها قطعة من نفسك وقلبك خلفتها من ثرى الوطن الطاهر، وهي عزيز علي الا انك أحق بها مني.

واسأل الله يا اخي، ان يلهمنا الصبر على فراق القدس، وأن يمد في عمرك حتى تعود اليها وتطفئ نار الشوق التي تستعر في قلبك.

والسلام عليكم ورحمة الله.

المخلص

امضاء: عبد الله التل

مصر الجديدة: ٢١ / ١١ / ١٩٥٩.

وعندما التقينا مع امير البحرين الشيخ عيسى بن سلمان آل خليفة في حفل تتويج الملك فيصل بن غازي في شهر مايو من عام ١٩٥٣، لم يكن الشيخ عيسى قد أصبح اميرا للبحرين بعد، وكان والده الشيخ سلمان ما زال على قيد الحياة. وكان الشيخ عيسى يعلم مدى حبي وتقديري لوالده الكبير. وكان حديثنا في ذلك اللقاء ـ او "الاجتماع" ـ الذي شدنا في بغداد، يدور كله عن حكمة الشيخ سلمان وآمال العرب في البحرين، وذكرياتي عن زيارة البحرين، وحفاوة الشيخ سلمان بي، وبالزميل مصطفى أمين، وبالمهندس السياسي المقاول اللبناني، اميل البستاني!

وبعد لقاء بغداد، عاد الشيخ عيسى الى البحرين. وبعدها انتقل والده الكبير ـ الشيخ سلمان ـ الى رحاب ربه.

وأصبح الشيخ عيسى أميرا للبحرين.

وكان يأتي لزيارة مدينة "جنيف" في سويسرا، ويسأل عني ويبحث معي احوال الخليج..

ويشاء القدر ان ينتقل الشيخ عيسى الى رحاب الله. ولكن، وأقولها بكل صدق: ان العائلة الحاكمة في دنيا البحرين كلها اخلاق، ومودة، ووفاء.

رغم كل الظروف!

٢٣ / شعبان/ ١٣٧٢هـ الموافق ٧/٥/١٩٥٣

حضرة الاخ السيد ناصر الدين النشاشيبي المحترم

تحية عاطرة.

ارجو الله انكم بأحسن حال وأسر بال، نحن ولله الحمد في خير ونعمة وأخبارنا من فضل المولى مسرة.

يسرني بأن أبعث لكم بهذه الرسالة لافادتكم عن وصولنا الوطن بحالتي الصحة والسلامة، وللاستفسار عن صحتكم ـ راجيا لكم صحة جيدة وحياة طويلة.

نحن ما زلنا نتذكر ذلك الاجتماع خلال تلك المدة القصيرة ببغداد عاصمة القطر الشقيق، نسأل الله ان نراكم مرة ثانية وان تكون المدة أطول من ذي قبل.

ختاما تقبل تحياتنا القلبية ودم محروسا.

المخلص

عيسى بن سلمان الخليفة

* * *

ومرة عاشرة: وبعد..

قبل ان تتفجر الاوضاع، وتنشب الحرب ـ وينهزم العرب ـ وتنتصر اسرائيل، وتقوم الدولة العبرية، وتضيع فلسطين...

قبل ذلك كله، كان الصديق الراحل "احمد الشقيري"، ما زال مقيما في مدينته "عكا" في شمال فلسطين، يراسل الاصدقاء وينتظر الاخبار، ويوزع آمال التفاؤل، ويهنأني لاستقراري في القاهرة ويعيش في أحلى الذكريات

عن عملنا المشترك في القدس.

في ذلك اليوم، الاول من مارس من عام ١٩٤٧، ارسل لي احمد الشقيري، نجم المنابر الخطابية، ومحامي فلسطين لدى الامم المتحدة، والخصم اللدود لعزام باشا، وحسونة باشا، والجامعة العربية، الرسالة التالية التي احتفظت بها مع أكثر من ثلاثين شريط اذاعي مسجل، تروي كل كلمة صادقة نطق بها احمد الشقيري ـ المندوب السعودي يومذاك ـ في ندوات الامم المتحدة دفاعا عن بلدي.. فلسطين.

وهذه هي رسالته، وعمرها "٥٤" سنة!

قال:

عكا في ١/٣/١٩٤٧

عزيزي السيد "نصر الدين" حفظه الله

تحياتي واشواقي وبعد، فقد وصلتني رسالتك الكريمة تحمل الوفاء في أنبل معنى واصدق لهجة، وسررت لاستقرارك في القاهرة تقوم في عمل متصل بحياتنا العامة، ولا ريب عندي انك ستكون ناجحا فيه، كما ان النفع العام أمر لا ريب فيه.

ولقد ذكرتني بالحقبة الجميلة التي قضيناها سوية في القدس، ولقد كان ربحي عظيما في الاصدقاء الذين كسبتهم وأنت في عدادهم، ولا بد من فرص كثيرة تتوالى للعمل المشترك والتعاون الوطني الصادق.

لقد اوشك كتابي ان ينتهي من الطبع وسأبعث اليك بنسختين، الاولى هدية لك والثانية هدية للاستاذ وهيب بك دوس، ارجو ان تقدمها اليه، فقد كان رفيق سفري من نيويورك الى بور سعيد، وقد ورد اسمه في موقعين من الكتاب.

آملا ان لا تقطع عني انباءك، مع تحياتي لك ولجميع اصدقائك

احمد الشقيري

أجل..

وكان كبار رجال الصحافة في مصر، يكتبون لي ويسألونني عن الرأي الشخصي ـ الضعيف ـ في صحفهم ومقالاتهم...

ومن بين هؤلاء، الصحفي المصري الكبير، الاستاذ احمد قاسم جودة، الذي كان بمثابة ابن مكرم عبيد باشا ومؤلف "الكتاب الاسود" ضد حكم مصطفى النحاس باشا في عام ١٩٤٣ ... وعام ١٩٤٤

وكذلك الامر مع عملاق الصحافة العربية والمصرية، الاستاذ انطون باشا الجميل، رئيس تحرير جريدة "الاهرام" القاهرية، الذي كان يريدني السفر الى مصر والالتحاق بالجامعة العربية على عهد عبد الرحمن عزام.

وفيما يلي بعض رسائل هؤلاء الزملاء الكرام:

عزيزي ناصر

تأخرت ـ وتأخرت كثيرا على رأي بعض ادبائنا ـ في الرد على كتابك اللطيف، ولكني كنت اسعى وراء صديقنا عبد الرحمن عزام وهو من جهته يسعى وراء ميزانيته ليستطيع التصرف. وقد وعدني خيرا فيما يتعلق بموضوعك واخيرا تقرر تعيين الصديق اسعد داغر لادارة قسم النشر والصحافة في الجامعة، وقد حدثته في موضوع الجامعة. فأنت ترى ان المساعي متواصلة ولعلها تكلل بالنجاح بعد عودة عبد الرحمن بك.

ارجو ان تكون بخير وأدعو لك بالتوفيق.

وفي الختام اهدي اليك ازكى التحيات راجيا ابلاغ احترامي للاسرة الكريمة والسلام الى الاصدقاء وحفظك الله.

المخلص

انطون الجميل

* هامش: جميع الاخوان يبلغونكم تحياتهم وأشواقهم.

ومن أحمد قاسم جوده رئيس تحرير "الكتلة" :

القاهرة في ٢٩ يناير سنة ١٩٤٥

أخي وعزيزي ناصر

تحياتي وشوقي وشكري اليك، وبعد، فهأنذا قد استطعت آخر الامر ان ارفع رأسي فوق غمرة الحوادث الجسام التي مرت بنا وخفت وطأتها مؤقتا بانتهاء المعركة الانتخابية. وسأحدثك عنها طويلا حين أراك في مصر او في فلسطين، وارجو ان يكون ذلك قريبا، ان شاء الله، فاني أفكر الان في القيام برحلة صحفية في الاقطار الشقيقة، وربما تجاوزتها الى بعض البلاد الاوروبية ان أمكن.

أحب ان اعرف رأيك في جريدتنا (الكتلة) وان اعرف وجهة نظرك فيها من الناحية العامة ومن الناحية الصحفية، وحبذا لو خصصت من وقتك جانبا لموافاتنا ببعض الرسائل، فاذا لم يكن في وقتك متسع فأرجو أن تختار لي مراسلا او وكيلا يصلح لتمثيل وجهة النظر العربية ويحسن تمثيل جريدتنا في الاوساط العربية عندكم، كما يحرص على مصلحة الجريدة في بلادكم التي نحبها ونتمنى لها ما نتمنى لأنفسنا.

وختاما اجدد لك تحياتي الصادقة، وشكري على ما تكشف عنه رسائلك العامة والخاصة من ودّ وتقدير كريم. والسلام.

من اخيك

أحمد قاسم جودة

وعندما قرر خصوم الثورة المصرية، واعداء جمال عبد الناصر، اغتيالي في بيروت، وفشلوا، أبرق لي صلاح سالم، عضو قيادة الثورة ووزير الاعلام المصري البرقية التالية:

عزيزي ناصر

لن تنسى مصر ما تحملته وتتحمله في سبيلها، لقد علمت بالاعتداء الأثيم عليكم وثق بأنني اقف دائما بجوارك

صلاح سالم

ثم، وبعد...

ولا رحم الله ايام "جلوب باشا" في دنيا الاردن.!

انه لم يكتف بممارسته الحكم الاستعماري البغيض على الاردن، وانما اراد ان يستغل الاذاعة الاردنية الرسمية لكي تهلل له، وتطبل لنداءاته...

وكنت له بالمرصاد. وكانت خطبه وتعليقات مساعديه تنهمر على الاذاعة انهمار المطر، فأرفضها وأرمي بها في سلة المهملات.

وأسرع جلوب باشا يشكوني لتوفيق ابو الهدى رئيس الوزراء. وأرسلت لي رئاسة الوزراء الكتاب التالي، وهو لا يحتاج الى تعليق ولا تفسير:

يقول الكتاب الموجه لي:

".. أعلمني معالي وزير الدفاع انكم لا تتعاونون التعاون الكافي مع الموظفين الذين يوفدون من قبل الجيش، للاشراف على برنامج الجيش الاسبوعي في محطة الاذاعة، وأنكم غالبا ما تمنعون اشياء يرى الجيش

ضرورة بثها، وكان الحادث الاخير من هذا القبيل منعكم اذاعة كلمة الفريق عبد القادر باشا الجندي التي وجهها الى الجنود اثر احالته على التقاعد.

".. ان المفروض ان تتاح للجيش الحرية الكافية في اعداد برنامجه الخاص وان يكون اشرافكم وتوجيهكم مساعدا على تحسينه لا على حذف والغاء ما يرى الجيش اذاعته، ونظرا لما يقع في الغالب من اختلاف وجهات النظر بينكم وبين الضابط المنتدب من الجيش لتلك الغاية فقد أوعزت الى مراقب المطبوعات العام للاتفاق مع مندوب الجيش على الخطوات الاساسية للبرنامج، رجاء ان تبذلوا المساعدة اللازمة لتنفيذ ذلك.

نائب رئيس الوزراء

إمضاء

ـ نسخة لمعالي وزير الدفاع اشارة لكتابه رقم ١٧ / ٧ / ٥٧٢، ٢١ / ١ / ١٩٥٢.

ـ نسخة لمراقب المطبوعات العام

* * *

ان هموم العالم ـ في نظري ـ ليست محصورة في امريكا واوروبا، بل هي ـ كما لمستها ورأيتها ـ موزعة في كل بلد من بلدان امريكا الوسطى، وامريكا الجنوبية، بالاضافة الى بلدان آسيا...

لقد سمعت جواهر لال نهرو يقول لجمال عبد الناصر خلال وجوده في القاهرة في اواخر الخمسينات وعلى مسمع من الكثيرين:

ـ ان عدد سكان الهند يتجاوز الخمسمائة مليون نسمة.. وعدد مشاكل الهند يصل الى خمسمائة مليون قضية ..... ايضا!.

والذين يتوغلون بشواطئ المكسيك ويرونها آية في الجمال والفسحة والنظافة والرمال البيضاء الساحرة هم أبعد الناس عن قول الحقيقة! لقد عشت في فندق "برنسيسز" في "أكابولكو" على شواطئ المكسيك، وهو من أرقى وأغلى فنادق العالم، وكان هنري كيسنجر قد نزل فيه وقضى هناك شهر العسل، وعندما اردت أن اخرج من باب الفندق الرئيسي وأصل الى الشاطئ القريب لكي أنعم بموجات المحيط، جاء رجل البوليس محذرا يقول لي:

ـ لقد أوشكت الشمس على المغيب وليس مقبولا ولا معقولا ان تمشي على الشاطئ بمفردك وتواجه الكثيرين من اللصوص والقتلة والنشالين الذين سيلتفون حولك بحثا عن شيء تحمله حول عنقك، او في يدك او في محفظتك!.

وعلى شواطئ "ريودي جنيرو" ـ كانت السباحة على شواطئ المحيط، ضربا من الجنون! أو ضربا من الانتحار!

وكذلك في كوبا.. ودول امريكا الجنوبية..

ولعل ما يلفت النظر عند دراسة القضايا المعلقة في دول امريكا الوسطى، وأمريكا الجنوبية، ان يجد المرء نفسه امام محاولات يائسة من حكام تلك الدول ـ ومعظمهم من الحكام المهتمين بالرشوة والفساد والاستبداد ـ للاستعانة بالدين.. بالفاتيكان، وبالبابا، وبرجال الكنيسة لحل مشاكلهم!

لقد ذهب البابا الى كوبا، لكي يمهد السبيل امام مجيء حل دائم لمشاكل كوبا السياسية والاقتصادية. ولن تجد المخابرات الامريكية، بكل اجهزتها، من هو أقدر وأذكى من هذا البابا على تحويل العالم الاشتراكي ـ الشيوعي سابقا ـ والعالم المفلس ماديا، والعالم المتفتت اجتماعيا ـ الى دول شبه ديمقراطية او مستقرة! وأنا على يقين ـ على ضوء

ما رأيت ـ ان جهود البابا في هذا السبيل ليست كلها دينية، ولا هي سماوية، وانما هي سياسية ودبلوماسية.. بكل ما تعنيه الكلمة من معنى. وقد رأيت "ايملدا ماركوس" في زيارة لها الى روما عام ١٩٨٦، وهي تنحني امامنا على يد الكاردينال وتلثمها وهي راكعة امامه وذلك أملا منها في ان تبقى الكنيسة الى جانبها في وجه معارضة الشارع الشعبي في الفلبين!

ولكن جهود الكنيسة التي اصطدمت بالنهج السياسي الرسمي الامريكي المعارض لبقاء ماركوس في الحكم ـ كما تبين ذلك فيما بعد ـ قد ابقى الكنيسة عاجزة عن ان تحقق لماركوس او لزوجته اية مساعدة.. فسقط ماركوس وطار الى المنفى حيث توفي بعد ذلك، وجيء بزوجته للمحاكمة في الفلبين!

لقد اصبحت الكنيسة، في السنوات العشر الاخيرة، مجرد ورقة في يد امريكا.. كما اصبح البابا موظفا في الخارجية الامريكية والمخابرات المركزية. وعلى العرب الذين يأملون كثيرا من مساعدة البابا لهم ضد اسرائيل ـ وخاصة في قضية القدس ـ ان يهبطوا من عليائهم ويتخلوا عن الأحلام. ان الف زيارة مع الف مقابلة مع الف دعوة للبابا من العرب، لن تقدم ولن تؤخر! ان المفتاح ليس في روما ولا في الفاتيكان، وانما المفتاح في البيت الابيض، وفي الكونغرس، وفي المخابرات المركزية الامريكية!

وقد ولى الزمن الذي كنا قادرين فيه على ان نتحدى العالم ونمشي في الخط الذي يلائم مصالحنا! لقد أسدل الستار على الاتحاد السوفييتي، وتولت امريكا ـ وحدها ـ مسؤولية تنفيذ النظام الدولي الجديد، بكل تفاصيله. وهناك من بيننا من يحلو له ان يردد قوله: "اللي مش عاجبه يشرب من البحر". بينما الواقع ان امريكا وحدها ـ نعم وحدها ـ هي التي اصبحت مقتدرة ـ وحدها ـ ان تقول لنا وبالفم المليان: "اللي مش عاجبه ـ يا عرب ـ يشرب من البحر!".

ولعل القدر قد أراد لنا ـ نحن المخضرمين في عالم السياسة والصحافة ان نعلم جيدا بأنه في نهاية هذا القرن قد انتهى ايضا وجود طرازات قديمة من الزعامات العربية التي لن تولد بعد اليوم، ولن تجد لها مكانا في عالمنا الجديد! أعني وبالصراحة: لا مكان بعد اليوم لزعامات من طراز احمد بن بيلا.. او جمال عبد الناصر.. او الملك فيصل السعودي.. او القذافي.. او صدام حسين.. او الترابي.. والايام القادمة كفيلة بأن تثبت صحة كلامي.

لقد ظهر على المسرح السياسي العربي، في الخمسينات والستينات والسبعينات، زعماء عرب كانوا يمتلكون الصفات او المزايا المطلوبة في قاموس السياسة الامريكية! من أمثال الملك عبد الله في الاردن، وفاضل الجمالي في العراق، وامين عثمان باشا في مصر، ومحمد احمد محجوب في السودان، وهزاع المجالي في "عمان".!! هل انشر نص الكتاب الذي بعث به هزاع المجالي لي منذ ٤٤ سنة؟؟؟

قال هزاع المجالي في رسالته المنشورة صورتها في هذا الكتاب وهو يشيد ببعض وفائي له، واعتزازي بصداقته وعلى ورق يحمل اسم مجلة "صوت الاردن" الصادرة في عمان:

قال بتاريخ ١٩٥٦/٨/٢٢، وهو يشكو لي قلة وفاء الكثيرين وتنكرهم له:

"عزيزي الاخ الكريم السيد ناصر النشاشيبي المحترم

سلاما وتحية. وبعد لقد غادرت وعقيلتي بيروت دون ان تسعفنا الظروف شكركما والسيدة الكريمة عقيلتكم على الحفلة الشيقة التي انسنا بها في بيتكما العامر. قد شاءت ظروفنا ان نغادر عمان فور وصولنا الى الكرك ولم نعد منها غير امس الاول، لنجد بانتظارنا مفاجأة سارة بطلها الصديق الوفي ناصر الدين النشاشيبي.

"... ان ما كتبته عني في هذه المرة يا عزيزي لم يكن مفاجأة لي، فما كتبته عني كان من قلبك لا بوحي من قلمك الذي تعيش له، ولكن عنصر المفاجأة في هذه ان كلمتك ودفاعك جاءا من زمن تنكر لي الكثيرون ممن كنت اظنهم اصدقاء.

"... شكرا وألف شكر، سلامي وسلام زوجتي لك وللسيدة الكريمة الاخت عليا وقبلاتنا للصغيرة الكريمة، وعسى ان تتيح لكما الظروف زيارة عمان لنسعد بلقائكما.

ولكما وافر تحياتنا.

المخلص

هزاع المجالي

انتهت رسالة هزاع المجالي..

كما انتهى صاحبها الصديق الوطني الأردني الراحل في حادث نسف رئاسة الوزراء في الاردن.. تماما، كما انتهى فاضل الجمالي الى المنفى في تونس، وانتهى امين عثمان باشا برصاصة في رأسه، وانتهى محمد احمد محجوب الى العزلة والجوع في لندن!

وسينتهي غيره كثيرون!

والذين طالبوا بالحلول العملية المعقولة لقضية فلسطين منذ ستين سنة وكانوا يتمتعون ببعد النظر، والحنكة، والمعرفة مع حبهم لوطنهم، هؤلاء قد جرفتهم الاعاصير، ودفنتهم الاشاعات والاقاويل، واتهموا بالتفريط والخيانة، بينما كانوا ـ وحدهم ـ اصحاب المنطق والعقل والتبصر.. وبينما كان خصومهم يسبحون في الاحلام.. والاوهام والتطرف.. والهتافات والزعامة!

وهناك سؤال بسيط: لماذا أمر الانجليز بسجني في مطار لندن تمهيدا

لترحيلي الى سويسرا؟؟ انا اقول ما يلي: ليس وعد بلفور وحده ـ هو النقطة السوداء في دفتر العلاقة بين بريطانيا العظمى وبين شخصي الضعيف. وعندما زرت بريطانيا في عام ١٩٤٩، حاولت ان اقابل ونستون تشرشل رئيس الوزراء وافوز منه بحديث صحفي لولا انه اعتذر في رسالة خطية لي، بسبب كثرة مشاغله.. يومذاك! ورسالة الاعتذار منشورة في هذا الكتاب.

وبقينا على الود مع بريطانيا ـ رغم وعد بلفور ـ سيء الذكر ـ الى ان اشتعلت قضية "عدن"، وبدأ جمال عبد الناصر يهاجم الانجليز بسببها! وكان طبيعيا ان نكون نحن الصدى لكلام عبد الناصر وان نمضي في مهاجمة السياسة البريطانية بلا رحمة ولا هوادة. ولم اكن أعلم ان جريدة "الديلي تلغراف" البريطانية، نشرت لي صورة ـ يومذاك ـ وكتبت تحتها: "بسبب قلم هذا الصحفي "المصري"، يغتال الثوار في عدن، الجنود الانجليز..".

وكنت رئيسا لتحرير "الجمهورية"، وجاءتني دعوة لحضور حفلة أقامتها السفارة البريطانية في القاهرة احتفالا بعيد جلوس الملكة. وفي الحفلة، جاء مستشار السفارة البريطاني وقال لي بلا تردد ولا حياء وبلغة انجليزية واضحة:

ـ "انا سأمنعك من دخول بريطانيا! ولن تطأ قدمك ارض بلادي ما دمت انا ـ يعني هو ـ على قيد الحياة!".

وانا لا انكر انني احب الانجليز، ولا انكر السعادة التي شعرت بها وانا تلميذ في مدرسة "سان جورج" بالقدس. ولا انكر ما يتمتع به الانجليز من تمسك بالنظام، والرقي، والثقافة، والعلم والتقاليد.

وكان القائد العام للقوات البريطانية في فلسطين السير "ايفلين باركر" من كبار الاصدقاء الذين كنت اعتز بهم. وكذلك (مارتين شارترس) الذي

اصبح فيما بعد اللورد "تشارترس" بعد ان شغل وظيفة السكرتير الخاص للملكة اليزابيث في عام ١٩٥٥، عندما انتهى الانتداب على فلسطين، ورحل "مارتين" عائدا الى بلاده وبقينا على اتصال ومراسلة!

كذلك. كنت على ود كبير مع القنصل البريطاني في القدس بعد النكبة واسمه: السير هيو داو.. ومن أقرب الانجليز الى العرب.

كما كان السير "اليك كركبرايد" ـ السفير البريطاني في عمان، من الاصدقاء الاعزاء طيلة مدة عملي في القصر الملكي في معية الملك عبد الله الاول..

ولكن مأساة العرب في عدن ـ وهجوم عبد الناصر على الانجليز، واضطراري ان اصبح الصدى الذي يردد الصوت، قد أفسد كل شيء.!

وكنت قادما من نيويورك على متن طائرة "الكونكورد" البريطانية في طريق عودتي الى سويسرا، عندما اكتشف موظف الجوازات في مطار لندن ان تأشيرة الدخول الى بريطانيا في جواز سفري، قد انتهت!

وقلت لهم في المطار انني مجرد عابر سبيل في طريقي الى جنيف، ولكنهم رفضوا وجهة نظري وأمروا بحبسي في غرفة منفردة في مطار هيثرو انتظارا لترحيلي على اول طائرة الى جنيف!

وقلت لصديقي "كمال رفعت". وكان سفيرا لمصر في لندن، بالتلفون ان الحكاية قذرة، وان عليه المجيء فورا الى المطار، لانقاذي، كما اتصلت بعدد من اصدقائي السفراء العرب وسألتهم المساعدة في وجه سلطات المطار التي أصرت على معاملتي، كالارهابي المتهم.. الخطير!

وبعد "٢٤" ساعة، حملتني الطائرة السويسرية عائدا الى جنيف! وأوكلت الامر الى أحد كبار المحامين البريطانيين في لندن للشكوى وللمراجعة.! وبقيت بعيدا عن زيارة لندن الى ان خرج الانجليز من عدن، واستقلت عدن كلها، وانضم اليمن الجنوبي الى اليمن الشمالي، وذهبت

في زيارة رسمية الى العاصمة "صنعاء" وقلت للرئيس اليمني علي عبد الله صالح في مقابلتي له بدار الرئاسة:

ـ لي في ذمتكم دين كبير من أيام "عدن".. والانجليز!

ورويت له القصة..

ودعاني الرئيس اليمني لزيارة عدن وكل ما حولها من مناطق، ضيفا رسميا على الحكومة..

وحملت في طريق عودتي من عدن صندوقا كاملا من العسل الصافي انتاج "حضرموت" وتوابعها.

وزرت المعالم كلها. وتنقلت بين دور الجامعة والمستشفيات والمدارس ومباني الحكم، وشعرت بأن كل الجرائم التي اقترفها الانجليز على مدى "١٤٠" سنة في عدن وضد أهلها، بقيت أقل وأصغر من الجرائم التي اقترفها العرب الاشتراكيون، والشيوعيون، والانفصاليون، من حكام عدن واليمن الجنوبي عامة خلال مدة تقل عن ثماني سنوات فقط!.

ان قصة استعمار عدن، ثم قصة تحريرها، ثم قصة حرقها وتدميرها بيد أبنائها، ما زالت لم تكتب بعد..

وتمشيت عند غروب الشمس على الرصيف المحاذي لميناء "عدن" فكدت اصاب بالخوف وبالفزع الشديدين بينما كان هذا الرصيف بالذات، لولب الحركة الدائمة في كل دقيقة من ساعات الليل والنهار، طيلة وجود الاستعمار البريطاني في عدن! الى هنا، جاء الملوك، والامراء والمهرجانات والاباطرة! هنا جرت الحفلات والاستعراضات البحرية! هنا كتب تاريخ الامبراطورية البريطانية أروع صفحاته! وهنا نظم "روديالد كبلنج" ـ شاعر الامبراطورية أروع قصائده..

ترى، هل اسمح لنفسي ان أترحم على ايام الامبراطورية في عدن؟

أجل..!

ومن اجل عدن، وأهل عدن، وشواطئ عدن، وثروة عدن، ومصافي البترول في عدن، اقول:

ـ جادك الغيث والخير يا زمان الخير في.. بحر عدن!

وأقول:

ـ كان الاستعمار في عدن، رحمة. وجاء مع الاستقلال الى عدن.. جوع وبطالة ونقمة!.

لماذا؟ ليه؟

لا أدري..!!

* * *

ثم... وبعد!

وطالما قرأت لهؤلاء المسؤولين عن اتفاقيات "اوسلو"، ومدريد، وشرم الشيخ، وطابا، وواشنطن، والقاهرة، وهم يتحدثون بثقة وايمان، عن حق العودة للفلسطينيين المشردين، ويستشهدون بقرارات الامم المتحدة الصادرة في عام ١٩٤٨ وعام ١٩٤٩، ويؤكدون ان كل لاجئ من الخمسة ملايين الضائعين في لبنان والاردن ومصر والخليج وسوريا، سيعود الى منزله، وقريته، ومدينته، وارضه، وأملاكه!

أنا شخصيا، ورثت عن والدتي السيدة الراحلة كوثر عثمان النشاشيبي، وعن خالي أديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي، اراض ومنازل ودكاكين في اكثر من قرية واكثر من منطقة من مناطق فلسطين! وكان جدي ـ عثمان ـ بشهادة المؤرخين والعارفين ـ من أغنى اغنياء فلسطين! وكذلك الخال ـ محمد اسعاف ـ وغيرهم. وقد استولت اسرائيل على كل هذه الاراضي والمنازل والدكاكين في عام ١٩٤٨..!

وعند عودتي الى القدس في عام ١٩٦٩، ذهبت الى قرية "النعاني" في

لواء اللد، وبجوار مدينة الرملة لكي "أبكي على الأطلال" !

ولم أعثر على شيء...

لقد اندثرت بيوت القرية بأكملها، ولم يبق من معالم قرية "النعاني" سوى بيت واحد مهجور كان فيما مضى محطة لسكة الحديد المؤدية الى اللد.. ! مبنى المدرسة، مع مبنى دار المختار، مع مبنى والدتي، مع عشرات من بيوت اهل القرية من المزارعين والفلاحين، كلها اندثرت واختفت !

ومن سطح البيت المهجور الباقي، وقفت أتصور خريطة القرية.؟

ومشيت صوب قطعة معينة من اراضي القرية التي ورثتها عن جدي، وعن والدتي والمعروفة باسم: "ابو جميزة".!

وعند التلة المشرفة على بقية اراضي القرية وقفت لحظة قصيرة استعيد فيها الذكريات..

هنا عشت، وهنا لعبت، وهنا مررت. وهنا زرعت. وهنا قطفت. وهنا أكلت. !

وفي غمرة هذه الاحلام، ظهر شبح عسكري لحارس اسرائيلي يحمل بيده بندقية ويسأل بكل التحدي الذي خلقه الله:

ـ من أنتم؟

قلت ببساطة: نحن أهل الارض!

قال واصابع يده تلعب بزند البندقية:

ـ لا شك أنكم لصوص..

قلت وما زلت هادئا:

ـ وهل منظرنا يوحي بأننا لصوص..؟

قال: أنتم ـ اذن ـ من العرب المخربين.

قلت: وهل رأيتنا نحمل بأيدينا سلاحا او قنابل؟

قال: وماذا تريدون.. وماذا تفعلون هنا؟

قلت ويدي تمتد الى حبة برتقال معلقة على احد غصون الشجرة، فأقطفها وأرفعها الى فمي، والثمها بكل نهم..

قال الحارس وقد بدأ يفقد هدوءه:

ـ يجب ان تدفع لي ثمن هذه البرتقالة التي سرقتها!

قلت: ولكنني لم اسرق شيئا. الارض ارضي. والشجرة شجرتي! والحبة جزء من ثمر يخصني. وفي هذه الحالة لا تستحق أنت ثمن شيء "مسروق"، ولا استحق أنا أن ادفع شيئا!

وصرخ كمن مسه الجنون:

ـ هل تقول انك اخذت هذه البرتقالة من مال مسروق؟

ثم اضاف يسأل:

ـ ترى من الذي سرق مالك؟ من السارق فينا؟ أنت أم أنا؟

قلت فورا:

ـ أنت! وكل ما فوق هذه الارض هو مال مسروق مني لأنه لي! وقبل ان تولدك أمك يا حضرة الحارس، كنت أحضر أنا الى هنا وأقضي ايام عمري بين مبنى المدرسة، ودار المختار، ومبنى المحطة.. وأرض "ابو جميزة"!

ويبدو ان كلامي كان قاسيا على هذا الحارسي الاسرائيلي، فوجه كلامه لي قائلا:

ـ انا انصحكم بمغادرة هذا المكان فورا..

قلت وأنا أجمع بعض تراب الارض في كف يدي، وأضعه في منديلي الابيض، ثم أحشره في جيب كبير من جيوب سترتي واقرأ عليه آية سماوية، وأطبع عليه المزيد من قبلاتي قائلا لمن أراد ان يسمع:

ـ سنعود ونلتقي يا تراب بلدي! أما ان تعود الينا، او نعود نحن اليك.!

ولم التفت الى الحارس! ولم انظر الى وجهه العابس! ولم أودعه! لقد بقي نظري موجها صوب أرض "النعاني" الغالية يتذكر فيها وجوه أهلها.. ووجوه أهلي!.

* * *

لقد عشت نصف عمري وسط الاشاعات والمؤامرات والأساطير.!

وما أكثر الاساطير الباطلة التي يجب ان تموت وتنتهي في عالمنا السياسي والديني والاجتماعي.. ولكنها لم تمت ولم تنته!

وما أكثر عدد الدول، وعدد الجهات التي ساعدت تلك الاساطير على ان تولد، وان تنمو وان تعيش!

ومع الضعف العربي، تطورت الاساطير الى مؤامرات. ثم تطورت المؤامرات الى واقع مخيف يتفاعل ويتصاعد. وانقلب الواقع الى فتن، وحروب، وصراع دموي..

وعشت سنوات عمري وانا أشاهد الصراعات الدينية المحمومة في لبنان بين المسلم والمسيحي، ورأيت كيف يهدر المسيحي اللبناني دم المسلم البيروتي بناء على الهوية، وكيف عرض مسيحي لبنان في منزله الريفي في مصيف "برمانا" قطعا من لحم وجه الفلسطيني المسلم بعد ان قضى عليه بالرصاص.! وكيف تحول المسلم اللبناني في سياسته العربية الى ماروني متعصب، وكيف أصبح الماروني ـ في سياسته "العربية" صورة لما يحب الاسرائيلي ويشتهي.!

وما زال في لبنان من يدافع عن عصيان عام ١٩٥٨ ويجد له ألف عذر وألف مبرر.

وما زال ـ كذلك ـ في لبنان من يدافع عن حرب الـ "١٥" سنة ويجد لها مليون عذر ومليون مبرر.

* * *

اللاجئون لا يعشقون
والمشردون لا يتزوجون

كان صديقي علي حمدي الجمال ـ رئيس تحرير "الأهرام" الأسبق ـ يمتلك كل مزايا الرجل الجنتلمان! فقد كان يفتخر بالشجرة الاصيلة التي ينتسب اليها... كما كان ـ نفسه ـ شاباً مهذباً، وسيم الطلعة، رشيق المظهر، في صورته بحة الارستقراطية، وفي ضحكته رنّة ابناء الذوات وفي اسلوب حياته طابع الاصالة!

وفي منتصف عام ١٩٦٣ كنت أمر في أتعس سنوات عمري. لقد عدت من "الجزائر" حيث كنت برفقة عبد الناصر في احتفالات الاستقلال، لكي اودع والدتي الى مثواها الأخير في بيروت، وأودع زوجتي بالطلاق والفراق.

ورأيت صديقي وأخي "علي حمدي الجمال"، يهرع الى بيروت، ومنها الى "جنيف"، لكي يشاركني الأسى، ويقف بجانبي في تلك الأيام!

وفي لحظة هدوء حزين سألني أخي الراحل "علي الجمال" لماذا كل هذا الاستسلام للحزن؟ قال لي وكأنه المعلم الكبير في مدرسة الحياة:

ـ أنا أفهم ان تبكي والدتك وتشعر بكل الألم لوفاتها. ولكن لا أفهم لماذا كل هذا الألم بسبب الطلاق؟

ثم أضاف:

ـ ان الدين الحنيف يسمح لك بالزواج، وأنت ما زلت في مقتبل عمرك. والدنيا "مليانة" ببنات وستات فما عليك الا ان تقرر وتختار وتتزوج لكي تنسى المرأة التي لم تعد تريدها، والجهة التي لم تعد تسأل عنك.!!

ودخل كلام علي الجمال الى قلبي.. وعقلي! لم أكن اسمعه فحسب، بل كنت استوعب حروف كلماته.. ايضاً!

وفي تلك الأيام المطعونة بالأسى، شعر صديقي علي الجمال بوجود الفتاة الفلسطينية الشابة التي تكررت زياراتها لمكتبي بدار "الجمهورية" بدافع التدريب على العمل الصحفي، فسألني فجأة:

ـ ولماذا لا تتزوج من بنت بلدك؟ أعني، من هذه الفتاة الفلسطينية التي رأيتها عندك، ثم سمعتك تحدثني عنها مراراً؟؟ لماذا لا؟

وأجبته ضاحكاً: عندما جاءت سكرتيرتي في المكتب لكي تخبرني بوصول "هالة" للمرة الأولى الى مكتبي، رأيتها تغمز لي بعينها قبل ان تقول لي والضحكة تملأ وجهها:

ـ جاءت لزيارتك أجمل فتاة في الشرق الأوسط!

ثم قالت السكرتيرة وما زالت تضحك:

ـ انها تشبه ممثلات السينما! في عينيها سعة الحب، وفي وجهها نضارة الربيع، وفي شعرها سحر الليل، وكل ما فيها مليء بالجاذبية والانوثة! حتى الشنطة التي تضم كتبها في الدراسة تبدو بسيطة ومدهشة ومثيرة.. معاً!

ودخلت "هالة" الى مكتبي.. وكادت ان تدخل الى قلبي!

وكان ممكناً أن أنعم بهذا الحب وان أجد فيه بعض العزاء على الضربات التي أفقدتني والدتي، وحياتي الزوجية.. وهناء عمري.

كان ممكناً أن تسير الأمور هادئة ومستقرة، ومليئة بالحنان والعطف والراحة..

لولا ان صاحبة هذا الحب الجديد، قد بدأت تتطلع الى كل ما تتمناه كل فتاة في مثل عمرها، لم تعد ملتزمة بالدراسة، ومن حقها ان تتزوج!

ولكن هذا الزواج بالذات، لم يكن مستحباً، ولا مشوقاً، ولا مطلوباً مني.. وخاصة في تلك الظروف التي أرغمني الطلاق معها على ان أكره الزواج، وعلى وشك ان أكره المرأة أيضاً!

كنت أحبها جداً وأكره أن أرتبط معها..

وكنت احتاج اليها، وأرفض ان أجعلها تحتاج لي..

وكنت أرى فيها بعض عودتي الى مدينتي القدس، ولكن القدس أضحت بعيدة، وممزقة، ويسكنها أناس غرباء أعداء.. فلماذا؟ ولمن أعود اليها؟

وكنت ارتاح الى حديث السياسة والأدب والثقافة على لسانها، كما كانت اللهجة الفلسطينية عندها تبعث في عروقي بعض الحياة.

وكنت اتعمد ان اتناول في بيتها وجبات الأكل الفلسطيني المصنوع بأيدي والدتها لا حباً بالأكل ونما حباً "بها".. أكثر وأكثر!

واكتملت حلقات المأساة في وفاة أخي الدكتور.. الشاب.. في حادث سيارة مفجع على طريق القدس أريحا!

وكانت هي.. بالذات التي نقلت لي تفاصيل ذلك النبأ القاتل!

وصرت أشكو وأصرخ وأدعو للسماء ان تخفف الضربات عني حتى اقدر ان اكمل ما بقي لي من سنوات العمر! وصرت اسأل نفسي: هكذا؟ لا والدة، ولا زوجة، ولا شقيق.. مع غربة قاتلة وتشرد طويل، وحياة مليئة بالفواجع! والمفاجآت؟!

وفي مثل تلك الحالة المستفزة للأعصاب وللعقل معاً، بدأت أشعر بالنفور والكراهية تجاه كل الناس.. وتجاه كل شيء، وتجاه كل امرأة!

لم تعد مهنة الصحافة تشدني.. مطلقاً!

ولم يعد السهر او الصخب او السياسة، تروق لي.. ابداً!

ولم تعد "هالة" تعالجني كحبة "الاسبرين" عندما تشتد فوق رأسي ضربات الألم واليأس... والسواد!

كل شيء ضاع! كا ما حولي سثط! الأم، والزوجة، والشقيق والوطن..

ولم يبق عندي ما أحرص عليه.. وأتمناه!

وبيدي، وبارادتي، دخلتُ مرحلة الضياع! والصرع! وضاعت معي كل موجات ذاك الحب الجديد الذي أردته فترة استراحة كاستراحة المحارب الذي أرهقه العمل وأضنته الضربات!

وطرت الى جبال سويسرا أبحث في ثلوجها عن دفء العزاء الذي كنت أحتاج اليه كالدواء.. وكالهواء.. وكالماء!

ضعت، وضاعت معي "هالة" عندما تلفتت حولها فلم تجدني!..

أيها الناس لا تسلوا الفلسطيني اذا لم يحب او لم يتزوج ولم يستقر!. سلوا الذين أضاعوا منه وطنه، وسرقوا منه استقرار عمره، وتركوه للضربات!. سلوهم لماذا فعلوا به كل ذلك؟ لماذا؟ لماذا؟؟

* * *

واستمر العدو يوزع المؤامرات والاشاعات والاساطير ويغذي روح التعصب القبلي والعشائري والديني والعائلي بين كل شعب من شعوب الشرق الاوسط، ولم نعد نقرأ كتابا واحدا بقلم مؤرخ اسرائيلي واحد يتصف بروح الصدق والحياد، او ينأى عن الدس والتشويه..

ان ما يدعو الى الحزن ان تتجدد في لبنان في عام ١٩٧٥ الأهوال الدموية المؤسفة التي شهدها لبنان في عام ١٨٦٠.!

ومما يدعو الى المزيد من الأسى ان ترتفع في باريس ولندن وروما والفاتيكان، أصوات الفرقة والتعصب والحقد من زعماء لبنانيين ـ كبار ـ يرددون نفس الكلام الذي سمعه اللبنانيون في أواخر القرن التاسع عشر عن أهلهم، ووطنهم.. وطوائفهم!

وكل هذا يعود الى عصر التردي والهوان الذي نعيش فيه. ان الجسم القوي هو القادر على مقاومة الجراثيم، ولكن الجسم الضعيف يسترخي ويمرض ويموت! ولن ينسى ـ وانا كذلك ـ احد ان رئيس اكبر دولة عربية

هاجم جميع زعماء العرب ـ خلال ايام كامب ديفيد ـ ووصفهم بالأقزام المتخلفين الجهلة !

وبعد مرور ربع قرن على هذا الكلام يهاجم مسؤول صحيفة "الاهرام" القاهرية سياسة امريكا ويقول في أواخر عام ١٩٩٩ "...ليس العيب في اسرائيل ولا في امريكا لانهما يدافعان عن مصالحهما، وانما اللوم يقع على الذين لا يؤدون عملهم ولا يقومون بواجباتهم الضرورية، ونحن العرب في المقدمة... لقد قصرنا كثيرا ونمنا طويلا وأهملنا.. وتقاعسنا ثم استيقظنا أخيرا واكتفينا بمُرّ الشكوى دون ان نقدم خطوة ايجابية !".

ومن حقي ان اسأل: من علم العرب دروس الخيانة، ومن الذي دلهم على طريق امريكا.. ومن اتخذ من هنري كيسنجر مستشارا وأخا وصديقا..

ومن قال عن "مناحيم بيغن" انه الشريك المخلص في عملية السلام، ومن جاء ساعيا على رأسه وقدميه صوب الكنيست الاسرائيلي في القدس منذ أكثر من عشرين سنة ؟

من ؟

ولكنه عصر الهوان والذل والانحطاط...

هو ـ هذا العصر الوسخ ـ الذي شجع على الفرقة الدينية والاجتماعية في لبنان. وهو الذي اوشك ان يشعل نارا طائفية في مصر بين المسلمين والأقباط ! وهو الذي شق بنيان وحدة الشعب في العراق وجزأها ـ وما زال ـ بين كردي وعربي، وبين سني وشيعي، وبين "حضري" وقبلي، وبين بصراوي وموصلي.. !

وهو الذي أشعل الفتن في اليمن وما زال يصب زيت التفرقة والخلافات والعنصرية بين الحكومة من جهة والقبائل اليمنية من جهة أخرى، ويؤيد "يمن الجنوب" على "يمن الشمال"، ثم يعود وينتصر ليمن الشمال على يمن الجنوب ! وهو ـ ايضا نفسه وذاته ـ هذا الزمن الرديء الوقح والمشبع

بألوان الحقد والجاسوسية والأنانية، هو الذي يشجع المعارضة في البحرين، للتهجم على الدولة، وهو الذي يصور لدول الخليج ـ الجنوبي ـ ان عدوهم الأول هو ايران وحدها، بينما يصور لدول الخليج ـ الشمالي ـ ان عدوهم هو.. العراق وحده!

ولم ينج الاردن الضعيف، والفقير، من تسلط الاعداء عليه في هذه الايام السوداء..! وامريكا تعلم جيدا ـ وكذلك دول العالم بأسره تعلم ـ ان مشكلة الاردن تنحصر ـ اولا واخيرا ـ في فقر الاردن، حيث لا موارد ولا ثروات ولا سياحة ولا معجزات، وان بقاء الاردن كدولة مستقلة يعتمد على مدى ما يقدر عليه الملك الجديد من جمع المال والمنح والتبرعات من دول العالم، ومدى ما يقدر ان يقنع به الدول الدائنة للاردن في شطب ديونها على الاردن الفقير النامي.

ومما يزيد الطين بلة، ان يصيب المسلمين ما سبق وأصاب العرب!

وأصبح المسلمون الالبانيون في يوغوسلافيا ـ كوسوفو ـ في نظر الصرب، وفي نظر موسكو، مجرد ارهابيون، ومجرمون!

وأصبح المسلمون في "الشيشان" والذين يتعرضون حاليا الى محاولة فناء جماعي ـ في نظر موسكو والروس مجرد ارهابيين ومجرمين.!!

وأصبح المسلمون في الجزائر مجرد ارهابيين ودمويين، وبقي المسلمون ـ حماس في الاردن وفي القطاع مجرد ارهابيين قتلة ومخربين!.

وبقي المسلمون في جنوب لبنان ـ في قاموس امريكا واسرائيل ـ حزب الله والجهاد ـ مجرد ارهابيين..! و "أولاد كلب..." يهددون هناء سكان المستوطنات اليهودية في شمال اسرائيل.!

وأصبح المسؤولين في بلجيكا وهولندا وفرنسا، بل حتى الرئيس الامريكي بيل كلينتون، يذرفون دموع الأسى والشفقة على ما يجري في "الشيشان" من مآسي ومذابح وقتل جماعي للمسلمين الضعفاء.!

وأسمع عن وجود مائة منظمة اسلامية وجمعية اسلامية ومؤسسة اسلامية وبعضها ينعم بالرعايات "الملكية" السامية في المغرب والاردن والسعودية وكلها تحمل اسم الاسلام بينما الاسلام والمسلمون منها ومن كسلها براء.. براء!

لقد سألت الملك حسين (طيّب الله ثراه)، وقد كان في المغرب العربي يحضر دورة من مؤتمرات "لجنة القدس الملكية" بحضور الملك الحسن المغربي ومجموعة من أقطاب العرب في عام ١٩٩٥ ـ ١٩٩٦، سألته كيف يسمح لنفسه ان ينسحب خلسة من جلسات ذلك المؤتمر، لكي يخرج الى مطار الرباط ويستقل طائرته الخاصة ويسافر الى جزر "الكناري" طلبا للراحة، او للنسيان؟. فأجابني:

ـ يا سيدي لا فائدة ترجى من هذا المؤتمر ولا خير ينتظر من أبحاثه وقراراته!

ثم أضاف بالحرف الواحد:

ـ كل ما يهم ـ ابن عمنا "الملك الحسن" هو ان يأتي بأكبر عدد من الدول العربية ـ مصر مثلا وغيرها ـ ويضمها الى عضوية المؤتمر والى عضوية لجنة القدس بالذات لكي يفسد على الاردن قدرته على العمل داخل تلك اللجنة ويقلل من اهمية دور الاردن تجاه القدس..!!

ثم أضاف:

ـ ولكي أتجنب الاصطدام مع "الحسن"، غادرت قاعة اللجنة، وطرت بعيدا عنها بانتظار ان تمر العواصف واستطيع ان استأنف الحضور!

وبالفعل..

ظهرت نتائج مؤتمر لجنة القدس الملكية المعقود في الرباط، واذا بها لا تتعدى الرقم.. الصفر!

والحقيقة ان في اخلاق "الحسين" وفي بعض أدواره جوانب مضيئة يجب

ان تجد من يكتب عنها او يكتبها!

ففي غمرة هذه الامواج المتضاربة وسط مياه المحيط الاسلامي والعربي، سمعت بنفسي، ورأيت بعيني، صورة ملك عربي ـ لا أملك الا ان أترحم عليه وان أشيد به، دون ان انتظر كلمة شكر واحدة من أهله وأبنائه! لقد فتح هذا الملك قلبه لي ـ وخاصة في السنوات العشر الاخيرة من عمره، وحدثني بكل معاني المحبة والتضامن والعمل المشترك والتي يسعى اليها مع بقية ملوك العرب ورؤسائهم، ورغم "النصائح" الكثيرة القادمة اليه من امريكا، واوروبا، واسرائيل ايضا، أصر على ان يسدل الستار على خلافات الأمس كلها، وأن يؤدي دوره في رص الصفوف، ولم الشمل وتوحيد الكلمة وتنسيق الخطوات.

ولا أعرف ملكا، بدأ عمره بالضربات، وأنهى عمره بالضربات، غير الملك حسين الاردني منذ أُصيب والده "بالشيزوفرينيا" ثم التخلي عن العرش، الى مؤامرات الامير "نايف" ـ مع العراق ـ للسطو على عرش الاردن ـ الى محاصرته بالوصاية من لندن وعملائها، الى محاولة تركيعه بالديون المالية المتراكمة فوق كتفيه، الى مؤامرات بعض الضباط الاردنيين "الأحرار" باسم القومية العربية، الى "تحيات" جمال عبد الناصر ضد الاردن مستعينا بعلي ابو نوار وعلي الحياري وسليمان النابلسي، الى دسائس جلوب باشا، الى انتفاضات الضفة الغربية... الى أعاصير حرب الخليج.. ومحاولة عزله عن الركب العربي.!!!

وفي وسط هبوب الدخان الأسود من نار حرب الخليج، دعاني الملك حسين لتناول الغداء في قصره المجاور لقصر بسمان، بعمان، وكان موجودا معنا عدنان ابو عودة، والشريف زيد بن شاكر، والملكة نور.

وأراد ان يكشف أمامي كل أوراق الخليج..

وسلمني الرسائل والبيانات السرية التي كان قد أرسلها الى صدام

حسين قبل الحرب، وخلال الحرب، وبعد الحرب..!

وقال لي وكأنه يتمزق ألما:

ـ لقد أرسلت كل هذه الوثائق الى الرئيس حسني مبارك. والى الجامعة العربية والى الكويت. كما أرسلت نسخا منها الى أكثر من صحفي مصري.. مثل هيكل وغيره. ولكنهم التزموا الصمت الرهيب، ولم يفعلوا شيئا، ولم ينشروا منها سطرا واحدا..!

وسألني الملك على مسمع من "ابو عودة" والحضور:

ـ لمصلحة من يبقى مثل هذا الحقد الأسود يتحكم فينا ونبقى كلنا أسرى له، وأسرى أمامه؟

ثم أضاف:

ـ ألم يحن الوقت لكي ننسى ونصفح ونتصافح؟ أليس من واجب المسلم ان يتصرف باخلاق المسلم حيث لا ضرار ولا ضرار؟

وسألني الملك حسين:

ـ ترى ماذا كان موقفي عندما سمعتك ـ أنت ـ تقص علي موضوع الخلاف الطارىء بين بعض أفراد العائلة المالكة السعودية، من جهة، وبين ابنهم وأخيهم الامير تركي بن عبد العزيز من جهة اخرى؟ ألم اركب طائرتي واترك عمان، والمسؤوليات كلها، وأطير معك الى لندن حيث قابلنا الامير تركي في فندق "كلاردج" واستمعنا اليه وهو يسرد قصص ذلك الخلاف المؤسف مع أخوته ويطلب منا التوسط؟

وعاد الملك يسألني:

ـ ألم أتوسط!؟ ألم أكتب الى الرياض؟ ألم اقترح الحلول الوسط القادرة على عودة الامير تركي بن عبد العزيز الى أهله، والى منصبه في وزارة الدفاع السعودية؟. وسكت الملك، قبل ان يقول لي من جديد:

ـ انا ذهبت منذ سنوات قليلة الى أداء "العمرة" في مكة، وكان "الجميع"

كلهم هناك وتجاهلوا وجودي، ولم يقابلني امير واحد. ولم أغضب، ولم أعتب، ولم أعلق بكلمة واحدة. وعندما عدت الى مكتبي.. هنا.. في عمان.. وكنت أنت ـ يا أخي ناصر ـ أحد الذين سألوني لماذا كل هذا التجاهل لي هناك، ولماذا تعمدوا الاهانة.. وأجبتك يومذاك بالحرف الواحد: أنا ذهبت لأداء العمرة.. ابتغاء رضى ربي، ولم أذهب لغاية أخرى!!"

وسألني الملك حسين بالحاح:

ـ هل تذكر هذا الحديث يا أخ ناصر؟

وهززت رأسي وقلت:

ـ بل اني اذكر كل ذلك مفصلا يا جلالة الملك.

قال: وما زال بعضهم يردد اغنية هذا سعودي وهذا هاشمي.. او: هذا نجدي وهذا حجازي.. او هذه الرياض وتلك عمان.. ولكني يا أخي ـ وأنا البقية الباقية من آل البيت، ومن الهاشميين، أقول بكل صدق وكل ثقة وكل ايمان بأن ليس بيني وبين السعودية الا الحب والاحترام والأماني الطيبة. لقد ذهب والدي ـ طلال ـ الى مقابلة الملك عبد العزيز آل سعود منذ ٥٠ سنة، وعاد من هناك سعيدا بالعطف والرعاية الأبوية وأبرق الى الملك السعودي شاكرا وممتنا وخاطبه "بالوالد" العزيز وجعل امضاءه: ولدكم المخلص طلال بن عبد الله!. وأنا في هذه المسيرة الابن المخلص لذكرى والدي ولكل خطواته. وأنا مقتنع بأن أقوى حماة المقدسات في القدس هم السعوديون، وان خادم الحرمين هو ايضا خادم الأقصى والحرم القدسي."

ثم قال، وأنا أنقل كلامه من أوراق مسجلة ما زلت احتفظ بها:

قال الملك حسين: وبعد ان استحل عبد الناصر دمي، ودبر الانقلابات ضدي، وجاء في عام ١٩٦٤، شهر الصوم المبارك، لم أتردد في ان أكتب

اليه ـ الى عبد الناصر ـ وأن اطلب منه ان "نستلهم" معا روح رمضان، وتعاليمه، ودروسه، وتاريخه، وأن ننسى وان نلتقي". !

ثم أضاف:

ـ هذا هو مفهومي لعلاقتي مع البشر. لقد سمعني كل العالم وأنا اقول ان في الاردن "شعبا واحدا" مهما تعددة اصوله. وان كل من يحاول التفريق بين الاردنيين وتوزيع الهويات المختلفة عليهم، يصبح عدوا لي الى "يوم القيامة". أنا لا أطيق ان اتحمل شرور الخلافات! وليس الاردني القبلي أعز عندي من الاردني الفلسطيني! وليس العراقي أقرب لي من السوري. كلهم اخوتي. كلهم أشقائي. كلهم جيراني! ولست مستعدا لان أطيع نصائح واشنطن او لندن او تل ابيب وابتعد عن فلان لصالح فلان، او اهادن "علي عبد الله صالح" نكاية بالاشتراكيين في عدن.. أو انتصر للمسلم اللبناني نكاية بالماروني.. أو اردد الحان المذاهب والأديان من أجل تحقيق أي هدف سياسي!! هكذا أنا، هكذا كنت وهكذا سأبقى. ولم يبق في عمري أكثر مما مضى. وقد ضربني السرطان ثم غاب، ولا أدري متى سيعود!؟ العرش عندي وسيلة. وكل همي ان ابتغي وجه ربي، وان ألقاه وأنا طاهر القلب، عامر الايمان!

وانتهى الطعام..

وخرج الملك الى مكتبه واختلى بي عدنان ابو عودة لكي يسلمني بعض الوثائق عن حرب الخليج.

وكان يوما حافلا...

وبقيت أذكر التناقض المذهل بين أخلاق معظم من كنت أقابل ـ على مدى الخمسين سنة الماضية من رؤساء ومسؤولين في معظم العواصم العربية، وبين أخلاق هذا الملك المسلم البسيط الذي يحاول دوما ان لا ينطق عن الهوى والذي فقد نصف مملكته في عام ١٩٦٧ لانه أراد ان يبقى

مخلصا...

ـ مخلصا لماذا يا سيدي؟ لماذا؟ لمن؟

ـ مخلصا للمواثيق التي وقعناها في الجامعة العربية...!!

ـ وما قيمة تلك المواثيق يا سيدي؟

ـ قيمتها في أنها تحمل اسماءنا وامضاءاتنا وتعهداتنا أمام الله، والتاريخ!

ـ ولكن هذا الاخلاص كان ثمنه باهظا.. يا سيدنا!

ـ لا بأس. لقد اثبتنا اننا شرفاء نحافظ على العهد ولا نخون الأمانة..

وسكت الملك حسين..

وقد ذكرني في كلامه عن حرب عام ١٩٦٧ بما جرى في واشنطن بعد لقائه مع الرئيس الامريكي ليندون جونسون، وكان معه احمد طوقان وفرحان شبيلات. وأترك الكلام للصديق الراحل فرحان شبيلات، وكان ذات يوم رئيسا للديوان الملكي على عهد الملك عبد الله، ثم أصبح سفيرا للاردن في واشنطن، يوم ذهب الملك حسين لمقابلة الرئيس الامريكي بعد هزيمة ١٩٦٧...

قال لي فرحان شبيلات وهو للعلم ـ والد ليث شبيلات الشخصية المعارضة في السياسة الاردنية في هذه الايام:

ـ واجتمعنا في مكتب الرئيس جونسون الذي راح يلقي على الملك النصائح والمواعظ، ويوجه اليه اللوم لاشتراكه في حرب الايام الستة، ويستعمل كثيرا من العبارات التأنيبية الخالية من الذوق.. ومن الكياسة!

قال لي فرحان شبيلات:

ـ وخرجنا.. وبقي الملك لحظات مع الرئيس جونسون، وانتهزت الفرصة وقلت لاحمد طوقان ان كان عليه الرد على كلام الرئيس الامريكي

عندما راح يؤنب الملك حسين ويتهمه بعدم المسؤولية! ولكن طوقان لم يرد الى ان خرج الملك من مكتب جونسون وركبنا السيارة معا، وخشي أحمد طوقان ان أفتح فمي وألومه لعدم دفاعه عن الملك امام الرئيس الامريكي، فاذ به يقول للملك فجأة وبلا مقدمات:

ـ كنت أنت يا سيدي رائعا في ردك على الرئيس جونسون! ولكن الأخ فرحان شبيلات يلومني لانني لم أتكلم ولم أدافع. عجبا يا سيدنا، هل كان الاخ شبيلات يريد مني ان اقاطع كلام سيدنا وهو يتدفق كالشلال، او وهو يحلق في السماء السابعة، ويوجه الغمزات والضربات، هل من المعقول يا سيدنا ان أسمح لنفسي ان أتدخل في الحديث، واقول أي كلام يضاف الى كلام سيدنا الذي يشبه طلقات المدافع!؟

قال لي فرحان شبيلات:

ـ وسمعني الملك اضحك بملء فمي! وسألني عن سبب الضحك فأجبت بأني سأشرح له السبب عندما نصل الى الفندق!

وقلت للملك القصة بحذافيرها..

وأعاد الملك رواية القصة بعد عودتنا الى عمان، وكأنها شرح للكفاءة الدبلوماسية الخاصة وخفة الدم التي يتمتع بها احمد طوقان!

وهكذا كان ـ الحسين بن طلال ـ يعالج القصص السياسية بما يعود بالتحية او بالاحترام لاصحابها دون المس بأخلاقهم او ذكائهم او كفاءتهم، لا يغمز ولا يتهم بقدر ما يسخر او يضحك او ينكت!

قال لي الرئيس اليمني علي عبد الله صالح في مقابلة لي معه بالعاصمة اليمنية عام ١٩٩٧:

ـ أنا اشعر بالامتنان للملك حسين لانه ـ من خلال دعوته للقاء اليمني الموسع في عمان مع كافة الاطراف اليمنية ـ قد كشف لنا حقيقة الاشتراكيين والانفصاليين اليمنيين و"عراهم"!..

ثم أضاف:

- "لقد أرغمهم على توقيع الميثاق المشترك بيننا، بينما هو يعلم تماما أنهم لن يحترموا توقيعاتهم ولن يمشوا في طريق وحدة اليمن..! وهكذا كان.." !

لقد رفع الملك حسين، شعارات قومية اصبحت شعارات للشعب الاردني، ومنها: عمان عاصمة العرب. الاردن بلد العرب. صوت الاردن صوت العرب!

وعندما حضر آخر اجتماعات القمة العربية في بغداد قبل الغزو العراقي للكويت راح يتحدث عن مدى النمو الاقتصادي في الاردن ومدى التطور الاجتماعي ويطلب في النهاية مساعدة الدول الاشقاء، ماليا، لكي يتمكن الاردني من تنفيذ مشاريه الانمائية!

ولكن، وقبل ان ينهي الملك كلامه، سمع صوت أحد الشيوخ في دولة خليجية يقول له بصوت عال:

- لماذا تحدثنا عن التنمية في بلدك وأنت لا تملك الفلوس؟ المثل الشعبي يقول: "اللي ما عندوش ما يلزمنوش..".

وصعق الملك..

ونظر صوب رئيس الجلسة - يومذاك - وكان بالذات صدام حسين وكأنه يستغيب ويطلب الحماية. وتدخل صدام حسين على الفور لكي يرد على كلام الشيخ الخليجي وقال موجها كلامه للملك حسين:

- سندرس كل احتياجات الاردن وسنعمل كل ما في وسعنا لمساعدته!

قال الملك حسين وعندما انتهى صدام حسين من كلامه، شعرت بأني بحاجة الى هواء نقي، فتركت مقعدي وخرجت الى القاعة المجاورة وأنا أفكر في كلام المسؤول الخليجي الذي يعيرني بالفقر.!

وبعد اسابيع قليلة وقع الغزو العراقي.. للكويت!

وهناك خاتمة لا بد من سردها وأنا استعرض بضعة صفحات من تاريخ الملك حسين، السياسي.

وهي خاتمة خاصة، تتعلق بي وحدي.

فقد مرت فترة من الزمن تجمعت خلالها السحب السوداء في سماء العلاقة بين الملك حسين وبيني حيث كنت أعمل رئيسا لتحرير "الجمهورية" في القاهرة، وكانت العلاقة بين الملك وجمال عبد الناصر قد تدهورت واستقرت في الحضيض.

ورغم الحرية الصحفية التي كنا نتمتع بها في عهد عبد الناصر الا ان هناك خطوط حمراء في العمل الصحفي لا يجوز لمن يعمل في حقل الاعلام المصري ان يتجاوزها او يتجاهلها.

واشتد الخلاف بين القاهرة، وعمان..

واشتعلت حرب الاعلام ـ اذاعات وتلفزيون وصحف في مقالات نارية بين الزعيمين العربيين الكبيرين.

وكان من الطبيعي ان التزم جانب مصر، وأقف مع عبد الناصر حتى آخر قطرة في دمي. هكذا عشت، وهكذا تعلمت.. وهكذا تصرفت. وهكذا سأبقى!

وكان من الطبيعي ايضا ـ وقد قسوت في الهجوم على سياسة الملك الاردني، وعلى حكومته ووزرائه، ان تبادر حكومة الاردن ـ وبأوامر ملكية سامية الى تجريدي من جنسيتي الاردنية، وسحب جواز سفري الاردني..

وبادر الرئيس اللبناني فؤاد شهاب ـ ومنحني الجنسية اللبنانية!

كما بادر الزعيم عبد الناصر ـ وأعطاني جواز سفر مصري.. دبلوماسي، ما زلت احتفظ به للذكرى والتاريخ!

وعندما سمع الامير عبد الاله في بغداد، بما جرى، أمر سفيره في أنقرة، نجيب الراوي بأن يرسل لي جواز سفر.. دبلوماسي.. عراقي!

ومضت سنوات خمس، عقد بعدها مؤتمر القمة العربي، وجاء الملك حسين الى مصر، وتطرق الحديث بينه وبين عبد الناصر الى بعض "اللاجئين" الاردنيين في مصر، ومنهم ناصر النشاشيبي.

وشكى الملك، للرئيس عبد الناصر، من حدة هجومي عليه في مقالاتي المنشورة في الصحف المصرية.

وأجاب عبد الناصر بأن اللوم لا يقع على الصحفي، وانما يقع على رئيس الجمهورية!.. أي: على عبد الناصر.. بالذات!

وأجاب الملك بكل أدب ووقار قائلا لعبد الناصر:

ـ حاضر يا سيدي!

أي: انه سيصدر العفو عني وسيعيد لي جنسيتي المفقودة.

وطرت الى عمان لمقابلة الملك.

وفي لحظات من تلك المقابلة، كان الملك يعيد لي جواز سفري ويسألني بكل أدب ولطف:

ـ هل هناك "أوامر" اخرى؟

وقلت على الفور:

ـ أجل يا سيدنا، هناك ما هو أهم من جواز السفر، ومن الجنسية.

ولم انتظر سؤال الملك وقلت:

ـ هناك قلبك الكبير الذي ارجو ان يتسع لبعض العفو، وبعض النسيان!

وتعانقنا، ورأيت خطوط التعب والأسى والذكريات، مرتسمة فوق خديه. فقلت وكأني أعيده للذكريات:

ـ لقد كنا معا في العشرين من يوليو ـ تموز عام ١٩٥٢، في ذلك اليوم الحار، في ساحة المسجد الاقصى، وكان الرصاص يلعلع فوق رؤوسنا.. وسقط من سقط، وأصيب من اصيب.. ونجا من نجا.. ومن يشارك في

خطر الموت، لا يحمل الحقد، ولا الكراهية.

ولأول مرة رأيته يمسح دموعه..

وحملت جواز سفري، ومعي أكرم زعيتر وكان وزيرا للبلاط وخرجت..

وعندما أعود الى هذه القصة، لا أملك الا ان أسرد قصة مشابهة في الحدث، ولكنها تختلف في المضمون والعبرة والنتائج، ذلك انني لم اكن يوما كثير التقدير للزعيم التونسي الكبير الحبيب بورقيبة.

وعندما تولى زين العابدين مهام الرئاسة، وانتقل بورقيبة الى زوايا النسيان، أمسكت قلمي وكتبت في مجلة "المستقبل" الصادرة في باريس مقالا بعنوان "آخر العمالقة وأصغرهم".

ولم يعجب مقالي مجلة "اليوم السابع" التي كانت تصدر في باريس وتموِّلها "منظمة التحرير" ويرأس تحريرها شقيق صديقنا "ابو السعيد" "خالد الحسن".. رحمه الله!

وسمح رئيس التحرير المذكور ان يملأ صفحتين كاملتين من صفحات مجلته، بالدفاع عن بورقيبة وتوجيه السباب والاتهامات والكلمات الجارحة لي تحت عنوان: "عيب يا ناصر النشاشيبي"!

لماذا كل هذا الحب المفاجئ للحبيب الذي سقط؟

والجواب: لان السيدة "وسيلة بنت عمار" زوجة بورقيبة السابقة مع أحد افراد عائلة بورقيبة كان يسدي الخدمات "المالية" الكثيرة للمنظمة ـ كما قيل ـ وللسيد رئيس التحرير كما قال!

وهكذا أوعزوا لمجلة "اليوم السابع" بالهجوم، دفاعا عن الزعيم الذي جاوز التسعين وأصابه الخرف وبأوامر مباشرة من افراد عائلته.

ولكن الملك حسين الاردني، تحمل مني ألف مقال من النار، وألف شتيمة حادة ولم يأمر أحدا من صحفيي عمان بأن يشتمني او يرد على ما كنت أكتبه.

والفرق بين الملك حسين وذلك الزعيم التونسي، هو الفرق بين ملك ينتسب في اصوله الى النبي الأعظم، ورئيس جمهورية ينتسب الى أجهزة المخابرات الامريكية والفرنسية والاسرائيلية..

وغفر الله لنا جميعا!

* * *

على هامش الذكريات

هذه أحاديث خاصة وسرية حان موعد نشرها لأنها تلقي بظلالها على حاضرنا ومستقبلنا!

مع كمال رفعت ـ سفير مصر في بريطانيا.

كان كمال رفعت وزيرا للعمل ثم رئيسا للمخابرات العربية في المخابرات المصرية العامة، ثم سفيرا لمصر. ٨ ـ ١٦ اكتوبر عام ١٩٧٢:

قال لي كما رفعت في دار السفارة ان "أنور السادات" عايز يعمل فاروق رقم ٢ ! وسألني: هل رأيت صورته في جريدة "الانوار" اللبنانية محاطا بالكلاب الالمانية..؟

وقال: "صدقي" مع الامريكان امريكاني، ومع الروس روسي ولكنه سيواجه بعد اليوم ضغوطا تسأله عن قواعد.. وأسماء.. وطلبات!

وقال: زيارة "الزيات" لموسكو لم تنفعنا شيئا. طلبنا سلاحا. أعطونا صفقة صواريخ دفاعية بمبلغ مائة مليون جنيه! أما الدبابات وأما الطائرات فلا جواب في الوقت الحاضر.

وقال لي كما رفعت: قلت لأبو عمار منذ عام ١٩٦٨، عليكم ان تجمعوا في صفوف "الثورة الفلسطينية" ثوارا عرب من خارج فلسطين لكي تتحول الثورة الفلسطينية الى ثورة عربية، بحيث يعجز أي حاكم عربي عن القضاء

عليها، والا فان الضربة القادمة ستأتيكم من الحكومات العربية، لا من اسرائيل! قلت لأبو عمار: لا تصدقوا الدول العربية ولا تثقوا بها.. وأولها .. مصر!"

وسألت عن نفسية الرئيس السادات في الوقت الحاضر، فأجاب كمال رفعت:

ـ أصبح السادات في حالة نفسية خاصة، لا يقبل ان يزعجه أحد بالاوراق الرسمية. انه يأخذ الامور على راحته، ومتأكد ان السعودية والكويت سيوجهان الضغط المطلوب على أمريكا لحل الازمة.

وقال:

ـ هناك خلاف حاد بين معمر القذافي ونائبه.. جلود!

وقال:

ـ أراد أنور السادات ان يخرج من فراغه السياسي عندما اقترح موضوع الدولة الفلسطينية!

وقال:

ـ لن يسمح حافظ الأسد للفدائيين بالعمل في جبهته لانه متفق سرا مع مصر على الحل السلمي.. ولكن حادث مصرع الدبلوماسي الاسرائيلي في لندن قد غير مجرى الاحداث على مصر وعلى الحل السلمي.. كله!!"

وقال:

ـ قلت لوكيل الخارجية البريطانية في مقابلة اليوم انكم تستغلون ضعف الموقف العربي وتشعرون ان العرب ليس في أيديهم قوة للرد عليكم.

وقال لي كمال رفعت:

ـ لقد عاش أنور السادات مدة عام كامل فوق اخطاء عبد الناصر، ثم ماذا؟ لا شيء! سينتهي ويسقط. وأنور عايز يلعب دور عبد الناصر تجاه

الدول العربية. عايز فلوس. عايز يقوي نفسه. كان عبد الناصر يدعوهم للمجيء اليه بينما السادات يذهب اليهم. السادات عايز يظهر أمام امريكا وكأنه يمثل كل العرب. سذاجة! وقصر نظر!

لندن في ١٩٧٣/٦/٨

قال لي كمال رفعت سفير مصر في لندن بعد مقابلته للمسؤولين الانجليز وما سمع من رئيس الوزراء البريطاني ما يلي:

١ـ بالنسبة لفلسطين نحن ـ أي الانجليز ـ مع أي حل لا يتعارض مع سياستنا التقليدية تجاه اسرائيل..!!

٢ـ نحن مع أي حل توافق عليه امريكا، لانه لا حل هناك بدون أمريكا. لا ننسى أنَ حق الفيتو موجود في يد امريكا!

سألته: وماذا قلت للرئيس المصري في برقيتك الأخيرة حول احتمال عودتك الى القاهرة؟

قال: قلت له انا جئت الى لندن ـ كسفير ـ لاسباب ما زالت قائمة، ولظروف ما زالت موجودة، ونقلي منها يعني عودتي الى القاهرة دون قبولي لأي منصب آخر.

ثم قال:

لقد سألتني ـ أي سألت كما رفعت ـ زوجة السادات السيدة جيهان:

ـ متى سينفذ الامريكان وعودهم لنا؟

قال كمال، والحديث ينتقل الى عالم آخر:

ـ أنور السادات هو الذي طلب من موسى صبري مهاجمة هيكل. والسادات يخاف ان هو طرد هيكل ان يغضب معمر القذافي!

قلت: وما هي آخر أخبار لبنان عندك؟

قال: سليمان فرنجية الآن أقوى من الاول بسبب اخطاء المقاومة الفلسطينية. وقد اخطأت المقاومة في ضرب الأحياء الاسلامية ففقدت عطف المسلمين. أخشى أن يكون الرأي العام اللبناني كله اصبح اليوم، ضد المقاومة.. الفلسطينية! قال فرنجية للسيد أمين الحافظ عندما قدم له استقالته:

ـ قد يترتب على استقالتك استدعاء من هو قادر على حماية لبنان لكي يشكل الوزارة الجديدة!

مع محمد أحمد محجوب ١٩٧٣/٦/٧

قال لي محجوب في منزله بلندن ان أمين الحافظ اصبح مسؤولا لبنانيا... وعربيا! والفضل يعود الى نفوذ زوجته في اوساط الفدائيين الفلسطينيين!

وقال: ان الرئيس فرنجية قدر ان يتخلص من رشيد كرامة ويختار سواه.

وقال: ليس هناك شعب محتل في تاريخ الحروب لم يتأقلم مع المستعمر مع مرور الأيام..

وقال: أنه سمع من سفير مصر ان صحراء "سيناء" مقبرة فلماذا نحاول دخولها؟

* * *

"وعاد محمود رياض من موسكو"

وقال لي وزير الخارجية المصرية محمود رياض بعد عودته من موسكو ومروره "بجنيف" في طريق عودته الى مصر:

ـ قال لنا الرئيس "تيتو"، روحوا وحاربوا ! ولن تعود الحقوق اليكم بحل سلمي.. وراح يكرر عبارة "روحا حاربوا.. حاربوا !"

قلت: وماذا عن الموقف الروسي؟ أجاب:

ـ الروس عمرهم ما قالوا لنا ما تحاربوش. سؤالهم لنا كان دائما انتوا قادرين على الحرب تفضلوا... لكن لا نريد تكرار نكسة ١٩٦٧ ! وقالوا لنا الروس: يجب على مصر التركيز على التعاون العربي معها. ولا يجوز ان تنفرد مصر بأي عمل عسكري لوحدها ! وان على بقية الجبهات أن تشتعل !.

ترً، وماذا قالت الخارجية البريطانية لكمال رفعت في المقابلة الأخيرة؟

قال: قالت لي الخارجية: هناك في الشرق الاوسط دول عربية مستقرة ودول عربية غير مستقرة ونحن حريصون على بقاء الدول المستقرة. ولا نريد اثارتها. ونريد محاصرة الفلسطينيين وعدم تشجيعهم على أي عمل. نريد منكم الصبر.. والمسألة تحتاج الى وقت طويل نستطيع خلاله ان نعالج اسرائيل سيكولوجيا. هل أنتم قادرون على الصبر؟ والحل الجزئي ممكن ونحن نعدكم بحل مرحلي وفيما بعد يكتمل لو أنكم تحليتم بالصبر وعدم اثارة المنطقة.

وأجاب كمال على كلام الخارجية البريطانية:

ـ نحن لا سيطرة لنا على الفلسطينيين ولسنا مسؤولين عنهم ولا نستطيع الصبر الى ما لا نهاية، والحل الجزئي غير مقبول منا الا كمرحلة او جسر صغير، يؤدي الى حل دائم !"

وعدتُ وسألت كمال رفعت عن علاقة هيكل بالسادات فقال:

ـ السادات لا يأتمن لهيكل. هناك كراهية متجاوبة بين الاثنين من زمن، وكان هيكل يروي النكت عن السادات أيام عبد الناصر، وقال لجمال عبد الناصر عندما قيل ان السادات قد أصيب بنوبة قلبية: كيف ممكن هذا؟

السادات لا يقرأ ولا يفكر ولا يشعر ولا يحمل أية هموم! كيف يصاب بنوبة قلبية؟."

وروى لي كمال رفعت كيف ان السادات وجماعته في مصر مع الكثير من رجال الجيش والمخابرات منهمكين في تحضير الأرواح وخاصة تحضير روح جمال عبد الناصر..!"

وقال:

ـ قد تجري قريبا محاكمة "فوزي" بتهمة قتل المشير عبد الحكيم عامر!

١٥يونيو١٩٧٣

قال الملك فيصل السعودي في اوائل يونيو ١٩٧٣ في جنيف للسفراء العرب ان فضيحة "ووترغيت" الامريكية هي "مؤامرة صهيونية"!... وطلب محمود رياض من مكتب الجامعة العربية في جنيف ابلاغ السفراء العرب في سويسرا عن رغبته في ان يكون استقباله وتوديعه حافلا ورسميا!

وعند اجتماع محمود رياض برجال مكتب الجامعة العربية في جنيف سألهم: انتوا بتعملوا ايه هنا؟ انا شاعر ان السفارات العربية غير مهتمة بكم ولا تشعر بوجودكم.

وقال محمود رياض للسفراء العرب عند اجتماعه بهم في مكتب الجامعة العربية في جنيف:

أنا أدرى الناس بهمومكم كسفراء انقطعت سبل الأخبار الحقيقية بينكم وبين بلادكم. ان الموقف العربي يتدهور بسرعة وهو موقف ضعيف. انا اطالب بعقد مؤتمر قمة عربي. واذا لم يتحقق ذلك سأقدم استقالتي وأرحل!.."!!

لندن- ديسمبر ١٩٧٣

قال لي كمال رفعت في معرض الحديث عن المذكرات التي ينشرها الصحفي محمد حسنين هيكل:

ـ هذه مذكرات رسمية ولا يجوز ان تبقى في حوزة شخص صحفي واحد. كما لا يجوز نشرها الا بعد مرور فترة طويلة، وقد تثير هذه المذكرات في نشرها أزمات بين الاتحاد السوفييتي والصين او بين يوغوسلافيا والصين او السوفييت حيث في الآراء المنشورة اساءة كبرى الى دول أخرى! لقد اختار هيكل خطابات معينة ـ من أوراق الرئيس ـ مع "حاجات" معينة لكي يوحي بشيء من الفبركة الصحفية او الطابع الصحفي المغطى "بالملح والفلفل" وبالانجليزية Sensation ولا يجوز ان تسكت الدولة المصرية على مثل هذا التصرف الفردي العجيب، حيث يعمد صحفي فرد الى نشر مذكرات رسمية تخص رئيس الدولة بأكملها وينتفع منها والدولة ساكتة تتفرج! وقد قبض هيكل ثمن نشر هذه المذكرات ووضع المبالغ في حسابه الخاص في لندن وباريس. حتى ولو كان هيكل قد اتفق مع هدى عبد الناصر، فان الموضوع اكبر من هدى عبد الناصر!"

وقال لي:

ـ ان علاقة خالد الحسن الخاصة مع السعودية والكويت تشكل خطرا مباشرة على زعامة أبي عمار!

وقال: قرأت ما قاله هيكل وما كتبه عن السفارة المصرية في لندن، وعني. وقد أرسلت اليه برقية قلت له فيها هناك عندي طرق كثيرة للرد.. طرق لا علاقة لها بالقلم والورقة!

وقال لي محمود رياض في موعد لاحق بعد عودته من موسكو:

ـ الامريكان يشوهون اسمي وسمعتي! هم يريدون مني ان استقيل.

ولكني قاعد على قلبهم. يجعلوننا نظن أنهم معنا ولكنهم في النهاية يطلبون منا الدخول في مفاوضات صلح مع اليهود. قلت لهم: لا تحاولوا اخفاء الحقائق. اليهود أنفسهم يقولون "مش عايزين نجلي" !

ثم قال لي رياض:

ان الحرب هي الحل الوحيد. وان الحلول السلمية قد استنفدت أغراضها، وستأتي هذه الحرب، رغم انوفنا، لا لاننا نريدها. بل لاننا مدفوعون اليها وليس هناك من حل آخر. ويجب ان نعطي اسرائيل ضربة قوية.. وهذا لا بد منه.. وعندئذ يمكن الانتظار أما الآن فلا. !"

ثم قال لي عن العمل الفدائي الفلسطيني:

ـ قلت لابو اللطف روحوا انسفوا انابيب البترول وأنابيب المياه.. قاعدين ساكتين بتعملوا ايه؟... بيقولولوا لك من البحر الى النهر.. ده كلام فارغ.. مجرد مزايدات. كلام بلطجية !

سألته: هل نحن قادرون على الحرب؟

أجاب: نعم!

قلت له: أنا اسألك كرجل عسكري؟

قال: نعم!

قلت: وماذا يكون موقف الروس؟

قال: الروس لن يقفوا في طريقك ولن يحاربوا لك معركتك.. لانهم لو حاربوا لك معركتك، بعدها يأتون الينا ويحتلون ويبقون مستعمرين..

وأضاف:

ـ ان الحل ليس في يد روسيا ولا أمريكا. الحل في يدنا نحن. والروس يعطونا كل ما نحتاج اليه.

سألته: وما رأيك في أنور السادات؟

قال محمد رياض : إن السادات انسان عادي يحب عليه ان يسمع . ويقبل النصيحة . ولا يرفض وجهة نظر انسان غيره .

قلت : وهيكل ؟

قال : لقد اخطأ هيكل في نشره قصة "تحضير الأرواح" ولكن مصيبة هيكل انه يعرف كل شيء ويحتار بين نزعته الصحفية ، وبين كثيرا مما يعرف !

قلت : وكيف ترى مسيرة الثورة الفلسطينية ؟

وأجاب محمود رياض :

ـ قرأت تصريحا لأبو عمار انه كان على الثورة ان تختار بين اسلوب الجزائر او الاسلوب الديمقراطي فأخذنا الثاني . يعني : لم تعد ثورة .

قلت : وما هي أخبار الملك حسين عندك ؟

وأجاب محمود رياض : الملك حسين عايز يأتي الينا يوم ٢٣ يوليو ليخطب ويحضر جلسة المؤتمر الوطني الجديد . وهذا غير معقول . قلت لهم مش معقول !

وقال : كان الرجل ـ أي الملك ـ يأتي لنا تحت الحراسة وخايف من واحد يضربه رصاصة ، ثم مرة واحدة يأتي لزيارتنا ويحضر المؤتمر . . .

.. "مش معقول !

وانتهى كلام محمود رياض . .

وبقية الهوامش في ملاعب الذكريات لها حديث آخر .

* * *

القدس أولا،

والقدس آخرا،

والقدس دائما..!

قبل ٣٠ سنة، وبالتحديد في ٧ يناير ١٩٧٢ ظهر لي في مجلة "الحوادث" اللبنانية، مقالا مختصرا قلت فيه بالحرف الواحد:

".. لقد ضاع قلمي ولم أجده. كانت هناك قضية وكان هناك من استحوذ على أملي وأمل الملايين في القدرة على تحريرها قبل حلها. وماتت القضية قبل ان يموت. لم يعد الامر متصلا بالمبدأ... تضاءل الأمل.. تواضع.. فانحط الى مجرد استعادة اشبار من الارض خسرناها في حرب لم نخضها. ترى، هل يستحق مثل هذا الأمل اليائس ان يجد او يجند قلما يحارب في صفوته ومن أجله..

ثم قلت وبالحرف الواحد:

".. ليست القدس زجاجة كوكا كولا كي أفتح الدكان وأجني المكاسب. انها قطرات دمي وتراب أمي وأعز املاكي واغنية ولدي من اجلها تركت عمان الى دنيا مصر، ثم تركت الصحافة الى الجامعة العربية، ثم عدت من الجامعة الى "الاهرام"، ثم طويت القلم، كسرته، لم أعد له ولم يعد لي. من أجلها "قدسك" يا أخي وقدسي الطاهرة ــ وضعت كتاب "تذكرة عودة" اول انشودة تنادي بالكيان وأول شعلة تضيء الطريق ــ منذ ١٩٦٠ امام جيش التحرير ومعركة الفداء، من اجل هي ــ من اجل القدس، فقدت جنسيتي وفارقت أهلي وتعرض قلمي قبل رأسي للاغتيال...

ثم قلت وبالحرف الواحد:

".. العدو لا يريد سيناء ولا الجولان ولا جنوب لبنان. العدو يريد

القدس !. إن العدو يريد القدس !"

".. وعندما تتلاشى حدود وقف اطلاق النار ويرتفع الاحساس بأن "القدس" أغلى من كل شيء.. وعندها.. عندما تقدر ان تمشي أنت مواطنا لا زائرا في "حارة النصارى" وأمشي أنا ـ مقيما لا زائرا ـ في حي "الشيخ جراح" ـ ملعبي الأزلي.. عندها سأعود الى ما ضاع مني.. وقبل ذلك لن أعود.. لن أعود !"

ترى هل كنت اقرأ في كتاب الغيب منذ ٢٨ سنة، لكي أكتب مثل هذه الكلمات عن القدس.. وعن أطماع العدو في القدس.. وكأني أرجم بالمستقبل او اقرأ سحب السماء؟

رحمتك يا رب !

ان صورة المقال المنشور في مجلة "الحوادث" اللبنانية في يناير ١٩٧٢ منشور في احدى صفحات هذه الملاعب...

ولم يتقبل معظم القراء قرار اعتزالي الكتابة.. اذ راحوا يمطرون دار "الحوادث" بمئات الرسائل التي تطالبني بالعودة الى القلم..

بعضها تكريم.. وبعضها تقريع.

وكان لا بد من الرد

وعلى صفحات "الحوادث" في يوم الجمعة ٢٤ مارس ١٩٧٢ وفي العدد ٨٠٢ جاء هذا الرد من كاتب هذه السطور.

وكان الرد بعنوان: "ورَب اعتزال أشرف من جهاد".

قلت:

".. إن المطلوب مني بموجب الرسائل التي انهمرت فوق رأسي تمزج التقدير بالتقريع، ان اكتب.. والا كنت مستسلما، قاعدا، غائبا، هاربا !"

".. واذا استمرت "الحوادث" في نشر تلك الرسائل، واستمر معها

سكوتي، فقد أجد نفسي ذات يوم قريب مسؤولا عن سقوط القدس، واحتلال سيناء، وفشل الحل العسكري!"

" .. ولن يشفع لي احد لو قلت ان في فمي ماء، وماء.. وانني ـ الانسان قبل الصحافي ـ لكي اعود واكتب يجب ان أعثر لقلمي على "ارض" اقف معه عليها، "ونبي"، يتحسس، وأتحسس معه، المعجزة بين يديه!"

" .. ان الموقف العربي، لم يعد ـ مع الحزن والألم ـ يتسع بواقعه وظروفه وتطوراته الا لأحد اثنين: اما سمسار سياسي على المستوى الدولي، واما حامل بندقية. وانا بالنسبة للاول لست مسؤولا ولا حاكما ولا صاحب سلطة. وبالنسبة للثاني قد تجاوزت من يقدر على حمل السلاح!"

"... المطلوب مني ان اكتب والا كنت ميتا!

"... ولكنني لم أمت بعد...

... ماتت الشمس في نهاري اذ مات من أحببت: الشخص والشيء!

"... هل يعود قلمي بلا شمس...؟

" .. لقد عشت في عمان، وعيني عبر النهر على القدس. فارقتها على أمل ان تعود، فأعود. ولكنها لم تعد، فلم يعد لي أي سبب اعيش من اجله في عمان. وعشت في بيروت وعيني على القدس. وقد اعطتني بيروت كل شيء، واستردت مني كل شيء، فخرجت منها كحامل الهوى، لا علي ولا لي، وتركتها مشدودا الى نور الثورة في دنيا القاهرة! وعشت في القاهرة بعقلي دون قلب، وانغمست في دنيا قلمي دون جنان، وبحثت عن النجاح دون هدف، وحققت الانتصارات دون فرحة، وعندما ادركت ضياعي رحلت الى اوروبا...

"... ولم اجد في اوروبا ما يعوضني عن شيء ضاع مني. لم يعد معي الا الذكريات! اصبحت شبيها بتلك الكنيسة المحترفة التي يعرفها الناس في قلب برلين، كلما نظروا صوب الغرب وجدوا قطعة من ارض الله شوهتها

قنابل الحرب ولكنها بقيت تمثل عظمة بسمارك، وهزيمة هتلر، وحاضر برلين!

"... وابواب الكنيسة هذه، ما زالت مفتوحة، يؤمها الناس ويتذكرون. ومثلها ابواب قلمي، وقلبي:

بعضها محترق وبعضها حي!! بعضها زاه بفرحة الابتسامة وبعضها مبلل بلمعة الدموع! ولكنها - كلها - ما زالت قادرة على ان تتحرك، وان تتكلم، وان تروي الحاضر، وان تحكي الذكريات...

.. ما زالت أبواب قلبي وأبواب قلمي تنبض، يا اولي الالباب..!"

اعود الى الموضوع عن أقصر طريق وأقول:

الكتابة لا تحرر القدس. الطفل يعرف من، وماذا يحررها، والقدس لم تسقط بالخطب. واسرائيل لم تقم لان "هرتزل" صاح في جدران كازينو "بازل" بضرورة انشاء دولة! الكلمات لا قيمة لها ان لم تجد خلفها قوة تحولها الى واقع. انا أكره الاحلام، والشعر، والدموع كسلاح في المعركة الكبرى.. اكره المخدرات!

.. وقيمة القدس ليست بحاجة الى اعلان! هل اكتب لكي اقنع العرب والمسلمين ان التاريخ العربي - كله - منقوش ومفروش على حجارة مدينتهم الاسيرة... وان لا اسلام بلا "أقصى"، ولا أقصى بلا عروبة تحميه، واسلام يرعاه؟

"... كنت احسب ان آخر النكبات قد حطمت الأسرار والغت الاحاجي واعادت النور الى البصائر والابصار... ولكن يبدو انني كنت متفائلا...

"... وقد يكون العذر ان تفاصيل التفاصيل لما جرى في حرب يونيو (حزيران) لم يشأ لها القدر ولا الظروف ان يطلع عليها المواطن العربي حتى اليوم. والى ان نشر تلك التفاصيل، بتفاصيلها، ويعرف الناس ما جرى بالامس القريب، لن يتيسر لهم معرفة ما يجري في الحاضر، ولا ما

سيجري في المستقبل. التاريخ كالمنطق، كالحب، كالشرف، كالمعرفة، كالحياة، حلقة متصلة واحدة!

"... وبعد هذا، ففي الموقف الحالي بقع داكنة السواد غطت على كل قلم نور شمسه فلم يعد يرى سطور صفحاته. ولا يستطيع أي قلم ان يقوى على تلك البقع فينسفها ويبعدها عن نور الشمس! ومن هنا ـ من برج المراقبة ـ نراقب بحزن وأسى كل ما نراه دون الاحساس بقوتنا على معالجته. هل نقول "للحليف" ان يكف عن مناورة الحليف. هل نقول للقوي ان لا يتخلى عن الضعيف؟ هل نصيح بأننا براء.. براء من قرار نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٦٧ ما دام انه ـ هو ـ براء من أي عنصر فلسطيني بل ومن أي وجود لنا؟

"... قلت للراحل ـ رحل عن وظيفته ـ الرجل الطيب "يوثانت" في مقابلة لي معه داخل مبنى الامم المتحدة في جنيف في العام الماضي:

ـ مبعوثكم المستر يارينغ، لم يجرب الا الدول العربية واسرائيل، ترى، أليس لاصحاب القضية في المنطقة حق بأن يقابلهم...؟؟

وأجابني: "المستر يارينغ، يعمل بموجب قرار ٢٢ نوفمبر ١٩٦٧، وأنتم لستم بدولة، ولا بطرف نزاع!"

ومع هذا، يبقى القرار المذكور، غاية المراد من... رب العباد!

هل هناك أي تفسير لهذا الظلام الذي لف حاضرنا؟

أجل! انه بكلمة واحدة: الهوان! لقد هانت الدول العربية على العالم. وهانت الفدائية على الدول العربية. وهان الجميع على الفرد العربي! لقد تحولت المعركة الى نكتة. وتحول الخبر الى اشاعة! وتحول الرأي الى غرض. وتحول العزم الى عجز! ترى "أأنا العاشق الوحيد لكي احمل تبعات الهوى ـ وكشف السر ـ على كتفيا"، فاكتب، وأفضح، وأنشر واخوض المعركة بكل استعداد لان اتحمل نتائجها؟ وهل في ذلك ـ اولا واخيرا ـ ما

يقدم او يؤخر من نهاية الامر المقدّر، لا بأمر الله، بل بأمر من يملك القوة والقدرة على تحقيق الامور؟.

قال الشاعر:

"ما شئت لا ما شاءت الاقدارُ

فاحكم فأنت الواحد القهار!"

وعزلتي ـ قبل هذا ـ وفوق هذا، خير من لا شيء، او من شيء! من خلالها اصبحت ـ كما قيل ـ سلبيا. أليست السلبية اشرف بكثير مما يجري اليوم داخل الضفة المحتلة، وخارجها باسم الايجابية؟!

اقرأوا صحف اسرائيل، تفهمون بالضبط، بعض ما اعنيه. وبالاسماء والوقائع والتصريحات.

والانتخابات البلدية، ستجري هناك ـ وقد جرت ـ في موعدها، وبكل ما تنطوي عليه من مناقشات ودعاية وحرية، رغم قرار الجامعة العربية ـ قدس الله سرها ـ "بفضح العملية امام الرأي العام العالمي..."

والحفلات المختلطة تقام وتعقد. والدعوة "للدولة المستقلة" تنطلق في الصحف والاذاعة والتلفزيون جهارا نهارا. والشاطر من يفوز بمقابلة الحاكم العسكري. والزيارات متبادلة حرة طليقة لا يشوبها حرج ولا خوف ولا حياء. ومائة الف زائر عربي يدخلون ويخرجون باسم اجازات الصيف. وزعماء يعودون للاقامة الدائمة باسم "جمع الشمل". وتجارة ومحصولات تخرج من تحت عين الاحتلال وتصل الى دول الخليج وغيرها. وسياح اجانب يعبرون الجسر من الشرق الى الغرب بهدوء وسعادة. ومنتوجات من الاردن تعبر الجسور المفتوحة الى الغرب. وعمال عرب ـ بالآلاف ـ دخلوا الهستدروت وموظفون ـ ايضا عرب ـ وايضا بالآلاف يتقاضون رواتبهم من الاحتلال... وعظم الله أجركم!

هذه ظروف حرب لم تعرفها أية حرب في التاريخ منذ الاسكندر الأكبر،

حتى ادولف هتلر الذي حرق نفسه ورحل!

وتسألني: أين منظمة التحرير تجاه كل ذلك؟

أجيبك: ما دامت الاسلاك مقطوعة بين قطاع الشعب المشرد على نحو ما هو عليه، فستبقى الامور على ما هي عليه!

هامش: كانت الوكالة اليهودية طيلة ايام الحرب العالمية الثانية على اتصال مباشر وسري مع رجالات اليهود في كل مدينة اوروبية، وفي كل معتقل، وكل معسكر، تمدهم بالاوامر والتوجيهات، ويمدونها بالاخبار، وتتجمع لديها المعلومات المفصلة عن الاصدقاء، والاعداء والمتعاونين، والمعارضين، من خلال شبكات دقيقة منظمة لم يقو عليها حتى نظام هتلر!

انا لا أهاجم ولا انتقد...

انا اتساءل فقط: هل هذا هو "الصمود" الذي تحدثوا، ويتحدثون، عنه؟

أم اننا ما زلنا، حتى اليوم، في مرحلة "ما قبل الصمود"، ولم نصل بعد اليه لكي نقفز منه الى الردع، فالتحرير؟!

اسأل، ولا انتظر من أحد جوابا!

فما أحلى اللغة العربية، في مقاطعها، وموسيقاها، وأوزانها، لو انها بقيت ـ كبقية لغات العالم ـ وسيلة للتفاهم، وليست نهاية الاشياء، والامور...

الردع.؟! من ردع، يردع، ردعا! في القاموس: كفه... رده! "وترادع القوم: ردع بعضهم بعضا" "وارتدع السهم: اصاب الهدف، فانكسر". والمردع: من رجع خائبا!

قولوا على ضوء ما يجري في هذه الايام، بل وما "لا" يجري على طول الجبهات العربية: أي من هذه المعاني أقرب الى حقيقتنا من مفهوم كلمة الردع؟

وبعد هذا، نفرح ونطرب ونكتب ونعلق ان المستر "يارينغ" ـ قدس الله سرّه ـ قد استأنف مهمته، وانه قد زار المنطقة وخرج منها متفائلا، وسيعود الينا لكي يكمل المشوار!

يارينغ...؟ ما هو... من هو...؟

قال الخليفة الاموي للشاعر الاخطل محاولا اغاظته ان رجلا اسمه "حنون" قد اعتنق الاسلام. وكان "حنون" هذا تافها لا حول له ولا قيمة. فرد عليه الاخطل على الفور:

ما زاد "حنون" في الاسلام خردلة

ولا النصارى لهم شأن بحنون!..."

يارينغ أعجز من ان يحل المشكلة! يارنج شيء لاشيء!

هل ننتظر مايو (ايار) واذا اصر نيكسون على تجاهل المشكلة ورفض ان يبحثها مع الروس، وهذا بالتأكيد ما سيقع لالف سبب وسبب، عندئذ، هل ننتظر نهاية الانتخابات في نوفمبر (تشرين الثاني) وعودة نيكسون.. ثم العودة اياها الى الدوامة الخالدة؟ وهل هناك عاقل واحد يعتقد بأن البيت الابيض ـ دون أي اعتبار لمن يسكنه او سيسكنه ـ قادر على التخلي عن الصهيونية ونفوذها وأموالها لمصلحة العرب؟؟!

قالوا ان هناك بعض من يفكر في اعطاء القضية كلها الى الجامعة العربية لكي تحاول حلها، او معالجتها ـ باسم العرب ـ وعلى المستوى الدولي، فاما ان تنجح واما ان تفشل، وفي الحالتين لن نخسر كثيرا...

قلت: الجامعة العربية في اجازة دائمة، ما دام ميثاقها الابدي فيها. والجامعة التي فشلت في ان تستقطب العرب لمصلحة القدس، اعجز من ان تستخلص القدس من يد جلاديها...

قالوا: ولماذا لا نحارب... ماذا ننتظر!؟

ولم أجب. ولا ادري. وليس السؤال بموجه لي. وليس في يدي من

الحقائق والمعلومات ما استطيع ان استعين به في الرد! يكفيني ـ بل يكفيهم انني مثلهم في سؤالهم، وفي حيرتهم!

قالوا.. هل نتركها للفدائيين... نتركها للفلسطينيين... لأهلها؟

قلت: كان هذا، صحيحا، ومناسبا، ومعقولا... في الفترة الزمنية المحددة بين ٢٩ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٩٤٧ و١٥ مايو (ايار) عام ١٩٤٨... بين قرار التقسيم الدولي وقيام دولة اسرائيل. اما اليوم... وبعد ان قامت الدولة... واتسعت... وكبرت... واصبحت تضم "خمسمائة" عالم تكنولوجي ـ وهي اكبر نسبة مئوية في العالم بالنسبة لعدد سكانها ـ اما اليوم!؟. والحاضر امامنا لا يحتاج الى شرح، فلا يفل الحديد الا الحديد... ولا يواجه الجيوش الا جيوش مثلها. ليتهم... يا ليتهم تركوها لأهلها ثوار فلسطين عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨... ويا ويلهم... ويلهم لو اكتفوا اليوم من المعركة بالقاء تبعتها وأثقالها على ظهور ثوار فلسطين. ان المؤمن بالمعركة والمتبرع بدمه لها، عاجز ـ بما يملك ـ عن ان يحرر الارض. هكذا قال الخبراء. هكذا قال رجال الصحافة. هكذا قال عبد الناصر، وبومدين، وبورقيبة. هكذا يقول الواقع!

قالوا: ما العمل اذن؟

قلت بلهجة الصوفي المتوكل على الله: ندعو السماء ان تمنح العاجز... "القادر" بعض الثقة، وبعض الاقدام... وان تمنح القادر... "العاجز" بعض القدرة وبعض التفاهم وبعض السلاح المطلوب...

قالوا: أفصح...!؟

قلت وهذا الكلام يعود الى سنوات الستينات: ندعو السماء ان تحرر الفدائية من رق الانظمة العربية كي تحاول ان تحرر نفسها وبالتالي تثبت وجودها كما نشتهي لها، ثم تتجه الى تحرير ارضها وشعبها دون ما حاجة الى تأشيرة دخول واذن مرور وسمة خروج. ان تشعب الفدائية،

واختلافاتها، قد شغلها فدفع بها الى الكثير من التواضع الذي لا يليق بها، وأفقدها الكثير من الثقة بأنها أقوى من سائر الانظمة والحكام. لقد مارس الحاج امين الحسيني زعامة فلسطين طيلة ثلاثين سنة ـ وليغفر الله له اخطاءه وما أكثرها ـ فكان أقوى من اقوى زعيم عربي داخل بلده. ولم يستمد قوته من شخصيته بقدر ما استمدها من قضيته. كانت كلمته هي الاولى والاخيرة، لا في القدس فحسب، ولا في قضية فلسطين وحدها، بل في قلب بيروت وبغداد ودمشق والقاهرة والرياض، وفي كل قضية عربية يرى ان له الرأي فيها. وعندما عرض الانجليز على العرب الكتاب الابيض عام ١٩٣٩ ـ وما أشد ما نبكي اليوم على الكتاب الابيض ـ ورفضه الحاج امين، وقبل به معارضوه وعلى رأسهم يومذاك المرحوم راغب بك النشاشيبي... طلب الاخير من علي باشا ماهر وكان يومذاك رئيس وفد مصر، في مؤتمر لندن ان يقول رأيه. فأجاب علي ماهر بأنه يرى بضرورة قبول الكتاب الابيض لما يتضمنه من مقترحات جديدة تمهد لاستقلال فلسطين خلال مدة محددة. عندئذ سأله راغب النشاشيبي: ولماذا لا تعلن قبولك هذا على الناس وأنت رئيس وفد اكبر دولة عربية؟ فأجاب علي ماهر: "انت عايز الحاج امين يقتلني؟ ده لو عارضته حيكلم النحاس باشا وبعد ساعة واحدة تبص تلاقي مظاهرات الوفد ملأت شوارع القاهرة والاسكندرية ضدي. لا يا سعادة البيه... يفتح الله.."!

إن تواضع الفدائية، ومنظمة التحرير، لا يليق بالقضية العربية الاولى، ولا يليق بهم. اقول تواضع ولا ابحث عن كلمات اخرى... وما أكثرها!

قالوا: واذا لم يستجب الله لهذا الدعاء، وعجزت الفدائية عن ان تمارس دورها على مثل هذا المستوى، وبمثل هذا النفوذ، شخصيا وعامة؟. قل: ماذا ترى؟

قلت: أشرف للعمل الفدائي يومئذ ان يصارح الأمة بكل شيء، ويحمل ـ بتشديد أليم ـ المسؤولية من يشاء ويترك الحكم للتاريخ.. "ولا يكلف الله

نفسا الا وسعها" ! أشرف للعمل الفدائي ألف ألف مرة ان يفرض العرب او العالم حلا لازمة الشرق الاوسط دون مستوى الاماني والآمال، في غيابه وانعدامه، من فرض مثل هذا الحل في وجوده. بل أشرف الف مليون مرة للثورة الفلسطينية ان تقرر حل نفسها وتقول للدنيا كلمتها من ان يجمدها ثم يطويها ويدفنها اخوانها العرب... او حلفاءهم! ويبدي لا بيد عمرو! انا اعرف ان مثل هذا الرأي لن يعجب الكثيرين، ولكني اعتدت ألا اكتب الا ما يرضي الله والضمير...

وسألني، وسألت قلمي، وسألت المنطق والواقع مرة بعد مرة، بعد مرات: كان القبول بمبادرة روجرز، وما تبعها، أشبه بمفترق الطرق بالنسبة للسائرين في درب قضية فلسطين، وقد تبين لنا وللعالم، الآن، ان هذه المقترحات لن تحقق انسحابا ولن تعيد حقا. ترى، ماذا ننتظر لكي نسحب قبولنا بتلك المقترحات؟ قد أفهم ان الكلمة الاخيرة في الحرب مشتركة بيننا وبين "اصدقائنا" الروس، ولكني لا افهم ان لا نملك حق الكلمة في الرفض... رفض الخنوع والمماطلة والتسويف والكذب!

منذ ٢٨ سنة، وبالتحديد في صيف عام ١٩٤٥، خطب الاستاذ "مكرم عبيد" في جماهير مصر عن "نفسية المحارب والحرب" فقال كلاما جعلني أتمنى لو لم يكن ممثلا ناطقا بحالنا، قال مكرم عبيد:

"... وكما ان للحرب حرابها، فان للحرب آدابها. ومن آداب الحرب، بل ومن حرابها المعنوية الفتاكة ان تكون لك نفسية المحارب اذا ما دخلت في حرب. فلا تجامل حيث يجب عليك ان تقاتل، ولا تخاتل حيث يجدر بك ان تناضل، بل حارب وتوقع الحرب، واضرب او فادفع الضرب! واعلم ان الحرب حرب، معنوية كانت او دموية، وان التهرب في أي نوع من انواع الحروب انما هو أدهى وأنكى من الهروب! لانك اذا ما هربت فقد يشاء لك القدر ان تسلم. اما اذا تهربت او هادنت في غير هدنة ـ فانك انما تسلم بالهزيمة قبل ان تهزم، وتجعل من نفسك امام خصمك رجلا، لا هو

بالقوي فيخشى، ولا هو بالضعيف، فيرحم!".

ترى هل أنا بحاجة الى تفسير؟

خبرني - يا أخي في لبنان - عن أخبار الدم الزكي المسفوح على ارض الجنوب؟! هل جاءكم خبر مرشح واحد جعل من احداث العدوان والازمة والتهديدات عنوانا لبرنامجه الانتخابي في المعركة؟

خبرني عن الولائم التي تشكل اللوائح. والدفع ثمن الدخول وثمن الخروج "وفيليب" دخل الارض ودخل الأبواب...!

خبرني عن أخبار الاغتيالات في المنطقة. هل كان بين المقصود اغتيالهم - عفوا - زعيم الهاجانا؟ او رئيس شتيرن، او قائد "الارجون"؟

إن باب الجنة بجوار اولى القبلتين، قد مات! أمواتنا، شهداؤنا، آباؤنا لن يمروا من تحت باب الجنة بجوار القبة والمسجد. إن تلال حطين لوثت! "عين كارم" وملعب المجدلية هناك، كلها ضاعت! مسجد عكا اصبح مزارا لمن يدفع أجرة الدخول..! جبل اريحا، عنوان ثورة "ابن مريم" في وجه اغراء الشيطان تحول الى قلعة حربية وملتقى السياح! المسجد محروق... ومع ذلك يزهو اللهو والطرب، وتغني أم كلثوم، ويتنافس فريد وعبد الحليم والدنيا بألف خير...!

في صيف ١٩٦٤، روى لي الرئيس السابق، اللواء فؤاد شهاب، عند مقابلتي له في مصيفه في عجلتون، القصة التالية وهو خير شاهد على صحتها:

بعد يومين من موافقة حكومة لبنان على القرارات العربية حول تحويل مجرى نهر الاردن والمشروع العربي بتحويل الروافد، جاء لزيارتي السفير الامريكي في بيروت الذي بادرني قائلا: لقد علمت ان لبنان قد وافق على المشروع العربي بتحويل الروافد الامر الذي سيغضب اسرائيل ويدفعها للتحرش بكم ثم الاشتباك مع جيشكم - وهو جيش صغير - وقد ينتهي

الامر باحتلال اجزاء من اراضيكم، انني أنصح بمراجعة الامر والعدول عنه حفاظا على سلامة لبنان...

فأجاب اللواء شهاب:

ـ" أنا افضل ألف مرة ان يشتبك جيشي مع اليهود على الحدود من ان يشتبك شعب لبنان مع بعضه بعضا في ساحة البرج! أما عن الاحتلال فانني لا اعتقد بقدرة أحد على ان يعتدي ويحتل ان لم تسنده دولة كبرى كدولتكم. فهل أنتم ـ يا سعادة السفير ـ تؤيدون نوايا غيركم في احتلال اجزاء من بلدي...؟"

وانتفض السفير الامريكي مؤكدا:

ـ طبعا لا... لا!

وأجاب اللواء بهدوء:

ـ اذن نبقى على موقفنا ولا نشذ عن الصف العربي!

وانتهت المقابلة...

هذه واحدة...

وفي يونيو (حزيران) ١٩٦٥ ذهبت أودع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر في منزله بمنشية البكري، بمناسبة مغادرتي مصر بعد تعييني سفيراً متجولاً في الجامعة العربية... وكان معي الصديق الزميل محمد حسنين هيكل يستمع ويسأل.

ودار الحديث عن الموقف العسكري، وموقف سوريا، في عهد رئيسها السابق أمين الحافظ...

وقال لي عبد الناصر بالحرف، وشاهدي هو هيكل نفسه:

ـ "أمين الحافظ يريد ان يحرر فلسطين في اسبوع أو في شهر، وهذا كلام حلو. وهو يطلب مني ان اشترك معه في الخطة. انا أقول له ان ضربة

اسرائيل لن تنجح من سيناء بقدر ما تنجح من الجبهة السورية. قلت له أنا مستعد ان أبعث اليكم بخبراء طيران وأسلحة ومدافع مضادة للطائرات وصواريخ بشرط أن احصل منكم على قواعد أضع فيها كل ذلك. اذا وافقتم، انا مستعد ان ابدأ بالتنفيذ فورا ومستعد ان أبقى معكم الى المدى الذي تطلبونه، وما زلت انتظر رده... ولا اظن بأنه سيرد...".

قلت له: ليتنا يا سيدي الرئيس فكرنا بمثل هذا الامر عندما كانت الوحدة قائمة بين القاهرة ودمشق...

قال: "ومن قال لك انني لم افكر بذلك؟ وما قيمة الوحدة بين أي بلدين ان لم تمدهما بالقوة والمناعة وحرية الحركة والفوائد الاستراتيجية وتبادل القوات... ولكن...".

وزفر عبد الناصر زفرة طويلة تحمل ألف معنى... ومعنى!

بس...

هل استمر في سرد مثل هذه القصص والذكريات؟. ولماذا؟

وهل أنوي ان أنقل احاسيس نفسي الى غيري، دون أن ادري؟

وما الفائدة؟

أم هل أطمع في قدرة القارئ على ان يستخلص من هذه الوقائع المعنى الذي يريده؟

وماذا لو لم يفعل؟

يبقى غيري عندئذ ـ مثلي، متهما باليأس، بالسلبية، بالاستسلام!

اما الخلافات والانشقاقات بين دولنا، وبين منظماتنا، وبين قطاع شعبنا، وبين اعضاء وفودنا ـ واسألوا عن التفاصيل الوزير محمود رياض ـ فهذه هي "الايجابية"، بأبيها وأمها وأخواتها!

اما تجنب البحث في الواقع المر... المرير، عن طريق تجيير المقالات

للبحث في فلسفة العمق الثوري... ومناهج العمل التحرري... وعلاقة الثورة الثقافية في الصين بعملية خطف الطائرات، وأثر زيارة نيكسون للصين على مصير الجسور المفتوحة بين الاردن واسرائيل، فهذه هي الايجابية!

اما الاكتفاء من المقاومة ومعنى المقاومة بشعر المقاومة... وشعراء المقاومة فهذه هي الايجابية!

واما التخلف الفكري، وجهل أبسط ما يدور حولنا، ومعنا، وأمامنا، على جبهات الاعداء والاصدقاء، فتبقى الحكومات على حالها، ويبقى السفراء هم السفراء، والجامعة المنكوبة هي الجامعة، والاذاعات هي الاذاعات، والدبلوماسية هي الدبلوماسية... فهذه هي الايجابية... ويا أيتها الايجابية كم من الترهات ترتكب باسمك!.

وبعد...

لم أدع الله يوما، كما دعوته بالامس، كما أدعوه اليوم أن يهب العرب سفيرا واحدا... واحدا فقط... يكون مركزه موسكو... ويكون قادرا على ان يلعب مع الروس بعض الدور الذي سبق ولعبه السفير السوفييتي ـ ايفان مايسكي ـ في لندن طيلة سنوات الحرب العالمية الثانية...

هذا السفير السوفييتي لدى الانجليز... في أخطر مراحل التاريخ الروسي... الذي استطاع ان يجمع تشرشل الى ستالين... ويغرق ارض روسيا بالعتاد الحربي الامريكي... ويبعث "بهاري هوبكنز" الى قادة السوفييت عبر الاطلنطي... ويرافق ايدن الى موسكو... ويجمع الاقطاب في مؤتمرات الدار البيضاء... وطهران... والقاهرة... حتى ضمن النصر لبلاده بعد ان كان هتلر يدق ابواب موسكو... بيديه!

أدعو الله ان يقبض أرواح جميع سفراء العرب في كل انحاء العالم ويعطيهم ـ يعطي العرب ـ عوضا عنهم جميعا، سفيرا واحدا... وفي

موسكو... بايمان وقدرة وجلد وعظمة هذا السفير الروسي...

صلوا... معي!

ثم وبعد...

قلت ان البعيد عن المأتم أشد شعورا وأكثر ألما من القريب منه، بل ومن أهل المأتم! ومنذ مايو (ايار) عام ١٩٦٧ ونحن نرى العجب العجاب في مأتم حياتنا... وقضيتنا! لم نكتف بأن خسرنا الحرب، بل صرنا نخشى ان نخسر بقية ما في ايدينا لو اننا حاولنا ان نستعيد ما خسرناه! اصبحنا من خوف الموت... في موت. ومن خوف الذل، في ذل، ومن خوف الهزيمة... في هزيمة، وكل من يدعو الى ذلك، عاقل معقول. وكل من يدعو الى عكس ذلك متهور مجنون. وكل من يدعو الى القبول بقرار نوفمبر، وطني واقعي، رجل دولة! وكل من يرفضه وينادي بكرامة الثأر ـ على كل حساب ـ ومهما كان الثمن، خيالي، مزايد، أناني، شرير!

واختلفنا على من هو الصديق لنا، ومن هو العدو؟ هل الصديق الحليف من يعيد لنا ما خسرناه في الضفة الغربية وسيناء والجولان، بالضغط والمفاوضات والمشاريع، أم من يعطينا السلاح لكي نحارب؟ هل هي موسكو، أم واشنطن... أم باريس؟ هل الصديق من يحمينا من عدوان جديد، أم الحليف من يساعدنا على الدخول في حرب جديدة؟ وكانت النتيجة أننا لم نعثر بعد على الصديق الحليف بكل ما نرجوه من معاني الصداقة والتحالف. بقينا نشك في الجميع، وننتقد الجميع، ونهاجم الجميع... وكانت ثمرات ذلك أننا نوشك ان نفقد الجميع!

هل المطلوب مني ان اشترك في مثل هذا الهوان؟...

سأبقى حيث أنا! وسيبقى قلمي بعيدا، ضائعا. لا عن جبن وانهزام. لا خوفا ولا استسلاما. الذين صمدوا وأعلنوا العصيان وثاروا على أنفسهم، على صميم وجودهم، لم يكونوا جبناء. الذين حرقوا أنفسهم في ساحات

فيتنام لم يكونوا مستسلمين. الفدائي العربي الذي انتحر منذ شهور في منزل رئيس بلدية غزة، لم يعرف الخور ولا الضعف!

مأساة؟ أجل مأساة!

ولكنها نصيبي الصامت من مأساة أهلي ووطني وكل من يشاركني الحس والمرارة والرأي...

واذا أصر القراء والاصدقاء على الملاحقة والالحاح، مسلحين بالتقدير تارة، وبالتقريع تارة، فعزائي أنهم ما زالوا ـ رغم البعد، رغم الضربات، رغم كل شيء ـ أوفياء! انهم يسألون! يسألون! وخير ألف مرة ان يسأل القارىء "لماذا لا أكتب"... من ان يسأل القارئ ـ لا قدر الله ـ لماذا أكتب!؟

وسلام على الوفاء، والاصدقاء، والقراء.

* * *

على هامش المذكرات... مكرر!

لعل معاركي الصحفية ضد بعض زملائي من الصحفيين ـ في مصر وفي لبنان وفي الاردن على السواء ـ كانت أشبه بالواحات الندية في حياتي الصحفية المتعبة!

ولعل أحلى تلك المعارك التي ما زلت أذكرها بالخير والحنين، معركة معينة خضتها مرغما ضد احدى قريباتي لحساب "الشيطان" حيث كنت في طريقي لزيارة الصين الشعبية، وكانت المعركة الانتخابية البرلمانية قد بدأت في لبنان..

هذا الزميل اللبناني انتحل اسمي وقلمي زورا وبهتانا في حملة صحفية تعرض خلالها لاسم سيدة لبنانية كريمة كان لها ولوالدها الزعيم الراحل

على ذلك الصحفي ـ بالذات ـ كل فضل وكل خير.. وكل رعاية!

وكان لا بد لي ـ بعد عودتي من زيارة الصين ـ ان أرد وأن أسدد الحساب خلال المعركة الانتخابية التي كان ذلك الصحفي قد رشح نفسه في احدى دوائرها، وحاول ان يستغل اسم مصر، واسم جمال عبد الناصر، لحسابه في المعركة..

وحقيقة الامر انني قد وجدت فيها فرصة مواتية لكي يتعرف جمال عبد الناصر وثورة ٢٣ يوليو على مدى الاستغلال الذي يتعرضون له من بعض رجال السياسة ورجال الصحافة في لبنان، ماديا ومعنويا!

لقد جاء وقت على المنطقة أصبحت فيه القاهرة هي التي تصنع القرار اللبناني.. كما أصبح اللواء "عبد الحميد غالب" سفير مصر في بيروت هو المندوب السامي المصري على لبنان!

واستطيع ان أقول جازما ـ وقد حضرت الكثير وعرفت الكثير ـ ان التدخل المصري في سياسة لبنان، مع الاعتماد اللبناني السياسي والاعلامي على القاهرة، كانا من الاسباب الرئيسية التي أشعلت عصيان عام ١٩٥٨، وزرعت بذور حرب عام ١٩٧٤ وألحقت أضرارا كثيرة في كيان الجسم اللبناني...

وسيقول التاريخ ان الاصابع الاسرائيلية التي تسللت الى الجسم اللبناني في الكثير من المناسبات والظروف قد وجدت الكثير من شرائح المجتمع اللبناني بانتظارها للتعاون والمساعدة والتحالف، نكاية بالقاهرة!

وفي يوم الجمعة الموافق في "٣" ابريل عام ١٩٦٤ صدر لي المقال الثاني في صحيفة "الجمهورية" القاهرية، التي هي ايضا جريدة "الثورة المصرية"، وجريدة جمال عبد الناصر!

ويرى القارئ صورة المقال المذكور منشورا في احدى صفحات هذا الكتاب! بعنوان: "**نحن وانتخابات لبنان**"!

"... اذا كان حيادنا في معركة لبنان لم يمنع زميلنا مصطفى أمين ان يؤيد مرشحا معينا في احدى دوائر بيروت، ويغني له أناشيد الغرام، فان من حق هذا الحياد علينا ان نقول كلمة حق فيمن نعتقد انهم أحق بالتأييد والاحترام.. والفوز!

ولكننا لا نريد ان نتدخل في معركة لبنان.. والا لما ترددت في ان اعلن حبي وتقديري للرجل الذي أحب القاهرة، وقدر أحرارها، وبايع زعامتها، وأعني به الزعيم اللبناني العربي الكبير صائب سلام!..

ولكننا لا نريد ان نتدخل في معركة لبنان..

ولو كان لي صوت في لبنان لما ترددت في ان أمنحه للشاب العربي الثائر "نسيم المجدلاني"، الذي يخوض المعركة على لائحة واحدة مع الزعيم صائب سلام، والذي امتحنته احداث عام ١٩٥٨، فاذ به أشد الاحرار عودا، وأصلبهم ايمانا، وأقواهم مبدأ، وأخلصهم روحا!.. ذلك ان "المجدلاني" أعطى ولم يأخذ، وخسر ولم يربح، وعانق الموت اكثر من مرة، فكسب المجد مرات ومرات!..

ولكننا لا نريد ان نتدخل في معركة لبنان!..

ومن أجل هذا نترك الاشخاص جانبا ونتحدث عن المبادئ..

نحن لا نريد للبنان الا ما يريده شعب لبنان، لبلده! نريد له نوابا أحرارا.. ومجتمعا كريما.. وحياة معززة.. وقادة شرفاء! نحن نريد للبنان قلوبا تعطي للتربة نبضات حبها، وتمنح البحر نغمات اخلاصها، فيعيش لبنان ارضه وبحره، سعيدا بحب أبنائه كريما بعطفهم ومحبتهم!..

نحن لا نريد للبنان الا ان يزداد رفعة واعزازا، باعزاز ابنائه لبعضهم بعضا! فلا اقلام تنهش الاعراض! ولا صحافة تتطاول على اكرم البيوت! ولا مطامع تعصف بالاجواء! ولا عداوات تحطم المجتمع! ولا أغراض تفترس الضمائر! بل حياة سياسية كريمة، وحياة صحفية نزيهة، وحياة اجتماعية

عادلة، وحياة اقتصادية ثابتة، وحياة لبنانية مستقرة!..

ونحن على الحياد في لبنان..

اننا لا نؤيد الا الاخلاق.. ولا نحالف الا الشرف.. ولا نعادي الا الرشوة والمرتشين.. ولا نهنئ بالفوز الا الذين يستحقون الفوز لانهم شرفاء.. ولانهم ثوار!..

ونحن على الحياد في لبنان...

ومن أجل ذلك نكره ان يستغل اسم "القاهرة"، او اسم أي بلد عربي في معركة لبنانية! لا نريد ان يكون اسم أي بلد عربي هو القنطرة التي يعبر منها أي فرد لبناني الى مقعد النيابة! ان القاهرة لا تستطيع ان تقلب التاريخ! لا تقدر القاهرة ان تجعل من الاسود ابيض، ومن العاجز جبارا، ومن الفاشل منتصرا!. ان القاهرة على قوتها أضعف من قوة الحقيقة!. ان الحقيقة كالشمس لا تقاوم، والذين عفروا وجوههم بتراب الاهواء، ليسوا منا!.. وليسوا لنا.. ان الحكم عليهم اولهم، من حق شعوبهم.. وحدها!.

ونحن على الحياد في لبنان...

ولكن الزعامة في أي بلد عربي، لها حقوقها ولها واجباتها!

يقول المثل اللاتيني: "ان جيشا من الوعول يقوده أسد، خير من جيش من الاسود يقوده.. وعل!". ونحن نريد للشعب اللبناني قادة من الاسود.. فيهم جرأة الاسد، وفيهم هيبته، وفيهم سلطانه، وفيهم بأسه وعظمته!. ان الشعب اللبناني شعب من الاسود يستحق ألا يقبل من صنف الزعامات الا الاسود!. اما الوعول فمكانهم في المؤخرة.. يجرون العربات او يحرثون الارض.. ولكن، لا يقودون أمة!.

ونحن على الحياد في لبنان...

ولكننا بقدر ما نرفض للشعب الشقيق نوابا من المنحرفين والخونة، كذلك نرفض له نوابا من المتاجرين بالوطنية على حساب الوطن! ان

الوطنية لا ثمن لها الا الاستشهاد، ولا سوق لها الا الجهاد! ان الوطنية لا تقبل الجرأة على الحق والجرأة في التستر على ما هو حق!. ان الوطنية اخلاص في السر وفي العلانية، لا تساوم من أجل السكوت، ولا تقبض من أجل الكلام! ان الوطنية تضحية.. فيها واجب المواطن من أجل الوطن كل الارباح، وفيها حق الوطن عند المواطن، كل الخسائر!.

ونحن على الحياد في لبنان!..

وقد أحببنا لبنان أدبا، وأحببنا لبنان شعرا، وأحببنا لبنان جبلا ومصيفا، وأحببنا لبنان ثورة، ونحب اليوم لبنان جنديا على ابواب معركة مصيرية، يشاركنا فيها وحدة "العدو"، ونشاركه فيها وحدة النصر!..

ومن اجل المعرفة في لبنان، نريد للبنان أهل المعرفة من أبنائه!.

ومن أجل العلم والاخلاق، نريد للبنان علماء عندهم من الاخلاق اكثر مما عندهم من.. الوعود الانتخابية!

ومن أجل النور في لبنان، نريد مشاعل قادرة على ان تضيء رؤوس الجبال بأنوارها، لا ان تطفىء أنوار الحقيقة بجهلها!

ومن أجل وجود لبنان، نريد ان تتحقق ارادة شعب لبنان في معركته الحاضرة بما يسعد شعب لبنان..

.. عاش لبنان!..

* * *

أيضاً: على هامش المذكرات:

في ١٠ يناير ١٩٥٩، نشرت "الاهرام" خبرا عن وجود مؤامرة ضد السيد صائب سلام، الزعيم اللبناني المعروف!

وفي مجلس الوزراء اللبناني المنعقد يومذاك برئاسة الجنرال فؤاد شهاب، ضرب فؤاد شهاب بيده على الطاولة اكثر من مرة وهو يقول: كذابين.. أنا ما بلغت حدن.. أنا ما قلت شيء لهيدا مصباح سلام.. ما بعرفه أنا لهيدا.. وما بلغته شيء.. انا موش تحري ولا بوليس عندهم حتى خبرهم.. واذا كانوا بيت "سلام" بدهم يسبوا بيت "الصلح" يلاقوا طريقة غير هيدي.. أما زعرنة صحيح.!"

ولم تهدأ أعصاب الرئيس شهاب الا بعد ان أصدر وزير الداخلية تكذيبا، والناطق بلسان الجيش اللبناني تكذيبا آخر وبعد ان أخذ كل واحد من الوزراء يشارك الجنرال في غضبه ثم يحاول تهدئته!

لقد سمعت هذه التفاصيل من فؤاد شهاب شخصيا عند لقائنا في قرية ـ أو مصيف ـ عجلتون!

وأنا اقول: لن يعرف لبنان رئيسا مثل فؤاد شهاب شخصا في استقامته، وأمانته، ونزاهته.. وشجاعته!

في ذلك اليوم بالذات، أي في اول يناير من عام ١٩٥٩، أراد لبنان الرسمي ان يعترف رسميا بحكومة الجزائر، لولا ان الشيخ بيار الجميل ـ زعيم الكتائب اللبنانية ـ اعترض على ذلك بحجة ان الاعتراف يهدد مصالح اللبنانيين المغتربين في المستعمرات الفرنسية. وظهر من النواب السادة البير مخيبر، وجورج عقل يعارضان الاعتراف بالجزائر. وأيد الاعتراف اميل البستاني وجميل مكاوي وتقي الدين الصلح. أنا شخصيا كنت في

بيروت... وكان قلبي في الجزائر!

* * *

عندما حقق جمال عبد الناصر الوحدة بين مصر والشام، وجدنا أنفسنا في خندق المسؤولية لكي نقول للشعب المصري شيئا عن القومية العربية، والوحدة العربية، والعرب!

كان سعد زغلول باشا، زعيم مصر، يسمي الدول العربية بالدول الشرقية! وكان رحمه الله لا يؤيد قيام أية وحدة عربية بين مصر والعرب. وكان يردد عبارته المشهورة:

صفر زائد صفر يساوي صفر!

كما كان خليفته مصطفى النحاس باشا يسأل زعماء العرب عندما يلتقي بهم: لماذا لا تتفاهمون مع اليهود في فلسطين، كما تفاهمنا نحن مع الأقباط.. في مصر؟!! "كذا"!!

يعني: كان النحاس باشا، رحمه الله، يساوي بين يهود فلسطين وأقباط مصر في المعاملة!

من هنا، قررت أن اؤجل الكثير من عملي الصحفي اليومي بدار "الجمهورية" وانصرف الى القاء المحاضرات في الجامعات والأندية العامة عن الظاهرة الجديدة في حياة مصر السياسية، أي، عن العرب.. والعروبة!

وطفت بالجامعات.. والأندية..

وبالسجون.. أيضاً!

وطرت الى موقع السد العالي في أسوان وألقيت الخطب امام "٥٠" ألف عامل!

واشتركت في العشرات من الندوات الاذاعية منذ عام ١٩٥٩ وما بعدها!

وكان عبد الناصر يسمع عن كل ذلك، ويباركه، كما كان كمال رفعت ـ الوزير المختص يومذاك ـ عن المخابرات العربية في مصر، يشجع موقفي ويثني عليه.

وهذه رسالة شكر من جامعة القاهرة، تروي بعض هذه الأخبار، وتسندها!

الاستاذ الكبير ناصر الدين النشاشيبي..

تحية طيبة وبعد،

لقد كان لتشريفكم ندوة "القومية العربية" اثر كبير في نفوسنا مما يدعونا ونحن فخورون الى أن نقدم لكم عاطر الشكر وجميل الثناء.

سكرتير اللجنة الثقافية	مقرر اللجنة الثقافية	رئيس اللجنة الثقافية
إمضاء	إمضاء	إمضاء

وأحمد ربي انني قد أديت من خلال هذه المحاضرات ما عجزت أن اؤديه في عملي الصحفي "بالجمهورية".

وقال لي فيلسوف الفكر العربي "ابو خلدون ساطع الحصري" وأنا أزوره في مقره المتواضع في شارع "الانتخانة" بالقاهرة:

ـ أنا سعيد جدا بما اقرأ لك عن العرب والعروبة! أرجوك ان تستمر فان البلد ـ هذا البلد مصر ـ بحاجة الى عشرات بل مئات من أمثالك.."

ورحم الله أبو خلدون ساطع الحصري!

* * *

برلين أخت.. القدس!

كنت كلما زرت مدينة برلين او كتبت عنها، تذكرت القدس. !

وقد زرت برلين في عام ١٩٦٣ و١٩٦٤ و١٩٦٥ وهي محطمة ومحاصرة ومنعزلة عن الوطن الأم، فوجدتها أجمل ما تكون حزنا، وأشد ما تكون صبرا، وأقوى ما تكون ايمانا وثقة وتطلعا الى يوم الخلاص.

ولم تستطع العاصمة المؤقتة ـ بون ـ ان تنافس برلين او تأخذ مكانها في قلوب الألمان. وقد أدرك حكام المانيا عظمة برلين، ومحبة الشعب لها، فعمدوا الى سن القوانين وتنفيذ الاجراءات التي تخفف من ثقل الضرائب على اهل برلين، وتشجع السواح من كافة انحاء العالم على زيارتها، ومضاعفة عدد رحلات الطائرات اليها، واستعداد المصارف المالية لفتح حسابات القروض لتجارها، وهكذا انخفضت اسعار السلع في برلين قياسا ببقية مدن المانيا واصبح سعر جهاز التلفزيون او آلة التصوير او ماكنة الخياطة في برلين لا يزيد عن نصف سعر الجهاز او الآلة او الماكينة في همبورغ او ميونيخ او بريمن !

وقد تضاعف عدد الجامعات والمدارس في برلين بغية جذب الشباب اليها. كما تضاعف عدد دور السينماء وأماكن اللهو فيها حتى أصبح رواد الليل يسمونها مدينة "الذنب الجنسي" او مدينة الخطيئة! ولم يعد أحد

يتحدث عن قصة سقوط برلين او تحطيمها على يد الدبابات الروسية والطائرات الامريكية!

وكذلك لم يعد احد يزور المكان الذي انتحر فيه ادولف هتلر قبل ان يدخلها الجيش الروسي. لقد اتجهت الافكار كلها الى المستقبل. ولم تستطع أهوال الماضي ان تطغى الى أحلام الغد. وهذه هي عظمة الشعب الالماني. انه لا يرضى ان يبقى أسير الحروب والهزائم في تاريخه الطويل، بل يصمم على ان يتطلع الى الانتصارات في غده القادم.. القريب.!

وقد زرت برلين اكثر من عشر مرات، وأحببتها كثيرا.

وعندما زرتها للمرة الاولى، كان رئيس بلديتها الرجل التاريخي "الهر ويلي برانت" الذي اصبح فيما بعد الرجل الاول في كل المانيا، ولم يسقط وينتهي الا بسبب ادمانه على الخمر متواصلا، واكتشاف جاسوسة للسوفييت في حاشيته، كانت هي سكرتيرته الخاصة!

وكان "ويلي برانت" يمثل الصلابة والتحدي في وجه السوفييت!

وكانت خطبه توحي لشعب برلين بمعاني الثقة والقوة!

وكان ـ مع مرور الزمن وتعدد الزيارات والمقابلات ـ صديقا لي!

واستطعت ان أقنع الصديق القديم "صلاح دسوقي" ـ محافظ القاهرة، ان يوجه لهذا الرجل دعوة رسمية لزيارة مصر.

وجاء برانت الى مصر! وقابل عبد الناصر. وألهب مشاعر المصريين بشخصيته وكلامه.

وعندما ذهب الرئيس الامريكي الراحل "جون فيتز جيرالد كنيدي" يزور برلين، كانت ذروة الزيارة وقمة خطواتها، عندما وقف كنيدي على الشرفة التي كان يخطب منها ويلي برانت، وخاطب أهل برلين بأعلى صوته وقال باللغة الالمانية:

ـ أنا برليني! أنا من برلين! أنا منكم! أنا مثلكم!

وتعالى الهتاف ! وتصاعد التصفيق الى أعالي السماء ! واصبحت عبارة الرئيس كنيدي جزءا من التاريخ الالماني !

ومع الزمن والاصرار والعزيمة، تحولت برلين من خراب ودمار الى جنة وعمران.. واستقرار !

وعادت برلين عاصمة لالمانيا الاتحادية كلها، بعد ان توحدت الالمانيتان ـ في الشرق والغرب ـ وتحملت المانيا "الغربية" كل هموم المشاكل المالية والاقتصادية في المانيا الشرقية، وفتحت ابواب جميع مدن "الغربية" لعمال "الشرقية"، واستوعبت مدن بريمن، وميونيخ كل العاطلين القادمين اليها من مدينة ليبزغ وغيرها، وفي مدة تقل عن ٥٥ سنة، انتصرت برلين على ضربات الماضي، وفتحت ذراعيها لأحلام المستقبل. !

ترى، هل كان بوسع العرب معالجة "القدس" كما عالج الالمان، مدينة برلين ؟

قد يكون صحيحا ان نوع الاستعمار يختلف بين ما جرى للقدس على مدى الخمسين سنة الماضية، وما جرى لبرلين !؟ في الاولى احتلال صهيوني لا يرحم، وفي الثانية محاصرة سوفييتية وشيوعية فقط لا غير !

ولكن : هل حاول أي عربي مسؤول ان ينظر الى القدس كنظرته الى عاصمة بلاده.. مثلا ؟

وهل سمعتم او سمعنا عن مسؤول عربي واحد، زار القدس وقال لأهلها انه منا، وانه يبقى "مقدسي" الهوى والشعور والانتماء الى ان تعود القدس حرة عربية ؟ !

وعندما جاء انور السادات ـ غفر الله له ـ في زيارة الاستسلام الى القدس، لم يخطب في الاقصى المبارك، ولم يزر "الشيخ جراح" او جبل "الطور"، او شعفاط، او "سعد وسعيد" لكي يرفع المعنويات ويعالج

الجراح، وانما اكتفى بزيارة "الكنيست" لكي يملأ القاعة بالسعال، والتأتأة، والكلام الفارغ عن الصلح والسلام والتعايش بين العرب واليهود!

والمعروف دوما ان قيمة المدن تعتمد كثيرا على جامعاتها العلمية ومؤسساتها الثقافية. وقد انهمر المال الالماني بمليارات الماركات على جامعات برلين ومنحها الحياة والقوة والازدهار، ولكن المال العربي ـ حتى كتابة هذه السطور ـ لم يصل بعد، وقد لا يصل مطلقا الى خزائن الجامعات "العربية" في القدس، وبقيت "جامعة القدس" تشكو الفقر والافلاس، وبقي المشرفون عليها يلجأون للاضراب، ويعالجون الموقف بتبادل الاتهامات والكلمات والتهديدات، وبقيت سمعة العرب معفرة بتراب الذل والسخرية.. والجهل!

ترى لماذا أكتب عن برلين؟

والجواب: لأني اكتب عن القدس.!

والمدن المحطمة او المحتلة لا تعود بالأماني ولا بالشعارات ولا بالمقابلات التلفزيونية ولا باستجداء الاموال من الحفلات الغنائية او البرامج الراقصة، وانما تعود بالتخطيط، والعمل المستمر، وضخ دم الحياة الى كل عضو من اعضاء المجتمع، والابقاء على مظهر المدينة نظيفا يؤمه الناس من كافة انحاء العالم، وربط المدينة الواحدة بمثيلاتها في انحاء الكرة، وتحويل كل شعب من شعوب بغداد او بيروت او القاهرة الى جزء من شعب القدس، وتشجيع الطالب العربي الجامعي على الانخراط في مدارس القدس وجامعاتها، واقامة الندوات العلمية والأدبية امام المفكرين والأدباء العرب لزيارة القدس والاشتراك في هذه الندوات مع الحرص على استتباب الأمن والنظام.

ويبقى المال، ضرورة للقدس، ولكن المال وحده لا يكفي ولن يكفي.

وبعد.. فان الشيء بالشيء يذكر.

ترى ماذا جرى للهيئة الاسلامية التي ولدت في القدس بعد نكسة عام ١٩٦٧.. ولماذا اختفت واندثرت؟

وماذا جرى لعشرات من المكاتب والاندية العامة والخاصة، ودور الاعتناء "بالاولاد" و"الاطفال"، التي عرفتها شخصيا وساهمت شخصيا في مجهوداتها على ايام السيدة الراحلة كيتي انطونيوس زوجة المؤرخ الكبير جورج انطونيوس وكريمة ملك الصحافة المصرية المرحوم فارس نمر باشا.!

بل ماذا جرى للمكتبة الضخمة التي كانت محفوظة في منزل المرحوم الاستاذ جورج انطونيوس، والتي احتوت على أندر الكتب التاريخية وأغلاها عن تاريخ القدس.. وصورها.. وخرائطها؟ وماذا جرى لمكتبة الزعيم موسى العلمي ومكتبة حسام الدين جار الله وكلها تزهو بالكتب التاريخية عن القدس؟ وأين عشرات الآلاف من كتب الأديب الراحل محمد إسعاف النشاشيبي والتي سرقها "الثوار" ـ من يهود وعرب ـ وباعوها.. بالرطل والكيلوغرام!؟

ان الحفاظ على القدس يعني الحفاظ على كل شيء يتعلق بها. وعلى كل من يحب القدس ان يحب كل حرف يروي قصص حياتها، والمفاوضات وحدها حول مصير القدس قد لا تعيد لنا القدس.

وما دام هناك الخلل واضحا في ميزان القوى بيننا وبين أعدائنا فان "القوي" وحده، هو الذي سيفوز في النهاية بما يريد..

أنا أكتب هذا قبل نهاية هذا القرن.. وأنا أخشى ـ وأقولها بكل أسى ـ ان الابقاء على المفاوضات حول القدس كجزء من المفاوضات العامة حول بقية مواد الصراع العربي الاسرائيلي مع الابقاء على سياسة التأجيل قد يدفع المعتدي على وضع الاغراءات لنا لكي نتخلى له عن القدس، مقابل ان نفوز بقطعة ارض في منطقة البحر الميت، او بئر ماء ارتوازي في منطقة

طولكرم او اقامة "دويلة" فوق بقعة من ارض الوطن!

وبعد هذا فقد زرت القدس في عام ١٩٦٨ وقابلت سماحة المفتي ــ يومذاك ــ الشيخ سعد الدين العلمي، وسألته عن الحل الذي يراه لقضية القدس، فأجابني:

ــ لا ارى للقدس أي حل. ان المسؤول العربي الذي يرضى بالتخلي لليهود عن القدس، يعني انه قد حكم على نفسه بالاعدام.

والمسؤول الاسرائيلي الذي يتخلى للعرب عن القدس، سيسقط من كرسيه ان كان حاكما، وينتقل الى العالم الآخر لكي يلحق باسحق رابين ان كان زعيما سياسيا. !

واللهم اجعل كلامي خفيفا على آذان المسؤولين!

نعم!

لقد اخطأنا في تأجيل موضوع قضية القدس، مع تأجيل موضوع قضية المستوطنات يوم بدأنا المفاوضات مع اسرائيل بعد مدريد. ! لقد أوغلنا في التمسك بحسن النية أو السذاجة مع اطراف لا تعترف بحسن النية ولا السذاجة ولا العباطة!

وأخشى، والله، ان ثمن هذا الخطأ الفادح، قد حان وقته، مع تسديد الحساب. !

اللهم أشهد، لقد بلغت!

ان اسرائيل لم تنضم الى عضوية الامم المتحدة الا تحت شروط واضحة ومعروفة أهمها موافقة اسرائيل على تدويل القدس. !

وقد صدر القرار الدولي بتدويل القدس.

وبدلا من التمسك بهذا القرار الدولي، والتاريخي، رحنا نعيد الكرة الى (المربع رقم واحد) ــ كما يقولون ــ ونبدأ في مفاوضات جديدة حول القدس..

وفي هذا منتهى الهوان، ومنتهى الذل، ومنتهى الاستسلام! ومنتهى الخيانة!

وأخيرا..

لماذا لا يعلن زعماء العرب موقفهم الواضح والصريح تجاه القدس على العالم؟. ولماذا يلجأون الى العبارات الدبلوماسية المبهمة في حديثهم عن القدس؟ لقد سمعت وقرأت للملك الحسين - في حديث خصني به للنشر في صحيفة اسبوعية كنت اصدرها في القدس، قال الملك يوم الاحد 2مايو ١٩٩٤ عن القدس: ".. ان القدس عندي من أعز المدن وأغلى المواقع.. ولا رداء يليق بها غير رداء التسامح العربي الاسلامي.. وان أي حل للقضية الفلسطينية لا بد وان تكون القدس جوهره ولا بد ان يكون عادلا وشاملا ودائما تقبل به الأجيال التي تأتي من بعدنا وتصونه، هذه الأجيال المؤمنة بالله الواحد الأحد التي تمتلئ حنينا الى القدس الخالدة، القدس التي يسودها العدل والسلام والمحبة..".

وكم تمنيت لو ان صديقي وأخي ومليكي الراحل قالها بكل وضوح وبكلامه المليء بالثقة والجرأة دوما:

- نريد ان تعود القدس لنا .. عربية.. اسلامية كما عرفناها على مر التاريخ. وكما يجب ان تعود!؟

انا ما زلت احتفظ بنص العبارات التي وردت على لسان الملك عبد الله بن الحسين، مؤسس دولة الاردن عندما اصدر الارادة الملكية في اليوم الخامس من شهر يناير عام 1951 بتعيين راغب باشا النشاشيبي ناظرا للحرم الشريف وحارسا ساميا للاماكن المقدسة حيث ورد في ارادة التعيين قول الملك بالحرف الواحد: "... أمرنا بتعيينك في منصب ناظر الحرم الشريف والحارس السامي للاماكن المقدسة، مؤملين ان تتذرع بالجهود المثمرة والآراء النيرة في تعهد المسجد الاقصى الذي بارك الله حوله.. وان توطد كنف الرعاية والحماية

لجميع الطوائف وحجاج الامم وتبذل في صون أمنهم وحرياتهم وحرماتهم وشعائرهم وأماكن عباداتهم أقصى الهمم، وان ترد كل أمر الى نصابه، وتضع كل حق في موضعه وفق الحالة الراهنة المعروفة مما الى حقوق الطوائف والمساجد والكنائس، ليطمئن الجميع ويسود السلام والوئام.. ولتبرز العقائد السماوية في اطار الأخوة الانسانية في بلد عربي مقدس تجله الديانات وتقام فيه الصلوات وترفع الدعوات وتحفظ الامانات مراعيا في نهجك العهد العمري والتقاليد الموروثة كابرا عن كابر في جميع العهود الاسلامية، آخذا بما في أيدي حضرات البطاركة من فرمانات سلطانية، وأوامر مرعية مثبتا سائر الحقوق في سجل معلوم ودفتر مخصوص ليراجع عند الاقتضاء ويعمل به في البدء والانتهاء مقتديا بالسلف الصالح في اشاعة المكارم وتجنب المآثم، وازالة المظالم، وتوطيد الدعائم مهتديا بمدلول الآية الكريمة: "يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان اكرمكم عند الله أتقاكم..".

التوقيع

عبد الله بن الحسين

* * *

والموقف مع هذا الكلام لا يحتاج الى تعليق..

اذ هكذا يتكلم الملوك المؤمنين، وهكذا يكتب المسلم الموحَد من الحكام، وهكذا يرى القدس، ومقدساتها، الملك الطيب المتسامح الذي آمن بالسلام والتعايش بين الناس..

ويبقى السؤال البسيط:

ـ لماذا نسينا كل هذا؟

ولماذا تخلينا عن القرارات الدولية حول القدس؟

ولماذا نقبل التفاوض من جديد حول أم الانبياء، وزهرة الدنيا وأعظم مدن الارض..

حقا.. لماذا؟

ولماذا يدّب الخلاف بين اعضاء اللجان الفلسطينية العربية الموكول اليها بحث مصير القدس، بدلا من ان تكون القدس هي العامل الأكبر الذي يوحد المسلمين والعرب.؟

حقا.. لماذا؟

ان من يفرط بالقدس، فالقدس منه براء.

ومن تتبرأ منه القدس، فالاسلام والتراث والعروبة والانبياء والرسل، منه براء.. براء.

وسجلوها على لساني: ان معركة القدس ـ كالساعة ـ آتية لا ريب فيها.

استيقظوا، بل استعدوا، يرحمكم الله!

* * *

فيما يلي، ادعو القارئ لكي يعيش معي، في ملعب كبير من ملاعب عمري!

أنا لم اشأ ان أكون كاتبا نسائيا، او رئيس تحرير مجلة نسائية، او طبيب قلوب يداوي مآسي العشق والفراق، او روائيا يتصيد المواقف العاطفية في حياة الناس لكي يسكبها في حوار او رأي او سرد قصصي!

أنا كاتب سياسي، هكذا كنت وهكذا أبقى...

ولكن السيدة السعودية المولودة في مكة المكرمة، وعائلتها في "المدينة المنورة" وشقيقها هو المليونير عدنان محمد خاشقجي ـ تاجر السلاح وبائع القصص والمآسي وحفلات الأساطير الى العالم ـ هذه السيدة التي احترفت الصحافة النسائية وأسست أرقى وأحلى مجلة نسائية عربية في الشرق الاوسط، قد استطاعت ان تقنعني بأن لا عداء هناك بين الكتابة في السياسة والكتابة عن المرأة، وأن في الحديث عن المرأة، ما يسلي، ويخفف الآلام، ويرطب الأجواء، ويحل المشاكل، ويغذي القلوب ويشجع الكاتب السياسي على المضي في ممارسة حياة المتاعب!

حسنا! وكانت سميرة محمد خاشقجي ـ ووالدها الدكتور محمد خاشقجي الطبيب الخاص للملك عبد العزيز آل سعود وصاحب الفضل في ادخال الاشعة الطبية الى السعودية قد تزوجت من السيد "محمد الفايد"، التاجر الاسكندراني الذي أصبح اليوم أحد ملاكي متجر "هارودز" في لندن، ورزقت منه بولد اسمه "عماد" وبالدلال دودي، ثم طلقته..

وتزوجت من بعده من السفير الشاب السيد ياسين، أحد ابناء الشيخ يوسف ياسين، وكيل الخارجية السعودية والمهاجر الذي جاء من سوريا لكي يصبح مستشارا مقربا من الملك سعود بن عبد العزيز.

ثم طلقته..

وتزوجت من بعده عبد الرحمن الأسير، نجل الشاعر اللبناني صلاح الأسير، ووالدته الفنانة الذائعة الصيت سهام رفقي.. ثم طلقته!

ومن الزوج الثاني، رزقت سميرة خاشقجي بابنة واحدة اسمها "جيجي". وبعدها، لا زواج ولا اولاد. فقد تعرضت سميرة ـ بارادتها او رغم أنفها ـ الى عارض صحي أدى الى انفجار المخ في رأسها ووفاتها في شقتها الأنيقة بحي الزمالك، بالقاهرة.

وقد "أرغمتني" سميرة على أن أتولى رئاسة تحرير مجلة "الشرقية" التي

كانت تصدرها شهريا في باريس في أحلى وأرقى صورة، ومعي بعض كبار الصحفيين المصريين من أمثال علي أمين، واحسان عبد القدوس.

وكان عملي الصحفي في "الشرقية"، يضطرني للسفر مرارا من لندن الى باريس، جريا وراء الموديلات "النسائية" الحديثة الصادرة عن مجلة "أيل" الفرنسية الشهيرة! كما كنت مضطرا للتنقل بين باريس ومدريد حيث كانت المجلة تطبع في احدى كبريات المطابع الاسبانية التي تملكها الحكومة هناك.

وفي خلال اقامتي في لندن، وتنقلاتي بين باريس ومدريد، وقضاء عطلة الصيف على شواطئ "الريفيرا" الفرنسية، تعرفت على "دودي الفايد" الابن الشاب الوحيد لسميرة خاشقجي.

ورأيت في "دودي" الصغير شابا رياضيا وسيما ومؤدبا ولكنه يشكو من عقدة نفسية سببها غيرته الشديدة من أولاد خاله المليونير عدنان خاشقجي، ومن نوعية الحياة المرفهة التي يعيشها كل واحد منهم بين الطائرات والسيارات والسهرات!

وكانت والدته السيدة سميرة تتمنى لو أن ابنها "دودي الفايد" تزوج من "نبيلة خاشقجي" ابنة أخيها عدنان. ولكن "نبيلة" خاشقجي التي كانت تحسن بفكرة أمها، لم تكن تقبلها! فقد عاشت "نبيلة" بكامل حريتها كأغنى وأسعد ما تتمناه أي فتاة في مثل عمرها! كانت تتلقى الدراسة في مدارس "الروزيه" في سويسرا وفي "لوزان"، وتتنقل في الطائرة الخاصة بين سويسرا وفرنسا وبريطانيا، وتنفق وتشتري وتحب وتغامر، وتقضي ليالي الاجازات في الرقص والنوم، وتقضي ايام الدراسة في البحث عن آخر موديلات الثياب في باريس وآخر صرعة في عالم الماكياج، وتسبح على ظهر الباخرة التي تحمل اسمها، وتعيش ساعات العمر حتى طلوع الفجر!

وكان دودي ـ على عكس ابنة خاله نبيلة ـ يحب الوحدة، ويشعر

بالحرمان، ويبحث عن العطف والحنان!

وقد حاولت والدته ان تجعل من "جيجي ياسين"، صحفية مثلها، ولكن "جيجي" اختصرت الطريق وتزوجت من طبيب مصري شاب ما زال يحاول اسعادها وكسب رضاها!

وبقي دودي وحيدا يبحث عن قلب يختضنه، وانسان يلجأ اليه!

الى أن دقت ساعة الرحيل!

وكنا قد احتفلنا في سهرة عارمة بخطوبته على فتاة ايرانية مسلمة قيل انها تحب دودي، وانه ـ ايضا ـ يحبها..!

وعندما سألني دودي يومذاك عن نظرتي الى تلك الفتاة، الايرانية الهادئة، أجبته بأنها في كلامها ومظهرها تبدو وكأنها اكثر نعومة وأقل حياة منه، وأنه بالنسبة اليها، كمحرك سيارة "الرولز رويس" موضوعا في سيارة فيات.!

وفسخ دودي الخطوبة بعد شهر واحد..

وبعد وفاة والدته السيدة سميرة، او موتها المفاجئ في القاهرة، لجأ دودي الى والده محمد الفايد، يبحث عنده عن دفء الوالد ورعاية الأب وحنان القريب! فقد كان دودي في غاية الظمأ الى مثل تلك الرعاية التي افتقدها كثيرا عندما كانت والدته على قيد الحياة. لقد منحته والدته الكثير من المال والدلال، واشترت له مركبا بحريا صغيرا، وسيارة، وأغدقت عليه من حنانها ما استطاعت، لولا انها كانت مضطرة للالتفات صوب الشاب الصغير الذي أحبته واقترنت به، وأعني به زوجها الثالث السيد عبد الرحمن الأسير!

وبعد وفاة سميرة، جاءت ابنتها "جيجي" مع أخيها دودي الفايد الى صناديق البنك السويسري "اس.بي.اس" في جنيف للحصول على التركة، ووجدوا بداخل الصندوق الكثير من المال، والجواهر، والاوراق الخاصة مع

أعداد كبيرة من بالطوات الفرو الثمين.

والتفت دودي الى أخته جيجي وقال لها وهو يصافحها باكيا مودعا، قبل ان ينصرف عائدا الى لندن:

ـ أنا لا أريد فرنك واحد من تركة أمي. أنا أتنازل لك عن كل شيء..!!

وركب الطائرة وعاد الى منزل أبيه في لندن.

ولكن لجوء دودي الى أحضان أبيه "محمد الفايد" قد جاء متأخرا قليلا! اذ أن الفايد كان قد تزوج من سيدة فنلندية، ورزق منها اولادا، ومنحها الكثير من عطفه وحبه وأمواله. كما أن هذا الأب ـ قد أفلح في عقد اتفاقيات مالية وتجارية مع الكثير من الشركات والكثير من السلاطين، وعلى رأسهم السلطان "حسن بلقايه" الذي دخل منه محمد الفايد الى دنيا الملايين. وعالم هارودز.. ورتز.. والدورشستير.. وبيفرلي هيلز!

وانضم الشاب "دودي" الى "عالم هارودز" ولكن العمل فيها لم يعجبه، فاستقال، وسافر الى امريكا..

وراح يعمل في الانتاج السينمائي، وحقق بعض النجاح. ولكنه بدلا من ان يستغل الممثلات الامريكيات الجميلات الساحرات ويوظفهن في انتاج أفلامه الجديدة، كان يفضل ان يعاشرهن، ويتخذ منهن، إما عشيقات.. او زوجات!

وعاد دودي الى لندن بعد ان ترك الكثير من بصماته فوق قلوب العشرات من ممثلات هوليود والعشرات من البنات الباحثات عن المال، والشهرة!

ومن خلال أبيه محمد، التقى "دودي" بالأميرة "ديانا" زوجة ولي عهد بريطانيا.!

وكما كان "دودي" يغار من أولاد خاله، كذلك كان والده محمد الفايد يغار من صهره السابق.. عدنان خاشقجي، ويحاول ان يقلده في خطوات

حياته حيث الحفلات، والأمراء، والنساء والممثلات، وأجواء ألف ليلة وليلة بين اليخوت والطائرات!

لقد كان عدنان خاشقجي هو رائد هذه المدرسة الخاصة في التمتع بمباهج الحياة وهدر الملايين ثمنا لها.! كان هو الاستاذ الكبير للمدرسة التي تتلمذ عليه فيها رجال أعمال معروفين وأصحاب ملايين من أمثال أكرم عجة.. وزهير مردم.. وغازي عيطه.. ومحمد عثمان.. بالاضافة الى الأخوة عصام الصغير وعادل الكبير، بل ان شخصية سياسية واقتصادية مميزة كالسيد كمال أدهم، قد أحبت عدنان وتأثرت بأسلوب حياته وراحت تقتني اليخوت والطائرات الخاصة، وتشتري قصرا في كل عاصمة اوروبية! والى جانب ذلك، كان صهره الجديد عبد الرحمن الأسير، يحاول ان يقلد الصهر الغالي، فلا يدخن الا السيجار الكوبي، ولا يشتري ملابسه الا من محلات "صمالتو" الباريسية ولا يأكل الا في "الماكسيم" ولا يركب الا سيارة الرولز رويس!

عدنان خاشقجي هو أجرأ وأول من خلق مدرسة التنعم اللامحدود بالحياة، وهدر الدولار بلا حدود!

عدنان هو الذي استطاع ان يوظف رئيس أكبر دولة في العالم، لحساب سياسة سعودية معينة، وأن يزوره في مكتبه "البيضاوي" في البيت الابيض، ويترك له شنطة كبيرة من نوع "سمسونيت" وبداخلها مليوني دولار.. رشوة!

عدنان هو أول من شرح لرجال الاعمال العرب في اكثر من عاصمة عربية معنى القومسيون، وأدخلهم مدرسة "الفوائد" والأرباح من وراء الصفقات الكبرى.!

وأقام محمد الفائد في الطابق العلوي الرابع من مبنى متجره "هارودز" حفل تكريم للجراح المصري العالمي المشهور مجدي يعقوب وطلب من

الأميرة ديانا ان تكون الحفلة تحت رعايتها..

وكانت المرة الاولى الاولى التي رأيت فيها الأميرة ديانا بفستان السهرة الذي كان يكشف عن مفاتن جسدها وسيقانها، ولا يترك من هذا الجسد مخفيا الا القليل.

والى جانب الاميرة، وعلى مائدتها، كان يجلس صديقي الشاب.. دودي الفايد ابن محمد الفايد، من زوجته الاولى السيدة سميرة خاشقجي.

ثم تلاحقت الأمور في مراحل متتابعة.. ومتصلة.!

وكما كان عدنان يدعو الملوك والامراء الى حفلاته على ظهر الباخرة "نبيلة"، كذلك قام محمد الفايد بدعوة الأميرة "ديانا" الى رحلة بحرية على ظهر يخته الخاص الذي كان ينتظر في مياه مدينة "انيتب" على الشاطئ الفرنسي اللازوردي!

وكان من الطبيعي ان يكون الشاب دودي الفايد هو العضو الاساسي او الرئيسي بين ركاب ذلك اليخت.

وفي رحلات اليخوت، تنحل العُقد، وتتلاشى الفروق، وتتساوى الألقاب، وتتفتح القلوب، وتتلاقى النظرات وتشتعل العواطف!

ولم يكن ينقص دودي شيئا من دروس الحب التي أتقنها خلال اقامته بين نساء السينما الامريكية في "بيفرلي هيلز" لكي يمارسها امام الأميرة الضائعة بين زوج تكرهه، وملكة تكرهها، وصحافة تطاردها، ولقب لم تكسب من ورائه سوى النكد والعذاب.. والفضائح.!

وكنت التقي "بدودي" في "هاريس كلوب" بلندن، حيث كان يثابر على تناول أطباق الطعام الايطالي التي يحبها، او في نادي "الأمباسادور"، وصالونات فندق "الدورشنستير" المجاور لمنزل والده في شارع "بارك لين"، ويبادرني على الفور بالسؤال الدائم:

ـ هل ما زلت زعلان مني لأني لم أتزوج من تلك الفتاة الايرانية التي

أردتم ـ أنت وأمي ـ ان أتزوجها؟

وعندما أجبته بالنفي، سمعته يقول لي:

ـ قريبا يا "عمو" ـ وكان يناديني "عمو" للتقرب والمحبة ـ ستسمع عن زواجي من أحلى وأشهر امرأة في هذه البلاد. !

وسألته عن اسمها فقال:

ـ ألم تقرأ ما قاله خالي "عدنان" منذ ايام من أنه يخاطب الأميرة ديانا ويقول لها "اهلا بك في عائلة الفايد"؟!!

ولم آخذ كلامه على محمل الجد..

ولم أعد أراه بعد اعتزاله المجتمع بسبب ما كنت أسمعه عن حبه الجديد للأميرة ديانا. !

وغادرت لندن عائدا الى القدس...

وبقيت مثابرا على قراءة مجلة "الشرقية" حرصا مني على معرفة أخبار "جيجي" التي كانت تشرف عليها بعد صدورها من القاهرة وبعد وفاة والدتها.

وبقيت اسأل عن عدنان خاشقجي لكي أتسلى بالجديد من أخباره وبالطرائف الذكية من آرائه! وكان عدنان ـ في نظري ـ من أذكى الشخصيات العربية في الحقل المالي والاقتصادي على مستوى الوطن العربي كله! ولا أعرف شخصية مثل "عدنان" تعالج نكباتها بالنكتة، وتصبر على الضربات بقوة الأعصاب، وتخسر المليون دولار وكأنها لم تخسر اكثر من دولار واحد، وتهادن العدو، وتتمسك بالصديق، وتجامل الكبير، وتراعي القريب، وتتمتع بالجمال الحلو، والطعام الجيد، وتطرب للقصة الطريفة، والعبارة الحلوة.. مثل عدنان ابن محمد الخاشقجي..

ولقد تحمل عدنان من أفراد أسرته، ومن شركائه، ومن "الكبار" من اصدقائه ما لا يطيقه بشر. ! كان أحد كبار بلده لا يسمح "لعدنان" بزيارته

في منزله الا بعد منتصف الليل، وان لا يدخل الا من باب.. الخدم! او بصورة سرية بعيدة عن الانظار! تماما كما يفعل الخدم او .. بنات الليل!

وكان عدنان يسكت على كل ذلك، ويمعن في المجاملة، واسداء الولاء والطاعة العمياء لذلك المسؤول الكبير!

ولكن بعض أقاربه وبعض اصدقائه لم يروا في عدنان الا ما يحلو لهم، وبقوا يجهلون سر شخصية عدنان! وبين هؤلاء الأقارب وعلى رأس القائمة يرد اسم "عماد الفايد"، او "دودي" ابن سميرة.. شقيقة عدنان خاشقجي!

وفي الساعة الخامسة صباحا من آخر يوم في شهر اغسطس من عام ١٩٩٧، دق جرس التلفون في منزلي بالقدس وسمعت صوت الاستاذ محمد شقير، محرر نشرة "الأخبار الصباحية" في اذاعة لندن يقول لي ان حادث سيارة مؤسف قد وقع عند منتصف الليل تحت نفق "دي ألما" في وسط باريس، وقضى على الأميرة ديانا وعلى "صديقها" دودي الفايد.!

وسألني الزميل محمد شقير بعبارات تكاد تبكي حزنا:

ـ هل كان دودي سيتزوج الأميرة ديانا؟

وأجبته على الفور:

ـ انا سمعت انه سيتزوجها. هكذا قال لي دودي نفسه في لقائي معه بلندن...

وسألني محمد شقير:

ـ هل تعرف ان كانت الأميرة تحب دودي الى درجة الزواج منه..؟

قلت باختصار: نعم! كانت تحبه، وتتسلى معه، وتنعم بهداياه!

قال: وماذا تقول في قصص علاقات دودي الغرامية السابقة مع أمثال السينمائية "كيلي فيشر" التي تزعم ان دودي قد وعدها بالزواج ثم أخل بالوعد.؟

قلت: إنّ من ينوي الزواج من أميرة مثل "ديانا" لا يسأل عن "جربوعة" مثل كيلي فيشر. !

قال: وماذا تقول عن زوجته الامريكية السابقة "سوزان جريجارد" التي كانت من أشهر عارضات الأزياء في امريكا. ؟!

قلت: ما ينطبق على كيلي فيشر.. يجب ان ينطبق على سوزان!

قال: ولكن الانجليز يقولون بأن طبيعة الأميرة تختلف عن طبيعة عشيقها دودي. هي رزينة وهو طائش! هي تحب الناس وهو يحب نفسه. هي تريد ان لا تنسى أطفالها من ولي العهد، وهو لا يسأل عن أحد.. الا نفسه!

ثم قال:

ـ يضاف الى ذلك ألف عقبة وعقبة تتعلق بالدين، والجنسية، والثقافة، والتربية وخلفية الحياة.. فماذا تقول على ضوء معرفتك بالشاب دودي فايد، هل كان يصلح لها؟

قلت: لقد ضاع الآن كل شيء في حادث لم يدم اكثر من دقائق!

فلماذا الدخول في تفصيلات لا تجدي ولا تنفع..؟

ثم عدت الى فراشي أحاول ان أكمل النوم..

ولكني لم أنم! فقد عادت أفكاري تتجه صوب عدنان خاشقجي ـ خال دودي، والمسؤول الاول عن معظم ما أصاب ابن شقيقته من أحلام وأوهام ومغامرات وفواجع!

وقد قلت لعدنان خاشقجي ذات يوم ونحن على متن طائرته الخاصة من لندن الى الخرطوم لمقابلة الرئيس جعفر النميري، وكان معنا على الطائرة الصحفي البريطاني باتريك سيل:

ـ اسمع يا عدنان! إن على كل من ينتسب اليك او يريد ان يعمل معك، او ينضم للشلة التي ترأسها ان يكون فدائيا او مجنونا. !

وسألني عدنان بدهشة: لماذا؟

قلت: لانك يا عدنان لا تستقبل ولا تحب ولا تصادق الا المسؤولين المغامرين، او الطغاة، او المفلسين، أو اصحاب السمعة الرديئة.. أو الرجال الخطرين.!!

وأكملت ـ والكلام يعود الى ربع قرن مضى:

ـ عد على أصابعك يا صديقي عدنان: ان صديقك أنور السادات في مصر يقف اليوم بمفرده ضد العرب كلهم! ولن تكون نهايته طبيعية!

"ثم هناك صديقك جعفر النميري رئيس السودان الذي لا تجد له صديقا واحدا في السودان.. لألف سبب وسبب! وقد يسقط بين لحظة وأخرى!

:ثم هناك صديقك "شارون" الاسرائيلي الذي مازلت ترشحه لرئاسة وزراء اسرائيل في عام ١٩٩٠، بينما المعروف انه بطل مجزرة "صبرا وشاتيلا" ضد الفلسطينيين في لبنان.. وأنه يمثل "الليكود" المعادي لكل العرب!

"... ثم هناك الرئيس الفلبيني "فرناند ماركوس" وزوجته اللعوب السيدة ايملدا ماركوس التي قدمتها لك الأميرة الايرانية "أشرف بهلوي" شقيقة الشاه والتي طرت بدعوة منها الى "مانيلا" ونزلت ضيفا معززا مكرما عليها في قصر "مالاكانغ" الرسمي!

وتمت بعدها ـ بإشرافك وموافقتك ـ في ربيع ١٩٨٦ عملية تهريب "٣١" لوحة زيتية لكبار الرسامين في العالم منهم، بيكاسو.. ودوغا.. وروبنز.. بغية بيعها بعيدا عن أعين المسؤولين الفلبينيين.. وبواسطتك ومساعدتك ومساعيك!

"... ثم هناك علاقتك الوثيقة مع ديكتاتور "هاييتي" المخلوع المستر "جان كلود دوفالييه"، وقصصه تحتاج الى الكثير من المجلدات.!

"... ثم هناك صديقك ومستشارك الامريكي "مايلز كوبلاند" الرئيس

السابق لقسم الشرق الاوسط في المخابرات الامريكية. !

"... ثم هناك صديقك اليوناني الملياردير "كويسكوتاس" صاحب النشاطات المشبوهة في أعمال البنوك وتنظيف "العملة القذرة" !

"... ثم هناك صديقك الأهوج الرئيس جيمس ماتشام رئيس جزيرة "سيشل" التي أغرتك بالارباح وشجعتك على شراء الاراضي واستئجار المنازل، ثم وقع الانقلاب اليساري الذي أطاح بصديقك الرئيس المذكور وأطاح كذلك بكل ملايينك المتواضعة في تلك الجزيرة النائية !

"... وأخيرا وليس آخرا، انك يا عدنان خاشقجي لم تجد في كل دول افريقيا، رئيسا تصادقه، وتتعامل معه، وتدعوه للنزول في ضيافتك وفي مزرعتك في "ماربيا" باسبانيا الا هذا الديكتاتور الكريه المكروه "موبوتو سيي سيكو" رئيس زائير وحاكمها المرتشي الدامي !!

وأنا اعترف بأني رأيت وقابلت في مزرعة عدنان المسماة "البركة" في "ماربيا" مجموعة من شبان زائير ووزرائها لا يقل عددهم عن الخمسين شخصا ورئيسهم "موبوتو سيي سيكو" وقد حلوا ضيوفا على عدنان خاشقجي يأكلون ويشربون ويسهرون ويسمرون ويلهون، ولمدة زادت عن العشرة أيام، وكل ذلك باسم الصداقة الوثيقة بين الرئيس الزائيري الطاغية، وبين عدنان خاشقجي !

وهذا شيء غير طبيعي..

بل هذا شيء رهيب...

بل هذا شيء يدعو الى الريبة والشك، والحذر!

وقد ضاق الملك فهد ذرعا بهذه اللقاءات التي كان عدنان يجريها مع بعض المسؤولين الايرانيين والامريكان والاسرائيليين والافارقة فطلب مني - بالذات - ان أنقل الى عدنان رسالة منه تقول بأن على عدنان ان يتوقف عن القيام بأي عمل سياسي، وأن لا يزج باسم المملكة في أي عمل سياسي

يقوم به، وان لا يزعم ـ بأية صورة من الصور ـ أنه يمثل المملكة او ينطق باسمها، واذا أصر عدنان على المضي في طريقه ورفض الامتثال لهذه الاوامر الملكية من خادم الحرمين الشريفين. فإن عليه ـ عندئذ ـ ان يتوقع اجراءات رسمية سعودية ضده قد تصل الى حد تجريده من الجنسية ومحاكمته ومصادرة أملاكه!

وعندما نقلت الى عدنان هذا الأمر الملكي أجابني بكل برود وكأن الأمر لا يعنيه:

ـ ولكني شخصيا لا أتدخل في السياسة، ولا انتحل اسم المملكة في مقابلاتي مع الآخرين...!!

وأجبته: وماذا تقول عن مقابلاتك الاخيرة في المانيا مع الوزراء الايرانيين؟ وماذا تقول في مقابلتك السرية مع الشخصيات الرسمية الاسرائيلية وفي مقدمتهم شمعون بيرس؟ وماذا تقول في لقائك المستمر مع وليام كلارك مستشار الرئيس ريغان للأمن القومي، ومع نائبه روبرت ماكفرلين، ومع الوزير كاسبر واينبرغر وزير الدفاع الامريكي؟! وماذا عن مشاريعك التي أسميتها بمشروع مارشال للشرق الاوسط، والتي اعتبرتها حلا للصراع العربي الاسرائيلي؟. وماذا يا عدنان عن فضيحة ايران ـ غيت؟؟

وقاطعني عدنان قائلا: ان مجمل عمولتي من وراء "ايران غيت" لم تزد عن ثلاثة ملايين دولار، وقد رفضتها وتركتها لشريكي الاسرائيلي "يعقوب نمرودي"!

ثم أكمل: ومع ذلك، فاني لا أقابل شخصيات العالم بالصورة الخطأ التي يراها غيري. انا لا أتعاطى في السياسة. أنا رجل اعمال، والسياسة تأتي على هامش أعمالي، لا في صميمها!

قلت: وما هو ردك على أوامر جلالة الفهد لك.؟

وهز الخاشقجي كتفيه ولم يرد..

لقد أصبح حاله معي، ومع الناس، ومع نفسه، يُردد بيت الشعر العربي الذي يقول:

ـ أنا الغريق فما خوفي من البلل.!

ومنذ ذلك اليوم رأيت صديقي عدنان خاشقجي يغرق في بحور الديون، والملاحقات القضائية، والسجون، والافلاس! ولم يعد، وقد لا يعود.. أبدا..

سامحه الله بقدر ما أساء لنفسه، ولغيره، ولابن شقيقته الشاب ـ دودي فايد ـ الذي أراد ان يقلد خاله في العظمة والشهرة والنساء، فسقط محصورا تحت عجلات السيارة في خندق ضيق تحت جسر صغير في قلب باريس!

غفر الله له، بقدر ما كسب، وما أنفق، وما وزع من رشاوى وهدايا!

...وسيغفر الله له كثيرا جداً.

* * *

عودة الى... الاسرائيليات!

في ملاعب الذكريات اكثر من شريط مسجل ما زال ينبض بالحياة والحنين. بعضها عنا، وبعضها عن الآخرين. وبعضها لا عنا ولا عن الآخرين..

وسيقول التاريخ بعد فترة من الزمن، ان المستر "توماس بيكورنج"، سفير امريكا السابق في تل ابيب، كان ـ وعلى مدى الخمسين سنة الماضية ـ هو الرجل الاول في تقديم أوفر الخدمات وأجل المساعدات الى

الدولة العبرية.. وخاصة تلك الخدمات التي قدمها لاسرائيل خلال حرب الخليج من عام ١٩٩٠ الى عام ١٩٩٣ ! وكنت ـ قبيل مجيء هذا السفير الى تل ابيب، أظن ان السفير جيمس ماكدونالد، أول سفير لامريكا في اسرائيل هو أعظم سفير لامريكا في اسرائيل! فقد عرفت جيمس ماكدونالد في عاغم ١٩٤٥ عند مجيئه الى "فلسطين" كعضو امريكي في لجنة التحقيق الانجلو ـ امريكية التي أرسلها الرئيس هاري ترومان الى البلاد لكي تدرس وتجد حلا للصراع العربي اليهودي. وكان جيمس ماكدونالد ـ طيلة أعمال اللجنة وطيلة وجودها في البلاد ـ لا يعمل الا لما يريده اليهود، ولا يقرر الا ما يرضي الوكالة اليهودية في القدس! وبعد عودته الى امريكا، وقبل قيام دولة اسرائيل، أرسل لي نسخة مهداة من كتابه الجديد عن لجنة التحقيق، والمطالب اليهودية، والحل الذي يراه، واسم الكتاب "مهمتي في فلسطين" ومعظمه ـ من الغلاف الى الغلاف ـ دعاية لليهود!

ومضت الايام، وبدأنا نعتاد على وجود سفراء لامريكا في تل ابيب، وكلهم يتسابقون في ابداء العون لليهود، وفي الوقوف بجانب اسرائيل في كل بند، وكل جزء، وكل فصل، من بنود او فصول الصراع العربي ـ الاسرائيلي!

وفي اول ايام اسرائيل، كان هنا، جيمس ماكدونالد!

وبعد مرور خمسين سنة، والامور المصيرية تطل برؤوسها على المسرح السياسي لكي تجد الحل النهائي للمأساة التي بدأت منذ اوائل القرن العشرين، يعود الى هنا المستر "مارتن انديك"، المتيم بحب كل "ما" هو يهودي.. وكل "من" هو يهودي. منذ ثلاثة آلاف عام حتى يومنا هذا. !

غير أني التقيت بين لائحة سفراء امريكا في اسرائيل اسما كان يختلف صاحبه عن بقية الاسماء التي جاءت الى تل ابيب، من قبله، والتي جاءت

الى تل ابيب من بعده.

والاسم يخص سيدة ولا يخص رجلا..

والسيدة من أصل صيني، وليست من مهاجري بولونيا او تشكوسلوفاكيا او المانيا الى امريكا.!

وكان اسمها "مولي وليامسون".. بقامتها الطويلة، ونظرتها الذكية، وشخصيتها الجذابة، وكلامها المخطط بالثقافة والمعرفة..

وكانت تزورني في منزلي بالقدس لكي تحدثني عن بشائر السلام القادم الى البلاد.

وكانت دوما تردد امامي سؤالا معينا يدور حول مدى استعداد العرب لمواجهة متطلبات السلام القريب. وتقول لي مثلا:

ـ هل بدأتم تستعدون لما سيأتي غدا؟

وأسألها بدوري:

ـ وماذا سيأتي غدا.؟

وتجيب:

ـ ستأتي الاجتماعات، والحلول، والاقتراحات، واللجان، والخرائط، وكلها تتطلب منكم الوعي والدراسة واليقظة والفهم الصحيح..

وكنت أشعر بأن مولي وليامسون، وقد تولت مسؤولية القنصل العام لامريكا في القدس، بأنها ـ فعلا ـ تميل الى توعية العرب ـ في القدس وحولها ـ الى ما يدور حولهم حاليا، وما سيدور حولهم غدا.! انها صاحبة تجربة في العمل الدبلوماسي حيث كانت فيما مضى، تعمل في السفارة الامريكية في تل ابيب، مسؤولة عن النواحي السياسية، ثم انتقلت في عملية ترقية الى منصبها كقنصل عام... وكان سفيرها في تل ابيب يومذاك هو موريس درايبر...

وكنت أشعر ـ كذلك ـ ان السيدة وليامسون ـ تريد مني ان أكون مستعدا لكي أنضم الى القافلة التي اختارتها القنصلية العامة لامريكا في القدس، وباركها جيمس بيكر، وزير الخارجية الامريكية يومذاك، وأعلنها بمثابة "الزعامة العربية" الجديدة التي ستمثل عرب فلسطين في مفاوضات السلام مع اسرائيل..

وكنت أعلم شيئا عن حياتها الخاصة، وعن اعجابها بفلان وفلان، من المتزعمين في بلدي، وعن علاقتها "العاطفية" بأحد ضباط الحراسة بدار القنصلية من رجال البحرية او المارينز ـ حيث كانت تحرص على مشاهدة عروض الافلام السينمائية برفقته..

وقد اقتنعت تماما، من خلال تعداد المقابلات معها، بأنها تتطلع الى يوم قريب، تعود فيه الى المنطقة العربية، لكي تشغل منصب السفير للولايات المتحدة الامريكية.

ما علينا...

انها سيدة تفهم دروس الدبلوماسية تماما، وتعالج القضايا بكل دراية ومقدرة وتنافس زميلتها في العمل الدبلوماسي، المسز "ابريل" القائمة بأعمال سفارة امريكا في العراق، او السيدة التي خدعت "صدام حسين" وأخبرته ان لا مانع لدى امريكا لو ان العراق دخل الكويت.. واحتلها.!

وكانت "مولي" تعيش في بحبوحة ورخاء ظاهرين، حيث ترك لها والدها الذي تبناها قبل وفاته ما يزيد عن مليوني دولار..

وعادت "مولي" الى بلدها، وتزوجت من استاذ في جامعة امريكية يتمتع بلقب بروفيسور..

ثم طلقته وتزوجت من ضابط برتبة كولونيل في الجيش الامريكي..

وبعد الكثير من الاسفار والتنقلات، استقرت مولي في حي "سَعد وسعيد"، بالقدس الشرقية، وبالقنصلية العامة لامريكا، وبالمنصب الذي

تستحقه..

ثم ماذا؟

فجأة، نقلوها الى الخارجية الامريكية في واشنطن.

وانقطعت عني أخبارها. ولعلها شعرت بأني زاهد في قبول أي اقتراح منها او من حكومتها لكي أنضم الى ركب "الزعامة العربية الجديدة" السائرة في طريق مدريد.. واوسلو.. وطابا.. والقاهرة.. وتل ابيب.. والقدس!

أو لعلها لم توافقني على الكثر من آرائي الصريحة عن بعض الشخصيات المحسوبة على السياسة الامريكية..

المهم ان أحدا منا لم يحاول أن يعطي هذه السيدة الدبلوماسية المميزة ما كانت تستحقه من تقدير، وأن يعالجها ـ ولو بالقليل ـ كما اعتادت اسرائيل ان تعالج أمثالها، وان يخطط معها لما فيه خيرنا ومنفعتنا.!

ان كتب الغرام والمغامرات العاطفية هي الكتب التي تغزو ـ وحدها ـ رفوف دور بيع الكتب وتفوز بالنجاح الساحق في اسرائيل! وقد كتب الصحفي الاسرائيلي "يول نير" كتابا عن فضيحة "درعي" في حزب "شاس"، ولم يبع منه اكثر من مائة نسخة. بينما لو كتب هذا الصحفي عن مغامرات الوزيرة "ليمور لافنات" او عن "يائيل ديان" ـ ابنة موشيه ديان ـ او عن قصص الحب بين اعضاء الكنيست والسكرتيرات والمساعدات لكسب الآلاف..

ترى، هل كان باستطاعتي ان أغفل الجانب السياسي الجدي في شخصية السيدة مولي وليامسون وأخصص عنها كتابا عاطفيا..

لا شك انها تستحق..

ولا يملك الرجل الا ان يتجاوب مع انوثتها الطاغية في كل حركاتها وخطواتها..

وفي يوم قريب، وسجلوها على لساني، سنعود ونسمع باسم مولي وليامسون "كسفير" امريكي جديد في الرياض، او بيروت، او القاهرة. !

ولا شك انها تستحق المنصب.

وكذلك، لا شك أنني اليوم افتقدها، وأشعر بالحنين لرؤيتها.. والتحدث معها. !

وليس أحلى من المرأة، عندما تجمع في ذاتها، الأنوثة، والذكاء، والخبرة، وقطرات من الدم الصيني.. !

* * *

... وقبل أن تنتهي المباراة!

كنت لا اريد ان اكون اللاعب الوحيد في ملاعب الذكريات.

ولكني ما زلت أذكر خطابا قيل منذ ثمانين سنة في مناسبة ذكرى الاستقلال والشهداء ـ شهداء سوريا الذين أعدمهم جمال باشا السفاح، في عام ١٩١٦، جاء فيه:

"... انها الحوادث توقظنا والمصائب تجمعنا.. وقديما كانت الذكريات مراجع العظمة والمجد، وحديثا اصبحت الذكريات مثارا للشجون والآلام. !

ذكرى الأمس البعيد تمثل منابع القوة، ومطامع الشباب، وأما ذكرى الأمس القريب، فتمثل أمامنا مطامع الغاصب، ومصارع الشهداء، ومؤامرات القوي، واستغلال المستعمر...

وقال أمير الشعراء أحمد شوقي في تلك المناسبة.

حياة ما نـريـد لـهـا زوالا
ودنـيـا لا نـود لـهـا انـتـقـالا
وعـيش في اصول الموت سم
عـصـارتـه وان بـسـط الظـلالا
وأيام تـطـير بـنـا سـحـابـا
وان خـيـلـت تـدب بـنـا غـالا
نُريها في الضمير هوى وحبا
ونـسـمـعـهـا الـتـبـرم والـمـلالا
ولم تضق الحيـاة بـنـا ولـكـن
زحام السوء ضيقَها مجالا !

* * *

واخيرا... كلمة للتاريخ

لقد سردت بعض ما تذكرت، ولم أتذكر كل شيء!

وقد تأتي كتابة نص المذكرات، تنفيسا للحالة النفسية الخاصة التي يعيشها المرء. ولكني في هذه المذكرات لم أبحث عن أي حل لأية حالة نفسية كانت، او ما زالت تعتريني. كنت أفكر في القارئ أكثر مني، وكنت أفكر في جيل الغد قبل ان أتحدث عن الجيل الذي أعيش فيه، وكانت آمالي الكبار في اولادي وأحفادي، أكبر بكثير من الآمال التي عشتها في سنوات عمري، ولم يتحقق منها الا القليل سواء بالنسبة لبلدي، أو لأهلي، أو لنفسي!

هذه بعض القصص التي عشتها او عرفتها في ملاعب عمري المتنقلة بين عواصم العالم.

لعلها تُسليك، او تُشجيك، او تُذكرك بي..!

ان الحقيقة الكبرى في كل ما قدمته لك، هي أنها حقيقة مجردة، لا تلتمس رضى احد، ولا تركع أمام أحد ولا تخاف الا الله!

وقد طاردني الناس على مدى الخمسين سنة الماضية من أيام حياتي، ورغم الخمسة وأربعين كتابا من مؤلفاتي، وهم يصرخون في أذني كسياط الجلاد:

ـ متى ستكتب مذكراتك الخاصة؟

لا.. أيها السادة.!

مذكراتي الخاصة تخصني وحدي..!

ومن حقكم الاطلاع على بعض مذكراتي "العامة"، وهذه بعضها...!!

* * *

هناك الكثير من الذكريات التي أردت ان أنساها، عن سابق عزم وتصميم. !

نسيت أن صديقي الراحل الموسيقار محمد عبد الوهاب قد لجأ الى الشيخ أحمد آل ثاني ـ شيخ قطر ـ عندما انقطعت عنه الموارد المالية بسبب حرب ١٩٦٧، وكان عبد الوهاب يزور "جنيف"، وكانت زوجته تقيم في المغرب، وذهبت مع الموسيقار الى لوزان والتقينا بالشاعر المصري، الباشا أباظة الذي كان قد أعد قصيدة خاصة في مدح شيخ قطر بمناسبة الاستقلال، وجاء محمد عبد الوهاب الى منزلي في جنيف وأقام ثلاثة أيام وأعد للقصيدة لحنا خاصا، وقبض من شيخ قطر مائة ألف فرنك سويسري.. !

وعندما سألته عن "التفاصيل"، أجاب بأنه لم يقبض من شيخ قطر سوى شوال واحد من التمر. !

مبروك...

ونسيت ان وردة الجزائرية قد جاءت لكي تحيي حفلة خاصة في منزل صديقي الأمير "فلان" في باريس، مقابل أجر معلوم، وحضرت "وردة"، ومعها الموسيقار احمد فؤاد حسن الذي لم يعثر على النوتة الموسيقية لاغاني وردة الجديدة لكي يعزفها على القانون أمام الامير وضيوفه. واستولى الحزن والقلق على "وردة"، وبكت عندما أيقنت ان أجرها المالي قد ضاع عليها... لولا ان تدخل محمد عبد الوهاب في اللحظة الاخيرة.

وناولها الشيك بقيمة ٢٠٠ ألف فرنك فرنسي!

ألف مبروك..

ونسيت ان الرئيس العام لأكبر دار نشر في المانيا، واسمها "فيشر فيرلاج" في مدينة فرانكفورت بألمانيا، قد ارسلت لي كتابا يعلمني بعزمها على اصدار كتاب خاص عن الملكة "نور"، زوجة الملك حسين...

والشركة المذكورة، تولت نشر تراجم لأعظم رجالات العالم، أدبا، وسياسة، وفنا مثل ستيفن زفايغ، وسيمون فرويد، وبوريس باسترناك، وتوماس مان، وغيرهم...

وكتبت حول الموضوع للملك حسين الذي كان مريضا فأحالني على شقيقه الأمير الحسن الذي لم يكن يحمل للملكة نور، الكثير من الود والاعجاب!

ومات المشروع قبل ان يرى النور!

ونسيت ـ مع الزمن ـ أبيات من قصيدة الشاعر غازي القصيبي في مطلع صيف ١٩٩٩ عن حاكم معين قال فيها:

يا أهلا بك في زمن وأد

الفرسان

أودى بجميع الشجعان

لم يبق سوى السيف المثلوم

وبذاءات القزم المهزوم

وهو يقبل قدم العدوان!

ونسيت عبارة معينة وردت في رثائي للملك حسين يوم وفاته، قلت عنه فيها:

"... في خطواته اصالة الشرفاء، وفي كلماته صدق الكبار، وفي مواقفه عظمة الخلفاء، وفي شجاعته جرأة الثوار، وفي صراحته طيبة المؤمنين، وفي وطنيته نور أهل البيت..".

"... كان ملكا في نوعية قلبه وانسانيته، وكان انسانا كبير القلب في نوعية ملكه وعلى عرشه" !

وما زلت اردد قول "أندريه مالرو" في أمثال الحسين: "ليس المهم ان تكون ملكا، بل المهم ان تبني مملكة !!".

قلت هذا بعد رحيل الملك حسين الى لقاء ربه، دون أن أبغي من أحد كلمة شكر أو عطاء !

* * *

حضرت حفلة عرس زميلي الكاتب الراحل لطفي الخولي عندما تزوج من ابنة زميله في المحاماة الاستاذ موريس أرقش، أشهر المحامين الأقباط في مصر.

وفي أواخر عام ١٩٩٨، جاء لطفي الخولي يزورني في منزلي بالقدس لكي يروي لي بعض ما دار بينه وبين المستر هرتسوغ رئيس اسرائيل في مقابلته الأخيرة في مكتب الرئيس هرتسوغ. قال:

ـ... ودار الحديث بيننا عن مزايا التطبيع بين القاهرة وتل أبيب، وقال لطفي للمستر هرتسوغ ان مصر تفرح دائما عندما تستقبل المئات من السواح الاسرائيليين الذين يفدون اليها لزيارة الآثار والتعرف على البلد..

وأجابه هرتسوغ مقاطعا: ولكني لا أعرف اكثر من شخص واحد فقط يأتي لزيارة اسرائيل من مصر، ويكرر زياراته في كل عام...

وسأله لطفي الخولي: من تعني يا مستر هرتسوغ. ومن هو هذا الشخص؟

وأجاب هرتسوغ في أسى: أنت ! إنك الوحيد يا مستر خولي الذي يرد الينا زيارات المئات من الاسرائيليين لمصر. !

وبلعها لطفي الخولي، ولم يجب !

فقد كان لطفي ـ كما عرفته ـ مشبعا بالكياسة وحسن الحوار، وقد عاش جريئا وواضحا وصريحا يحب بلده، ويحب باريس ويعشق احمد بن بيلا ولا يقرأ صفحة "هذه الدنيا" التي يكتبها منقولة عن جريدة "الاوبزرفر" الانجليزية زميلنا الراحل احمد بهاء الدين، الذي تحول اسمه بعد رحيله عند بعض أصحاب الملايين، وعند بعض الزملاء الى ولي من أولياء الله، لا يجوز ذكره الا بالمديح والتبجيل، رغم كونه شخصية عامة ينطبق عليها ما ينطبق علينا جميعا !

ولعل أعظم ما زلت أحفظ من أقوال لطفي الخولي:

"... أنا غير نادم على العمل السياسي الذي انقضى فيه عمري. !"

وقوله: لن يعيش في هذا القرن سوى الانسان الجديد. !

وقوله: ان الهواية هي الأدب، والاحتراف هو العمل السياسي. !

وغفر الله لك، يا زميل القلم، ويا داعية مؤتمر .. كوبنهاجن. !

وبعد...

ويجرني الحديث عن لطفي وبهاء، للحديث عن زميلي المقدسي المهاجر نبيل خوري !

لقد عشنا معا في مجلة "المستقبل" كأنجح وأعظم ما يعيش الزملاء.

وبقيت أتمنى عليه ان يهجر باريس، ويترك بيروت، ويعود الى وطنه وبيته وأهله، في القدس.. والى حي "حارة النصارى" بالذات. !

ذلك اني تمنيت دوما ان أسمع صدى صوتي..

وأن أرى ظل خطواتي..

وأن اقرأ حروف كلماتي..

وأن التقي بمن يساوي او يوازي قيمة ولدي الذي كتب، وغامر، ونجح !

ولم أجد أمامي أكثر ولا أفضل من نبيل خوري الصحفي الفلسطيني الوطني "المغترب" الذي التهمته بيروت، وسرقته باريس.!

وكنت كلما رأيت نبيل خوري، تذكرت ما كنت أسمعه من الاستاذ الكبير انطون باشا الجميل رئيس تحرير "الاهرام" ـ في عزها ومجدها وكرامتها ـ خلال زياراتي لمصر، وسهراتي المستمرة في ندوة الاهرام..

قلت لانطون الجميل ذات يوم:

ـ أريد ان أبقى وأعمل في مصر، وأكتب عن بلدي من القاهرة.

وأجابني على الفور:

ـ أنا أطلب منك ان تبقى في القدس وتكتب منها عن مصر، والعرب.. والقاهرة.!

ثم قال لي انطون الجميل:

ـ انني اليوم أجلس على رأس أكبر صحيفة مصرية في الشرق الاوسط، ولكنني كنت أفضل لو عشت في بيروت وعملت في جريدة لبنانية محلية، وشعرت بكرامة "الأصول"، وقوة "الشروش" ومساندة الأقارب ودفء التقاليد، بدلا من الغربة و... التجنس!

وأحس انطون باشا، بدهشتي من كلامه فاستطرد قائلا:

ـ ما زال بعضهم يعتبروننا.. "طارئين".. أو شوام! أنا.. وأولاد زيدان.. وأولاد تاجر.. وأصحاب المقتطف.. وأصحاب الهلال.. وأصحاب المقطم.. وفارس نمر باشا.. وغيره وغيرهم.. هل يعجبك هذا، وهل يرضيك ان يأتي أحد بعد مائة سنة ويقول للناس عن ولدك او حفيدك أنكم "غرباء" وان البلد تبقى ـ فقط ـ لأهلها؟!".

وتذكرت في كلام انطون باشا الجميل، صورا كنت أشاهدها وأعرفها عن زميلي وصديقي الراحل "يوسف حنا"، الذي مارس الصحافة في جرائد "فلسطين"، و"الدفاع"، وغيرها، فكان أقدر وأجرأ من كتب الافتتاحيات

وجعل اسمه في ذيلها..

وكان يوسف حنا، من مواليد طنطا، ومن مصر، ويعيش ويعمل في "يافا"..

وكان يعتبر نفسه، استاذا كبيرا كعباس العقاد أو توفيق دياب، ولكنه، بقي محافظا على لهجته المصرية، كما بقي الناس لا يرون فيه أكثر من صحفي أو كاتب مصري، جاء الى فلسطين لكي يكتب ويعيش، دون أي احساس بالانتماء.

ومات يوسف حنا، ودفن في عمان..

ومشى في جنازته عشرة أشخاص!

وبقيت أذكر وصية انطون الجميل لي:

ـ عش في بلدك، واكتب عن الدنيا.

وليس العكس..!

* * *

...ولا السودان داما!

في عام ١٩٤٥ زرت السودان..

وتنقلت بين الخرطوم، ووادي حلفا، ووادي مدني وحقول القطن، ووادي "سيدنا"، قبل سفري الى "جوبا" في قلب افريقيا! وخلال اقامتي في الخرطوم، نزلت في فندق "جراند اوتيل"... وهو الفندق الوحيد الصالح للاقامة والنوم.. رغم أن أبواب الغرف الخشبية لا تغلق ليلا ولا نهارا، ورغم ان الزواحف السامة بأنواعها، تتسلل الى داخل الغرف لكي تصبح ضيوفا

على ساكن الغرفة دون ان تدفع شيئا..

وبقيت في السودان قرابة ثلاثة شهور، أعددت خلالها كتابي بعنوان: "شباب محموم"!

وانقضت مدة أربعين سنة..

وعدت لزيارة السودان في الطائرة الخاصة لعدنان خاشقجي وبدعوة من الرئيس السوداني جعفر النميري. وكان معنا على الطائرة خليط عجيب من ضيوف الرئيس النميري من بينهم "مايلز كوبلاند" رجل المخابرات الامريكية، والصحفي البريطاني "باتريك سيل". ولا أدري لحساب أية مخابرات يعمل.. وغيرهم من اصدقاء النميري، والخاشقجي!

وحجزوا لنا غرفا في فندق "جراند اوتيل". أي الفندق الذي كنت قد عرفته، ونزلت فيه في عام ١٩٤٥!

وبعد مرور ليلة واحدة، لم أذق فيها طعم النوم ترحمت على أيامي في ذلك الفندق عندما عرفته منذ أربعين سنة!

لا راحة! ولا نظافة! ولا خدمة! ولا أمن! ولا أبواب خشبية تكفل الاطمئنان والسلامة..

ورغم ان اسمه ـ ما زال ـ "جراند".. الا انه "صغير" بكل شيء فيه!

وليس فيه الا اسمه، وهجرت الغرفة وعدت مسرعا لكي انام فوق كرسي من كراسي طائرة عدنان خاشقجي الرابضة فوق أرض مطار الخرطوم.

وعند مقابلتنا للرئيس جعفر النميري في اليوم التالي، سمعته يؤكد

انه يعمل جاهدا لكي يبني السودان الجديد، وخاصة بعد اكتشاف البترول وامكانية عقد الصلح بين الحكومة في الخرطوم من جهة، وبين ما يسمى بجيش التحرير في الجنوب من جهة أخرى.

وقلت للنميري ـ على مسمع من خاشقجي وكوبلاند والصحفي باتريك سيل، ان "جون كارانغ"، يعني، قائد قوات الجنوب ـ لا يعمل من أجل

خدمة الجنوب، ولا من أجل رفاهية سكان الجنوب، ولا من أجل حرية وديمقراطية الجنوب، وانما هو يعمل من أجل "تفتيت" و"تحطيم" السودان العربي المسلم، وتجزئته واقتسام خيراته..

ووراء كل ذلك تقف الجهود "الدينية" المعروفة بعدائها للمسلمين عامة، وللمسلمين والاسلام في السودان خاصة.!

وقلت للنميري ايضا: ان مليون اتفاق، ومليون ميثاق شرف، ومليون هدنة بين الحكومة وعمر البشير والترابي، من جهة، والمرغني والصادق المهدي من جهة أخرى، لن ترضي الجنرال العميل "جون كارانغ" ولن توقفه عند حده.

ان كارانغ لا يفهم لغة الدستور أو حقوق الانسان، وقد تعطي الحكومة رأس الدكتور حسن الترابي الى المعارضة كثمن للتفاهم ولكن جون كارانغ لن يهدأ، ولن يسكت، ولن يوافق!

لقد جاء الفريق عمر البشير الى الحكم في عام ١٩٨٩، وبقي الحزبان المتناحران والمتصارعان منذ استقلال السودان ـ أي منذ عام ١٩٥٦ ـ على حالهما من الكراهية والدس والتآمر والمعارضة، مما أعطى "جون كارانغ" الفرصة ـ او الفرص ـ التي يتمناها لكي يستمر في تفتيت السودان وإلهاء الخرطوم بالاشتباكات العسكرية رغم بهلوانياته في التظاهر بعكس ذلك!

متى يدرك زعماء المعارضة حقيقة الخطر الذي يواجه السودان؟ ومتى يفهم المرغني والمهدي، أنهما أصبحا مجرد لعبة صغيرة في يد جون كارانغ.؟

متى.؟

وسألني الرئيس النميري، وكأنه أراد ان ينقلني الى موضوع أو حديث آخر:

ـ هل أنت مرتاح في اقامتك بفندق "جراند اوتيل"؟

وأجبته ضاحكا:

ـ مطلقا!

ثم أضفت:

ـ لا يا سيدي. أبدا! أنا لست مرتاح!

ودهش النميري من جوابي وقال:

ـ هل أنقلك الى فندق آخر.؟

قلت على الفور:

ـ أبدا. مطلقا.

قال:

ـ.لعلنا بحاجة الى فندق جديد في الخرطوم!

قلت: لا! أعيدوا للفندق الخدمة والنظافة كما كانت منذ أكثر من "خمسين" سنة.. على أيام الحكم الثنائي المصري البريطاني وقبل ان تأتيكم نعمة الاستقلال.. وهذا يكفي!

وتبقى أكبر مصائب السودان محصورة في حكومته، وفي زعمائه، وفي المعارضين فيه، وفي قيادة جيش السودان الجنوبي! ولو استطاع السودان ان يتخلص من هؤلاء جميعا، لأصبح ـ بالفعل ـ السلة الغذائية القادرة على أن تضمن الأكل والغذاء لكل اوروبا. أما الآن، فالحياة هناك فساد وأنانية وجهل وأصابع اجنبية تلعب في الخفاء!

وعندما رأيت الناس ينحنون فوق يد "عبد الرحمن باشا المهدي"، ويلثمونها في قصره بجزيرة "البا" عام ١٩٤٥!

وعندما قرأت تفاصيل الصراع بين المهدي، والمرغني... حزب يخدم بريطانيا وحزب يخدم مصر.! وليس فيهما من يخدم السودان.!

وعندما سمعت رأي "محجوب" في الشيوعيين وفي الجنرال عبود..

وعندما اطلعت على مطالب "الجنوب" من حكومة الخرطوم.؟

وعندما "تسليت" بقراءة قصص "الولاء" السوداني الوحدوي لمصر على أيام فاروق.. "ملك مصر والسودان"؟!

يومها، دعوت للسودان بالسلامة.!

يومها، تذكرت شعر شوقي أمير الشعراء في قوله عن السودان:

... فلا مصر استقرت

على حال، ولا السودان داما!

أجل! ولا السودان داما.!

* * *

الاذاعة لمن؟

الاذاعة، كالمدرسة، كالبنك المالي، كالمؤسسة الدينية، ليس من حق أي فرد ان يؤسسها، أو يملكها، أو يطلق اجهزتها على البشر دون رقابة او اشراف رسمي..

وقد كنت مديرا عاما لاذاعة الاردن منذ نصف قرن وتعرفت ما ما يسمى بأسرار العمل الاذاعي لمدة ثلاث سنوات كاملة، وقضيت فترة تدريب خاصة في دار الاذاعة البريطانية، وأشرفت على عمليات اختيار المذيعين، والمطربين، وأفراد التخت الشرقي، وشلة الكورس، والاذاعات الخارجية، وأصبح من حقي أن اقول كلمة في بعض الاذاعات العربية، داخل الوطن العربي، وخارجه، وخاصة اذاعة "الشرق" ـ وهذا هو اسمها ـ في باريس..

ولا أريد ان أدخل في التفاصيل، وأعدد مزايا هذه الاذاعة، أو عيوبها

لكي لا يغضب مني صاحبها الملياردير الاستاذ رفيق الحريري، الذي يصر على أن يجمع المجد من جميع أطرافه، فلا يكتفي بامتلاك معظم صحف لبنان ـ سرا ـ وامتلاك تلفزيون "المستقبل" ـ علانية، مع العشرات من المؤسسات المالية والاعلامية في مختلف انحاء العالم، بل يطرب وينتشي لكي يكون له محطة اذاعة في باريس تتكلم في نصف برامجها بالعربية، وتترك الكلام للنصف الباقي باللغة الفرنسية، مما يترك المستمع في ضياع: هل يستمع الى اذاعة عرب، أم الى اذاعة جاك شيراك. !

وأبادر وأعترف فورا، بأن مستوى الأخبار والنشرات الاخبارية في اذاعة "الشرق" لا ينقصه الكمال، غير ان البرامج الاخرى ـ ترفيهية وموسيقية وأدبية، لا تستحق من ميزانية السيد "رفيق الحريري" فرنكا واحدا!

وهناك "كفاءة" المذيعات، او المذيعين، وهي الكارثة والطامة الكبرى. ان المذيعة الموظفة في اذاعة الشرق، لا تتكلم كما يتكلم بقية الناس، ولكنها تحلم.. وتتدلل.. وتنام.. وتضحك.. وترفع "التكليف" مع المستمعين، وتطلق النكت الخاصة والعامة، وتأكل حروف الكلمة الواحدة لكي تعطيها بعض النغم، وبعض الأنوثة.. ولا اقول، بعض الشهوة!

وهذا كله عيب، وحرام، ولا يليق..

وقد أرادت بعض المذيعات في اذاعة "الشرق" تقليد مذيعات "مونت كارلو" الغارقات في الدلال والتيه والغنج حتى الثمالة، وخصوصا في البرامج الخاصة، فلا نكاد ننتهي من سماع اغنية لعبد الحليم حافظ، حتى نقع في سماع اغنية أخرى لعبد الحليم حافظ.. بل اني لا أعرف برنامجا غنائيا او موسيقيا خاصا يجعل اسمه وعنوانه، مطلع اغنية عمرها أكثر من ثلاثين سنة ومطلعها: "الهوى هوايا!"

وليس من حق المذيع ان يتيه فخرا وانتفاخا ويردد، في كل مناسبة ـ وبدون مناسبة ـ أنه ـ وخلال الساعات الثلاث الماضية ـ كان مع

المستمعين الكرام في تقديم المواد التالية... "فلان وفلان.. واحصاءات.. ونقد.. ومعرض ثقافي وفني.. ونشرة أخبار الطقس.. وما أحلاك يا باريس!

الاذاعة حرمة واحترام.. وفخر لكل بيت وكل عائلة.. وهذه مبادىء يعرفها ويلتزم بها ـ في السياسة العامة ـ صديقنا المشرف والمستشار على الاذاعة المذكورة الاستاذ نبيل خوري شفاه الله وعافاه! أعني ان المصيبة ليست في نشرات الاخبار ولا في السياسة العامة! انها ـ فقط ـ في دلال المذيعات. وفي كلامهن.. ودلالهن.. وغنجهن.. وثقل دمهن! وفي محاولة صيد العشاق عن طريق الأغاني المكشوفة.. البذيئة!

ـ عيب!

* * *

شام يا شام...

أنا عرفت الشام ـ وأعني سوريا ـ في كافة مراحلها التاريخية المعاصرة.!

عرفتها في أيام الانتداب الفرنسي.. وسلطة الشيخ تاج الدين الحسني اياه. وعرفتها في بدء ايام الاستقلال.. من حسني الزعيم في ٣٠ مارس عام ١٩٤٩، الى الشيشكلي، الى الحناوي الى حكومات خالد العظمة الى حكومات الكتلة الوطنية، وشكري القوتلي، وجميل مردم.. بالاضافة الى سعد الله الجابري زعيم حلب، ورشدي الكخيا، وهاشم الأتاسي.. الى ايام الوحدة ودسائس عبد الحميد سراج ومؤامرات اكرم الحوراني، وبرامج حزب البعث العربي الاشتراكي، وعنتريات صلاح البيطار، وصولا الى نكسة عام ١٩٦٧ وفتح أبواب السجن والتشرد أمام "بعضهم"،

ومجيء رجالات العهد الحالي الى سدة الحكم، وعلى رأسهم حافظ الأسد.

وما أكثر الجلسات التي قضيتها في مدينة "جنيف" برفقة السياسي السوري الداهية، جميل مردم وهو يحدثني عن أسرار السياسة السورية بعد الاستقلال..

ما علينا..

لقد رأيتهم يغتالون الدكتور عبد الرحمن الشهبندر!

ثم يمشون في جنازته ويبكون عليه.!

ورأيتهم يبايعون الشيشكلي وقبله حسن الزعيم ثم يصرعونهم بالرصاص.!

وهذه هي ـ دوما ـ اساليب أبطال السياسة السورية:

كرّ، وفرّ! ومظاهرات وانقلابات! واتحاد وانفصال! وقبلات وصفعات.. وأعراس ومآتم!

ويقال، كما سمعت في عام ١٩٩٨، ان النية تتجه يومذاك الى تهيئة الشاب بشار الاسد ليصبح خليفة لوالده الرئيس الحالي حافظ الاسد..

ولكنهم قالوا ان الدستور السوري لا يسمح ما دام "بشار" لم يبلغ بعد الاربعين من العمر.

وأنا اقول: ولماذا لا يتسلم الابن بعض المهام الدستورية ـ من الآن ـ والوالد ما زال على قيد الحياة قادرا على الحل والربط؟

وقالوا ان "الطائفة" تعارض في ذلك!

وقلت: ولكن الطائفة لا ترشح أحدا بالذات. ولن يكون لها أي مرشح! في المستقبل القريب!

وقالوا ان الأمر منوط بالقيادة القطرية للحزب.

وأنا اقول: ان التسلسل الدستوري قادر على ايجاد الحل المطلوب حيث تكون البداية في الترشيح، ثم الموافقة، ثم المضي في تنفيذ خطوات دستورية معينة حيث يصبح "بشار الاسد" كخطوة اولى نائبا للرئيس.. الى ان يحين الوقت المناسب.!؟

ترى لماذا أكتب كل ذلك؟؟

والجواب: لأني أرشح واؤيد الشاب بشار الاسد كرئيس قادم لسوريا خليفة لوالده الرئيس الحالي.

وهذا ـ بالضبط ـ ما يريده الأب الذي حكم طويلا وأعطى كثيرا!

بل، وهذا ما يفرضه المنطق والعقل ومصلحة سوريا نفسها!

وبشار، ابن الخامسة والثلاثين، كما عرفت وسمعت ورأيت، شاب ذكي العقل، على جانب كبير من الثقافة "الطبية". حيث تخرج من كلية الطب البريطانية في لندن بعد ان قضى فيها مدة خمس سنوات طوال.

وقد قرأ كثيرا ونهل كثيرا من الثقافات الجامعية الاخرى.

وهو شاب طموح، وجريء ومؤدب، ويمارس حاليا كثيرا من مسؤوليات الحكم باستثناء قصة السلام مع اسرائيل.

ومرة أخرى اسأل نفسي:

ـ لماذا أكتب كل هذا عن بشار الاسد ما دام والده على قيد الحياة وما دام بشّار في مستهل الشباب؟

والجواب: لأني عرفت السياسة السورية عن ظهر قلب. ولأني أدرك مدى "الملل" الذي يبقى دوما طابع الحياة السورية ويؤدي ـ دوما- الى التغيير.. او الانقلابات! ولأني أقول بأن مثل هذا الملل، او هذه الانقلابات لم يعد مسموحا بها بعد اليوم، وعلى الحدود الجنوبية الغربية تقف اسرائيل بكل مطامعها وكل امكانياتها.! وأخيرا، لأني أعرف ان حافظ الاسد "المعلم" هو صنو حافظ الاسد "الأب"، وان بشار الابن لن يتولى زمام

السلطة الا بعد ان يكون قد استوفى الدرس المطلوب، ونجح في الامتحان على يد الأب المعلم.. والرئيس.!

أنا يهمني خير سوريا كما يهمني استقرارها وهدوء سياستها! وقد يكون في تولي الشاب بشار الاسد السلطات من أبيه الآن، ما يضمن للسوريين وللعرب بعض الاستقرار المرجو..

ومرة أخرى: ان ما كان يجري بالامس البعيد في حياة سوريا لم يعد اليوم معقولا ولا مقبولا.

هاتوا بشار، وكفانا انقلابات وحروب، و"جولان محتلة" واحدة!

أنا أكتب هذه السطور في العام الأول من القرن الجديد، بينما «صحة» حافظ الأسد، وحياته، وصفحات عمره، ما زالت في يد القدر!

أجل! هاتوا "بشار" فقد أعطتني سوريا في ملاعب ذكرياتي كثيرا من البسمات والانتصارات، وأعطتني بعدها كثيرا من الانقلابات والمؤامرات والهزائم.. والآلام!

ان تأمين الخلافة في الحكم السوري، تبقى أهم الف مرة من تأمين "الخلافة" في تونس.. او القاهرة.. او اليمن السعيد!

وأخيرا، لم يبق لنا ـ ملاذا للكرامة والصمود ـ سوى سوريا والأسد. اقولها كمقدسي، فلسطيني عربي، لم يترك عاصمة عربية واحدة، لم أكتب في صحافتها، ولم اترك زعيما عربيا واحدا لم أقابله ولم أسأله.. ولم أدرسه ولم أكتب عنه..!

لقد اصبحت سوريا، كما كانت في تاريخها دوما، جزءا من بلدي! وكل من يطلع منذ عامين على صحافة اسرائيل او اذاعاتها او احاديث زعمائها يفهم ما اريد ان اقول. لقد سقطت معظم السدود، وتحطمت معظم الآمال، ولم يبق في الميدان الا حميدان!

احرصوا على "حميدان" لئلا تكتمل الكارثة، ونبكي على القدس

والأقصى، قبل ان نبكي على دمشق، وعلى المسجد الأموي!

.. وعلى حافظ الأسد!

* * *

منذ ٥٠ سنة!

منذ "٥٠" سنة، وبالتحديد يوم الاثنين في ١٢ حزيران سنة ١٩٥٠، صدر العدد رقم "١٧" من مجلة "الهدف" ـ وشعارها مجلة "السياسة القومية والأدب القومي" ـ ورئيس تحريرها الاستاذ برهان الدجاني، وفيها مقال للاستاذ الصحفي الراحل يوسف حنا مع مقال لي..

في مقال "يوسف حنا" رئيس تحرير جريدة "فلسطين" عن "حرية الفكر والصحافة" يقول:

".. يعنى البرلمان الاردني في مناقشاته عن حرية الصحافة في البلاد اكثر من عنايته بأجل الشؤون قدرا وخطرا.."

ثم يقول:

".. وحرية الصحافة هي حرية الفكر.. والفكر هو العقل، وهل ينحاز الانسان عن الحيوان الا بالفكر والعقل؟ وتعطيل حرية الفكر هو تعطيل للميزة التي نتميز بها عن الحيوانات، والتي نفرق بها بين الخير والشر.. وعندما عطلت جريدة "الدفاع" قرأت برقية في صدر الصفحة الاولى لجريدة "الاهرام" عن أسباب التعطيل وكان مصدر البرقية "ليك ساكسس" فعجبت لذلك، ثم اجتمعت بموظف كبير من رجال الامم المتحدة وعلمت منه ان البرقية صادرة فعلا عن "ليك ساكسس" لان لهيئة الامم المتحدة دستورا

يضم بين ما يضم بندا عن صيانة حرية الفكر في العالم المتحضر من العبث والمصادرة!". ثم ينهي مقاله قائلا: "ترى هل يدرك المسؤولون العرب مبلغ ما ينال البلاد من سوء الدعاية في الخارج بسبب تعطيل الأداة التي وضعها الله فينا لنفترق بها عن الدواب؟".

كان تاريخ هذا الكلام ـ كما قلت منذ اكثر من (٥٠) سنة.!

وفي المجلة المذكورة، تاريخ ١٢ حزيران ١٩٥٠ المقال التالي لي، لناصر الدين النشاشيبي، عنوانه: "مخلفات"! هاجمت فيه الزعيم البريطاني الذي تتبارى الاوساط العربية الرسمية يومذاك للاشادة به كونه "بطل النصر" في الحرب ضد هتلر.!

قلت: ".. مخلفات البيت، ومخلفات الحرب، ومخلفات الجيوش، ومخلفات الأكل والشرب واللهو والسهر، كلها مخلفات! أما مخلفات اليوم، فهما رجلان من لحم ودم، اولهما تشرشل، وثانيهما اللورد ايمري! ولقد بعث الاول برقية الى اصدقائه اليهود يهنئهم فيها باليوبيل الفضي للجامعة العبرية في القدس ويعلن في سطورها بتبجح لا تنقصه الصفاقة وفخر لا يعوزه الغرور انه ـ أي هذا التشرشل ـ صهيوني صميم وابن صهيوني صميم.!"

وقلت: ".. ومن سوء حظنا، ولعله من حسن حظنا ـ ان يكون رجل كتشرشل احد الذين قاموا برواية وعد "بلفور" الشهيرة.. ولعله ادرك اليوم ان شمسه المتلألئة قد أوشكت على المغيب وعرف ان دنيا اليوم تختلف عن دنيا الامس، فراح يتهافت على التمسح باليهود ويعلن صهيونيته! وأيها الخجل أين حمرتك!؟

وقلت في مقالي المذكور متابعا:

".. اما الثاني ـ اللورد "ايمري" ـ ضيف الشرف عند اسرائيل في هذه الايام.. فهو من هدايا القرن الاستعماري الراحل الى القرن العشرين وهو

ايضا من الذين ولدوا في سياسة الدس والكيد وتصميم الخوازيق وتنفيذ الاستعمار، وله النصيب الدنس في المساهمة برواية وعد "بلفور".. فهو الذي كتبه بيده وتفنن في سبكه بالابهام والعقد، ورغم كل ذلك، لم يستطع ان يمنع ابنه من الارتماء في أحضان المانيا النازية خلال الحرب الاخيرة، وها هو الأب يرتمي اليوم في أحضان.. اسرائيل التي جلد ابناؤها امس جنود الانجليز وعلقوهم على أشجار البرتقال !_

وأنهيت المقال بالعبارة التالية:

"... لقد حان الوقت لكي نرى مخلفات لندن من أمثال تشرشل وايمري ومن شابههما من رجال الاستعمار والصهيونية تلقى المصير الذي تلقاه مخلفات الجيوش ومخلفات البيوت ومخلفات اللهو والسمر.. كلها الى المحرقة او الى سلة الزبالة.." !

وكان هذا بالضبط منذ نصف قرن وتسعة أشهر !

وفي الحرب العالمية الاولى، مشى العرب مع لورنس والحلفاء، وجاءهم الجزاء في وعد بلفور، والانتداب.. والظلم والاستعمار!

وفي الحرب العالمية الثانية، مشى العرب مع تشرشل والحلفاء، فجاءت النكبة وجاءت معها اسرائيل !

هذه واحدة. والثانية تتعلق بمصر وأخطب خطبائها معالي مكرم عبيد باشا !

ففي التاسع من اكتوبر من عام ١٩٤٤، صدر القرار الرسمي الملكي في القاهرة باقالة وزارة مصطفى النحاس باشا التي تولت الحكم في ٤ فبراير عام ١٩٤٢ "على أسنة الدبابات" البريطانية التي حاصرت قصر "عابدين" وأرغمت الملك فاروق على ان يأتي بالنحاس رئيسا للوزارة...

وفور اقالة الوزارة، وقف الوزير مكرم عبيد باشا في جموع المهنئين وألقى من شرفة وزارة المالية بالقاهرة خطابا في جموع المهنئين ما زال

محفوظا حتى اليوم في وجدان المصريين، وفي عقولهم، آية مشعة من آيات البلاغة والجرأة والعبقرية..

وكنت واقفا بين تلك الجموع التي توجهت الى ميدان الوزارة، استمع الى كلمات مكرم باشا بقلبي وعاطفتي وحبي الكبير، وكان ذلك في منتصف يناير عام ١٩٤٥، قال مكرم باشا في خطبة تصلح ان تكون البيان الرسمي لكل وزير شريف:

ـ اللهم لا شماتة بل عبرة وتذكيرا، اللهم لا انتقاما بل قصاصا وتطهيرا! اللهم لا استغلال للحكم ولا محسوبية ولا فوضى، بل نزاهة في الحكم وحكمة وتدبيرا. اللهم لا تنصفنا على حساب مواطنينا بل أنصف مواطنينا على حسابنا! اللهم غني عن الغنى. اللهم لا ميلا مع الهوى بل ميلا عن الهوى. اللهم دينا عن الدنيا او فارفع دنيانا الى مستوى الدين. اجعلنا نحن المسلمين لك وللوطن أنصارا ونحن النصارى لك وللوطن مسلمين! اللهم ملكا صالحا لمليكنا الصالح. اللهم لا تحرمنا منه ولا تحرمه منا. اللهم ارفعنا به وارفعه بنا. اللهم أدم للأمة شبابه وافتح على الدوام بابه. اللهم أبعد عنا ـ وعنه ـ شيطان الغرور، وشيطان المغرور، لتصغر نفوسنا دون صغار، ولتكبر دون استكبار، ولنكبرك أنت على الدوام تكبيرا! اللهم لقد أكرمت شخصي باعتقالي، فأكرم الأمة بأعمالي. اللهم سبحانك فيما ارتضيت وفيما أرضيت فقد هيأت لي من يذكرني عند ربي فجعلني على خزائن الارض أمينا، بعد ان كنت في زاوية من زوايا الارض سجينا.."

ودوت الدنيا بالتصفيق! والهتاف! والحماس الشعبي الهادر!

وكنت واحدا بين الذين صفقوا في ذلك اليوم للأدب، والخطابة، واللغة، والمعنى، والشرف!

وتمنيت على وزراء بلدي التشبه بهذا الرجل.!

وقلت في دعاء مختصر وصغير:

ـ اللهم امنح أمتي وبلدي وزراء مثل مكرم عبيد!

وكان أديب العربية "اسعاف النشاشيبي" يقول مخاطبا ومداعبا صديقه مكرم عبيد باشا ـ الوزير المصري القبطي:

ـ ان الاسلام أولى بمكرم!

وأنا اقول:

ـ ان القدس أولى بمكرم!

ولكن...

لقد رحل مكرم قبل ان يشهد غروب شمس بلدي!

* * *

اسئلة مازالت تطرق رأسي!

ليس من حق الكاتب ان يستسلم للنوم بمجرد ان يضع رأسه على الوسادة! ان عليه أن يفكر في بعض الصفحات التي كتبها ويفكر ايضا في الكثير من الصفحات التي لم يكتبها وانما سيكتبها! واذا اتسع به القلق وتشعب التفكير وطاردته الاسئلة الملحة والمتعلقة بأشخاص يعرفهم او قضايا يعرفها او مشاكل يتمنى لو انه ينساها، عندئذ يتحول القلق عنده الى ألم.!

وكنت أظن دوما، انني قادر على معالجة الألم.. بالقلم! وأن أرفع من عيني كابوس الراحة والنوم واعود الى الكتابة، حتى يطمس الحبر غيوم الهواجس المؤلمة في تلك الاسئلة الحائرة..!

وقد كتبت كثيرا هربا من القلق الدائم، او علاجا لآلام القلق الطارئة، ولكني عجزت عن الوصول الى النتيجة التي أريدها، فقد تضخم حجم الكتابة، ورفض القلق ان ينتهي او يرحل. !

لماذا القلق، وبماذا أفكر؟ وما هي تلك الهموم؟

وأجيب: لقد عشت وتنقلت ـ على مدى السنوات الطويلة من عمري ـ في مختلف بلدان العالم، ولكن القدس بقيت بلدي الدائم! والعيش في بلد مثل بلدي هو هم كبير!

وإلا: لماذا لا استطيع ان أنسى كل ما شاهدته مفصلا يوم "٩" ابريل من عام ١٩٤٨ في شوارع قرية "لفتا"، وشوارع "دير ياسين" في ضواحي القدس .. الغربية؟

في ذلك اليوم، منذ ٥٢ سنة، كنت مراسلا لصحيفة "المصري" الوفدية الصادرة في القاهرة، ورأيت بأم عيني مذبحة "دير ياسين". !

ورأيت أعمال النهب في شوارع القدس.. دون ان يتدخل لمنعها أحد.. عربي أم بريطاني أم يهودي!! لماذا؟

وفي ذلك الاسبوع بالذات، وفي الحي الذي أسكنه ـ الشيخ جراح ـ شن الثوار العرب هجوما على باص يهودي كان ينقل خمسين استاذا وطبيبا في الجامعة العبرية وفي مستشفى "هداسا" على جبل الزيتون. !

ورأيت الدماء. وسمعت الاستغاثات. وحتى اليوم لا استطيع أن أنسى!

والعرب الذين لجأوا من القدس الغربية الى الشرقية بالمئات، ومعهم أطفالهم ونساءهم، بحثا عن السلامة، بعضهم نجا وبعضهم سقط، وبعضهم قضت عليه المدافع والرصاص!

كنت أتلفت حولي فلا أجد الا الموت والخراب.. في عدة صور مذهلة!

لا كهرباء ولا ماء! والبلدة القديمة تشكو العطش. وحي "وادي الجوز" يشكو الجوع! ومياه "عين فارة" لم تصل!

وقيل ان بعض الضباط الانجليز، سحبوا من صفوف الجيش الاردني؟

وقيل ان الكونت "فولك برنادوت" أصدر مشروعه يوم "١١" يونيو عام ١٩٤٨ ولم نكد نقرأه حتى سمعنا في "٦" يوليو ان اسرائيل رفضت المشروع بأكمله، وان ضباط الجيش الاسرائيلي قد وقفوا على مشارف الخط الفاصل بين شطري القدس وراحوا يصرخون في مكبرات الصوت مخاطبين الجنود العراقيين، وباللغة العربية، واللهجة العراقية المعروفة:

- عودوا الى بلادكم لأن "الرجال" في العراق يعتدون على نساءكم.. وينتهكون أعراضكم!!

وبدأ الاحتلال اليهودي للقدس وبدأت عمليات النهب والسلب مع حرق البيوت وقتل السكان بالجملة..!

وفي يوم ١٨ مايو ١٩٤٨ بدأ الهجوم على ٣ جبهات. وتم احتلال أحياء دير "ابو طير" ثم جبل "صهيون" ولم يدخل الجيش الاردني المدينة إلا في يوم ١٩ مايو.!

وفجأة، رأينا سيارات الشحن اليهودية تنقل "بعض" الذين لم تقتلهم العصابات الصهيونية من سكان "دير ياسين" العرب، وتعرضهم كالغنم في شارع "يافا" وفي الأحياء اليهودية، فينهال عليهم اليهود بالضرب.. والشتيمة.!

ثلاثمائة قتيل في قرية دير ياسين وحدها... وفي يوم واحد!

وهرب من أهل القدس العرب: "٢٥" الف مسيحي، و"٢٠" الف مسلم... باتجاه الشرق.. والشمال!

واحتل اليهود أجزاء من حي "الشيخ جراح"، في شمال بلدي، وأجزاء من حي "القطمون"، قبل نهاية الانتداب، أي في "٢٥"وفي "٣٠" ابريل من عام ١٩٤٨!

ورحل المندوب السامي البريطاني من القدس الى حيفا، في صباح "١٤" مايو ١٩٤٨، ومنها الى بريطانيا.. لآخر مرة وآخر حاكم، في ذلك اليوم،

لم يعد موجودا في القدس جندي بريطاني واحد. !

وقد رأيت كل ذلك بأم عيني!

وجاءت الأخبار عن المذابح التي نفذها اليهود ضد السكان العرب في قرى كالونيا.. وعين كارم.. والمالحة.. ولفتا. !

وسمعنا كل شيء..

ورأينا كل شيء..

وأبرقت الى صحيفة "المصري" من مكتب الصحافة الخاص في عمارة "ديفيد" بالقدس، بالتفاصيل.. وبكل شيء!

ولكني - حتى اليوم - لا استطيع ان أنسى. !

كنت اقول دوما ان الكلام عن التاريخ نصفه كذب لارضاء الحاكم، ونصفه كذب لارضاء الكاتب! ولكني اليوم لا احتاج الى جهة أكذب عليها! لا يهمني الحاكم الذي رحل، ولا يهمني ان أكذب على نفسي بغية ارضائها! فلماذا لا تريد ذاكرتي ان تنسى؟ لماذا؟

وكنت طيلة أيام الحرب العالمية الثانية، اسأل نفسي أحيانا وبوجوم ودهشة: "أليس عند العرب شخص أتفه من العراقي المدعو يونس بحري، وأرخص منه، وأقل قيمة من شخصيته، حتى نختاره ليكون رئيس دعايتنا ومحامي قضايانا عند أدولف هتلر.. زعيم المانيا الكبير؟

ومن هو فوزي القاوقجي؟ ومن أرسله الينا؟ ولماذا؟

ومن هو "طه الهاشمي"؟ من وراءه وماذا أراد؟

ومن هو أحمد عبد اللطيف؟ ولماذا أوقف الجيش المصري عند بيت لحم ولم يدخل القدس؟

من هم هؤلاء؟ من هم؟ ولماذا جاءوا. !

ومن أرغمنا حتى نسلمهم أرضنا، وعرضنا، وقضيتنا، للدفاع عنها في

وجه اليهود؟ واذا كانت الامور تقاس بنتائجها فلماذا لا نلعن جميع هؤلاء؟ ونكشف للدنيا تفاصيل خياناتهم؟؟

كان عبد الحليم حافظ مطربا سماويا، ولكنه كان ـ ايضا ـ يحرص على ان يلتقي بصديقه المشير عبد الحكيم عامر، في كل مساء، وينقل اليه أسرار البلد. ! وأخبار الناس. !

لماذا كان عبد الحليم يفعل ذلك؟ ولماذا يتحول المطرب الفنان الى.. شيء آخر؟

ولماذا كانت تلك الفتاة المصرية نوال المحلاوي ـ سكرتيرة الصحفي "محمد هيكل" في "الاهرام" تتجرأ على طرد زعماء عرب كبار مثل صائب سلام، وسليمان فرنجية، وصديق شنشل، وفائق السامرائي، من مكتبها عندما يدق أمامها جرس التلفون الابيض الخاص ويكون عبد الناصر على الخط يطلب الحديث مع هيكل..؟؟

لماذا هذه الاهانات المتعمدة حيث كان هؤلاء الزعماء ينتظرون الدخول الى هيكل تمهيدا للوصول الى عبد الناصر؟ وهل يجوز معاملتهم كأسرى أو جواسيس!؟

ولماذا نسكت على تدخل وكالة المخابرات الامريكية في صميم قضايانا الامنية قبل ان ينتهي عام ١٩٩٩، وقد عشنا أيام عمرنا ونحن نلعن هذه الوكالة في مقالاتنا، وتعليقاتنا وأحاديثنا، وننسب اليها كل ما أصابنا من نكبات ومصائب، منذ ويلات ١٩٤٨ حتى اليوم؟ ألم يعطنا جمال عبد الناصر الف درس من تلك الدروس التي تلعن امريكا، ووكالة مخابراتها؟

حقا لماذا؟ لماذا أصبح من حق هذه المخابرات ان تترأس اجتماعات القيادة الفلسطينية مع المسؤولين الاسرائيليين؟

وما سر هذا الاحباط الذي أصاب العرب بعد التوقيع على معاهدات السلام مع اسرائيل؟

هل لأن المال الموعود لم يصل؟

ولكن من قال ان العرب بحاجة الى مال... وعندهم كنوز الدنيا؟

اذن لماذا؟

ان مصر تأخذ "ثلاثة مليارات" دولار سنويا من امريكا مقابل الكارثة التي اسمها: "كامب دافيد"... بعضها قروض وبعضها أسلحة.. ومع ذلك تبقى الشكوى المصرية ضد السلام تصل الى عنان السماء، لماذا؟

حقا لماذا؟

ترى، هل ألغى الاردن، والغى البرلمان الاردني، قرار المقاطعة الاقتصادية لاسرائيل بعد التوقيع على معاهدة السلام!؟

ان المعروف ان برلمان الاردن قد وافق على معاهدة السلام مع اسرائيل، وبالتالي فان ذلك يعني الغاء كل ما كان موجودا من قوانين سابقة، ومنها المقاطعة...

ترى، ماذا جرى بالمقاطعة بين عمان وتل ابيب؟ ماذا؟ ولماذا؟

وماذا يقول الاردن في كل ما تقوم به اسرائيل من مصادرات وهدم وشراء داخل "القدس" الغالية او حولها.. وقد كانت القدس بالذات، الى أمس القريب جزءا من المملكة الاردنية الهاشمية؟

ان الصدى على المستوى الشعبي، يدوي كالرعد!

والصدى الأدبي والاجتماعي، يصل الى عنان السماء..!

ذلك ان القدس ليست قضية محلية! لا هي اردنية فقط ولا هي فلسطينية فقط. ولن تكون! ماذا اذن.. ولماذا؟

ان مصر تتسابق دوما الى احتضان المؤتمرات الاقتصادية عندها.

لماذا؟

لماذا تريد مصر ان تحتضن سائر المؤتمرات الاقتصادية عندها؟

هل انتهى التحضير للمؤتمر القادم؟ وهل أثمرت نتائج المؤتمرات الاقتصادية الثلاث "السابقة" التي عقدت في عمان، وقطر، والمغرب، حتى نستعد للمؤتمر الرابع؟

ومتى يفهم زعماء بلادي الحقائق التي تقول:

لا مال بلا سياسة..!

ولا سياسة بلا مال..!

ولا مال ولا سياسة بلا عدالة..

ولا عدالة ولا مال ولا سياسة، بلا شمول..!

متى؟! متى؟!

متى نفهم ان "شمعون بيرس" ـ اياه ـ هو وحده صاحب فكرة المؤتمرات الاقتصادية كلها، وهو محاميها ومهندسها؟ وايضا: ان اسرائيل على اختلاف عهودها بين الليكود والعمل، ترفض الالتزام بالقرارات الدولية حول عودة اللاجئين والتعويض عليهم، بحجة مرور الزمن.. ومرور الوقت..!

ولكن اسرائيل ـ هي اسرائيل ـ تتمسك بحقها في الأرض والمياه والهواء وكل شيء يخصنا ـ نحن العرب ـ بحجة دينية عمرها الفي عام، وحجج سياسية مثل وعد بلفور، وغيره، وعمرها كلها يزيد عن خمسين سنة!

عجبا، تنسى اسرائيل قرارات عمرها "٥٠" سنة، وتتمسك بترهات عمرها ألفي سنة؟!

لماذا؟

ولماذا كان اصرار الملك عبد الله ـ الاول ـ على الزعيم اللبناني الراحل رياض الصلح للمجيء الى "عمان" في عام ١٩٥٠، رغم تردد رياض بك وعدم رغبته في اتمام تلك الزيارة، الى ان جاء الضيف الكبير وأجرى الحديث اللازم وكان القتلة بانتظاره في طريق عودته من القصر الملكي الى مطار عمان، واطلقوا عليه النار، وأردوه قتيلا!

لماذا جاء رياض الصلح الى الاردن؟ ولماذا كان اصرار الملك على مجيئه؟ وهل كان هناك أي ترابط بين مقتل رياض الصلح يوم الاثنين في عمان، واغتيال الملك عبد الله، يوم الجمعة في القدس، وفرق الزمن بينهما لا يتعدى أربعة ايام؟!

لقد طلب مني الملك عبد الله، وكنت يومذاك "أمينه ومستشاره ورئيس تشريفاته" ان أشرف على كل التفاصيل حول اعادة جثمان الضيف الكبير الراحل الى مسقط رأسه في بيروت. وقد وقفت بجانب الجثمان.. ورأيت مكان الرصاصات.. وبكيت على رياض الصلح ولا زلت أذكر ساعات ذلك اليوم الأسود..

ولماذا جاء رياض بك الى عمان من بلده، لماذا؟

ولماذا تبقى تلك الصور الدامية في ذهني وفي ذاكرتي رغم مرور نصف قرن عليها!

وهل كان "حلف بغداد" يستحق "كل" هذه العداوة من جمال عبد الناصر حيث جرى "شرخ" الصف العربي بين بغداد والقاهرة، وتقسيم العرب بين العراق ومصر، وتجميد الجامعة العربية، وانصراف اسرائيل الى بناء المستوطنات وتحويل مياه الاردن، واقامة لوازم الدولة..

وهل أصبح العراق أكثر أمنا، وأوفر ثروة، وأقوى بنيانا بعد ثورة "قاسم" و"عارف" منه على زمن عبد الاله ونوري السعيد وصالح جبر، والمدفعي، وعلي جودت، وأحزابهم؟

وهل كان عبد الناصر سيقاوم حلف بغداد، ويثير الدنيا فوق رؤوس حكام العراق، لو أن الحلف كان يحمل اسم حلف "القاهرة"، لا حلف بغداد، ويعود بالنفع المالي، والعسكري، على مصر، لا على العراق؟!

* * *

وماذا عن اليمن.؟

لقد سألت ذلك المسؤول اليمني الكبير خلال زيارتي لليمن في عام ١٩٩٦ عن "من هو" زعيم المعارضة اليمنية.. وأين يقيم.. وما هو عنوانه.. فأجابني ضاحكا مع بعض التهكم والافتراء:

ـ انه صاحب اللقب السعودي.. فلان ويقيم احيانا في الرياض واحيانا يزور مدن الحدود في جيزان وغيرها!

ترى، من هو صاحب هذا "اللقب" السعودي الذي يمنع الوصول الى تسوية الحدود بين اليمن والسعودية؟

وما سر هذا الاتهام... ! وهذا الافتراء؟

ولماذا يتبرع صاحب اللقب بالقروض والهدايا الى تلك الشخصية اليمنية الكبرى طمعا في الابقاء على الخلافات المستعرة بين شخصيات اليمن الحاكمة؟

وماذا يقول الرئيس علي عبد الله صالح، في مثل هذا الوضع، الذي لا يتفق مع سياسة حسن الجوار، ومراعاة حقوق الأشقاء..!

ترى هل استطيع أن اروي قصص الرياض دون ان أغضب مني اليمن، وهل استطيع ان أروي قصص اليمن بدون ان تغضب مني الرياض؟

لقد كان لنا اهل فلسطين ـ حصة في المصالحة التاريخية التي تمت بين الملك عبد العزيز آل سعود، والامام يحيى حميد الدين عام ١٩٣٤، وجرى فيها الاتفاق على رسم الحدود!

ألم يكن الحاج امين الحسيني، مفتي القدس يومذاك، عضوا في لجنة التوفيق التي حققت تلك المصالحة؟

يكفي..!

* * *

ومن هي هذه الدولة العربية موريتانيا التي جعلوها عربية رغم أنوفنا، وأدخلوها الجامعة العربية، رغم ارادتنا، وائتمنوها على أسرارنا فاذ بها قاعدة للعمالة الامريكية، ومسرحا للتجسس مع اسرائيل!؟

من هي موريتانيا وما هي قيمتها في سوق الدول، وفي سوق العروبة، وفي سوق الشرف والكرامة؟

ومن هم حكامها الصغار حتى يلبسون ثوب النمور وينزلون الى حلبة المصارعة وهم يصرخون: هل من مصارع؟ هل من مقاتل؟.

واذا خرجنا الى العالم الخارجي.. وبالتحديد الى روسيا، أليس من حقنا ان نسأل: متى يحق للعالم ان يطلع على فضائح الفساد في روسيا؟ ومتى يعرف الناس مدى النفوذ السيء للرئيس "بوريس يلتسين" في ادارة ما يسمى بالمافيا الروسية التي تشرف على جمع الاموال ووضعها في يد اثنين من كبار اليهود الروس، احدهما واسمه: "بيزوفسكي".. والثاني واسمه "جوزنسكي" وكلاهما من اصحاب المليارات، وكلاهما يملك العشرات من المؤسسات الاعلامية والتلفزيونية وكلاهما يؤدي واجبه في تزويد السيدة ابنة "الرئيس يلتسين" بكل ما تريده من أموال..

الحقيقة ان قضية الشيشان قد تصلح لكي تصبح الغطاء الذي يتمناه "يلتسين" ويعلن بموجبه حالة الطوارىء ويؤجل الانتخابات القادمة في الصيف خوفا من ان يفوز الخصوم ويفضحون الامور.!؟

وبالنسبة لنيويورك واسرائيل، أليس من حق العرب، التعرف الى شخصية السيد "آريه جنجيو" الملياردير اليهودي الامريكي وملك الصناعات العسكرية، ومدى صداقته ومساعداته للوزير اريئيل شارون زعيم الليكود الحالي.!

اسئلة مزعجة وملحة تدق رأسي بلا هوادة ولا انقطاع.

* * *

ان الصحفي الذي يعالج قضايا بلاده، هو الصحفي الذي يعيش تلك القضايا. وليس من شك في ان الذي يعيش قضايا بلده هو الذي يحمل همومها. وأول مظاهر الهموم، كل ما يصدر عن تلك القضايا من اسئلة، وحيرة وقلق.. وعذاب! لقد استبدت بي هموم التفكير في كل مستوطنة اسرائيلية جديدة تحاصر بلدي! وما زلت استسلم لعذاب التفكير في أزمة المياه، والمصير القادم! وعندما أستعرض ملاعب ذكرياتي، لا أجد فيها الا القليل من السعادة، والكثير من التعب.. مع الارهاق النفسي! وهكذا بقيت أردد قول شوقي وغناء عبد الوهاب، أحيانا، وبعض الأحيان:

أأنا العاشق الوحيد لتلقى

تبعات الهوى على كتفيا!؟!

* * *

ماذا رأيت في... البرازيل؟!

كنت في البرازيل في عام ١٩٨٧، وشعرت بالدهشة والفرح عندما رأيت مدى "الغزو" العربي للحياة التجارية، والاعلامية والاقتصادية في مدينة "ريودي جينيرو" وغيرها.

ان مدير أكبر محل لبيع المجوهرات ــ واسمه روديتي ــ هو السيد جوزيف خوري.. من لبنان!

ان "كميلو نادر" هو صاحب أكبر مخزن لبيع ثياب النساء وأدوات الزينة في مدينة "ريو"، وفي شارع ديموriاس في قلب البلد، بالذات!

ان أشهر صحفي في دنيا البرازيل هو المستر، او الاستاذ "سويد" من بيروت!

ان "جوان سعد" اللبناني ــ السوري هو صاحب شركة "بدي زفتي"

للتلفزيون والاذاعة، وهو من قرية راشيا اللبنانية، وصهر السيد أديماروي باردوس" حاكم سان باولو السابق!

ان هناك جريدة "المنارة"، وصاحبها "ادوار رزق"، وكذلك جريدة "الانباء"، وصاحبتها ماريا فاخوري، وهناك عشرة صحف تصدر بالعربية والاسبانية، واصحابها كلهم، من العرب!

وهناك المليونير اللبناني السيد "نحاس"...

وهناك عائلة صفرا اللبنانية الأصل اليهودية المذهب...

مع الكثير من الاسماء والمناصب التي تبرهن على مدى نشاط الجالية العربية في العمل، والتقدم، والنجاح!

وعندنا في بلادنا الصغيرة ـ أعني رام الله وغزة وبيت لحم ونابلس ـ الكثير من محطات التلفزيون ومحطات الاذاعة المحلية!

بعضها رسمي حكومي يخص حكومة اسرائيل، وبعضها يخص السلطة الوطنية!

والباقي يخص فلان وفلان، من أثرياء الوطن!

وقد اعتدت ان اسمع في معظم ايام الاسبوع، صوت مذيع من راديو الناصرة، او معلق من تلفزيون بيت لحم، يطلب مني ان أقول شيئا عن أحداث ايرلندا، او وفاة الملك الحسن، او وصول السيدة "مادلين اولبرايت" بشحمها ولحمها الى أرض الوطن! أحيانا ألبي الطلب.. وأحيانا أعتذر!

وقديما قيل ان كثرة الطباخين تحرق الطبخة!

وكثرة المحطات، تفسد المصداقية والثقة عند المستمع..

وكثيرا ما تتضارب الأخبار بين ما تقوله محطة بيت لحم، وما يذيعه تلفزيون رام الله.

ترى لماذا لا نقلد اخواننا العرب في البرازيل ونعمد الى الحصر أو "التخصص" في تأسيس محطات التلفزيون او محطات الاذاعة؟

ولماذا لا يحاول نفر من شباب هذا البلد ـ الفقير ـ السفر الى دول امريكا الجنوبية ومحاولة غزو ميادين الاعلام ـ من صحف واذاعات وتلفزيون ـ وضمها كلها او بعضها الى الجانب العربي..؟

قال لي الرئيس الافريقي الاسبق "عيدي أمين" في حديث لي معه في مدينة "جدة"، ذات يوم منذ عشر سنوات:

ـ نحن بحاجة الى المئات من العرب الذين يتقنون اللغة العربية للمجيء الى بلدي وملء المناصب المهمة في ميادين الاذاعة والاعلام.

وعندما سألته عن مدى النفوذ الصهيوني المتحكم في بلده، والواقف بالمرصاد ضد هجرة كل عربي الى ذلك البلد الغني بثرواته البترولية لكي لا يتولى العرب مراكز الاعلام هناك، أجابني:

ـ لقد حاربتني الصهيونية قبل ان تحاربكم. وأنا شخصيا أكبر ضحية من ضحايا الاعلام الصهيوني في افريقيا!

ثم أنهى قائلا لي:

ـ هيا. وقل لأخوانك في بلدك أننا هناك بانتظارهم!

وقديما قيل:

ـ أطلبوا العلم ولو في الصين.

وأنا اقول:

ـ أطلبوا المنصب وابحثوا عن الرزق ولو في البرازيل أو في مجاهل افريقيا، أو عند عيدي أمين.!

وهناك مثل شعبي شائع يردده أهل حلب في سوريا، يقول: "أعرج حلب وصل الى الهند"!

متى نقول في بلدنا: "ان لاجئاً من طولكرم او من اللد قد وصل الى استراليا" أو الفلبين؟!.

* * *

أين اخوتي؟ أين أحبائي؟ أين أهلي؟!!

في العدد الصادر يوم ٧ اغسطس من عام ١٩٩٠ من مجلة "الشرق الاوسط" السعودية الصادرة في لندن، قالت المجلة المذكورة وهي تفرد لي عشر صفحات كاملة من عندها لكي أتحدث عن مهنتي، وعن نفسي، وعن تاريخي الصحفي الطويل، انني أكاد أكون أسعد الناس حياة وماضيا وشبابا... وتقول الصحيفة عني: ".. وترى أمامك ابن الزعيم وسليل الأسرة السياسية والادبية العريقة.. وترى أمامك "٦٨" سنة من العز والثراء والجاه.. انسانا عاش الحياة بأكملها وتمتع بآخر قطرة منها بالرغم من اصراره على معاناته وتشرده وتهجيره.."

ترى هل هذا كله صحيح؟

انني لا أكره بين سائر كلمات اللغة العربية التي أحبها، وأجيدها، وافخر بها اكثر من كلمة: خطف.. يخطف.. خطفا!

أنا أكره الخطف، وأكره الخاطف! وأبكي على المخطوف!

والخاطف الذي يمد يده الى جيبي لكي يسرقني، هو عدوي الذي أكرهه، وأنفر منه وأحاربه.

والموت الذي يمد يده الى صديقي او أخي أو واحد من افراد أهلي وأحبتي ويخطفه هو شر الأشرار الذي لا يأخذ مني الا الخوف، والكراهية والقلق، والاستعاذة بالله!

أنا أكره اللص.. وأكره الموت.!

ويأبى القدر الا ان يمتحنني بكثير من الفواجع والمآسي ويخطف مني كثيرا من الأعزاء والأحباء الذين وددت لو اكتملت أعمارهم خلال عمري، وعشت متكأ على شعوري الصادق بأنهم معي، او أنهم لي، وأنني معهم قادر على التصدي لغدر الزمن، وضربات الحياة، وان أيام أعيادي هي من أعياد ايامهم، وان أوجاع عمرهم هي بعض أوجاع عمري..

وهكذا، بت اصرخ من أعماق قلبي:

ـ أين اخوتي؟ أين أحبائي؟ أين أهلي؟

فقد خطف الموت أخي الشاب وهو دون الاربعين من عمره. وطرت من دنيا الغربة في سويسرا، لكي أصلي على جثمانه في المسجد الاقصى المبارك!

لقد سقط أخي ضحية حادث سيارة.. فجأة!

ومن قبله سقط أخي الكبير، ضحية حادث مؤسف.. فجأة!

وكل واحد منهما خطفه الموت، بلا مرض، ولا تمهيد، ولا انذار.

وسألت صديقي وزميلي الشاعر الأديب كامل الشناوي، وأنا أحكي له في القاهرة مأساتي في ضياع أخوي الغاليين، ماذا افعل، وماذا أقول؟

وأجابني كامل:

ـ عليك ببيت واحد من الشعر! احفظه ورddه! قل لأخويك او لأحدهما:

من شاء بعدك فليمت

فعليك كنت أحاذر.!

ولكن..

ماذا جرى لصديقي واخي كامل الشناوي بعد ذلك؟

لقد تسلمت برقية مختصرة من الزميل "علي الجمال"، رئيس تحرير

"الاهرام" السابق، ينعي لي فيها صديق عمرنا كامل الشناوي ويقول لي: مات العزيز الغالي كامل الشناوي! الامضاء: علي!

لقد خطفه الموت.. فجأة! هكذا أخبرني صديقي رئيس تحرير "الاهرام"!

وبعد ذلك بعام واحد سافر علي الجمال برفقة الرئيس حسني مبارك في رحلة عمل الى نيويورك. وكان صحيح الجسم، موفور الصحة، كامل السعادة. وبينما كان يخرج من باب طائرة الرئاسة، فاجأته ضربة القلب القاتلة، فسقط ميتا!

مات علي الجمال.. الصحفي المصري الجنتلمان!

لقد خطفه الموت.

كما خطف من بعده، فجأة، شاعر "يافا" الصديق الوفي "سعيد العيسى" وهو في طريقه من دار الاذاعة البريطانية في لندن، الى عيادة الطبيب بجوار مسكنه!

كما خطف الموت العشرات من أصدقائي الصحفيين والسياسيين والأدباء والفنانين على مر السنين والايام من سليم اللوزي، الى رياض طه، الى أكرم زعيتر، الى نبيل خوري!

وعندما خطف الموت صديقي المصري الدكتور صلاح خاطر، في لندن، وكان من أقدر الاطباء، وأوفى البشر، وقرأت نعيه في "الشرق الاوسط" بامضاء صديقي الكبير الراحل الامير فيصل بن فهد ـ الرئيس العام لرعاية الشباب في السعودية، وكنت أعلم مدى المحبة التي ربطت بين الامير الأغر وصديقه الطبيب، أرسلت على الفور برقية تعزية الى الامير فيصل أشاركه في سطورها بعض حزنه وبعض سواد مشاعره و"بأفئدة يملؤها الحزن والأسى" تجاه الاخ فهد صلاح خاطر، ابن الفقيد العزيز، وأجابني الامير برسالة شكر أسهب في سطورها بالاشادة بصديقه الدكتور الذي

خطفه الموت من بيننا فجأة!.

وتمر أسابيع ثلاثة..

وذهبت الى دولة "قطر" للاشتراك في ندوة تلفزيونية امام مسؤول تركي اسطنبولي من الخارجية التركية، يكره العرب ويحقد عليهم، وقد جاء الى قناة "الجزيرة" التلفزيونية في "الدوحة" لكي يشتم ويلفق ويعيد كتابة تاريخنا الأسود مع العثمانيين الأتراك على هواه..!

وكان اشتراكي في تلك الندوة التلفزيونية مشحونا بكل معاني النرفزة والضيق..

ومضت دقائق كنت خلالها أوشك أن أحمل كل ما كان أمامي من اوراق وأقلام ودفاتر وأقذف بها في وجه هذا التركي الصفيق!

وانتهت الندوة على خير، وعدت الى غرفتي في الفندق الكبير، فاذ بالاسلاك تحمل لي ـ عند منتصف الليل ـ صوت صديقي الكبير الامير فيصل بن فهد، لكي يقول لي انه قد شاهد "الندوة"، وأنه خشي لوفرة ما صدر مني من عصبية وصراخ، ان أتعرض لضربة في القلب قادرة ان تقضي علي!.

ثم سألني بأسلوبه الشفاف الرقيق:

ـ ولماذا كل هذه النرفزة يا صديقي!؟

قلت: لانني أكره الأتراك، الذين شنقوا عمي ـ الدكتور علي النشاشيبي ـ في بيروت بأوامر جمال باشا السفاح في عام ١٩١٦!

ثم أضفت:

ـ ولأنهم حكموا بلادي لمدة اربعة قرون او يزيد، وأعادوا ركب الحياة عندنا الف سنة الى الوراء.! وكذلك، لأنهم اليوم ألد أعداء الاسلام وأقرب الحلفاء الى .. اسرائيل!

وقال الامير وكأنه أراد ان يوصني بالحفاظ على صحتي:

ـ يجب ان لا تدع مثل هذه الامور أن تؤثر على قلبك وأعصابك.. !

ثم أضاف:

ـ وعندما تعود الى سويسرا، يهمني ان أسمع صوتك لكي اطمأن عليك.. !

وعدت الى جنيف...

وسافر امير الشباب العربي وراعي مسيرتهم، الى العاصمة الاردنية لكي يشترك باشرافه المباشر على دورة خاصة بالالعاب الرياضية في عمان..

ورأيت صوره وتنقلاته على شاشات التلفزيون وفي صفحات الجرائد ووجدته في احلى وأنقى ما يكون الشباب الصاعد من معالم الصحة والعافية والنضارة..

وقبل مغادرته عمان، سمعت صوته يقول لي ـ من جديد ـ انه عائد الى السعودية وانه سيعاود اتصاله بي خلال ايام..

وركبت الطائرة من سويسرا عائدا الى.. منزلي في القدس!

وتسلمت وأنا في طريقي الى مطار جنيف رسالة من أمير الشباب مليئة بالمعاني النبيلة التي اتصف بها على مدى الثلاثين سنة الماضية من عمر صداقتي معه..

قال لي في رسالته، التي أسمح لنفسي بنشرها في احدى صفحات هذا الكتاب! انه يتطلع الى لقاء جديد بيننا في اوروبا او في السعودية!

ويرى القراء نص رسالة الامير في احدى صفحات هذا الكتاب!

وهكذا كان حالي معه وحاله معي منذ ان عرفته الى ان فقدته.. !

لقد جاء الى لندن للاستشفاء منذ عشر سنوات، وكان طريح الفراش يشكو من كسر في قدمه، فلم اتركه يوما واحدا.

وكانت دنيا السعودية بالنسبة لي، منذ عام ١٩٧٤ حتى اليوم، محصورة

في عالم الشباب، والمدن الرياضية، وملاعب كرة القدم، والاندية المتزاحمة على الفوز بكأس الملك من الأهلي الى الاتحاد الى الفيصلي الى غيره. وكان يدعوني لمشاهدة المباريات المهمة التي كانت تجري بين منتخب المملكة وفرق كرة القدم العالمية التي كانت "رعاية الشباب" تدعوها للمجيء، وتتحمل كافة نفقاتها بغية تدريب الفرق الاهلية على اللعب المتقن، وتعريف محبي الكرة في السعودية على أبطال اللعبة في العالم.

ولم يكن مهما ولا في الحساب من هو الفريق الذي سيفوز بتلك المباريات. كان الفوز والخسارة فيها سيان! وذلك على عكس ما كان يجري في الخمسينات في مصر عندما كانت صحف "أخبار اليوم" تدعو فرق الارجنتين والبرازيل وايطاليا للمجيء الى مصر واجراء مباريات في الكرة مع النوادي المصرية. كان الجمهور المصري يريد من فريقه ومن لاعبيه الانتصار على كل فريق أجنبي يأتي الى مصر غير مكترث الى ما كان يراه في تلك المباريات من فن ومهارة. وعندما ينهزم الفريق المصري في واحدة من تلك المباريات، كان الجمهور يودع الفريق الضيف بالحجارة والصفير والشتائم!

وكل ذلك على عكس ما كنت أراه في مباريات الكرة فوق ارض الجزيرة العربية حيث كان أمير الشباب يحضر كل المباريات ويشرف بنفسه على أن النظام والترتيب ومسلك الجمهور، لا غبار عليه!

ولا زلت أذكر يوما بكل فخر واعتزاز ما سبق وسمعته شخصيا من خادم الحرمين الشريفين في سياق كلامه عن ابنه البكر الامير فيصل قوله لي:

ـ أنا سعيد للصداقة بينك وبين ولدي فيصل. وأنا معتز بها!

ولم أقل لأبي فيصل ان الاعتزاز بتلك الصداقة كان لي، ومن حقي، ومن واجبي! ولم اقل له ان له كل الحق في ان يفخر "بفيصل" الذي عاش

أنموذجا للشباب السعودي، يمشي به صوب العلم والثقافة والمعرفة، والرياضة ويبني للغد جيلا صالحا وطيبا من هذا الشباب! لم اقل له مدى ما كنت قد لمسته في شخصية فيصل من ولاء ومحبة واحترام لكل فرد من افراد أسرته، وخاصة لعمه الامير سلمان بن عبد العزيز امير الرياض! لم أقل له مدى الفخر الذي كنت أحس به وأنا أسمع فيصل يتحدث باللغة الانجليزية، وبلهجة ونطق لا يقدر عليها الا الانجليز...

وكان طويل العمر ـ وخادم الحرمين ـ يبعث لي برسائله الشفوية التي يوصيني فيها بابنه فيصل. وكان يجيء لزيارتي الدكتور الصديق صلاح خاطر لكي يحمل لي توجيهات المليك الوالد بخصوص ابنه الامير.

ثم ماذا...

أنا لا اعرف ابنا أحب والدته الغالية، كما أحبها فيصل بن فهد!

ولا أعرف أخا رعى اخوته ـ كلهم ـ كما رعاهم فيصل بن فهد!

ولا أعرف انسانا أعطى والده كل ما أمر به الله من ولاء وذل وطاعة وحب ورحمة كما أعطى فيصل..

ثم ماذا؟

لقد أرسلت اليه اعزيه في صديقنا المشترك الدكتور صلاح خاطر فأرسل لي قائلا:

".. تسلمت بكل التقدير خطابكم وأشكركم على تعزيتكم ومواساتكم الصادقة في وفاة الأخ الدكتور صلاح خاطر الذي فقدنا بوفاته أخا عزيزا وصديقا وفيا وعالما.. وبقلوب ملؤها الايمان بقضاء الله وقدره نبتهل الى الله عز وجل ان يتغمد الفقيد بواسع الرحمة والمغفرة ويسكنه فسيح جناته وان يبارك في أنجاله ونسأله تعالى ألا يريكم مكروها في عزيز لديكم ويديم عليكم نعمة الصحة والعافية. ولكم خالص شكري وتحياتي.

من أخيكم، فيصل.

وماذا أقول..

وقبل ذلك بأسبوع واحد، تسلمت رسالته الودية التي يذكرني في سطورها "بالأيام الجميلة" بما فيها من نقاش جميل وحديث في التاريخ وصدام لذيذ وراقي في الآراء، "وخاصة أنني اعتقد جازما انه يجب الآن العودة الى كتابة التاريخ الاسلامي نظرا لما لحق به من الشوائب، وهذا العمل اذا تم انشاء الله سيكون خدمة للاسلام والمسلمين وطوال الفترة الماضية كانت قراءاتي كلها منصبة على التاريخ الاسلامي، لهذا أود معرفة مرئيات أخي بهذا الخصوص وما هي افضل وأحسن الطرق للبدء في هذا الموضوع..."

مع خالص الود من أخيك

فيصل

١٤٢٠/٤/١هـ

وليرحمنا الله جميعا يا فخر الأمراء.. وأغلى الأصدقاء!

فقد تسلمت سطورك يوم الاثنين، ورحلت عنا، يوم السبت..

هكذا، وكأننا نشاهد أمامنا رواية من مآسي اليونان.. او نرى أمامنا فيلما سينمائيا مليئا بالمفاجآت الدامية!

وليس لي الا أن اردد بعد رحيلك ما سبق لي وسمعته من كامل الشناوي يوم رحيل شقيقي في القدس:

من شاء بعدك فليمت

فعليك كنت أحاذر!

فقد رحل عني فيصل بن فهد.. ومضى اى لقاء ربه.. وبلا وداع!

وسأبقى أذرف الدمع على فراقه الى أن.. ألقاه!

* * *

مأساة أغنى رجل في لبنان!

كان أدمون صفرا، الذي يحتل صفحة من ملاعب ذكرياتي ـ وقد اختارته صحف المال الامريكية كأغنى رجل في لبنان ـ من أصدقائي القدامى الذين عرفتهم وصادقتهم عن قرب في القدس، وفي بيروت!

وقد انتقل "ادمون" الى جنيف، وأسس "البنك التجاري للتنمية" وخلق لنفسه وللبنك معه صداقات كثيرة مع الأوساط العربية كان في مقدمتها الملك الحسن ـ ملك المغرب ـ الذي اختار ادمون صفرا كأقرب المستشارين الى الخزانة الملكية المغربية. !

وفي "جنيف"، كان "ادمون" في أواخر الخمسينات يحدثني عن اصدقائه من رجال الاعمال في الكويت وفي بيروت، وكان يكرر لي دوما أنه ـ وهو اليهودي العتيق ـ يشعر بأنه عربي الفكر والنشأة والتفكير.. وأسلوب الحياة!!

وكان ادمون صفرا كثير الدهاء والمقدرة في جمع المال، ولكنه كان فاشلا في كسب الاصدقاء، او في عدم تحويل اصدقاءه الى أعداء! لقد أعماه المال عن الصداقات والقرابة والجيرة الحسنة! ولم يتزوج الا بعد ان بلغ آخر العمر. إذ كان مولعا بالنساء العجائز او اللواتي بلغن ارذل العمر! ولهذا اختار شريكة حياته أرملة برازيلية لها أربعة اولاد قيل ان زوجها السابق مات في حادث مأساوي غامض وصفه بعضهم بالانتحار، وقال عنه

البعض انها جريمة!

ومن نجاح الى نجاح، انتقل ادمون صفرا الى نيويورك وأسس بنكا أصبح من اشهر البنوك في الشارع الخامس.

ثم غزا البرازيل، وأصبح له في "سان باولو" مصرفا يحمل اسم عائلته بالاسبانية: بنكو صفرا...

وعاش مغامرا يقول عنه الحساد والخصوم انه كان يقوم بتهريب العملة الارجنتينية والبرازيلية من داخل البلاد الى الخارج، ويأخذ عمولة في كل عملية تهريب، ويكسب منها كثيرا..!

كما يتهمه خصومه وحساده بأنه كان ماهرا في غسل الأموال التي يجمعها اصحابها من المخدرات او الفساد، ويعيدها الى السوق العامة نظيفة بلا شكوك ولا طعون، وله في هذا المجال ـ حسب مزاعم الروس ـ جولات وصولات مع رجال المافيا الروسية! وكان والده "يعقوب صفرا" صاحب مصرف صغير في شارع "اللنبي" ببيروت بعد ان هاجر اليها من حلب الى دمشق، ومنها الى حي "ابو جميل" في العاصمة اللبنانية المخصص للسكان اليهود القادمين الى بيروت من العواصم المجاورة.

واشتغل ادمون، مع أخيه الكبير "ايلي" في الاتجار بالذهب وكسب من وراء ذلك الملايين.

ثم اختلف مع أخيه "ايلي" ـ وهو الأخ الاكبر ـ وأخرجه من عائلة البنك بعد ان بنى أكبر دار على شاطئ بحيرة جنيف وأطلق عليها اسم: "بنك نيويورك الوطني الأول".!

وكانت صداقتي مع الأخ الكبير ايلي صفرا، أقوى من علاقتي بأخيه ادمون اذ كان ايلي رجلا طيبا وصالحا ولا يكذب ولا يرتشي ولا يخون ولا يوافق على الكثير من الاعمال الصغيرة التي يقوم بها أخوه الصغير.. ادمون!

وكان "ايلي" يقول لأخيه كلما التقى به في مكاتب البنك انه "صاحب حق"، ويريد حقه، وكان ادمون يترك الغرفة ولا يرد! وكان ايلي يصاب إثر ذلك بنوبات في القلب، ووفرة في مرض السكر بالدم ويكاد لا يقوى على المشي! وكان ادمون لا يسأل ولا يكترث.. وكثيرا ما رأيت ايلي يرفع يديه للسماء ويصرخ:

ـ يا رب انتقم لي من ادمون صفرا..!!

ورغم الكثير من السرية التي كان ادمون يعالج بها اعمال البنك الا انه بات معروفا انه قد تبرع بالملايين من الدولارات للمشاريع السكانية والتربوية والطبية في اسرائيل وان في حياته الكثير من الأسرار التي لا يعلم بها أحدا.

وقد سألته عدة مرات خلال لقاءاتنا في "جنيف" لماذا لا يزور القدس، وكان يرد بأن زيارته لاسرائيل ستؤثر على أعماله مع العرب.!

ولكنه تبرع سرا بخمسين مليون دولار لمشروع بناء مساكن في منطقة طبريا للاجئين اليهود من روسيا..!

وتبرع بملايين كثيرة اخرى لبناء مدارس دينية لليهود المتدينين من "السفارديم" في القدس القديمة!

وقال لي تيدي كوليك، رئيس بلدية القدس السابق، ان ادمون صفرا قد تبرع لبلدية القدس بمبلغ "عشرة ملايين" دولار مقابل ان تطلق البلدية اسم "صفرا" على الساحة التي تضم مبنى البلدية وان يكون الدفع على اساس مليون دولار في مطلع كل عام.

ولم تتحسن علاقته مع أخيه الكبير الذي طلب منه ان يجد وظيفة لابنه "جاكي".. وبعد الحاح طويل، وجد جاكي وظيفة رئيس قسم التحويلات الخارجية في بنك صفرا في نيويورك!

ولم يكد "ايلي" ينتقل الى لقاء ربه ويدفن في القدس حتى أصدر ادمون

قرارا بفصل الابن الوحيد جاكي من العمل في البنك ! !

وفي السبعينات اشترى ادمون حصة كبيرة في مؤسسات "الامريكان اكسبرس" ثم فسخ الاتفاق وأعاد الحصة الى اصحابها . . !

وطالما سمح ايلي أو الأخ الكبير لنفسه أن يفشي أمامي الأسرار الخطيرة التي تتهم ادمون، بسوء الخلق وسوء المسلك، كما تتهم زوجة ادمون البرازيلية ـ وبلسان أخيه ايلي ـ ان زوجها الأول سقط من شرفة المنزل ومن الدور الثامن، وفي ظروف غريبة ولقي مصرعه . . أمام زوجته !

وأصبح معروفا ان ادمون صفرا، رغم المليارات التي كسبها وجمعها لم يحسن التعامل مع اخوته، وأهله، واصدقائه، وانه بات انسانا جشعا لا يفكر الا بالمال، ولا يحسب حسابا لأحد.

وكان يعيش دوما في قلق وخوف. وكان يحجز لنفسه ثلاثة مقاعد، في ثلاث شركات طيران مختلفة، وبثلاثة أسماء مختلفة، عندما ينوي السفر من جنيف الى باريس، او من باريس الى موناكو !

وعندما قرر ان يهجر الحياة في لبنان، وبالتالي، ان لا يعود اليه، قرر ان يشترك مع النائب "عثمان الدنا"، ومع النائب "بيضون" في ادارة بنك "الاعتماد اللبناني"، الذي ما زال يقدم كافة الخدمات المصرفية لزبائنه في بيروت ! وكان يحتفظ بالود والامتنان لرئيس الوزراء اللبناني الراحل سامي الصلح، ولابنه السفير عبد الرحمن الصلح ويروي لي بالتفصيل مدى الخدمات الانسانية التي قدمها سامي الصلح وولده الى "يعقوب صفرا" ـ والد ادمون ـ في الابعينات والخمسينات . . !

وفي جنيف، وعلى تراس فندق "دي بيرغ" الشهير في المدينة، دعاني ادمون صفرا ذات يوم لتناول طعام الغداء معه. ودار بيننا حديث ما زلت أذكره وأسمح لنفسي اليوم، أن أنشره . . .

قلت له: لماذا لا تصلح الأمور مع أخيك الكبير ايلي ؟

وأجاب: إن ايلي ناقص عقل. ومريض. ولا يصلح ان يتعامل في أمور البنك.

قلت: ولكنه يؤكد بأنه ـ وحده ـ صاحب الفضل في تكوين رأس مال البنك من خلال صفقات الذهب التي كان يقوم بها..

قال: مش صحيح! ان ايلي يبالغ ويكذب. ولعل مرض السكري قد أصبح يجعله يحلم.! أنا وحدي الذي بنى البنك!

قلت: ولكن باستطاعتك ان تخدم بناته وولده...

أجاب: أنا من جيبي، أنفقت على "أعراس" كل بناته! ولكن ابنه "جاكي" واقع في حب امرأة يونانية في عمر والدته ويريد ان يتزوجها وأنا اعترض على ذلك..

قلت: اترك "لجاكي" ان يعالج حياته الخاصة، وحاول ان تلحقه الى أسرة البنك في وظيفة محترمة تليق بكفاءته وبشخصه.

قال: جاكي ذكي جدا.. ولكنه مغرور جدا!

قلت وأنا أحاول ان "ادغدغ" غرور "ادمون صفرا":

ـ ان غرورك هو الذي جعلك أغنى رجل في لبنان.. أليس كذلك يا ادمون؟

وأجاب على الفور:

ـ أنا رجل مغرور ولكني محافظ ومؤدب وغير متهور.. وليس عندي عيوب!

ثم أضاف:

ـ أنا اعتقد ان زميلنا يوسف بيدس، صاحب بنك انترا، كان من أذكى ومن اجرأ الذين تعاملوا بقضايا البنوك في العالم، وانه أسس "امبراطورية" لبنك انترا تمتد من بيروت الى مختلف عواصم العالم! ولكن...

قلت اسأله: ولكن ماذا يا عزيزي ادمون؟

قال: أنا أمتاز عن "يوسف بيدس" بأنني لا ألعب القمار ولا أقف على مائدة "الروليت" في كازينو "ديفون" وبيدي كأس الويسكي وبجانبي غانية من بائعات الهوى!

قلت: وهل أفلس بنك انترا بسبب هذه العيوب الشخصية عند يوسف بيدس.؟

وأجابني ادمون: عندما توفي يوسف بيدس.. هنا في سويسرا.. مشى في جنازته ستة اشخاص! هل تعلم كم كان عدد الذين شيعوا والدة يوسف بيدس عند وفاتها في بيروت؟ كان العدد اكثر من مائة الف نسمة! لماذا؟ لان الوالدة ماتت، بينما يوسف وبنك انترا في القمة! ويوسف ابنها مات، عندما كان بنك انترا يعالج سكرات الموت وعلى حافة الافلاس!

وساد الصمت..

وقال ادمون:

ـ أنا تركت في وصيتي ان يكون قبري .. عندكم.. في بلادكم! لقد اشتريت قطعة ارض على جبل الزيتون في مقبرة اليهود لكي تصبح لي القبر الدائم.

وسألت مذعورا:

ـ أين؟

قال بكل هدوء:

ـ في القدس! على جبل الطور.. المشرف على البلدة القديمة حيث يوجد قبر أخي.. ايلي.. هناك!

قلت ضاحكا:

ـ اتركه يا ادمون! لقد هرب اخوك منك في حياته، ولا يريد اليوم أن

تزعجه بملاحقتك له في المقبرة. !

وانتهى الأكل ! وانتهى الكلام !

ترى هل كانت السماء تستجيب "لدعوات" الأخ الكبير "ايلي صفرا" عندما اختنق شقيقه ادمون بدخان الحريق داخل حمام الدار والقتلة تنتظر على الباب في مونت كارلو ؟

حقا ! ان السماء تمهل ولا تهمل !

ثم حقا ! ان صرخات الشقيق المظلوم ـ ايلي صفرا ـ قد وصلت الى السماء، واستجاب لها رب السموات والارض !

... ومات ادمون في مأساة !

حقا.. !

ولكنه ـ كيهودي ـ ترك وراءه دروسا باقية لكل من يدعي حبا للقدس من اصحاب البنوك واصحاب الملايين "العرب" ! حيث تبرع بالملايين، وأشرف على دفع الملايين، وأطلق اسم والده وعائلته على أكبر الميادين.. بينما عشاق القدس من أغنياء العرب، يتفرجون.. ويخطبون.. ويحتفلون بالسهرات في أعياد الميلاد وأندية القمار...

وغفر الله للرجل الذي كان أغنى أغنياء لبنان، ثم رحل مختنقا في مأساة !

* * *

في شعر "نزار قباني" عن بيروت، بعض النفاق!

وقد احتار نزار أين يوجه نبضات قلبه في قصائده الغزلية عن النساء.. والمدن! فهو تارة يموت في حب بغداد، وتارة يترنم بحب البصرة، وتارة يحمل هواه الى دمشق، وتارة يستقر الهوى في الاندلس المفقود.. ومعظم الحب يمشي صوب بيروت وبحر بيروت.. والزوجة التي ماتت في بيروت..!

وليس من حق أحد ان يلوم نزار في تنقلات فؤاده المتعب، ما دام نزار قد فشل في سنوات عمره في ان يعثر على وطن يستقر فيه. والعيب في هذا لا يقع على نزار وحده، وانما يشترك في تحمل العيب، الدول والملوك والرؤساء والزعماء العرب الذين تركوا شاعرا في وزن "نزار قباني" يعيش مشردا بين جنيف، ولندن والقاهرة ودول الخليج، لا يعرف للاستقرار العائلي معنى ولا يشعر بعطف العائلة وحب الأقارب وحنان الوطن!

وقد أصابني في حياتي الشيء الكثير مما أصاب صديقي نزار قباني في حياته.!

فمنذ هجرت القدس بعد النكبة الكبرى وأنا ضائع بين الشرق والغرب، لا أكاد أستقر في عمان حتى أتركها الى بيروت، ولا أكاد استأجر شقة للسكن على شاطئ بحر بيروت حتى أهجرها الى القاهرة، ومنها الى جنيف، وبعدها الى لندن.. ونيويورك.. وبلاد الله الواسعة!

ولكني بقيت أحب بيروت أكثر من غيرها من المدن!

ففي بيروت عشت سنوات "الجامعة"! وفي بيروت ومنها عرفت أجواء الحياة الزوجية، حيث رزقت بالابن، والبنت، والذكريات والاصدقاء.

وقد أورثني خالي "أديب العربية" حبه لبيروت عندما جاء اليها في مهرجان "الغلاييني" لكي يقول للآلاف المجتمعين في حفل التكريم:

"والله، ثم والله، لولا أنها بيروت ولولا أنه الغلاييني ما جيت ما جيت ما جيت!

ثم يقول من أعماق قلبه:

"بيروت مدينة تهذيبي، بيروت دار هدايتي!"

ومضى "اسعاف" الى لقاء ربه. وبقيت بيروت. وبقي حبي لها قويا، ومشعا!

ولعلي أردت ان أترك ورائي في ذلك البلد الحلو، بعض بصمات عمري عندما قررت ان أضع في أكبر "مصرف" من مصارف بيروت، حسابا جاريا هو في الواقع "تحويشة" العمر من المال.. والثروة.. والشباب!

واستأجرت من ادارة البنك بعض الخزائن الخاصة، لكي أضع فيها أوراقي، ورسائلي، ووثائقي، ونسمات شبابي وحبي، وأغلى ما كنت أملك من متاع الحياة!

وأبعدتني القاهرة، وصحافتها وزعيمها الراحل عن البقاء بجانب "خزائن" المال والذكريات، ولم اسأل. ولم أراقب! ولم أدقق! فقد اعتدت ان أكون وفيا لعملي. وكان الرئيس عبد الناصر، ينتظر مني ذلك الوفاء. ويشكرني عليه!.

ويقولون في الأمثال "إن البعد جفا"..

حقا، لقد تحجرت القلوب، وتبدلت النظرات، وابتعد الأقارب، وأسدل ستار كثيف بيني وبين بيروت.. بكل "ما" فيها، وبكل "من" فيها!

ولم يبق من خيط يشدني الى دنيا الذكريات البيروتية الغالية سوى البصمات الخاصة التي تركتها ورائي في ذلك "المصرف" البيروتي الكبير..

وقد يكون من حق بيروت ان تفارقني. ولكن ماذا يكون مصير الخزائن "الصغيرة" التي تخصني، والتي أودعتها ذخيرة عمري.. وثروة شبابي؟

ذلك "المصرف" لم يعد يسأل عني!

ولم يعد يكترث للحديث معي عن الخزائن الصغيرة.! وفي غمرة الحرب اللبنانية البشعة، وبينما سماء بيروت تودع الثلوج لكي تسلمها للارض مع العواصف والبرد، دق جرس الباب في شقتي بأحد شوارع "جنيف" وكان الطارق واحدا من رجال البوليس السويسري جاء لكي يسلمني كتابا رسميا مصدره مكتب رئاسة الوزراء اللبناني في بيروت، التي أرسلته الى وزارة الخارجية اللبنانية التي سلمته بدورها الى سفارة سويسرا في بيروت، التي أرسلته الى وزارة الخارجية السويسرية في العاصمة "بيروت"، التي أرسلته الى رئاسة بوليس مدينة "جنيف"، التي سلمته لذلك الضابط السويسري مع الأمر الرسمي بوجوب تسليم الكتاب مسجلا.. باسمي وبيدي!!

وعلى الورقة الخاصة وضعت إمضائي الذي يشعر باستلامي الأمر.

ماذا في المكتوب القادم من بيروت يا ترى؟

في سطوره دعوة لي بوجوب السفر فورا الى بيروت لحضور جلسة خاصة للمحكمة التي تنظر في مصير علاقتي "بالمصرف" اللبناني الكبير..! هكذا، وسط الحرب الاهلية والدمار، وانفجار القنابل والأخطار؟!

ثم: ولا كلمة عن خزائني الخاصة في البنك المذكور!؟

ولا خبر عن مصير تلك الخزائن الغالية "الصغيرة" التي تحمل اسمي.. ودمي!

ولا همسة عن حقي الضائع في المطالبة بعودة الخزائن مع محتوياتها اليّ..!

ترى هل هكذا تكون أصول المعاملة المحترمة، والحضارية، والانسانية بين مصرف كبير وواحد من اصدقاء المصرف وزبائنه المعروفين؟

وكيف يدافع بعد اليوم مصرف كبير عن تاريخه وأوصوله.. واسمه؟

وماذا يقول للناس؟ وماذا يقول للزبائن؟ وماذا يقول للعدالة؟

وماذا يقول للسماء في يوم الحساب!؟

انا ما زلت أفكر بكل خفقة قلب بداخلي، في مصرف بيروت الكبير، وخزائني الخاصة الصغيرة الغالية المخفية بداخله!

وسأبقى اسأل وأطالب وأبحث وأنتظر...!

ولن أنسى حقي ولا أوراقي ولا ذكرياتي ولا بعض عمري!

وعند الله وحده يكون الحساب في يوم الحساب!

وقال تعالى في كتابه الكريم:

"ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين".

صدق الله العظيم.

وقال تعالى:

"وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله"

صدق الله العظيم.

وقال تعالى:

"فهل حسبتم ان توليتم ان تفسدوا في الارض وتقطعوا أرحامكم"

صدق الله العظيم.

وجاء في الحديث الشريف:

"الأرحام معلقة بالعرش فمن وصلها قد وصلني ومن قطعها فقد قطعني". صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم.

مفهوم يا اولي الألباب..؟!!

زيارة القدس عندي كزيارة مكة والمدينة. والاقامة في القدس كالاقامة بجوار البيت الحرام او عند قبر الرسول الأعظم!

وليس لاسرائيل أية علاقة بهذا الموضوع. والقول مردود على أهله لو زعموا أن زيارة المسلم للقدس تعني زيارته للدولة العبرية، او الاعتراف بها، او التطبيع معها او قبول العيش في ظلها! كانت القدس عربية مسلمة قبل الزحف الصهيوني وستبقى القدس عربية بعد ان يزول عن ارضها كابوس الزحف الصهيوني. وقد حسب بعض الاخوة الفلسطينيين الذين يعملون في دنيا الخليج العربي مع بعض الذين عجزوا عن العودة الى أهلهم ووطنهم ان دنيا القدس تعني دنيا اليهود، ولذا سمعت صوت أحد المستشارين "الفلسطينيين" من حاشية الشيخ عيسى بن خليفة حاكم البحرين الراحل يقول على مسمع من الشيخ عيسى في احدى جلسات المساء في صالونات فندق "بريزيدانت" في مدينة جنيف السويسرية، ان زيارتي للقدس بعد نكسة عام ١٩٦٧ كانت مخيبة لآمال اخوتي العرب في شخصي الضعيف، لان من عمل رئيسا لتحرير صحيفة الرئيس جمال عبد الناصر في القاهرة على مدى ١٥ سنة لا يجوز له ان يزور القدس في ظل اسرائيل...!!

ورغم اني قدرت ان أجيب على ملاحظة ذلك الأخ "الفلسطيني" بما فيه الكفاية، الا انني بقيت حزينا للوهم العربي الخاطئ بأن سقوط القدس في حرب الايام الستة، قد أضاعها وأسقطها من يد أهلها الى الأبد، بكل ما تحتويه هذه المدينة الخالدة من تاريخ ومقدسات.!

وهذا يعني أننا قد رضينا بالهزيمة قبل ان نهزم، واننا قد تخلينا عن القدس قبل ان تعلنها اسرائيل عاصمة أبدية موحدة. واننا قررنا ان نهجر أعز المدن عندما اصبح من واجبنا ان ندافع عنها وان نبقى فيها وان

نقاسمها الألم والعذاب.. والهوان!

أنا شخصيا قررت ان أنهي حياتي فوق ارض القدس. وعندما طلب مني الملك حسين ان انتقل الى عمان وأتولى منصبا وزاريا في احدى حكوماته برئاسة الدكتور عبد السلام "المجالي" أجبته بأنه لم يبق لي من العمر الا القليل والقصير، وانني عازم على ان اعطي ما تبقى من أيام عمري، لمدينتي وحدها..

فقاطعني جلالته يقول بلهجة حزينة:

ـ وماذا يقول رجل مثلي يشعر اليوم بدنو أجله ولم يبق من سنوات عمره الا القليل.؟!

وأجبته بصوت خافت، ومؤدب وحزين:

ـ عش يا سيدي لبلدك ولشعبك ولرسالتك! أما أنا، فقد أوشك الخريف ان ينقضي، وأطل الشتاء برأسه للرحيل!

ثم أكملت: عش يا سيدي للاردن ولعمان وللقدس وللعرب، اما أنا فالامر يختلف اذ أوشكت مدينتي ان ترحل معي.!

نعم! وعدت الى القدس زائرا، او مقيما، او مودعا!

ألم يبادر ذلك الشاعر الفلسطيني الفذ، بسؤال الملك فيصل بن عبد العزيز آل سعود عندما زار القدس برفقة الملك حسين قبل وقوع "النكسة" بقليل قائلا له مع فيض من الألم واليأس في مطلع قصيدته ومتسائلا:

ـ والمسجد الاقصى أجئت تزوره

أم جئت من قبل الضياع مودعا؟؟!

عدت الى القدس.. وتطلعت حولي لكي أحصي ماذا تبقى لي من أملاك اعيش عليها في البلد المقدس فوجدت قصرا ورثته عن خالي، ومنزلا ورثته عن أمي، وقطعة ارض في قلب المدينة لم تسألني ولم تسأل عني بلدية القدس الاسرائيلية عندما أمرت بمصادرتها لكي تشق حولها وفي وسطها

طريقا عاما اصبح يحمل اسم الطريق رقم واحد !

اما القصر ، فقد أهديته بثمن رمزي الى مؤسسة "دار الطفل العربي" على عهد "سيدة" أميرة من امراء بلدي كان اسمها : الست هند الحسيني لكي يصبح مركزا أدبيا وثقافيا وعلى أبوابه الرئيسة يافطة ضخمة تحكي للناس العنوان الجديد : "دار اسعاف النشاشيبي للأدب والثقافة والفنون" !

ويشاء القدر ـ والحمد لله على كل حال ـ ان كل ما كان يملكه خالي أديب العربية محمد اسعاف النشاشيبي مع كل ما كانت تملكه والدتي يرحمها الله من اراض ومزارع في عدة قرى فلسطينية عربية قد انتقلت ـ ملكيتها لي ـ قبل ان تقع نكبة فلسطين في عام ١٩٤٨ ويضع الحارس الاسرائيلي على املاك "الغائبين" العرب ، يده عليها ، بالمصادرة .. او بالسرقة !

ومن هذه القرى .. قرية "المزيرعة" ، الى الشمال من مدينة اللد والى الجنوب من "مجدل بابا" وترتفع مائة متر عن سطح البحر ويعود تاريخها الى قرنين من الزمن ، وتبلغ مساحة اراضيها أحد عشر الف دونم ، ويبلغ عدد سكانها اربعة عشر الف عربي اصبحوا اليوم ، كلهم من اللاجئين .. !

وكذلك ورثت عن أبوي وخالي ، اراض واسعة في قرية "النعاني" وتقع الى الجنوب من مدينة الرملة وتبعد عنها ثماني كيلومترات وتبلغ مساحة اراضيها سبعة عشر الف دونم وعدد سكانها قبل النكبة الف وثمانمائة نسمة وأقام الصهاينة على اراضيها مستعمرة في عام ١٩٥٣ اسموها : "نعانا" !

وهناك ـ ايضا ـ قرى "شلته" .. و"القباب" .. و"قطره" .. وكلها كانت تخص جدي الراحل عثمان النشاشيبي ، نائب القدس في مجلس "المبعوثان" التركي ، الذي تركها لورثته وهم بدورهم تركوها لي .

أعود للحديث عن القصر الذي أهديته الى "دار الطفل العربي" بالقدس

واصبح مركزا للأدب والثقافة والفنون واقول:

في حفل أدبي كبير، كان لي الحظ في ان اكون أحد خطبائه بين سلسلة من الخطباء تتضمن اسم مفتي القدس، ورئيس جامعتها ووزير مالية السلطة الوطنية وغيرهم.. وكان شعوري في ذلك اليوم بأني أسبح في السماء السابعة. فقد حمل لي ذلك الموقف اكثر من ذكرى واكثر من معنى! وعندما وقفت على منبر الحفل، بعد ان أنهى مفتي القدس الشيخ عكرمة صبري كلمته عن "الاسلام الصحيح في أدب محمد اسعاف النشاشيبي" لم أجد امامي سطورا مكتوبة لكي ألقيها، بل عبرات متلاحقة حاولت ان أمنع سقوطها. لقد حملقت في أرجاء القاعة فلم أجد امامي واحدا او أحدا! وكدت اصرخ من أعماقي مناديا على صاحب القصر الذي رحل، وعلى ضيوفه من كبار أدباء العرب الذين عاشوا في ضيافته ونعموا بخيراته ثم رحلوا الى بلادهم من أمثال ابراهيم هنانو، ومكرم عبيد، وتوفيق دياب، ومحمد عبد الوهاب، ومعروف الرصافي، والأخطل الصغير، واحمد الصافي النجفي، والزيات، والجديلي، وفؤاد الخطيب، والحاج امين الحسيني، ومصطفى وهبه التل، والمازني، والعقاد، وكرد علي، واحمد امين، وخليل مردم، ولم يسمعني منهم احد! وانهمرت دموعي رغم أنفي ولم أقو على حبسها. وبكيت كما لم أبك قط في حياتي! وكنت لا أبكي صاحب القصر وحده، ولا مكتبته الضخمة التي سرقها اللصوص من العرب واليهود، ولا النسخ النادرة من المخطوطات والمراجع والتراث التي نهبها رجال الهاجانا من اليهود، ورجال العصابات "المجاهدة" من العرب، وانما بكيت القدس وفلسطين. وبكيت الأدب والشعر والعرب. وبكيت دارا أقفرت اليوم من اهلها وخلت من ضيوفها، وتجردت من سكانها فعم فيها الظلام والخراب والوحشة القاتلة..!

منذ خمسين سنة، حملوا محتويات هذه الدار من آلاف الكتب النادرة فوق ظهور الخيل والحمير، ونقلوها كاللصوص في ساعات الليل الى

القرى النائية حول القدس، ثم باعوها.. باعها المجرمون، بالوزن، بالكيلوغرام، بالرطل.. لبائعي الفلافل والزيتون، وحملوا الباقي الى أحياء اليهود في القدس الغربية!

وفيما مضى، كانت هذه الدار تطل على أجمل ما في القدس من مساجد ومدارس وملاعب! وكانت تتوسط تلة عالية في حي "الشيخ جراح" العربي. واليوم، زحف الوباء الصهيوني الى حي "الشيخ جراح"، واحتل بعض المنازل والبيوتات، ورفع فوقها الاعلام الاسرائيلية الزرقاء، وأصبح القصر لا يطل الا على ما لا تشتهي النفس الأبية ان تراه..!

ولم تكن أيامي في القدس كلها دموع.. وحسرات..! فقد أحسست بأني قد عدت فيها تلميذا صحفيا أتابع عن قرب كل ما كان يجري حولي من احداث ومفاجآت.!

كنت أذهب احيانا الى مطعم اسمه "تافيرنا" في حي "الطوري" بالقدس وهو المطعم الذي اعتاد ان يزوره ابو علاء ـ احمد قريع ـ ويجالس فيه الوزير الاسرائيلي اريئيل شارون طيلة الايام الاخيرة من حكم نتنياهو ويتباحثان في حلول مرحلية للقضية بعيدا عن عيون الصحفيين. يومذاك، اقترح شارون وزير الخارجية على ابو علاء ـ احمد قريع ـ ان يتفق العرب واليهود على تأجيل عملية المفاوضات لمدة عشرين سنة يتم خلالها تعايش الشعبين في حدود مفتوحة وينعم فيها العرب من أهل فلسطين "بالاموال" الاسرائيلية وبالخبرة اليهودية، فاذا جاء موعد العودة الى التفاوض، بعد عشرين سنة، كان بها، والا تستمر حالة "الوضع القائم" "Status Que"كما هي عليه!

كل ذلك لان وزير خارجيتهم شارون قال "لابو علاء" رئيس المجلس التشريعي في السلطة الفلسطينية انه لم يعد هناك أي احتمال في استطاعة العرب او اليهود للوصول الى "اتفاق سلام" دائم حول قضايا لا تقبل

التفاوض وليست لها أية حلول.. كالقدس.. والمياه.. والمستوطنات وغيرها!! وحمل "ابو علاء" هذا الاقتراح الذي تكرر بلسان شارون اكثر من مرة، وذهب به الى ياسر عرفات الذي أعطى ابو علاء مائة سؤال وسؤال، حول الموضوع وتفاصيله وملحقاته. وفي النهاية رفض ابو عمار سائر اقتراحات شارون. ولم يعد الرجلان يتناولان طعام الغداء في مطعم "تافيرنا" المطل على أحد أودية المدينة المقدسة.. ومات مشروع آخر من مشاريع شارون تحت ضربات الاسئلة والاجوبة.. وبدأ "ابو علاء" يزور شارون في مزرعته في شمال صحراء النقب بدلا من القدس، ولم تنته تلك الزيارات العشر الى اية نتيجة!

وبعد رحيل شارون، جاء ديفيد ليفي وزيرا للخارجية! وفي غمرة الهجوم العنيف الذي شنه ليفي ـ خليفة شارون ـ على اطفال لبنان وهدد بأن يقتل ويحرق وينسف، كنت اسأل نفسي: هل ليفي ينطق باسمه أم ينطق باسم رئيسه براك. وعلى الفور قلت: بل انهما وجهان لعملة واحدة. وما لم يقله براك ـ كرجل سلام وتفاهم حرصا على سمعته الدولية ـ قد جاء يقوله ليفي من فوق منبر الكنيست في الاسبوع الاخير من شهر فبراير من عام ألفين!

ترى، ما سر كل هذا الهجوم المفاجئ.. والقوي. بينما الجميع يسعون للسلام المطلوب؟

قال الراوي انه شاهد الوزير ليفي قبل جلسة الكنيست بساعة واحدة يتناول طعام غدائه في مطعم الكنيست وكان الطبق أمامه مليئا بالمكرونة الملتهبة بعصير "الشطة" المغربية ولم يترك الوزير كرسيه حتى أتى على آخر الطبق.!

وليفي يحب الأكل الحار.. جدا.! جدا!

لعل هذا هو اختياره للطعام المذكور منذ ان كان يعيش في قريته بالمغرب!

وهذا ما جعله رجلاً عصبي المزاج، عاطفي الاتجاه، ناري الكلام!

وهذا ايضا، ما جعل ليفي ـ كوزير في اكثر من وزارة ـ يختلف مع رئيسه نتنياهو ويختلف مع رئيسه الأسبق أسحق شامير، ثم ينتقل بالسرعة العجيبة من صفوف صقور الليكود الى حمائم العمل والعمال.. او بالعكس!

وما زال قطار العجائب يحمل لنا المزيد من المفاجآت والأعاجيب!

وكل ذلك باسم السلام، والسعي الى السلام، وطريق السلام، ومزايا السلام، واستراتيجية السلام، وشركاء السلام.. عند العرب، وعند اليهود معا!

لقد كنت اشعر بحاجتي الملحة. لكي أرى كل شيء، واسمع كل شيء، واعرف كل شيء عن "الحكام" اليهود الجدد بعد ان خاب أملي وتملكني اليأس من "حكامنا القدامى العرب"!. لقد عشت ستين سنة وأنا أقابل الزعماء العرب وأكشف اسرارهم واكتب للناس عنهم وأجمع المعلومات حولهم ثم جاءت النكسة تلو النكبة، والانفصال تلو الوحدة، والاستسلام تلو الانتفاضة، وضاع كل شيء، وسقط من حولي كل شيء..! وخلال فترات العمر كنت أمني النفس بالخلاص المرتقب فتبددها الضربات والمفارقات بالهزائم والمفاجآت! وكنت اظن احيانا بأنني على خطأ وان غيري على حق، واذ بالنتائج تثبت ـ ويا أسفي ـ بأنني كنت أنا على حق وان غيري كان على خطأ! فهل كان معقولا ان لا يقع الانفصال بين دمشق والقاهرة في عام ١٩٦٣ بينما الخلافات والمشاحنات تتتابع في الخمسينات بين عبد الناصر وصلاح سالم، وفي اوائل الستينات بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر، وفي ايام الوحدة بين المشير عامر وعبد الحميد السراج، وبعدها بين المشير وعبد الناصر، وبين عبد الناصر وانور السادات، وبين علي صبري وزكريا محيي الدين، وبين عبد الناصر وجميع

اعضاء مجلس قيادة الثورة باستثناء واحد منهم او اثنين؟! وكيف لا تأتي الهزيمة في صيف ١٩٦٧ وعبد الناصر قبل وقوعها بأسابيع قليلة فقط يحاول التخلص من المشير عامر، والمشير عامر يحاول الانقلاب على جمال عبد الناصر، وانور السادات يصفق للطرفين ويلعب على الحبلين، ومراكز القوى تظهر وتحكم، والفساد يبيع ويشتري والقافلة تمشي من فضيحة الى فضيحة ومن راقصة الى ممثلة، ومن اعتماد خورشيد الى برلنتي عبد الحميد..؟!

وكيف كان ممكنا ان يعود للسودان صحته او قوته وينعم السودان بخيراته وامواله، بينما الرئيس جعفر النميري ـ امامي وعلى مسمعي في دار السفارة السودانية في واشنطن ـ ينتظر وصول الملياردير المستر "شيفرون" صاحب البترول الامريكي العالمي لكي يتفق معه على "العمولة" التي سيتقاضاها الرئيس المهاب مقابل السماح للملياردير الامريكي المذكور ان ينفرد بحق التنقيب عن البترول في السودان..!

وهل يسمح لي اليوم ان أنبش ذكرياتي عن مدير مكتب الرئيس النميري طيلة ايام حكمه الذي ملأ الدنيا عقودا وسمسرة ورشوة وفضائح؟!

أنا اريد ان اتحدث او اكتب عن الملك، الحسن الثاني، عندما استهان هذا الرجل المؤمن بكل قداسة "القدس" الغالية وبدلا من ان يتعاون لخدمتها مع "ابو عمار" ـ رمز قضية فلسطين ـ راح يتعاون على التنازل عنها مع "ابن عمار" ـ رئيس الجالية اليهودية في المغرب.!؟

وماذا كسب العرب من ثورة ١٤ يوليو في العراق التي كنا نسميها بروسيا العرب ـ ومصرع النظام الملكي لحساب حاكم مجنون اسمه عبد الكريم قاسم ولحساب قاض مختل اسمه المهداوي، وماذا استفاد العرب من عشرة انقلابات في سوريا منذ الرجل المعاق عقليا حسني الزعيم الى المتآمر محليا ودوليا اكرم الحوراني وصلاح البيطار وميشال عفلق؟

واليمن، والاردن، ولبنان؟ وبلد المليون ونصف شهيد، المليون بيد فرنسا، والنصف مليون بيد الجزائريين.. بأنفسهم؟

وكيف يجوز لمسؤول عربي مصري كبير مثل انور السادات ان يعتقل الضابط المصري ـ محمد فوزي ـ قائد حرب الاستنزاف المصرية ضد اسرائيل، وباني الجيش المصري بعد هزيمة حرب حزيران في عام ١٩٦٧، ووزير الدفاع الأسبق في مصر؟ كيف، وبأي عرف اخلاقي او قانون وطني يتحول الضابط الكبير الذي اصبح وزيرا للدفاع المصري في عام ١٩٧٠ بأمر جمال عبد الناصر من بطل كبير يتولى اعادة بناء كل ما تحطم من الجيش المصري الى مجرم ومتهم يأمره انور السادات بالاستقالة ثم يضعه تحت الاقامة الجبرية، ثم يأمر بمحاكمته وادانته؟!

كيف؟ ولماذا؟

وهل هكذا تكون سياسة الاستمرارية في الحكم بعد النكسة، او الاخلاص لمبادىء الثورة، التي قامت من اجل مصر، وشعب مصر، وحياة مصر في اطار زعامة مصر للعالم العربي، مع الثأر للهزيمة التي أضاعت القدس بعد عام ١٩٦٧؟.

وتحت أي غطاء سياسي او وطني او قومي، يصبح رجلا مثل عبد الخالق حسونة "باشا"، رجل القصر، والانجليز، والبنك البلجيكي، وشركات "هليوبوليس" المالية، أمينا عاما لجامعة الدول العربية، ترشحه "الثورة"، ويزكيه محمد نجيب، وتهلل له صحافة القاهرة ويبقى رمزا للعمل العربي الشامل لمدة تزيد عن عشر سنوات امتلأت بالمشاحنات السياسية بينه وبين احمد الشقيري، وسيد نوفل، ومع العشماوي، ومع عوني عبد الهادي، ومع جميع رؤساء مكاتب الجامعة العربية في جميع عواصم العالم؟

كفاية! بس! يكفي!! لقد امتلأ صدري بألف شعار كاذب، واصطدم

بصري بألف يافطة خادعة، وتحطم سمعي بألف خطاب ممجوج ولقاء تلفزيوني معاد، وكانت كلها، في حساب اصحابها الحكام قادرة على ان تجعل من المواطن العربي الحر عبدا، ومن الشعب الثائر مطيعا، او من الكافر بالزعامات مؤمنا، لكنها جاءت على عكس ما يتمناه هؤلاء الحكام في مصر، او في بغداد، او عمان، اذ استحال الشعب الذي أرادوه قطيعا من الهنود لا يحب شيئا ولا يطيق شيئا، ولا يؤمن بشيء، ولا يرى ولا يسمع ولا يتكلم. أقول، لقد تحول هذا الشعب رغم ارادة الحكام الى قطيع من الفهود المفترسة، او النمور الهائجة، لا يعيش الا لكي يحطم اغلاله ويحقق حريته ويهدم عند الضرورة نفسه مع كل ما يملك ولسان حاله يقول: علي وعلى اعدائي يا رب!

أليس هذا بالضبط ما جرى في بغداد العراق ليلة ١٤ تموز من عام ١٩٥٨ وما قد يجري غدا في معظم العواصم العربية؟

لقد كنت ازور بغداد ـ قبل الثورة ـ ولا شاغل لأهلها في تلك الايام الا متابعة أخبار سباق الخيل في نادي "المنصور" بالعاصمة، وبحضور الامير الوصي على العرش وأقطاب الحكومة..!

وكان النجل الاكبر لنوري السعيد ـ المرحوم صباح السعيد ـ مشغولا باستيراد الراقصات العراقيات والمطربات الفاتنات من أمثال عفيفة اسكندر في ليالي السمر بمزرعته الواسعة في اطراف بغداد! وكان كامل الجادرجي ـ زعيم الشيوعيين في تلك الايام ـ مشغولا بكتابة افتتاحيات جريدة "صوت الاهالي" لمهاجمة الحكومة، والقصر، والانجليز.. والاستعمار! كان مولعا بشن الهجمات على كل الناس فاذا لم يجد عدوا يهاجمه، كان يخلق ذاك العدو لكي يهاجمه! ما اقوى الشبه بين هذا الجادرجي، وبطل القصة في رواية دون كيشوت!

وكان جميل المدفعي ـ وكنت اسميه "الكاردينال" ـ منهمكا في التوجه

يوميا الى القصر الملكي لكي ينافق رئيس التشريفات ورئيس الديوان وينتظر موعد عودته الى الحكم كما وعده بذلك الامير عبد الاله.. !

وكان توفيق السويدي غارقا حتى اذنيه في ملاحقة أخبار البورصة، والبنوك، ونشاط كبار اصحاب الملايين من يهود العراق لكي يعقد معهم الصفقات ويؤسس الشركات ويضيف ملايين اخرى من الدنانير الى ملايينه المرصوصة في البنوك!

وكان صالح جبر منصرفا لتوزيع آرائه الحادة ضد نوري السعيد في صحيفة "الحياة" اللبنانية ـ وصاحبها المرحوم كامل مروه المعروف باعتزازه الشديد وارتباطه بأقطاب الشيعة في العراق وفي مقدمتهم صالح جبر، وفاضل الجمالي.. وأمثالهما.

وسألني الامير عبد الاله ذات يوم لماذا انا "مغرم" بصداقتي مع نوري السعيد. ثم اضاف:

ـ هذا رجل قد أصابه الخرف! وأصابه الطرش! ولم يعد يهتم الا بالاستماع الى اغاني مطربات الدرجة الثالثة ومصاحبة بعض "زوجات" كبار الموظفين!" ثم اضاف وهو يصرخ:

ـ صاحبك، نوري مريض "بالبروستاتا" وهذا يضطره للسفر الى لندن في كل شهر لاستشارة الاطباء الانجليز! وهو عنيد. ومغرور.! وعندما يقف في البرلمان للخطابة، تضيع منه الكلمات ويفقد الخيط ويكرر العبارة الواحدة ألف مرة.. ويضحك عليه المعارضون ويصفق له أنصاره من أمثال خليل كنه، وضياء جعفر، واحمد مختار بابان!

وعندما نقلت هذا الكلام الى صديقي الراحل الاستاذ كاظم الصلح سفير لبنان في العراق ـ وكنا نلتقي يوميا لتناول طعام الغداء في مطعم "الأمباسي" على شاطئ النهر بالعاصمة العراقية، أجابني:

ـ ان حال الامير الوصي على العرش مع اصدقائه وأقاربه كحالي أنا ـ

بالذات ـ مع العشرات من اصدقائي واقاربي في حزب "النداء القومي العربي في لبنان" وفي مقدمتهم أخي تقي الدين الصلح، وعلي بزي، ومحمد شقير، وزهير عسيران وبشارة مارون، وحنا غصن، وسعيد فريحه، الذين يتآمرون في الظلام للتسلل الى زعامة حزب "النداء" وتجريدي منها لحسابهم وتعيين أخي تقي الدين، او عادل، او علي بزي مكاني.. !

ثم قال في هجومه على هؤلاء الاصدقاء:

ـ أنا وحدي الذي أسست حزب "النداء القومي" وليس تقي الدين ولا علي بزي! بعض هؤلاء الاصدقاء لا يصلون الى قدمي في العلم او المعرفة او التجارب! وكان "علي بزي" يصف احدى سيدات المجتمع في الاردن ـ وهو سفير للبنان في عمان ـ بأن هذه السيدة "جنتلمان"!.. نعم..! سيدة وجنتلمان في وقت واحد! وكان يروي على الدوام النكت البايخة مع القصص التافهة ويزعم الكثير عن صلته الحميمة مع ابن عمي "رياض"..! وهؤلاء "الاصدقاء".. او "الاعداء" هم من خلال تصرفاتهم "الصبيانية" في مجالات السياسة بين لبنان والعراق قد جعلونا نكسب عداء جميع الشخصيات القيادية في السياسة العراقية ذات الوجه العربي والقومي، من أمثال صديق شنشل، وفائق السامرائي ومحمد حديد وغيرهم من رجالات حزب الاستقلال العراقي..".

وعندما سألت كاظم الصلح، وهو في نظري من أنظف واكبر وأقدر شخصيات لبنان، واكثرهم اعتزازا بكرامته واختيار ألفاظه، وأدبه الخاص ومسلكه العام، سألته لماذا لا يعود الى بيروت ويستأنف نشاطه السياسي القديم، أجابني:

ـ ان علتي مع بيروت انني ما زلت اقوم بمهمة وطنية خالصة في بغداد! يعني: سر عدم عودتي الى بيروت موجود في بغداد.. هنا.. في العراق..

ثم اضاف يقول وبصراحة يحسد عليها:

ـ وأنا لا ازعم بأن الزواج قادر على ان يكون الجواب الوحيد لحاجات الرجل المتعددة. انا اعتقد ان "الممرضة" في اية عيادة طبية قادرة على ان تكون أحسن "وأشطر" من الزوجة في ميدان السهر على راحة الرجل المريض! والسيدة الاجنبية الالمانية او الانجليزية او الفرنسية، قادرة على ان تبقى دوما هي الانثى التي تمنح الرجل كل ما هو بحاجة اليه من حنو وعاطفة!

وفي ميدان المساعدة في ترتيب البيت او الاشراف على عمل "المكتب" تبقى الموظفة المدربة أقدر من غيرها من الزوجات على القيام بمثل هذه المهمات التي تدخل في نطاق العمل! ولكن هذه الآراء لا تعجب بعض الأقارب من أهلي في بيروت! وهذا يسبب لي بعض الألم والتعاسة! أنا رجل عملي! رجل يزن الامور على حقيقتها ويسمي الاشياء ـ كل الاشياء ـ بأسمائها! وتبقى مصيبتي الخاصة والعامة في بعض اقاربي وبعض اصدقائي وبعض الكبار في الحزب السياسي الذي كنت وحدي المؤسس والمسؤول عنه هي الدافع المهم الذي يحول دون عودتي السريعة الى بيروت..!"

ويبقى كاظم الصلح ـ وقد تسنى لي ان اطلع على بعض التقارير السياسية السرية التي كان يرسلها من بغداد الى الخارجية اللبنانية، يبقى كاظم الصلح وحده عنوانا للأديب السياسي، او السياسي الأديب، او الزعيم الوطني الذي لم يأخذ كل ما كان يستحقه في حياة لبنان السياسية!! وقد عاش هذا الانسان "السوبرمان" غريبا في أمة من "تمود"! لا يفهمه الا القليلون ومنهم سكرتيره الخاص واسمه "مالك".. او سائق سيارته واسمه: "فكران"!

أجل.!

لقد بقي التعصب العائلي والقبلي في لبنان من اكبر عيوب هذا البلد الذي يسمونه "بلد الاشعاع". وكلما سقط زعيم او مات رئيس او اختفى

وجيه من زعماء او رؤساء لبنان، اسرع احد أبنائه لكي يأخذ مكانه او يحتل بقايا زعامته، بغض النظر ان كان هذا الوريث يستحق الوراثة او لا يستحقها؟ وهكذا تستمر حالات التحالف وحالات الخصومة معا كما هي وكما كانت وعلى حالها، وتنتقل بكل خيراتها وشرورها من الجد الى الابن الى الحفيد.. ونرى ابن "سلام" الصغير يخلف سلام الكبير، وفرنجية الجديد يخلف فرنجية الأب، وتقي الدين في مكان سامي بك او رياض، وابن الجميل محل بيار، وابن الخوري محل بشارة، وابن سكاف محل الوزير سكاف، وكامل الاسعد في الجنوب محل والده الراحل احمد الاسعد. وابن اده ريمون في مكان والده اميل، وهكذا تنكمش المبادىء السياسية في صورة عائلة، وتنحصر صورة العائلة في صورة رجل فرد، وتقوم المخابرات السورية في عام ١٩٥٨ باشعال نار العصيان في لبنان ضد كميل شمعون وسامي بك، مقابل تأييد صائب بك وشقيقه مصباح للعصيان المذكور، فاذ بعائلات بيروت ولبنان تنقسم على نفسها بعضها مع العصيان وبعضها ضد العصيان وضد عبد الحميد سراج وضد جمال عبد الناصر! في تلك المرحلة كان الرجل الاكثر سعادة في كل لبنان هو السفير المصري "عبد الحميد غالب" الذي قادته اهواؤه واغراضه واخلاقه الى زرع "البذرة" الصغيرة التي ادت في النهاية الى مجيء المزيد والجديد من المشاحنات الداخلية التي أوصلت البلد الى الحرب الطاحنة في عام ١٩٧٤ والتي ــ بدورها ــ قضت على كل ما تبقى يومئذ من معاني لبنان او من معالمه.. أو من حضارته.. أو من رسالته!

وأنا أعلم ان ليس بين الصحفيين او السياسيين او العرب من لا يحب لبنان! كلنا عشقنا لبنان! كلنا اصبحنا جزءا منه ومن كيانه! ولم يكن السياسي السوداني محمد احمد محجوب، او بعده الشاعر نزار قباني، او بينهما الصافي النجفي، أو امير الشعراء، شوقي، وحدهم الذين نظموا الشعر العبقري الحلو وتغنوا بجمال لبنان وحريته وارضه وشجره ومياهه.

ان ملوك العرب ورجالاته بأسرهم قد تركوا قطعا من قلوبهم فوق ارض لبنان. لقد أحبه الملك عبد الله بن الحسين ـ الاول ـ وارتبط بأوثق العلاقات مع زعماء الموارنة اللبنانيين. كما أحبه الملك فيصل بن غازي بن فيصل العراقي. ولا اعرف اميرا سعوديا الا وقد نبض قلبه بحب لبنان. وكان الامير السعودي العربي سلمان بن عبد العزيز يتحدث عن لبنان بلهجة الانسان العاشق الموله. ولولا الحرب الطاحنة لما بنى الامير سلمان بن عبد العزيز حجرا واحدا في مدينة "مربيا" الاسبانية وانما هرع الى لبنان!. وكذلك الشيخ سعد العبد الله الكويتي، وعبد الله المبارك، وشيوخ قطر والبحرين، ورجالات العراق من صالح جبر الى نوري السعيد!

واذا صح القول ان "من الحب ما قتل"، فان الحب الكثير والكبير للبنان قد قتل لبنان! ويشهد الله أنني ما نعمت بمعنى الحياة وما أحببتها وما عرفتها الا في لبنان! كانت الضربات تسقط فوق رؤوسه في بيروت وصداها فوق رأسي في لندن او جنيف او القدس! وكان الرئيس الراحل سامي الصلح يوقظني من فراشي عند منتصف الليل ـ ايام اقامتي في بيروت ـ ويأتي لزيارتي لكي يروي لي تفاصيل المؤامرات التي كانت تستهدف حياته ونسف موكبه وقتل ابنه عبد الرحمن، بأوامر عبد الناصر، او عبد الحميد سراج، او المخابرات السورية والمصرية في دمشق وبيروت. وكان دوما يردد سؤاله لي وبلهجته الساذجة المرحة والمزيج من العربية والتركية:

ـ ليس.. بابا.. ليش؟ وماذا يستفيدون من قتلي والقضاء علي؟ اسألهم أنت بابا: ليش. ما يحاولوا قتل غيري مثلا كميل شمعون!؟ قائد الجيش مثلا؟؟ شارل مالك مثلا! لماذا أنا فقط؟ هل لاني مسلم وعربي ولبناني، وأحب بلدي وأحب مصر.. وأحب الشام؟؟

رحم الله سامي الصلح، فالحظ وحده ورضى السماء عليه، مسؤولان عن بقائه حيا حتى ذلك اليوم! كان موكبه يتجه عادة من بيروت الى "الجبل"

وعندما يصل الى مركز "المنصورية" وسط الطريق، كانت القنابل الموقوتة تنفجر وتنسف سيارات الحرس الرسمي امام الموكب وخلفه.. وينجو سامي الصلح من الموت بأعجوبة!

ترى هل كان سامي الصلح، بقلبه الكبير، وانسانيته، وسهولة طبعه، وصراحته، وعطفه على الفقير البيروتي وعلى كل فقير - خائنا للعرب وللبنان، أم كان هو وأمثاله، سندا للبنان وللعرب وللشرفاء؟

صدمة بعد صدمة بعد صدمة!

ثم حملتني كل هذه الصدمات المليئة بالألم وخيبة الأمل والأسى وأعادتني الى الدنيا التي خرجت منها قبل اربعين سنة او يزيد، كانت كل سنة فيها مليئة بالكيد والحسد والكراهية والدس والخيانة في صفوف الكثيرين من حكام وزعماء ورؤساء العرب الكرام!

أقول: خيانة ودس وجهل ومؤامرات؟

ترى هل أعني بالتحديد يوم قرر خالد العظم رئيس وزراء سوريا ان ينسف الاتفاقية الحالية بين سوريا ولبنان ويتنكر لابسط قواعد التاريخ التي جمعت بين البلدين وبين الشعبين الشقيقين بدلا من السعي للوحدة او للتفاهم؟

نعم!

ترى هل أعني يوم تآمر بعض القوميين السوريين على فؤاد شهاب بقصد الاطاحة به، وبنظامه في لبنان وقبل ذلك بسنوات يوم قرر بشارة الخوري، ان ينفذ حكم الاعدام في انطون سعادة ويضع المسؤولية كلها على رأس رئيس وزرائه؟

نعم!

ترى هل أعني يوم أجريت عملية اللوزتين للملك محمد الخامس، ملك المغرب، في ظروف غامضة ومشبوهة ادت الى وفاته المفاجئة. كأفلام

هتشكوك في عالم السينما؟

نعم!

ترى هل أعني ان الصراع الذي لم ينته ولن ينتهي بين اكبر حزبين سياسيين في السودان، بقي كل منهما على مر الزمن لا يعملان لخير السودان ولا لتوفير النمو المطلوب لشعبه، وانما بقي احدهما "عميلا" لمصر، وبقي الثاني عميلا للانجليز! وبين المهدي والمرغني، أي بين الانفصاليين والوحدويين، او بين الذين يقبضون من الانجليز والذين يقبضون من القاهرة، واستمرت المعارك التي أنهكت وحدة السودان ودمرت خيراته وجاءت بالجنرال "قرنق" في الجنوب مطالبا بالانفصال بين شمال السودان وجنوبه كما كنا نرى في تلك الايام السوداء.

أجل.. أعني!!

ترى هل أعني احداث "ايلول الاسود" في عام ١٩٧٠ في الاردن؟ لقد سألت صديقي الدبلوماسي الكبير زيد الرفاعي لكي يروي لي تفاصيل ما جرى في ايلول "الاسود" فقاطعني يقول لي بدهشة:

ـ ولماذا تسميه ايلول .. "الاسود"؟

أجل أعني.!

ترى هل أعني حرب العراق ضد ايران بعد ان أطاحت الثورة الايرانية بأغنى وألعن "شاه" ايراني متحالف مع العدو وبعد ان اصبح اكبر شارع في طهران يحمل اسم فلسطين؟

أجل أعني!

ترى هل أعني يوم وضع انور السادات اسمه، واسم مصر على اتفاقية كامب دافيد التي سلخت مصر عن الصف العربي ودمرت التضامن العربي ولطخت اسم العرب واسم الجامعة العربية في الوحل؟

أجل أعني.!

ترى هل أعني يوم انطفأ الأمل الكبير في احتمال قيام أي تعاون او اتحاد او تقارب بين دمشق وبغداد بعد مأساة مصر وكامب دافيد وتحول حكام البلدين الى عدوين لدودين يحاكمان الناس الابرياء ويعلقان المشانق للوزراء ويوزعان التهم.؟!

نعم أعني!

ترى هل أعني حرب لبنان التي دامت ١٥ سنة واشعلت النار في اسم لبنان، وحضارته، ومعالمه، وقضت على الدور اللبناني المطلوب تجاه فلسطين وقضيتها وشعبها وضاعفت من شدة الاحتلال الاسرائيلي للجنوب اللبناني. وخلقت أشباه رجال مثل الجنرال "لحد" واركان حربه؟

أجل أعني.!

هل أعني حرب اليمن المجنونة بين الشمال والجنوب، او بين الوحدويين والانفصاليين، او بين المحافظين واليساريين، تلك الحرب التي دمرت جيش اليمن وانهكت قواه، وشغلته عن قضايا حدوده الضائعة، وجعلت منه "نكتة" او "دمية" في نظر الاشقاء "والجيران" والعالم العربي؟!

أجل أعني!

هل أعني يوم خطفوا زميلي وصديقي سليم اللوزي في يوم الاحد ٢٤ فبراير من عام ١٩٨٠ وعذبوه كثيرا، وقتلوه غدرا، ورموا بجثته بين أحراش "الشويفات"، وأخمدوا صوتا كان يناقشهم، ويحاسبهم، ويتهمهم؟ لقد طعنوا الصحافة في أحد عمالقتها!؟

أجل أعني..

ترى هل أعني يوم قرر المشير عبد الحكيم عامر ان يختار لنفسه احد الصحفيين المصريين المغمورين ويجعل منه ـ ولحسابه ـ صحفيا مشهورا يقوم بالدور الخاص الذي اعتاد ان يقوم به م.ح. هيكل مع عبد الناصر ـ تحديا للرئيس المذكور ـ واذ به يأمر بنسف قائمة جميع رؤساء التحرير في

جريدة "الجمهورية" ويضع إسمه "غير الكريم" مكانها.. ويطمس اسماء طه حسين، والشناوي، وموسى صبري، وناصر النشاشيبي وابراهيم نوار، ويملأ الترويسة على الصفحة الاولى باسم: حلمي سلام.. رئيسا للتحرير!

يومذاك، قدم جميع الرؤساء وتحرير "الجمهورية" ـ وانا معهم وبينهم ـ استقالاتنا من العمل..

ووافق المشير عامر على الاستقالة.. نكاية بنا وبجمال عبد الناصر!

وكفى الله الصحفيين شر العمل..

ومن اجل كل هذا، وأكثر منه، قررت ان اعود الى نقطة البداية، الى الدنيا العزيزة التي ولدت فيها وخرجت منها قبل نصف قرن او يزيد!

لقد عدت الى القدس العربية الخالدة والغالية!

وليس في القدس سوى انتفاضة يائسة يتبعها سلام أعرج، او سلام فاشل، تتبعه انتفاضة يائسة!

وعشت ايامي الاولى بعد هذه العودة وأنا اردد في نفسي عبارة ذكية سمعتها من الرئيس الاسرائيلي الراحل اسحق رابين عندما قابلته في مكتبه بالقدس ومعي الصحفي الاردني سلطان حطاب في عام ١٩٩٤.. قال لي رابين:

ـ ان الطرف الوحيد الذي يستفيد من "مباحثات السلام" أو "مفاوضات السلام" هم اصحاب الفنادق، وكذلك شركات السفر والطيران، وفيما عدا ذلك لا احد.. ولا شيء.. ولا سلام!

ورنت في اذني عبارة: لا سلام؟!

وأوشكت ان اسأل رابين عما يعني في كلامه: "لا سلام". ولكني لم أفعل. لان رابين، كان حتى يوم وفاته، الأمل السياسي والاستراتيجي الوحيد عند العرب عامة، وعند الفلسطينيين خاصة بأنه رجل السلام المطلوب، وشريك السلام "الصادق" عند منظمة التحرير وسلطتها

الوطنية !

لقد بقيت أتابع السلام بمراحله التي لم تتحقق، وتواريخه التي لم تحترم، ومفاوضاته التي لم تنتج.. واخباره التي لا تنتهي !

وعندما بدأ المليونير الامريكي اليهودي "رون لاودر" صاحب اكبر شركة تجميل وروائح وعطور في العالم رحلاته السرية الى دمشق منذ بدء عام ١٩٩٩، ظننت ان فجر السلام بين دمشق وتل ابيب قد اقترب وبانت أنواره..

وقام هذا المليونير الامريكي اليهودي بحوالي "١٢" رحلة جوية من تل ابيب الى دمشق على طائرته الخاصة التي كانت تقلع من مطار اللد، واسمه اليوم مطار بن غوريون، وتهبط مباشرة في مطار دمشق. ! وكان شارون وزيرا للخارجية الاسرائيلية في وزارة نتنياهو في عام ١٩٩٩ ! وفي كل مرة، ومع كل رحلة، كانت اسرائيل ودمشق يتبادلان الاسئلة والاجوبة حول ماهية السلام المطلوب بين البلدين. ؟

وكانت تل ابيب تسأل دمشق عن "مفهوم" السلام عند السوريين.

وتجيب دمشق.. وبالتفصيل !

ثم تسأل تل ابيب عن نوعية الاجراءات الامنية التي توافق عليها دمشق مقابل الانسحاب من الجولان.

وتجيب دمشق، ومع التفصيلات !

ثم وصل الامر الى ما يسمى بلحظة الحقيقة، أو نقطة الحسم، حيث سألت دمشق ان تحدد لها تل ابيب حدود الانسحاب الاسرائيلي من هضبة الجولان. وقال حافظ الاسد للمليونير اليهودي المذكور انه لن يرد على أي سؤال بعد اليوم ما لم تحدد له اسرائيل ـ على الخريطة ـ حدود انسحاب القوات الاسرائيلية من الهضبة ! وأضاف الاسد انه لن يستقبله بعد اليوم اذا لم يحمل معه الجواب الصريح عن حدود الانسحاب الاسرائيلي المقترح

من الاراضي السورية.. يعني: أين يقع خط الانسحاب المطلوب؟.

وطار "رون لاودر" الى تل ابيب يحمل الطلب السوري.

وقال شارون لرئيسه نتنياهو:

ـ هه! ماذا نفعل؟

وأجاب نتنياهو: نرسل للاسد الخريطة التي طلبها حول الانسحاب ونضع فوقها خطوطا غليظة وعريضة سوداء تفصل بين خطوط الحدود السورية لعام ١٩٢٣ وخطوط الحدود السورية لعام ١٩٦٧، فقد توحي له تلك الخطوط بمعنى الانسحاب ولكنها تخفي تحتها كثيرا من اراضي الجولان التي لا نريد ولا ننوي الانسحاب منها! دعنا نضحك على الاسد!

وانتفض شارون وأجاب:

ـ بل لن نرسل لهم شيئا! ان الخريطة التي تقترحها لو وقعت في يد "الاسد" سيحملها السوريون معهم الى شاشات التلفزيون العالمية ويفسرون خطوطها حسب اهوائهم ويتهموننا بالكذب والضحك على الذقون!!

وسأل نتنياهو:

ـ اذن ماذا نفعل؟!

وأجاب شارون:

لا شيء مطلقا! اتركهم "يمصون لعابهم" ـ كما يقول الانجليز ـ في تعابيرهم الدبلوماسية.. التآمرية!

وانتهت الرواية. وتجمدت المفاوضات بين دمشق وتل ابيب.!

ولم يعرف بتفاصيلها احد حتى اليوم!

لقد بدأت تلك الاتصالات من خلال مليونير يهودي امريكي يمتلك العطور والقصور وادوات التجميل على المستوى العالمي، ثم انتهت

باقتراحات خداع وغش من رئيس الوزراء ووزير خارجيته.. ثم لا شيء!

وعاد المليونير اليهودي "رون لاودر" الى نيويورك.

ترى أليس غريبا ان تعيش السياسة الاسرائيلية على حساب ملايين اليهود "الأجانب" من أمثال رون لاودر ـ صديق نتنياهو ـ والمليونير اليهودي الاسترالي الاخر "جوتس نيك" "امبراطور" الالماس ـ الذي يملك المليارات من الدولارات من جهة، ويفرض تعصبه الديني الاحمق وصلفه الصهيوني على السياسة الاسرائيلية للاحتفاظ بكل شبر من ارض فلسطين وعدم اعادتها لاهلها العرب من جهة اخرى؟

لقد قام هؤلاء اليهود الأثرياء بدفع الاموال الطائلة لمصلحة "نتنياهو" بقصد مساعدته على البقاء في الحكم بعد الانتخابات التي جرت! ولولا اخطاء نتنياهو المتعددة، وعلى رأسها صلفه وغروره واسلوبه العجيب في التعامل مع الوزراء وقراره طرد وزير الدفاع "مردخاي" من منصبه بسبب زيارة الآخر لمصر، اقول، لولا اخطاء نتنياهو في اسلوب التعامل، والكذب والمماطلة وغيرها من الاخطاء، لبقي هذا المسؤول الاسرائيلي، المتعصب في منصبه الهام كرئيس لوزراء اسرائيل حتى هذا اليوم!

كان شارون ـ وما زال ـ يكره نتنياهو ويصفه بالكذب.! والكراهية بينهما متبادلة! ولم اعرف سياسيا اسرائيليا واحدا يحب زميلا سياسيا له! وكذلك الحال بالنسبة لرجال السياسة العرب في فلسطين مع فارق واحد. ان السياسي الاسرائيلي يكره خصمه السياسي لكي يأخذ منصبه. اما عندنا ـ نحن العرب ـ فالسياسي العربي يكره زميله لكي يأخذ منصبه ويأخذ مع المنصب، بعض المال والشغل، والمصلحة الخاصة!

وليس بين رؤساء اسرائيل، من هو أقرب الى قلوب الشعب الاسرائيلي من رجلين اثنين كلاهما كان ـ في نظر اليهود ـ بطلا عسكريا وكلاهما أبلى بلاء متميزا في المعارك الحربية يومذاك: احدهما اسحق رابين رئيس

الاركان الاسرائيلية في حرب الايام الستة، وثانيهما اريئيل شارون، "بطل" الدور الاسرائيلي في حرب ١٩٧٣!

والاول سقط قتيلا بيد يهودي متعصب شاب!

والثاني سقط بسقوط حزبه في الانتخابات البرلمانية عام ١٩٩٩.

ولم يبق منهما شيء! ولم يبق من تاريخهما القصير الا اتفاق عابر، ولكنه مهم، واسمه: اوسلو!

هذا الاتفاق - رغم عيوبه وما اكثرها - بقي الهدف الاوحد الذي تريد اسرائيل ان تقضي عليه بعد ان اشرف على ولادته اسحق رابين ومع السياسي المخضرم شمعون بيرس.

ولم يكن رابين - في بادىء الامر - مؤيدا لفكرة اتفاق اوسلو.. ولولا الضغط الشخصي الذي قام به بيرس في "الترغيب" والتهديد حتى استطاع ان يرغم رابين على القبول.. بالفكرة.

يومذاك، وابدأ القصة من وسطها - كان شمعون بيرس يتمتع بالنفوذ الاقوى في صفوف حزب العمل الاسرائيلي، وكانت قوته تفوق قوة رابين وتتحداها. وعندما نجح بيرس في تمهيد الطريق لفكرة "اوسلو"، وجاهد بكل جرأة حتى أقنع رابين بها، بعد ان أقنع المنظمة الفلسطينية باستحالة كسب اية معركة عسكرية ضد اسرائيل، لم يبق امامه الا محاولة الخروج بالموضوع كله الى "العلن" اذ لم يبق امام الفلسطينيين الا الحل السلمي، ولم يبق امام رابين الا القبول بالخطوط العريضة التي رسمها شمعون بيرس ورجاله في الخارجية الاسرائيلية!

وخشي رابين ان يلجأ شمعون بيرس الى صفوف حزب العمل الاسرائيلي الذي كانت له في اوساطه الكثير من الأنصار، اقول خشي رابين من ان ينقلب الحزب عليه تحت المناورات والضغوط من جانب بيرس.. وأعلن القبول.. وأبصرت اوسلو.. نور الولادة.

ولكن اوسلو لم تستطع حتى اليوم ان تجد الحلول المطلوبة لجوانب الصراع العربي الاسرائيلي.. وفي مقدمتها.. جانب عودة "اللاجئين" الفلسطينيين حيث يقول اليهود بصراحة ان خروج هؤلاء اللاجئين من ديارهم ما كان ليتحقق لولا "اذاعات" الزعماء العرب الفلسطينيين الذين طلبوا منهم الخروج، تمهيدا للعودة بعد اسابيع، في ظل انتصار عربي منتظر، وهزيمة اسرائيلية متوقعة!

من هنا، تقول اسرائيل ان قضية اللاجئين مسؤولية عربية! وحلها يقع على عاتق العرب وحدهم! مع التأكيد ان الفلسطينيين لن يستعيدوا الارض المحتلة كما استعاد المصري او اللبناني او السوري ارضهم! ذلك ان الفلسطيني ـ كما يزعم الاسرائيلي ـ قد تأخر في المجيء الى محطة التسوية وان قطار السلام قد غادر المحطة.. منذ نصف قرن!

ويقفز السؤال الملح:

ـ لماذا جاءت هذه المعارضة وفي هذه المرة بالذات، من الطرف الاسرائيلي لاتفاقية اوسلو؟

والجواب الذي ردده على مسمعي العشرات من الاسرائيليين من مستشاري نتنياهو.. وشارون.. وبراك يقول ان اسرائيل تدرك او تظن ان "اوسلو" قد تؤدي ـ او انها ستؤدي فعلا- الى قيام دولة فلسطينية.!

ولان اسرائيل في اعوام القرن الاخير، لا تسمح بقيام دولة فلسطينية فقد بات عليها ان تحطم اوسلو..!

فاذا اعلنها ـ أعني الدولة ـ ابو عمار من طرف واحد، ستعمد اسرائيل عندئذ الى تجميد انسحاباتها من الضفة الغربية بحجة ان اعلان الدولة قد خرق الاتفاق المعقود، وان الرد على هذا الخرق لا يكون الا في خرق اسرائيلي مماثل ومضاد.. وسريع!

يعني ماذا؟ يعني ان تكتفي الدولة الفلسطينية "الجديدة" عند ولادتها

بالحدود "الحالية"، والمساحة الحالية، على الارض والتي لن تزيد عن "اربعين" في المائة على أبعد تقدير!

وبهذا، تكون اسرائيل قد طعنت "اوسلو" في موضع القلب وجردت الفلسطينيين من عشرين في المائة من اراضي دولتهم التي يحلمون بها!

ترى هل يغامر ابو عمار ويعلن الدولة ويدفع الثمن الباهظ من ارض فلسطين.. الغالية؟

لا أظن..

وماذا يكون الموقف الامريكي في مثل هذه الحالات؟

جوابي يقول ـ وخبراء اسرائيل يقولون ذلك ـ ان كل ما كان يتمناه كلينتون في تلك الايام هو ان يصل اليهود والعرب الى اتفاق سلام سريع لكي يصبح الرئيس الامريكي مرشحا للفوز بجائزة "نوبل" للسلام، ويحصل على الوسام الدولي الذي يمسح به عار الفضيحة الجنسية مع المواطنة "مونيكا لوينسكي"! مع العلم، اذا تحقق هذا السلام، قد يضمن الفوز في الانتخابات الامريكية للمرشح الديمقراطي وحده!

ولهذا يتفق كلينتون مع المسؤول الاسرائيلي "اهود براك" على ضرورة اهمال المسيرة الفلسطينية والتركيز على الجانب السوري الذي ـ لو تحقق فيه السلام مع السوريين ـ سيجد الفلسطينيون أنفسهم في عزلة تامة وموقف ضعيف تستطيع معه اسرائيل ان تفرض شروطها في أي اتفاق سلام جديد معهم بالرغم من الف اتفاق سلام قديم كاتفاق اوسلو..

أعود الى اتفاق اوسلو لكي اسأل:

ما هي قصة اوسلو؟ وما هي اهدافها؟ ومن هو الطرف الذي كسب الجولة من ورائها؟

وأجيب ـ والكلام للمستر اوري سافير ـ مدير الخارجية الاسرائيلية السابق والولد المدلل لدى "شمعون بيرس" ـ ان العملية قد استغرقت

الكثير من الجهد والسهر والنقاش طيلة اكثر من الف ومائة يوم..

وقد ورد هذا الكلام في كتاب المستر سافير الذي كان يكتب بقلم "الموظف" الكبير لا بقلم المؤرخ الحيادي الملتزم.

يقول "سافير" في كتابه عن عملية اوسلو :

".. وكانت الاسماء المستعارة لجميع المتفاوضين قد حلت محل الاسماء الحقيقية، واصبح الاسم الجديد لياسر عرفات هو "الجد" ولأبي مازن "الشيخ المقدس"، ولأبو علاء "رقم واحد".. وهكذا! وفي ظلام دامس ولدت اوسلو، وكان من الطبيعي ان ينتهي دور شمعون بيرس بولادة هذه الاتفاقية ولكن "ابو علاء" ـ كما يروي "اوري سافير" مدير الخارجية الاسرائيلية وأنشط مهندسي اوسلو ـ في كتابه عن "مسيرة السلام" في الصفحة ٣٠٩، ابو علاء قال لمدير الخارجية بعد مجيء نتنياهو الى الحكم "نحن الفلسطينيين نرى في شمعون بيرس سياسيا من الطراز الدولي، ورجلا للسلام ويجب ان نستمر في العمل الذي بدأناه".

ثم اضاف ابو العلاء يقول للمؤلف :

ـ ان مجيء نتنياهو للحكم كان مفاجأة كبرى بالنسبة لنا!

وأجاب "سافير" :

ـ ان اوسلو أكبر من كل أعدائها!

وضحك ابو علاء. وضحك سافير.

ويستطرد المؤلف في كتابه قائلا :

ـ لقد نشأت اوسلو بفضل شجاعة قادة ثلاثة : رابين. وبيرس ـ وعرفات! وأكبر عيوب مفاوضات اوسلو ـ كما يقول المؤلف ـ يكمن في ضعفها، وانها عجزت عن ان تصل الى الشعوب...!!

ويضيف :

- سمعت شمعون بيرس يقول ان اوسلو قد قادت اسرائيل الى صراع تاريخي هو أشبه بالفصل الثاني للثورة الصهيونية التي يتحول فيها اعداؤنا الى شركاء...

ثم ينهي كتابه كما يلي:

... في عام ١٩٩٧، كان احتفالي بعيد الفصح اليهودي في منزل مارتين انديك - السفير الامريكي - وكان معنا السفير المصري محمد بسيوني الذي مضى عليه مدة ١٥ سنة سفيرا لمصر في اسرائيل وابو مازن من منظمة التحرير. وقرأنا "الكتاب" المقدس بصوت عال - ويعني **Hagaldah** دون أي حرج بسبب وجود السفير المصري معنا. وفي النهاية قرأنا العبارة التي تقول بلسان اليهود: السنة القادمة في اورشليم **Next year in jerusalem** رغم ان هناك - بين الحضور - من يملك تفسيرا مختلفا لها..."

"... وكانت سهرة ممتعة. ولقاء فريدا بين أناس لا يريدون البقاء كظالمين او مظلومين. وقد نجد من يحارب اوسلو لما فيها الكثير من التناقض، ولكنها في النهاية شركة او شراكة بين الشعوب - كما علمني في اول لقاء لي معه، في اوسلو، شريكي ابو علاء!"

وهكذا تنفس يهود اسرائيل الصعداء لانهم التقوا مع العرب! كما تنفس رجال المنظمة صعداء اخرى، لان العداء بين العرب واليهود قد انتهى.!

انتهى؟

هل حقا قد انتهى؟؟ هل حقا ان اوسلو ولدت في النور ولم تولد في الظلام؟ هل حقا ان اوسلو هي الجواب المطلوب على جهاد عربي دام مائة سنة للوصول الى الحقوق العربية؟ هل حقا ان اوسلو ستعيد الارض، واللاجىء، والمياه، والقدس، الى أهلها؟!

لست متفائلا ولا مؤيدا. كما انني لست نبيا لكي اكشف خفايا المستقبل! أنا اترك كل شيء للغد.. وللمستقبل.. وللتاريخ وللذين يحبون

فلسطين !

أجل ! يبقى الحديث عن الجوانب المعلقة الاخرى من فروع الصراع الفلسطيني الاسرائيلي حيث لا كلام عن المستوطنات، ولا كلام عن حق العودة، ولا كلام عن المياه، ولا كلام عن القدس.. !

ولا أجد موضوعا يحز في نفسي الحديث عنه، كموضوع القدس.

لقد تفتتت كلمة القدس الى مجرد حروف جامدة لا قلب فيها ولا روح ولا مضمون !

وأنا لا استبعد قيام حركات فلسطينية مسلحة جديدة في الاشهر القادمة من عام ألفين او مع مطلع الصيف ـ القريب ! دفاعا عن القدس !

وقد تحققت هذه النبوأة التي قلتها قبل نهاية القرن.

وليس مخيفا ان تبقى القدس بعد اليوم مجمدة كما هي اليوم، ولكن المخيف حقا ان تصبح القدس بعد قليل مجرد ذكرى !

يقول مستشار رئيس بلدية القدس اليهودي الذي أقيل من منصبه احتجاجا على سياسة البلدية الحالية تجاه القدس، انه قد سمح لنفسه ان يكشف الأسرار وينشر كتابه في جامعة "هارفارد" الامريكية لان ضميره لم يسمح له بالصمت. !

يقول هذا المستشار بالحرف الواحد: "انه لم يكن هناك سياسة اهمال من جانب اليهود تجاه "عرب" القدس بقدر ما كان الهدف هو تشجيع يهود اسرائيل ويهود العالم للزحف الى القدس وتوسيع حدودها، وشراء الاراضي فيها وحولها، مع استملاك المنازل، بقصد "تجديد" حقيقة الوجود اليهودي في القدس، ومضاعفة عدد السكان اليهود في المدينة".

ويستطرد مستشار "تيدي كوليك" رئيس بلدية القدس السابق قائلا:

- كانت السياسة بموجب الاوامر الصادرة من الحكومة الاسرائيلية الى البلدية ان لا تسمح البلدية للعرب المقدسيين بأية زيادة في نسبة وجودهم

في القدس عن الحد الذي كانوا فيه عام ١٩٦٧ . وان يتم تخطيط الاحياء العربية حسب السياسة المرسومة الجديدة. يعني لا رخص جديدة في البناء ولا توسع ! يعني: على العرب اما البقاء للسكن في ما يشبه "المواخير" ، او بناء مساكن جديدة بدون تصريح ، او الهجرة مع عدم العودة بعد ضياع كل التأمينات والحقوق التي يتمتع بها المواطن المقدسي. !"

وتعترف بلدية القدس بأن الوسخ والقذارة تعم الاحياء العربية بحجة عدم وجود ميزانية.. ! وان الانارة معدومة، وان الخدمات الضرورية لا وجود لها ! حيث تزعم البلدية انها واقعة تحت الديون.. ولا تملك المال اللازم !

وقلت لهم: من أين جاءت هذه الديون الباهظة فوق رأس بلدية القدس ؟

وأجابوا : انها جاءت من صندوق البلدية الذي منح اليهود المتعصبين، و"المتدينين" والاحزاب اليهودية المتدينة في القدس أموالا طائلة لكي تمنح اصواتها للمرشح الليكودي المستر "اولمرت" في اول انتخابات للبلدية عام ١٩٩٣ مقابل فتح أقسام جديدة في المدارس والتربية والمعارف للمتدينين اليهود "وحدهم" ، ينفق عليها صندوق البلدية.. بالملايين من الدولارات سنويا !

ولا يجيء الخلاص الا بمجيء رئيس بلدية جديد لا يفوز بأصوات المتدينين اليهود في القدس، ولا يخضع لمطالبهم، ولا ينفق من صندوق البلدية على مدارسهم ومعاهدهم. الخاصة !

.. وبموجب اتفاقية جديدة بين الفاتيكان والمنظمة الفلسطينية قد تصبح المنظمة بموجبها مسيطرة على الكثير من جوانب الحياة في القدس. كالمواصلات والكهرباء والتعليم في مدارس البلدية، وجوانب كثيرة من الأمن، وغيره. ومعنى هذا ان الاتجاه يسير صوب فصل القدس "القديمة" او الشرقية عن القدس الغربية الاسرائيلية، والوصول الى حل آخر يوصي بالابقاء على القدس موحدة ضمن نظام داخلي يشرف بموجبه العرب

على الاحوال الداخلية في القدس الشرقية. يعني: نظام داخلي يعالج الخدمات في القدس القديمة، شريطة ان تبقى القدس موحدة بجسمين اثنين، او بلديتين اثنتين مقابل ان تقبل اسرائيل بهذا الحل..؟!

ـ هل توافق اسرائيل على هذا الحل؟

والجواب: ليس هذا متوقعا في الجيل الحاضر، ولا في الجيل القادم ايضا!

يعني ان الغد يبقى مليئا بالدم.. والخطر، والاصطدامات، والانتفاضات!

ويعني ايضا ان السياسة الاسرائيلية تمشي صوب هدف سري وعلني واحد هو: تهويد القدس.. رويدا رويدا.. بحيث تتم العملية المطلوبة مع مروز الوقت.. مهما طال الوقت.. ومع خطوات رسمية بأموال حكومية وتبرعات خارجية، واجراءات سرية، وعلنية!! لان الوسط اليهودي كما يبدو واثق من مستقبله. والزمن لا قيمة له عند اليهود! والنظرة تتجه نحو المستقبل البعيد فقط! ان كلمة اليوم لا قيمة لها.. والسنوات لا قيمة لها..!

ان كل شيء حاليا هو "مؤقت" بانتظار الهدف النهائي.! البلدة القديمة في قاموسهم تعني فقط: "المدينة اليهودية". والوجود الحالي للعرب والارمن والسريان والمسيحيين في البلدة القديمة هو وجود "مؤقت".. يخضع لاستمرار عمليات الشراء وامتلاك المزيد مع تصحيح هذا "الخطأ" التاريخي الموجود حاليا.

ان رئيس المستوطنين اليهود في البلدة القديمة الذي يقطن حاليا في عمارة اسمها (بيت ديفيد) وكان اسمها فيما مضى (سان جون هوسبيس) بجوار سوق (أنتيموس) بجوار النافورة القديمة في المدينة، وقد اشترتها الحكومة الاسرائيلية من المستر (ماثوسيان) الذي هاجر بعد الصفقة الى

"فلوريدا" وكان يقطن في المبنى بصورة مستأجر قبل ان يبيعه ويهرب بالملايين الى امريكا. !

وأنا اعترف مرغما ان جو القدس العادي لا يوحي بالانشراح والراحة بقدر ما يوحي بالكآبة وبالحزن! أجراس تدق، وسكوت يخيم، وأبواق تتصاعد، ودعوات تأتي من بعيد كحشرجات المريض عندما يوشك ان يودع الحياة. !

ثم جاء الاحتلال الجديد، وضاعف من أحزان القدس ومن سوادها ومن كآبتها!

وتموت الحركة تماما مع غروب شمس أيام الجمعة ومولد أيام السبت!

وتموت الحياة مع مجيء كل عيد يهودي وما اكثر أعيادهم! ولا يبقى ما نفرح به..! او ننتظره!

وللعلم فقط: ان اللغة الوحيدة المكتوبة على الجدران وفي مراسلات التلفون والبلدية ورسائل البوليس والضرائب والبنوك هي اللغة اليهودية وحدها!

أسماء الشوارع في تسعين في المائة من المدينة، كلها أسماء يهودية.. ومكتوبة بالعبرية!

والدوائر المهمة كلها في الجانب الغربي.. اليهودي! والمواصلات العامة ما زالت قاصرة على شوارع أبناء عمنا اليهود!

ويأتي الشتاء، وتمتلئ شوارعنا وميادينا بالحفر والمطبات... وتكثر حوادث الاصطدام، ويتحول الشارع الرئيس من القدس الى "رام الله"، من شارع مواصلات الى شارع اصطدامات وموت، وقتلى، وجرحى. !

وتتعالى الشكاوى، وليس هناك من يرد. وتنطلق الصيحات على صفحات الجرائد، التي تحولت مؤخرا الى ميادين اعلانات للموتى والأفراح والتهاني مع بعض المقالات المأخوذة من "الحياة" و"الشرق

الاوسط" و"السفير" و"النهار" و"الاهرام"، ويشترك عشرة اشخاص في قراءة النسخة الواحدة من الجريدة الواحدة، ثم تعاد النسخة الى البائع بحجة عدم وجود أخبار مهمة!

وآه وألف آه على القدس. بشراً، وحجراً، وشجراً.!

انني أختنق. انني ضائع. انني حزين!

في أيام بن غوريون، ترحمنا على حاييم وايزمن...

وفي أيام بيغن، ترحمنا على بن غوريون...

وفي أيام نتنياهو ترحمنا على "العمل" والعمال..!

وفي أيام "براك" ما زلنا وسنبقى نترحم على نتنياهو وعلى مناحيم بيغن!

ماذا أصنع؟ ولم يبق في العمر اكثر مما مضى؟

هل أعود الى الهجرة.؟

ان اكثر من عشرين الف نسمة من عرب ويهود قد هاجروا من القدس منذ عام ١٩٩٢.

ورغم كل المغريات، فقد انخفضت نسبة عدد السكان اليهود في القدس من ٧٤ الى ٦٨ في المائة. حتى اليهود "الاصوليين" بدأوا يرحلون عن القدس! وفي عام ١٩٩٧ ترك القدس اكثر من ثلاثة آلاف اصولي يهودي لأسباب تتعلق بالعمل او ارتفاع نفقات المعيشة او بسبب مشاكل سكنية! لقد تركوا القدس للعيش في المستوطنات اليهودية القريبة المجاورة مثل "بيتار ـ عيليت" وكريات سيفر، و"بني براك" وغيرها.

واليوم، تحاول اسرائيل ـ ان تُضاعف من حجم المغريات المادية والمعنوية لكي تمنع اليهود من هجرة القدس حيث تضاعف القروض وتفتح أبواب العمل والتجارة والفنون.. تماما، كما كانت المانيا الغربية تقوم به من اجراءات للحفاظ على وجودها في القسم الغربي من برلين قبل سقوط الشيوعية العالمية!

وما هي علاقتي بكل ذلك؟

هل أبقى حيث أنا؟ أم اعود الى الهجرة والضياع؟

ولماذا أحمل "صليب" العذاب والتعذيب وطغيان الحكم الصهيوني وحدي في مدينة أحببتها وأراها اليوم تتسلل من بين يدي؟

أأنا العاشق الوحيد لتلقى تبعات الهوى على كتفيا؟

قال لي صديقي وزميلي الراحل احمد الشقيري وأنا ازوره ـ وكأني اودعه ـ في سرير مرضه بالعاصمة الاردنية، قال وهو يسألني عن أخبار القدس التي كان يسكنها وكان يحبها كثيرا.. كثيرا!

ـ سيأتي يوم، يترحم فيه أهلي على شخصي، وعلى اسمي، وعلى سياستي! وسيترحمون ايضا، على "لاءات الخرطوم" التي أطلقتها شخصيا في منزل صديقنا المشترك محمد احمد محجوب، رئيس وزراء السودان، بحضور عبد الناصر، والملك فيصل آل سعود في مؤتمر الخرطوم!

ثم أضاف بكلمات متقطعة:

ـ زعموا للخلاص مني أنني لست رجلا عسكريا ولا محاربا!

ثم راح يردد في شبه غيبوبة وكأنه يتمتم:

أنا لست عسكريا ولا محاربا..! لست يا أخي عسكريا.. ولست محاربا! هذا صحيح.. كلامهم صحيح.!! ثم أضاف:

ولكن الصحيح ايضا انني لم احضر الى خدمة بلدي من فراغ. لم ترشحني سفارات امريكا او بريطانيا لكي اصبح زعيما مسؤولا امام شعبي! أنا ابن الشيخ اسعد الشقيري فخر أمته في الأدب واللغة والدين والوطنية! وأنا ابن عكا، بلد الصمود والتصدي امام نابليون وابراهيم باشا وغيرهم. أنا ابو مازن..!"

ثم سكت دون ان يدري!

لقد رحل الشقيري قبل ان يرى ماذا حل في القدس.. وما هي احوالها بعد رحيله؟

ولم يعش ليرى طوابير العمال العرب العاطلين، مع الشبان المراهقين يصطفون على جانبي شارع صلاح الدين في قلب القدس، ينتظرون خروج البنات المقدسيات الصغيرات من مدارسهن للتحرش بهن والقاء العبارات الجارحة القذرة على مسامعهن..!

رحمه الله..

فقد كان رجلا شريفا مستقيما، لا يدخن، ولا يشرب، ولا يكذب ولا يخاتل ولا يجامل، وكنا نمشي معا في شوارع حي "باب الساهرة" بالمدينة نحكي، ونضحك، ونستعيد الاحداث، ونبوس جدران القدس القديمة بكل أنفة وكبرياء وسرور.. وأمل!

قال لي في يوم حزين من ايام صيف عام ١٩٤٦:

ـ ها هي اللجنة الخاصة التي أوفدتها الجامعة العربية الى القدس لكي تشرف على تشكيل هيئة تمثيلية عليا تنطق باسم عرب فلسطين وتمثلهم في المحافل الدولية بعد ان انتهت الحرب العالمية وبدأت المناورات الدولية تبحث عن حل "نهائي" للقضية، ها هي تلك اللجنة الخاصة قد وصلت الى القدس برئاسة جميل مردم، وعضوية خير الدين الزركلي، وتقي الدين الصلح.. فماذا فعلت، وماذا قررت، وكيف انتهت.. وهل كانت أبحاثها وقراراتها في مستوى المسؤولية..؟

قال مستطردا: أبدا! لقد عالجها "جميل مردم" بأساليبه البهلوانية المعروفة وعقد مؤتمرا صحفيا في فندق "الملك داود" وأعلن للعرب "البشرى" بقيام لجنة عربية عليا لفلسطين!

قلت: وهل كانت حقا لجنة عليا.. كما أريد لها؟

أجاب: بل كانت مجرد لعبة من ألاعيب جميل مردم البهلوانية! ليس

فيها تمثيل حقيقي. ولا موافقة من زعماء الاحزاب، ولا رضى شعبي. ولا تأييد سياسي. وكل ذلك في أدق المراحل التي كنا نجتازها ضد الصهيونية العالمية لانقاذ البلد! وهكذا بقيت القضية بلا تمثيل حقيقي وبلا تأييد شعبي الى ان جاءت اللجنة الدولية وقررت تقسيم البلاد ولم يظهر امامها عربي مسؤول او فلسطيني واحد..

قلت: ولكن السيد اميل الغوري ـ كان راضيا عن القرارات، بوصفه ممثلا للحزب العربي الفلسطيني.؟

وأجاب الشقيري بعنف وصراحة وجرأة: ان أمثال "اميل الغوري" قد مشوا بالقضية وبالوطن الى الهاوية!

لقد رحل احمد الشقيري..

وتحولت الشوارع في عروس الانبياء وأم الديانات، الى أزقة وظلام وسرقات وممنوعات ومجموعات سياح او مجموعات حجاج من فقراء اليونان، او قبرص، او ليتوانيا او بولونيا لا تستفيد القدس من قروشهم بقدر ما تئن تحت وطأة أوساخهم.

وعند اول عاصفة ثلجية ينقطع التيار الكهربائي وتستسلم المدينة للظلام. وعندما يخلو منصب المسؤول الاول عن التربية والتعليم في شرقي القدس، تبادر البلدية الى اختيار ضابط عسكري درزي ـ لا علاقة له بالتربية ولا بالتعليم، لملء المنصب الشاغر.

وأسمع احدهم يردد بيت الشعر القائل:

مؤذننا كردي، وتركي أمامنا

تعالوا على الاسلام نبكي ونندب!

واصبحت الحياة في القدس ومع القدس بلا معنى ولا أمن! انها اليوم مجرد ممر عابر لآلاف من سيارات المستوطنين الجدد المقيمين حول القدس في شمالها وغربها وشرقها، يتسابقون للوصول عبر القدس الى تل

ابيب، او الى مستوطنات اخرى حول المدينة غير مبالين بالاصطدامات، او الحوادث، او الجرحى، او الخسائر، ما دامت نظرتهم الى القدس لا تزيد عن نظرتهم الى مستعمرة صغيرة منعزلة فقيرة يسكنها بعض العرب!

ترى، هل كان احمد الشقيري محقا عندما أوصى بأن يتم دفنه في موقع بعيد بجوار وادي الاردن بعيدا عن المواقع التي كان يحبها ويزورها ويقطن فيها في وسط القدس..

لم يبق أي شيء..

ولم يبق عندي ما افتقده او أبكي عليه..

لقد تساوى عندي الماء والحجر.. ولم يبق في العمر اكثر مما مضى.

لقد رحل اللاعبون وتشردوا.. او ماتوا.. وأقفرت الملاعب من أهلها. ولم يبق منها، ومنهم، الا هذه الذكريات!

* * *

وعندما توفي "أحمد الشقيري" في شهر فبراير من عام ١٩٨٠، كنت في الأردن، واشتركت في تشييع جثمانه، وكتبت عنه يوم ٢٩ فبراير عام ١٩٨٠ في جريدة "الأنباء" الكويتية الرثاء التالي تحت عنوان: "ابو مازن". قلت:

".. في شخصية أحمد الشقيري ومراحل عمره وملامح وجهه وأخطاء مسيرته الشبه الكثير مع شخصية قضية بلدي ومراحل عمرها وملامح وجهه وانتكاسات مسيرتها!

فقد كان صديقي ابو مازن ـ وهذا هو اسمه الحركي واسمه الحقيقي معا ـ توأم هذه القضية الكبرى يرافقها بالجهد احياناً وبالسجن أحياناً وبالغربة والتشرد أحياناً وبالمسؤولية أحياناً وبالزعامة أحياناً ولكنه كأي توأم قد يكون أخطأ في المعالجة أو بالغ في المحبة أو قصر في التعبير أو أمعن في

التألم وكل ذلك ـ يشهد الله ـ دون ان يسمح لنفسه يوماً أن يخفف من تعلقه بها أو يبتعد بمشاكل الحياة عنها أو يقصر في التغني بمحاسنها لأنه ولد واسم "عكا" في دمه واش وبسمة فلسطين على لسانه !

وقد عرفته زميلاً وصديقاً ومواطناً واجتمعت اليه الف مرة ومرة وتبادلنا الشكاوى والألم والقلق والحسرات وعملنا في المكتب العربي في القدس بل ان تقوم لاسرائيل دولة في بلدنا وعندما نشرد الأهل وتكسر الوصال عدنا واجتمعنا في القاهرة وفي بيروت وفي "كيفون" يتكلم هو فأسمع وأشكو أنا فيسمع ونتجاذب النقاش بلا تعب ونتبادل العتاب بلا تجريح فاذا ما انتهى دور الكلام وجدنا أنفسنا نلتقي على حب كبير هو القدس ووطن خالد هي فلسطين... !

وقد جاء الشقيري الى القدس يدرس المحاماة ويمارس الصحافة في الجريدة "مرآة الشرق" ! ثم عاد الى عكا يمارس الجهاد من أجل بلده فاعتقلوه وسجنوه وابعدوه وشردوه وما زاده ذلك الا اصرارا على بذل المزيد وعنادا من اجل الوصول الى النصر مع الكراهية للانكليز والعداء لليهود والترفع عن المساواة والتمسك بالحق والصمود امام الضربات..

وما عرفت خطيباً يستمد من مرادفات اللغة وتعابير البيات وفصاحة الاسلوب قوة وعزيمة كأحمد الشقيري. كانت العربية ملك لسانه وطوع جنانه يخطب بروحه ويتدفق بأحاسيسه وأعصابه، يطل دونما اسفاف ويعيد دونما ملل حتى اذا شعر بأنه أعطى للموضوع حقه وللساعة التزاماتها وللمستمعين واجبهم عاد الى كرسيه وفي نفسه شيء من الحنين لكي يعود ويبدأ الخطابة من جديد...

وكقضية بلده كان الشقيري بروحه وجلديته أبعد من مجرد الحدود الجغرافية التي ولد وانتسب اليها فقد رحل من عكا الى القدس ثم رحل الى دمشق ثم غادر دمشق الى القاهرة ثم هجر القاهرة الى السعودية ثم تنقل

بين امريكا والمشرق العربي تارة هو ذلك الدبلوماسي السوري المساعد لأمين الجامعة العربية وطوراً هو ذلك الممثل السعودي في الأمم المتحدة ومرات هو القائد الفلسطيني ينظم المقاومة ويحشد الاكانيات. وفي كل مرحلة كان الهدف هو فلسطين وكانت تلك المراحل مجرد محطات وقف عندها ابو مازن لكي يطل منها على قضيته ووطنه وشعبه. وكما ان القضية نفسها قد عاشت ملتهبة متأججة ثائرة فكذلك الشقيري عاش معها ملتهباً متأججاً متفجراً. ومن مرارة مشاعره تجاه قضيته عاش يتنفس المرارة ويحياها وبسبب الطابع المتأجج لتلك القضية اختلف مع جميع الذين عمل معهم. فقد اختلف مع عبد الرحمن عزام وخليفته حسنوة كما اختلف مع السوريين السعوديين والمصريين وحتى لم يوفر على نفسه اختلافاً مع بعض اخوانه من الفلسطينيين الثائرين المجاهدين انطلاقاً من شعوره بأن القضية قضيته وانه وحده الحكم فيها وان صفاء حبه لها او اندماجه فيها يعطيه الحق لكي يضحي بالطداقات في سبيل المبادئ وان الخدمة العامة لا تسمح للمشاعر الخاصة بالتدخل وان الاجتهاد في معرض خدمة هذه القضية حرام وان التطرف في الالتزام بها واجب مفروض وان العمر القصير للمرء الواحد لا يكفي وحده لكي يمنحه فدية وحباً وثمناً وعربون ولاء!

رأيت أحمد الشقيري يدلي بشهادته أمام لجنة التحقيق الانكلو امريكية في وائل عام ١٩٤٦ باسم المكتب العربي وسمعت رئيس اللجنة البريطاني السير جون فلنجتون يسأله بعصبية ظاهرة "ألا تعتقد ان دخول قوات الحلفاء الى الشرق العربي في الحرب العالمية الأولى كانت عملية تحرير للعرب؟" وسكت الشقيري لم يجب وعاد رئيس اللجنة يكرر السؤال ولكن أحمد الشقيري لم يجب وعندما أطلق الانجليزي سؤاله للمرة الثالثة ارتفع صوت أحمد الشقيري لرد قائلاً قي عصبية ثائرة: (كان دخولكم لبلادنا سبباً في تجزئتها وهدمها وتخريبها وتقسيمها لا تحريرها ولا لخدمة شعبها!).

وعندما سأله العضو الآخر في اللجنة: يصف وجود قوات الحلفاء في المشرق العربي خلال الحرب العالمية الثانية لحماية العرب ضد النازية، أجابهم:

ـ قواتكم لم تأت لحمايتنا وانما جاءت لحماية اليهود وحماية طرق مواصلاتكم الى الهند!

ورأيت أحمد الشقيري يخطب في الأمم المتحدة بنيويورك وسمعته يشير الى غولدا مائير التي كانت تحتل مقعد اسرائيل في الجمعية لعمومية ويسخر منها قائلاً: (هذه السيدة المحترمة التي ولدت في روسيا وتزوجت في امريكا وعاشت في بولونيا ثم استقرت في بلدي قد جاءت اليكم من تل أبيب لكي تفسر لكم الآن لماذا وكيف وبأي حق يحتل الغريب أرض صاحب الحق وكيف وبأي حق يطرد اليهود العرب من بلادهم. قولوا لهذه السيدة المحترمة ان تعود الى أمريكا او بولونيا او روسيا حيث يعيش أهلها وان تترك أهلي يعودون الى بلدهم أحرارا)!

وانظر الى وجه غولدا مائير فأرى الحمرة المجمدة الجامدة تملأ ملامحها ثم ما لبث ان تمد يدها الى علبة السجائر وتأخذ منها سيجارة واحدة تمشي بها الى خارج القاعة لكي تشعلها بعيدا عن كلام أحمد الشقيري وعن ضرباته!

لقد عرفه جميع مندوبو الدول لدى الأمم المتحدة وأحبوه واحترموه وقال لي مداعباً عندما التقينا في بيروت عام ١٩٥٤ بعد عودته من حضور احدى دورات الجمعية العمومية: "لقد القيت خطبتي ذات مرة فالتف مندوبو الدول حولي يهنئوني. كانت خطبة عامرة ملتهبة كبقية خطبي في الجمعية العمومية وكان بين الوفود التي التفت حولي المسيو فيشنسكي مندوب السوفيات الذي اشتهر ببلاغته وسحره وقدرته على الخطابة وقال احد السفراء العرب للسيد فيشنسكي السوفياتي ضاحكاً (ولماذا لا

تقولون ان فيشنكسي هو شقيري الروس؟).

ولكن مواهب أحمد الشقيري المتعددة الجوانب الصارخة الطباع كانت محسوبة عليه ايضاً كان ذكاؤه محسوبا عليه كما كانت قدرته الخطابية ومواقفه القومية وكفاءاته العلمية محسوبة عليه ومن هنا كثر حساده ومن هنا تضاعفت خصوماته ومن هنا اختلف الناس في الحكم عليه هل هو رجل دولة أم مجرد سياسي؟ هل هو بهلوان أم زعيم؟ هل دبلوماسي أم صاحبها أم الرجل الذي يركب موجاتها ويستغلها لحسابه؟ فقد اختلف الشقيري مع المعتدلين من العرب كما اختلف مع التطرفين منهم وحاربه خالد العظم والقوتلي وناظم القدسي كما حاربه جمال عبد الناصر وحزب البعث وهجر القاهرة كما سبق له وهجر دمشق والرياض ولم يعرف تاريخ فلسطين طيلة الاربعين سنة الماضية رجلاً اختلف في نظرتهم اليه كما اختلفوا في النظرة الى أحمد الشقيري ولا يعرف العرب فلسطينيا أحبهم وهاجمهم واتهمهم وزاملهم في الاجتماعات وقسا عليها خارجها كما فعل أحمد الشقيري مع زعماء العرب كان فريداً اذا أحب وفريداً اذا غضب أو ضرب...!

* * *

وقد نشأ الشقيري في بيت عز ونسب وحسب وكان والده الشيخ اسعد هو رجل الأدب والعلم والحجة والكفاءات وليس سراً ان اختلف الابن مع أبيه في اجتهاد كل منهم ونظرته الى قضية بلده وكذلك ليس بالسر ان احمد الثائر المتأجج لم يكن في طبعه وثورته على اتفاق دائم مع بقية اخوته وخاصة مع الأخ الطبيب بينهم.

كان احمد صاحب دنيا خاصة به فهو استقلالي النزعة مع عوني الهاني وهو متطرف الهوى مع الحاج أمين وهو دبلوماسي المواقف مع راغب بك

وهو مؤيد للعمل السياسي المنطقي الهادئ الموزون مع موسى العلمي. كلهم اخوته كلهم خلانه كلهم زملاؤه وكلهم اختلف معهم ثم انقلب عليهم فقد اعتاد الطير ان يسبح في الفضاء لوحده كما اعتاد النسر ان يحلق في العلو الشاهق بمفرده هكذا ولد وهكذا عاش وهكذا مات!

قال لي في لندن في الصيف الماضي وكان قد جاء اليها ليرافق زوجته في علاجها على يد احد الاطباء الانكليز:

ـ لقد أصبحت حياتي في القاهرة لا تطاق. البوليس السري يراقبني والتلفون مراقب عندي ورسائلي مراقبة رغم أنفي، واذا تركت شقتي في الزمالك لكي أقوم بمشواري العزيز على قلبي على كورنيش النيل وجدت البوليس السري المصري يتبعني ويعد علي خطواتي. لقد قررت ان اترك القاهرة وان اسافر الى تونس ان حالة لبنان لا تسمح لي بأن أذهب الى "كيفون" وان ألازم بيتي الصيفي بجوار سوق الغرب. تونس عظيمة يا أخي وقائدها صديقي منذ أيام تشرده في فلسطين وسأبقى هناك حتى يقضي الله أمراً كان مفعولا..

وكان ابو مازن يحدثني وخيوط الدمع ترتسم فوق عينيه، كان متشائماً حزيناً قانطاً يتحدث عن ذكرياته بمسحة الألم ويتحدث عن مستقبله برعشة الخوف ويتحدث عن حياته بنبض الضياع!

وقلت له ذات يوم أسأله:

ـ هل حقا يا أخي احمد انك قلت في اوائل حزيران من عام ١٩٦٧ بأنك تريد ان تقذف باليهود الى البحر وان سمك البحر الابيض ينتظر بفارغ الصبر لكي تدق ساعة الحرب فيشبع السمك ويأكل ما يشتهي من جثث اليهود؟

وعبس ابو مازن في شبه غضب وقال لي:

ـ (يشهد الله انها كذبة من أكاذيب اسرائيل وأنا أتحدى أي شخص أو

دولة او اذاعة او صحيفة قادرة ان تثبت لي مثل هذا السخف بصوتي أو على لساني).

ثم استطرد احمد يقول لي:

ـ الصهيونية يا صديقي تعيش على بث اسطورة سياسية ونفسية معينة تصورها بأنها هي وحدها الضحية المهددة بالفناء على يد المتطرفين العرب.

هذه الاسطورة تضمن لليهود تدفق المال العالمي على خزائن اسرائيل واستمرار الحماية الامريكية لسياسة اسرائيل ولست غبياً لكي أطلق مثل هذا القول ولكن اليهود ماهرين في فنون الدعاية واختلاق الأقاويل، قد وضعوا مثل هذا الكلام على لساني ونشروه في العالم بينما أنا منه براء. حاولت ان انفي فلم يستمع لي أحد، أصدرت بياناتي المتعددة فلم ينشرها احد وقد زاد في ألمي وحسرتي ن معظم أهلي واخوتي من العرب قد صدقوا مثل هذا الباطل وراحوا يعاتبونني عليه وكأنه حقيقة قائمة ثابتة..!

وروى لي ابو مازن قصة آخر لقاء له مع القدس في صبيحة يوم الخامس من حزيران في عام ١٩٦٧ وكيف استقل السيارة الى عمان وكيف سمع نبأ العدوان من راديو السيارة وماذا فعل في عمان ثم رحلته الى دمشق وعودته الى بيروت وانهى كلامه لي قائلاً في حزن عميق:

ـ اني أحس بأنني لن أرى القدس مرة أخرى يا أخي. اني أحس ان العدو اغتصبها مني ولن يعيدها وستمضي عدة سنوات طوال قبل ان يعرف العرب والمسلمون قيمة القدس ويعودوا انفسهم عسكرياً ونفسياً وسياسياً لاستخلاصهم ومن الآن الى ان تتحقق المعجزة سنعيش نحن وأمثالنا في ضياع ومقت وتفتت وألم دفين!

* * *

وقد عرف أحمد الشقيري حياة السجون والمعتقلات على يد الأتراك

والانجليز والفرنسيين وبقدر ما كان يعتز بصفحات تشرده واعتقاله كان يضحك من تلك الصفحات وعليها، ويهزأ من الذين اعتقلوه وسجنوه ويروي طرائف عن حياة السجن وحياة المعتقل مع رفقائه من أمثال عبد الحميد شومان ورشيد الحاج ابراهيم وعوني عبد الهادي وسليم عبد الرحمن وواصف كمال ونبيل عمه.

كان موسوعة في سرد الطرائف والأحاديق والأقاويل عن مختلف رجالات فلسطين في مختلف مدنها كما كان حجة في استيعاب الجوانب القضائية والحقوقية لقضية بلده ومن هنا ما أكثر ما كانت تختلط في جوانب عمله خيوط حياته الخاصة مع خيوط حياته العامة. فالفلسطيني عنده بريء وشريف وأمين وضحية من ضحايا بريطانيا والصهيونية الى ان يثبت العكس. والفلسطيني على حق الى ان يثبت العكس والفلسطيني لا يخالف قانونا ولا يعادي انسانا ولا يعتدي على أحد الى ان يثبت العكس، يكفي الفلسطيني شرفا في نظر احمد الشقيري انه فلسطيني ويكفي الفلسطيني عذابا عنده انه فلسطيني وكان يقول دائماً ان الفلسطيني سيدخل جنة ربه بلا حساب لأن الله لا يحاسب حسابين ولا يعاقب عقابين وقد كفى الفلسطيني ما قاساه وما عاناه من شقاء في حياته المضنية الشقية الطويلة!.

* * *

وقد أحس الشقيري منذ شهور بخطورة مرضه فقرر ان يترك تونس ويأتي الى عمان لكي يستسلم للعلاج فاذا حمى القدر كانت وفاته في اقرب بقعة الى أرض بلده وكان قبره عند موقع الصحابي ابي عبيدة في غور الأردن حيث قبور الصحابة والشهداء وأبطال العرب لتحرير فلسطين.

وكان في الأيام الأخيرة من عمره اسير الشعور بالحزن في اقتراب ساعته، كان وجهه يتجهم ويتصبب العرق من عينيه ويبكي بكاء حارا عندما يتبين من خلال قسوة المرض ملامح الزائر العزيز الذي يقف أمامه. هكذا رأيته في فراش مرضه الأخير وهكذا حدثني ايضاً عن معظم اصدقائه الذين زاروه في أيامه الأخيرة في مستشفاه بمدينة عمان، كان يوصي ولده بأن ينفذ وصيته وان يجعل قبره ملازماً لقبر ابي عبيدة لصحابي الجليل، وكان يردد دائماً (نجاورهم لكي يغفروا لنا اننا قد أضعنا ما سبق لهم وحرروه بأيديهم ودمائهم من أرض وأوطان!).

لقد كان يشعر رغم صفاء وطنيته وطول جهاده بأن أهل فلسطين لم يعطوا بلدهم كل ما يستحقه البلد من تضحيات ودماء، وكان يعي كل صفحة من صفحات التاريخ الحديث وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب ويحفظ الى جانب ذلك المئات من الأحاديث النبوية وأقوال الخلفاء والصحابة وكان يصر ان يجعل كلامه ممزوجاً باللغة الفصحى، وان يؤكد روايته برأي قديم أو رأي حديث مشهور أو نظرية أجنبية، فقد كان يقرأ بالعربية كما يقرأ بالانجليزية، وتشهد مكتبته الكبيرة والتي تضم آلاف المجلدات في القاهرة وفي لبنان على صدق هذا القول...

سألت مرة عن اسم ولده الصغير فأجابني:

اسم ولدي القنبلة الذرية!

وسألته عن اسم كريمته الصغرى فأجابني:

اسمها عابرة المحيطات!

وضحك من أعماقه فقد ضاع ولده مرة في باريس، وجاء يبحث عنه من بيروت. اتصل بي على منزلي في سويسرا لكي يقول ان "القنبلة الذرية" قد ضاعت منه وانه يفتش عنها وانه يتصور بأن اليهود قد سرقوها وكنت قد نسيت ان القنبلة المذكورة لم تكن عنده سوى ابنه اياد الذي ضاع في

شوارع باربي. فجاء الأب يبحث عنه. لذلك سألته في ذهول وما دخلك أنت بالقنبلة الذرية؟

وأجابني كيف! (وهل نسيت انها ولدي؟) عند ذلك فقط غادرت جنيف الى باريس واشتركت مع الأب القلق الحزين في عملية البحث عن ولده حتى عثرنا على الابن مصاباً بحادث سيارة في احدى مستشفيات باريس..

وبعد..

لقد كتب أحمد الشقيري عدة مؤلفات لم يرض بعضها الا احمد الشقيري نفسه! فقد كانت صراحته أكبر من ان تتحملها المواقف وكانت ثقته بنفسه تحمل احيانا طابع الاستهانة بالغير وكان اسلوبه قاسياً وهجماته حارة ونقده مريرا وعتابه صارخاً ولسعاته دموية دامية ولكن الذين عارضوه وقاوموه وانتقدوه ووجهوا له النقد واللوم والتقريع وحملوه بعض المسؤولية فيما أصاب العرب من هزائم ونكبات حتى هؤلاء لا ينكرون على أحمد الشقيري صدق وطنيته وصادق جهاده!

لقد عمل كثيراً ولذلك فقد أخطأ كثيراً، لقد تكلم كثيراً وكتب كثيراً وخطب كثيراً لذلك فقد كان عدد خصومه بين العرب كعدد خصومه بين الأعداء ولكنه لم يأبه ولم يضعف ولم يسكت ولم يهادن ولم يساوم ولم يركع،، فقد بقي كالطود كالهرم، شعره الأسود الكثيف الذي تحول فيما بعد الى كتلة بيضاء، ووجهه الأسمر الملفوح بشمس الشاطئ الفلسطيني الحبيب ومشيته الشامخة ووقفته المملوءة بالعز. كل ذلك يجعلنا اليوم نحزن لوفاة رجل أحب فلسطين، كما لم يحبها أحد، وبكاها كما لم يبكها أحد، حتى أصبح جزءاً منها وأصحبت هي جزءاً منه.

ثم جاء دورنا اليوم لكي نبكيه قائلين له من بعيد:

ـ أبا مازن! قسماً بمن عبدت ومن جاورت ومن أحببت لن تلين قناتنا

حتى تعود الينا عكا!

أبا مازن....

ـ الشعرة الرفيعة الخفية بين الوطنية المطلقة المتطرفة وبين الجنين البعقري هي التي جعلت بعض الناس يظلموك ولكن الهزيمة او النكبة هي التي جعلت الناس يبحثون عن كبش فداء بشخصك. لا تكترث! فقد يختلفون معك في كل شيء ولكن لا خلاف معك ولا عليك، عليك على انك الوطني الشريف وكنت الطيب وكنت العاطفي وكنت الحبيب الأبي النقي الرضي!

أبا مازن....

حتى جمال عبد الناصر في ساعة من ساعات ضعفه وبأسه قال لنا ولك نحن الذين رافقنا بعض خطوات ثورته في مصر:

ليس عندي أي برنامج لكي استعيد لكم فلسطين!

وسمعناك بأذاننا تقول له بمنزله في منشية البكري في القاهرة:

ـ سيادة الرئيس لم نعد نخاف من انعدام البرنامج لانقاذ ما ضاع بقدر ما أصبحنا نخشى وجود البرنامج لضياع ما تبقى في ايدينا!

ثم انهيت كلامك قائلاً:

ـ اتركوا الموضوع لنا يا سيادة الرئيس فنحن أعلم بالطريق الى خلاصنا!!

ثم مضى الرئيس...

ومضيت أنت بعده...

وبقينا نحن من بعده ومن بعدك نبحث عن برنامج الخلاص المطلوب فلا نجده!

أبا مازن.

ضاعت الأرض وضاع البرنامج، لقد رحمك الموت فلم تشهد سفير اسرائيل يقدم أوراقه لأنور السادات بجوار منزلك على شاطئ النيل في صباح يوم وفاتك.

رحمنا الله جميعاً يا أبا مازن

* * *

لقد هدرنا نصف قرن كامل من أعمارنا ونحن لا نتحدث الا عن المعارك والحروب، والنكبات والنكسات!

واليوم، نهدر بقية أيام عمرنا ولا نتحدث الا عن المفاوضات والسلام.

لقد طوينا صفحة الحروب التي خسرناها، وبدأنا صفحة السلام الذي لم نكسبه.

ولم نعرف ابدا، لاننا لا نريد ان نعرف، ان السلام الذي نحلم به ونسعى اليه، لن يتحقق ولن يأتي!

لان "الطرف الآخر" لا يثق بنا ولا بزعمائنا! لا اليوم ولا غدا!

ولان موضوع المستوطنات لا حل له الا بقيام حكومة ائتلاف اسرائيلية واسعة يشترك فيها "اليمين" الاسرائيلي القادر على الحسم!

ولان "النيران" التي أشعلها العرب ضد اسرائيل، نسفا وضربا وقتلا قد أحالت شعب اسرائيل الى شعب "يميني" الهوية، متطرف النظرة، عرقي السياسة، عدائي القلب والقالب.!

ولان بعض اساليب التحريض العربي ضد اليهود واتهام بني اسرائيل بأنهم خلفاء النازية ـ وهم اكبر ضحاياها ـ قد ترك في قلوب اليهود جراحا من الصعب ان تندمل او تُنسى.

ولان العرب ـ وقد انقسموا على أنفسهم ـ وتجزأوا واختلفوا وتصارعوا قد اصبحوا ـ في ميزان اليهود ـ طرفا ضعيفا وفقيرا لا يحسب له حساب. أنا اذكر تماما ان العرب ذهبوا الى مؤتمر "سان جيمس" بلندن في صيف ـ خريف ١٩٣٨ وفازوا من الانجليز ومن اليهود معا ـ "بالكتاب الابيض" الذي حقق للفلسطينيين معظم أمانيهم القومية. ذلك ان العرب ـ في المؤتمر المذكور ـ كانوا كتلة متراصة واحدة، بينهم الملك فيصل السعودي، والامير عبد المنعم المصري، وعلي ماهر باشا، ونوري السعيد العراقي.. كلهم تحدثوا بصوت واحد وقلب واحد. اما اليوم، فالحالة تدعو الى الرثاء.

ورغم كل ذلك ما زال الحديث عن السلام المنشود يطربنا ويشجينا ويبقينا على شاشات التلفزيون وفي صدر نشرات الاخبار.

وما أكثر أخطاء "الأسرى" العرب في "حرب السلام" الدائرة حاليا بينهم وبين اسرائيل.

كلهم يسعون للسلام! وكلهم أسرى! وكلهم يتصارعون بعضهم ضد بعض.!

ففي لبنان، يهاجمون التفاوض الاسرائيلي على المسار السوري بحجة ان ذلك يأتي ـ على مصلحة لبنان او على حسابه.

وفي فلسطين، يهاجمون التفاوض الاسرائيلي مع سوريا لان ذلك ـ قد ـ يأتي على حساب المسار الفلسطيني او على مصلحته.

ولا يزغرد لبنان، او زعماء "المنظمة" الا عندما تأتي الأخبار عن "تجميد" المفاوضات بين دمشق وتل ابيب..

ثم مضت اسابيع قليلة فقط، وأصيبت المفاوضات على جميع المسارات السورية، والفلسطينية، واللبنانية، بالشلل التام.!

والأسرى، وكلنا أسرى، لم نكن ندري ولا غيرنا يدري ان مفاوضات

السلام التي قسمت الصف العربي الى مسارات متعددة، لم تكن ابدا قضية حياة او موت بالنسبة لاسرائيل، بقدر ما كانت، وستبقى لعبة تسلية كالبلياردو او الدومينو، تمارسها تل ابيب لخلق المزيد من الانقسامات بين العرب وهي اكثر ما تكون راحة واطمئنانا.. وسلاما!

لقد كانت صفات التمثيل ـ بادية بوضوح ـ في معظم خطوات تلك المفاوضات، وما زلت اذكر ما سبق لي وسمعته من احد مستشاري الوزير الليكودي "شارون" عندما روى لي فصلا من قصة مفاوضات هذا الوزير مع الوسيط الدولي ـ الطيب الذكر ـ فيليب حبيب، في لبنان ابان حصار بيروت في عام ١٩٨٢. قال لي ذلك المستشار وهو يقهقه ضاحكا:

ـ لقد اتفق شارون مع أحد كبار الضباط في سلاح المدفعية الاسرائيلية المحاصرة لمدينة بيروت في ذلك الوقت على ان يبدأ في اطلاق قنابل المدافع في تمام الساعة التي يلتقي فيها شارون مع فيليب حبيب للتباحث في موضوع وقف اطلاق النار..

"... وعندما كان "فيليب حبيب" يسمع صوت انفجار القنابل، يصفر وجهه وتتقلص عضلات فمه، ويصاب بالذعر وهو يسأل "شارون" بكل قلق وتعجب وخوف:

ـ ولماذا يستمر اطلاق النار الى الآن؟ ومتى تتوقفون عن اطلاق النار.؟ ألم تعدنا اسرائيل بوقف اطلاق النار؟.

ويجيب شارون على الفور وبصوت هادئ وماكر:

ـ كل شيء ممكن.. وكل شيء معقول ومحتمل وله حل.. ولكن كل شيء له شروط! حتى وقف اطلاق النار له شروط.!!

وهكذا استمرت الرواية الى فصلها الاخير حيث استمرت اسرائيل في اطلاق القذائف واستمر فيليب حبيب في حيرته وقلقه، الى ان وصل شارون الى شروطه ومطالبه.. كاملة!

وهكذا ـ ايضا ـ تمارس اسرائيل عملية التفاوض على طريقتها الخاصة سواء بالنسبة للفلسطينيين، ام بالنسبة للبنان وسوريا. يعجبها من تحب. وتكره من لا يعجبها!

قال لي البروفيسور الامريكي "برتراند لويس"، استاذ الفلسفة الاسلامية والتاريخ الشرق اوسطي في جامعة برنستون الامريكية والمحاضر الشهير في قضايا العرب والاسلام:

ـ ليس هناك ـ في نظري ـ مجال واسع لقيام سلام شامل بين سوريا واسرائيل ما دام الرئيس السوري حافظ الاسد هو الذي يمثل سوريا في مسيرة السلام. ان "حافظ الاسد" في خلفيته العسكرية وفي تاريخه الطويل، بل وفي تفكيره ايضا، يقف على النقيض من العقلية الاسرائيلية، ومن العقلية المتفتحة على الغرب! انه على العكس من انور السادات وعلى العكس من الملك حسين، وحتى على العكس من ياسر عرفات، الذين تعرفوا، بصورة او بأخرى، الى العقلية الاجنبية ـ انجليزية او فرنسية او دولية ـ اسرائيلية، ودخلوا الى العالم الواسع. بينما بقي الاسد خارج "الملعب".. وبقي غريبا عن قيام أي سلام مع جيرانه.. وبقي أسير نفسيته الانعزالية والمنكمشة!

انتهى كلام البروفيسور لويس الذي اراد ان يتجاهل في حديثه معي الكثير من المزايا الطيبة ـ والحضارية ـ التي اشتهر بها رئيس جمهورية سوريا!

فالاسد، كان وما زال من كبار مؤيدي السياسة "العملية" في الداخلية والخارجية. والاسد ـ شخصيا ـ كان يعارض التقارب الزائد مع الاتحاد السوفييتي، بينما غيره من اصحاب النفوذ في سوريا وفي مصر ارتموا في أحضان موسكو.! والاسد هو صاحب الصوت القوي الذي نادى بضرورة ازالة الجفاء بين سوريا والعرب. وقد تميزت سوريا ـ من خلال حكم الاسد

ـ بسنوات طويلة من الاستقرار والثبات. وهو نفسه الذي حصل على موافقة عربية اجماعية للتدخل في احداث لبنان في عام ١٩٧٦ لانقاذ ذلك البلد من التطاحن الداخلي وقام بالمهمة خير قيام! قال لي صائب سلام في احدى جلساتنا في جنيف:

ـ من اراد ان يفاوض سوريا، عليه ان يستوعب جيدا كل صفحة من صفحات سيرة الاسد وحياته ومناصبه.

وبينما تقوم اسرائيل باستغلال المعارضة الاسرائيلية الداخلية للسلام مع دمشق او مع الفلسطينيين والضغط على العرب بقصد الحصول على المزيد من التنازلات، نرى العرب، في دمشق وفي فلسطين يشنون الحرب على سائر حركات المعارضة المحلية ضدهم حيث يصبح "المعارض" الفلسطيني مجرد ذلك الارهابي الذي يستحق المطاردة والاعتقال، ويصبح "المعارض" السوري منحرفا عن مبادئ حزب البعث "الخالدة" في الحرية والوحدة والاشتراكية.!!

ألم يكن انور السادات يصف ملوك ورؤساء العرب الذين عارضوا زيارته للقدس وتوقيعه على اتفاقية كامب دافيد بأنهم مجرد ... "أقزام.. وجهلة.. ومرتزقة.. وعملاء؟!"

ان القصة كلها مليئة بالتخبط والسذاجة منذ اول يوم اشتعلت فيه حرب عام ١٩٤٧ وسمعنا الحاج امين الحسيني ينادي من غزة: "تكلم ايها السيف واسكت ايها القلم" الى يوم ١٥ مايو ١٩٤٨ حيث سمعنا رجال الملك فاروق في مصر يقولون لنا بكل غرور: "الى اللقاء في تل ابيب!"

ومع هذا، يشغلنا البعض من فئة الصحفيين والمؤرخين بحصر المسؤولية كلها في شخص واحد، او في دولة واحدة، بينما كلهم في المصيبة وفي المسؤولية وفي الهزيمة وفي الخيانة، سواء.! ويا ويلنا عندما نرحل عن هذه الدنيا، ويأتي دور أحفادنا لكي يقرأون التاريخ ويطلعون على

نكبات كامب دافيد، ومآسي اوسلو، وأحزان شرم الشيخ، وجنازات واشنطن، واحتفالات واي بلانتيشن ولقاءات الاطراف المعنية في فنادق تل ابيب والقدس والبحر الميت وايلات، ومعانقتهم بالاحضان والقبلات!

يا ويلهم، يا ويلنا، من حكم أحفادنا وأحفادهم، قبل حكم التاريخ.. علينا، وعليهم!

وقال لي هذا العالم والمؤرخ البروفيسور "لويس" وهو يتابع برامج الفضائيات العربية المعاصرة تمهيدا للاستفادة منها في كتابه الجديد صاحب الرقم "٥٠" في التاريخ المعاصر.

ـ لا ادري أيهما اقرب الى التصديق عند علماء التاريخ، حسين الشافعي، نائب عبد الناصر وهو يدافع عن ثورة ٢٣ يوليو وعن زعيمها، أم الدكتور مصطفى خليل رئيس وزراء مصر ايام السادات وهو يهاجم عبد الناصر ويرفع السادات الى عنان السماء؟.

قال مستطردا:

ـ هذا السؤال سمعته مؤخرا من احد تلامذتي من العراقيين العرب في لندن، فقد خاطبني بقوله:

ـ يا استاذ "لويس". أنت اكبر "المستشرقين" الاساتذة على قيد الحياة!

ثم نطق بالسؤال:

يقول البروفيسور: وكنت على وشك ان أجيبه على سؤاله حول التضارب في الكلام عن ثورة ٢٣ يوليو لولا قوله لي انني من "المستشرقين"، وعندها أجبته قائلا:

ـ بوجود أمثالك لا ارضى ان اكون مستشرقا! انني منذ اليوم.. انتسب الى الغرب..

واصبح لقبي ـ ايضا ـ مستغربا. ولم أجبه على بقية سؤاله.

لقد بقينا ـ نحن الأسرى ـ أسرى ما يتكرم به علينا الاعلام الاسرائيلي

من أخبار وتعليقات لكل نبني عليه خطواتنا السياسية اليائسة! مثلا: ينطلق خبر معين من التلفزيون الاسرائيلي يقول ان سوريا واسرائيل قد اتفقتا على استئناف مسيرة السلام في خلال اسابيع قليلة...

وصاحب الخبر ـ ان كان يهمنا الامر ـ هو صحفي اسرائيلي اسمه "امنون ابراموفيتش" كان يعمل محررا في صحيفة "يعقوب نمرودي"، صديق وشريك عدنان الخاشقجي والمتهم حاليا في قضايا خطيرة، ثم استقال وانضم الى التلفزيون.

ونخطئ لو حسبنا ان الاعلام الاسرائيلي هو اعلام حر لا يخضع لاي توجيه رسمي..

الصحيح ان الاعلام الاسرائيلي الناطق باللغة العبرية، هو اعلام شبه حر. اما الاعلام الاسرائيلي الناطق باللغة العربية والموجه الى العرب وحدهم، فهو اعلام يخضع بكل حرف فيه الى التوجيه الرسمي الحكومي الاسرائيلي.!

ولا احتاج الى تفسير، ولا أحتاج الى تعليق!

لقد تكسرت النصال على النصال، واستوى الماء والحطب، وتعددت الضربات من اليمين واليسار، وتكالبت علينا سهام الجهل، والغرور، والكسل، والتراخي، ولم يعد في الامر حيلة..

بعد أن نالت الجزائر استقلالها، بفضل جمال عبد الناصر، ومصر، والعرب، ومليون شهيد جزائري، لم يجد الرئيس الجزائري عبد العزيز بوتفليقة شخصا يعانقه في شوارع مونت كارلو، ويطبع على وجهه القبلات سوى المغني اليهودي الفرنسي الذي ملأ الدنيا نواحا على الجزائر التي طردته من ارضها، والمطرب الذي ملأ الدنيا شماتة في العرب ابان حرب الايام الستة، وأعني: المسيو ايركو ماسياس!

ماذا أقول؟

في عام ١٩٧٣ ، أهديت المكتبة العربية كتابا لي كان اسمه وعنوانه "الحبر اسود.. اسود !"

واليوم، لقد بدأت يا قارئي، أضع كتابا جديدا سيكون اسمه باذن الله:

ـ الحبر.. أحمر.. أحمر !

والله معنا..

انتهى الجزء الأول من هذه الملاعب...

وغداً.. سأعود الى "ملاعب الذكريات"

في كتاب جديد، لكي أروي فوق أرضها بقية

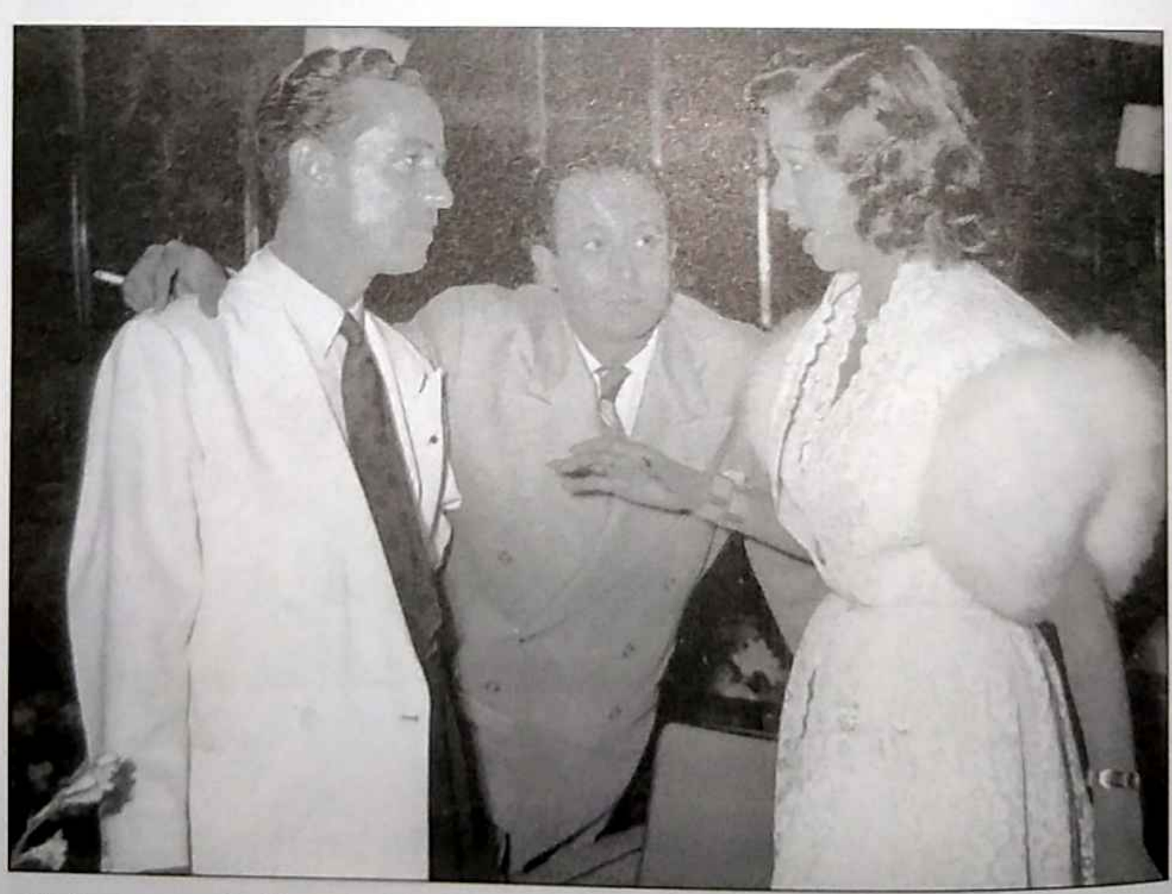
ما سبق لي وعرفته عن البشر، والحجر.

ناصر الدين النشاشيبي

ملحق الوثائق والصور



النشاشيبي مع المستشار النمساوي برونو كرايسكي في عام ١٩٨٢ ـ فينا (**Vienna**)



الفنانة سامية جمال تتحدث الى ناصر النشاشيبي بينما وقف المطرب اللبناني محمد سلمان يستمع ـ بيروت (١٩٥٤)



النشاشيبي.. مع هنري كيسنجر على ظهر الباخرة في خلجان السويد (٢٠٠١)



ناصر النشاشيبي والشاعر نزار قباني ـ لندن (١٩٩٥)



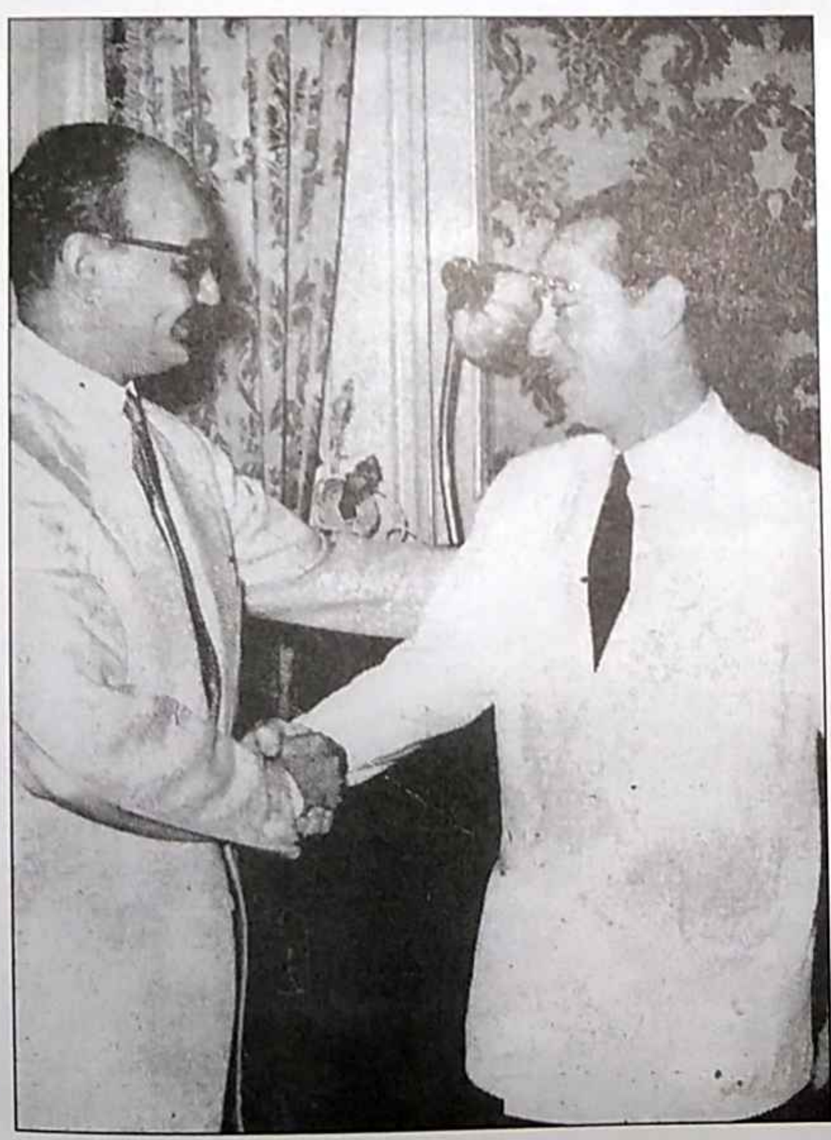
ناصر النشاشيبي وعزت جعفر ومصطفى أمين ومحمد شقير وأميل البستاني وزهير عسيران.. عام ١٩٥٣



ناصر النشاشيبي ـ الوزير أميل لحود ـ سعيد فريحه ـ بيروت (١٩٥٦)



نهلة وعبد الوهاب وناصر النشاشيبي وصداقة العمر



ناصر النشاشيبي يودع صلاح سالم. كان صلاح وجه الثورة المصرية الى العرب وكان أذكى رجالات الثورة



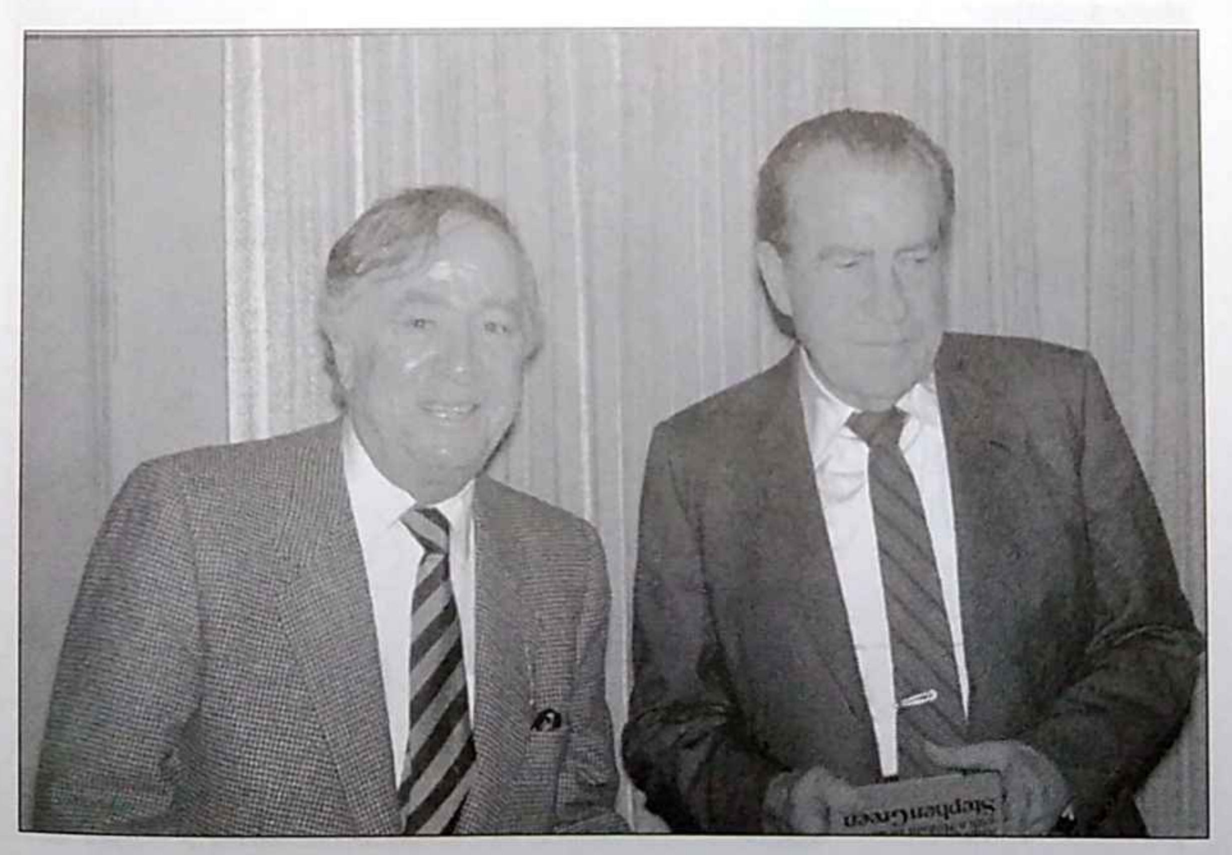
ناصر الدين النشاشيبي مع عبد الناصر.. ويبدو واقفاً في الخلف كل من: مصطفى أمين واحسان عبد القدوس



في بيروت ١٩٥٥ ـ الوصي على عرش العراق يتحدث الى ناصر النشاشيبي وفرحان شبيلات سفير الأردن في لبنان



النشاشيبي مع
صائب سلام
رئيس وزراء لبنان
(١٩٥٩)



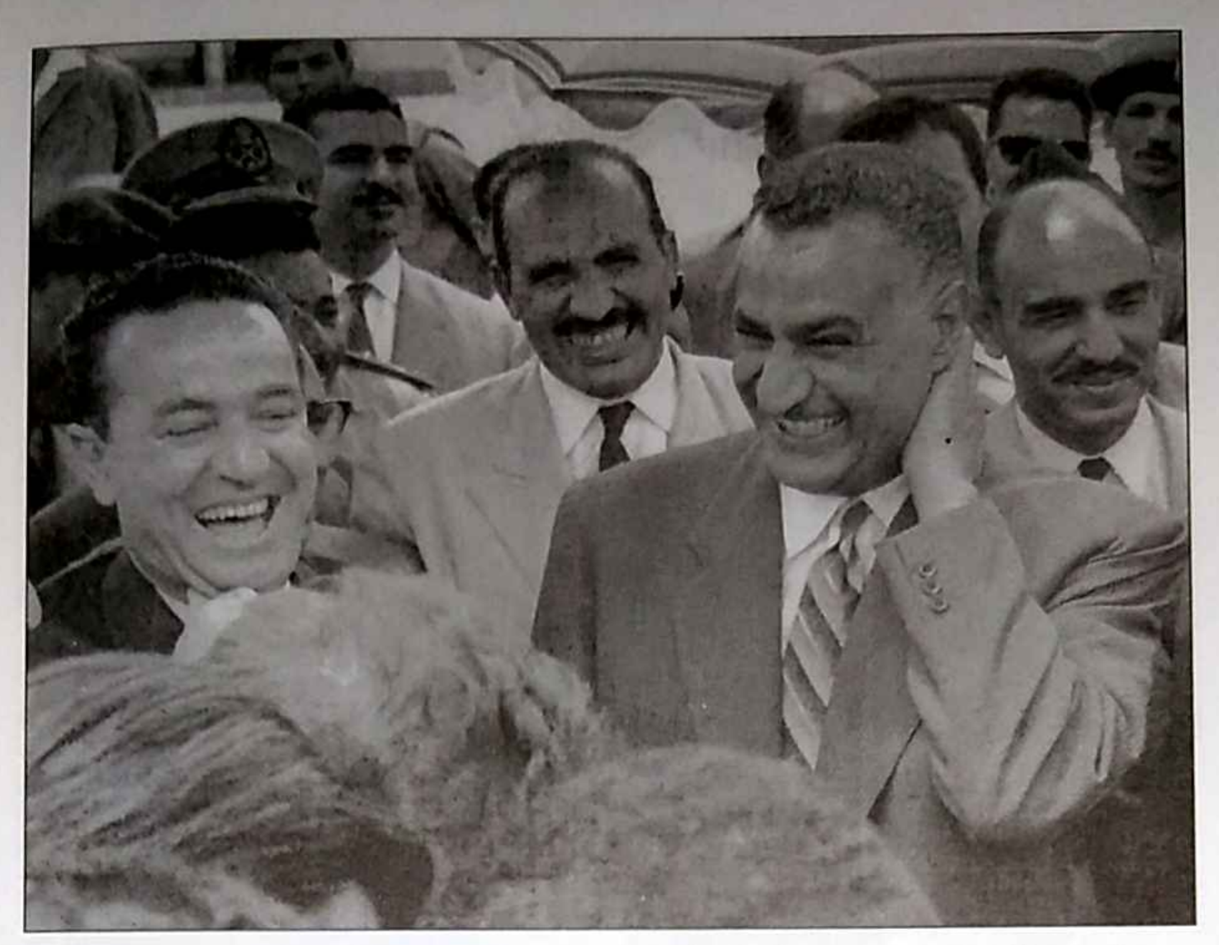
الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون يهدي النشاشيبي أحد مؤلفاته في نيويورك



ناصر النشاشيبي ينقل الى الفريق محمد فوزي وزير الحربية المصري ما سمعه من شوان لاي في الصين ـ نوفمير ١٩٦٤



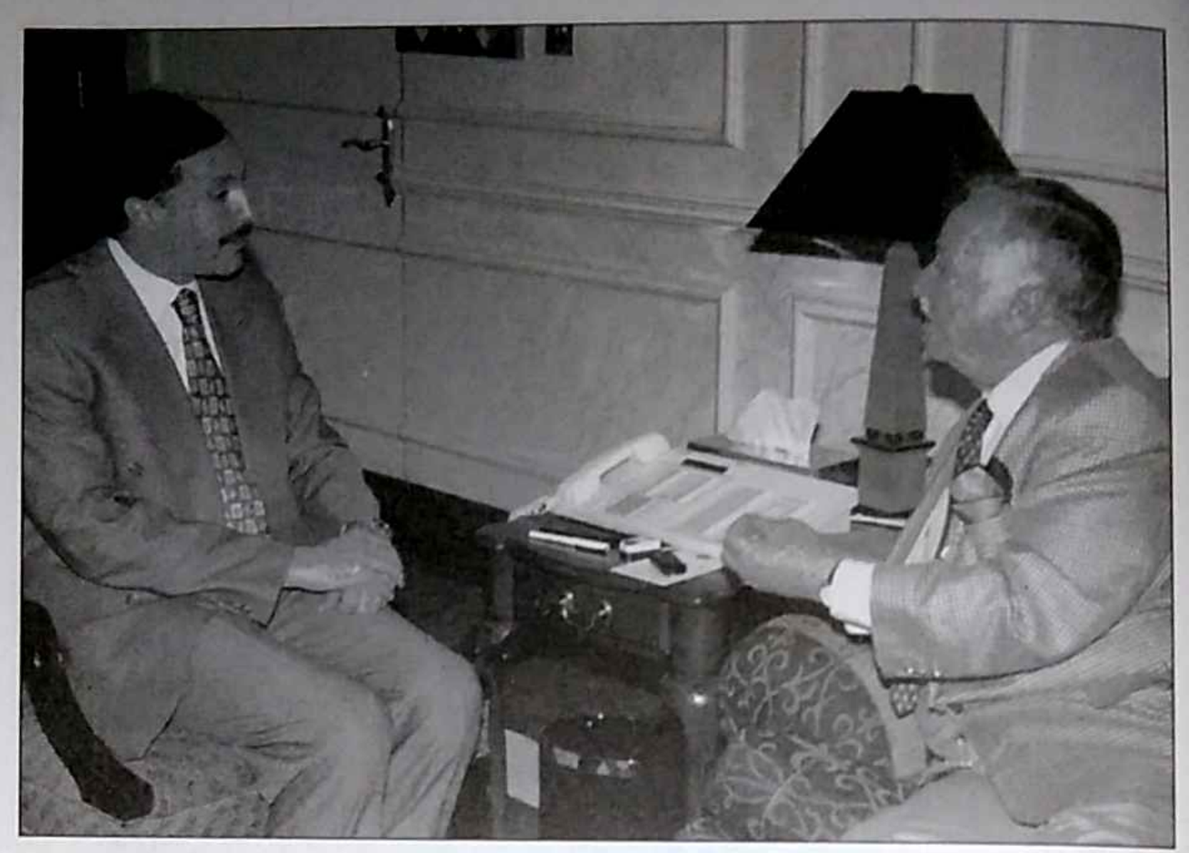
شمال العراق في مصيف سرسنك: صلاح سالم ـ صائب سلام وناصر النشاشيبي (١٩٥٥)



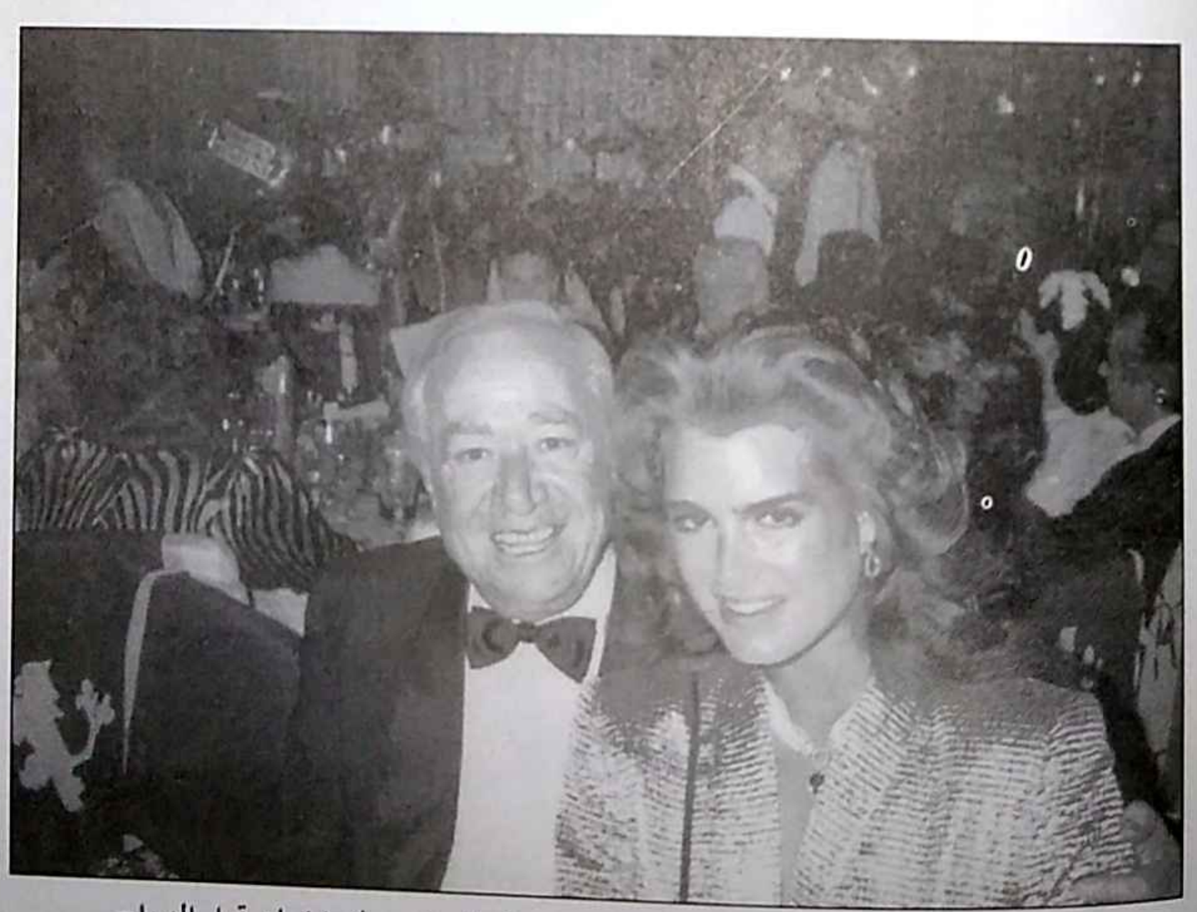
جمال عبد الناصر يضحك من أعماق قلبه ساعة اطلاق الصاروخ المصري والى جانبه ناصر النشاشيبي (٢١ / ٧ / ١٩٦٢)



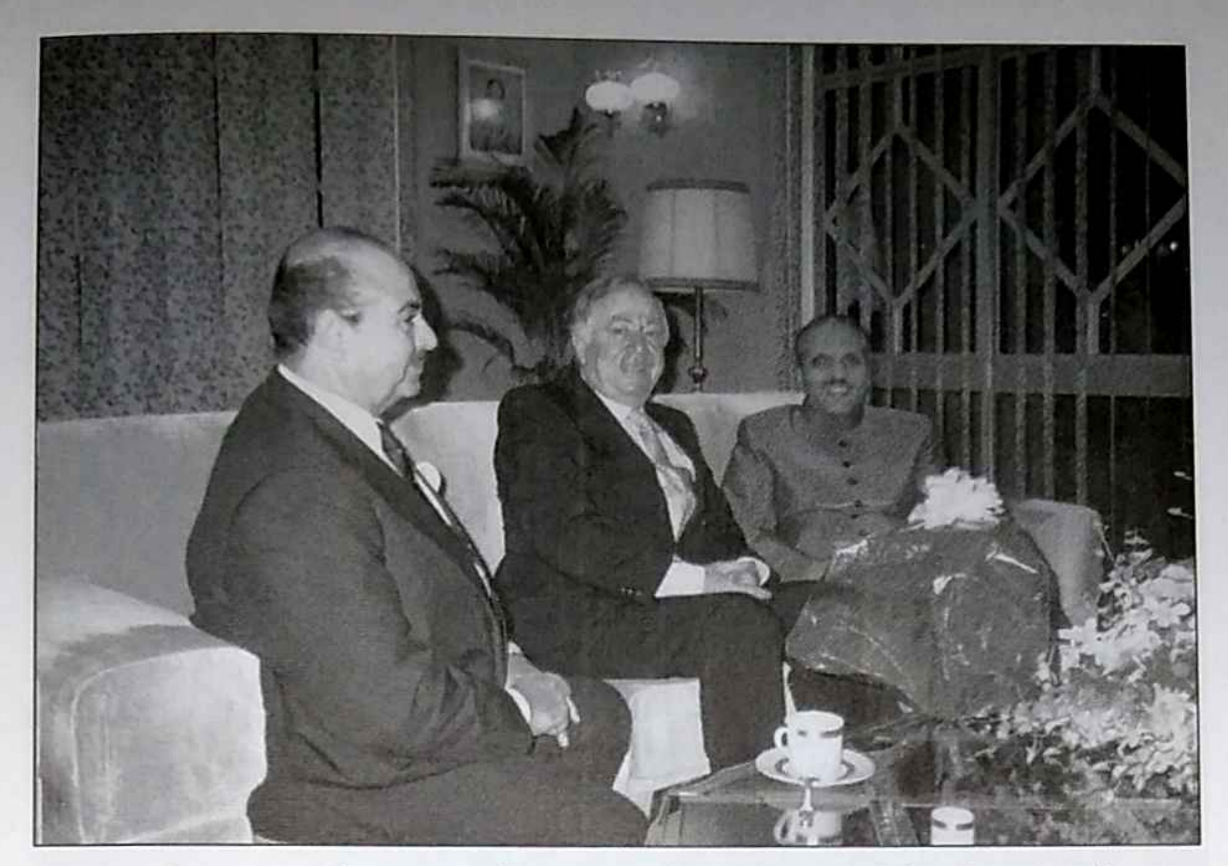
ناصر الدين مع سعيد القزاز وزير داخلية العراق الذي تنبأ بالمجازر والمشانق في بغداد قبل اعدامه !



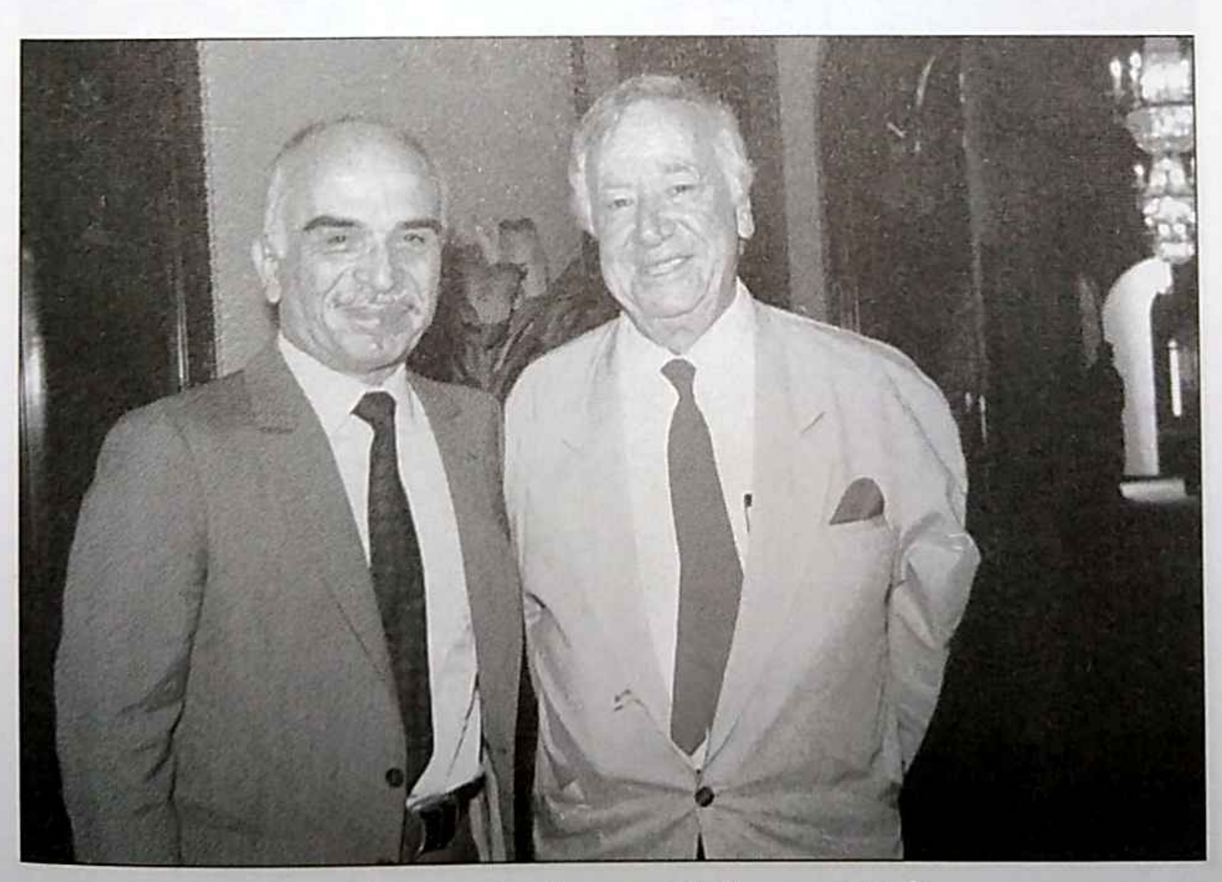
لقاء بين النشاشيبي وعبد الكريم الكباريتي رئيس وزراء الأردن الأسبق ـ عمان (١٩٩٦)



مونت كالو ١٩٨٦ ـ النشاشيبي مع الممثلة العالمية بروك شفيلد قبل الزواج



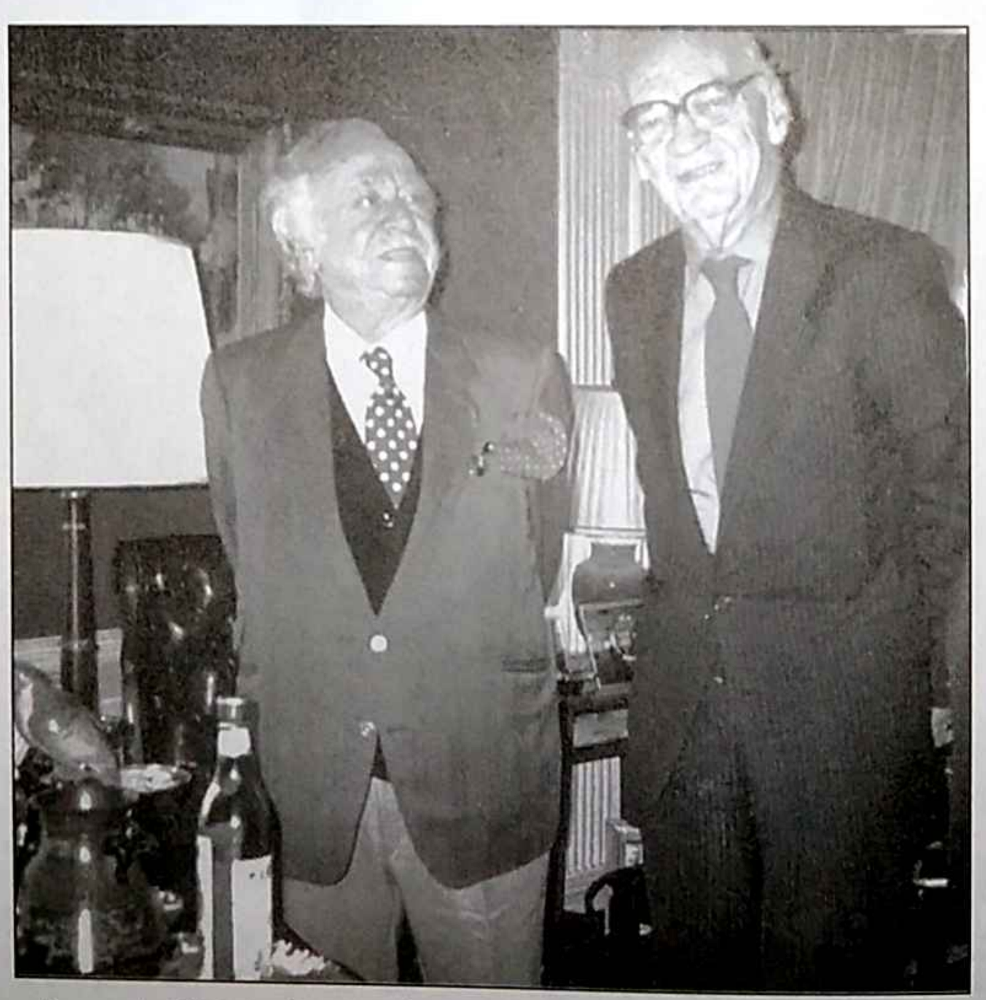
النشاشيبي في باكستان مع الرئيس الراحل ضياء الحق رئيس باكستان (١٩٨٥)



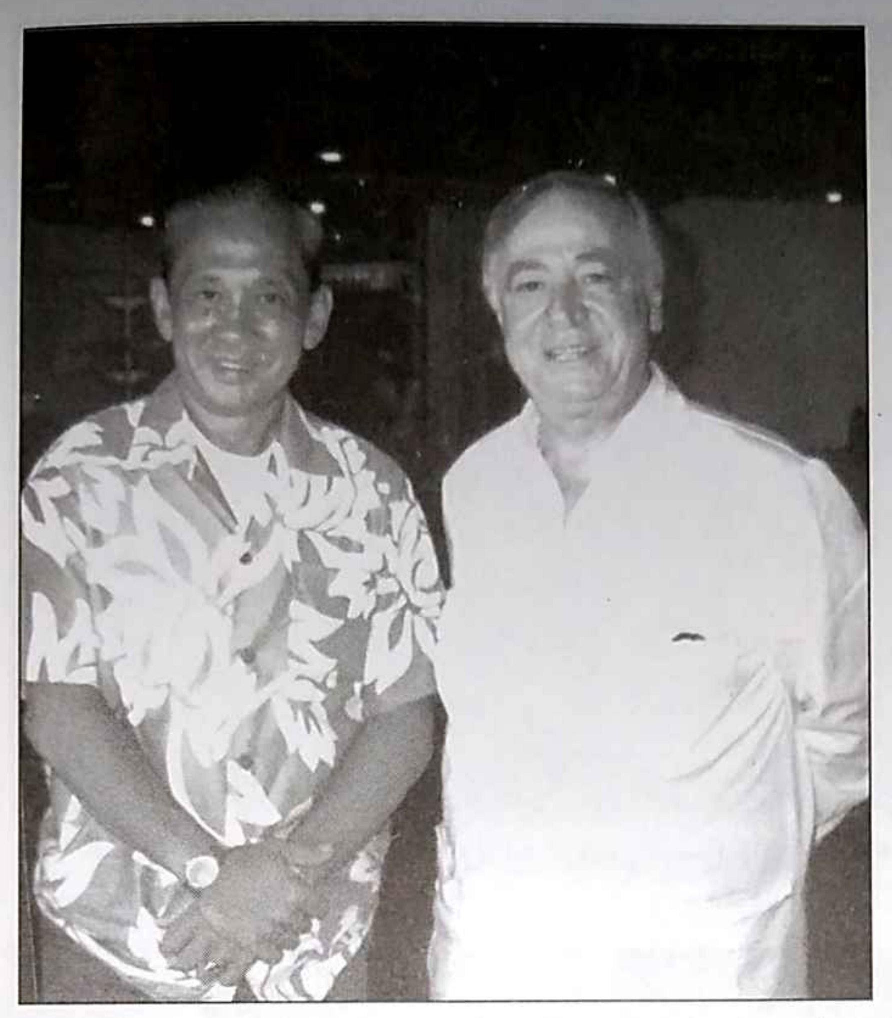
النشاشيبي مع الملك حسين في باريس (١٩٩٦)



النشاشيبي في لقاء صحفي مطول مع الرئيس اليمني علي عبد الله صالح في صنعاء



النشاشيبي مع السفير "السير هارلد بيلي" أو منجم الأسرار والأخبار في السياسة الانجلو عربية



ناصر الدين النشاشيبي مع ملك ماليزيا (١٩٨٦)



ناصر النشاشيبي يلقي خطابه في نقابة الصحافيين المصريين. ويشاهد في الصف الأول مجموعة من الشخصيات العربية اللاجئة الى مصر ومنهم: علي ابو نوار والسلطان علي عبد الكريم ومحمود الدرة وخيري حماد ويتوسطهم حسن صبري الخولي



مصطفى أمين.. وأمامه سعيد فريحه وبينهما ناصر النشاشيبي (١٩٥٦)



عوني بك عبد الهادي زعيم حزب الاستقلال في فلسطين يكتب للنشاشيبي عن كتابه الجديد «عندما دخلوا التاريخ»

إلى الأستاذ الكبير
ناصر الدين النشاشيبي
مع مودتي
صائب سلام
جنيف
٧/١١/٨٣

حوار
التَفَهُم والتفاهُم

كلمَة
صَائِبْ سَلَامْ
في إجتماع هيئة الحوار الوطني
جنيف ـ ٣١ تشرين الأول ١٩٨٣



النشاشيبي يتحدث الى المطربة صباح وزوجها الاعلامي احمد فراج ـ القاهرة (١٩٦٠)



النشاشيبي في مكتب الرئيس اللبناني كميل شمعون ـ بيروت (١٩٥٧)



النشاشيبي يلقي خطاباً في جامعة حيفا بمناسبة مرور ٢٠ سنة على بدء مسيرة السلام



النشاشيبي مع شمعون بيريس وزير خارجية اسرائيل في مؤتمر للسلام أقيم في سويسرا



ناصر النشاشيبي في حديث ومصافحة مع الدكتور عبد السلام المجالي رئيس وزراء الأردن



النشاشيبي مع عبد الله الأحمر رئيس البرلمان اليمني ـ صنعاء (٦ / ١١ / ١٩٩٦)



الشقيري وحسونه ومحمد زكي عبد القادر والنشاشيبي في حفلة تتويج الملك فيصل في بغداد عام ١٩٥٢



ناصر الدين النشاشيبي مع الوزير والسفير السابق كمال رفعت



النشاشيبي مع الشيخ البحراني عيسى بن سلمان آل خليفة والرئيس اللبناني احمد الأسعد في بغداد (مايو ١٩٥٣).

ناصر الدين النشاشيبي يتوسط التوأمين علي ومصطفى أمين ويبدو هيكل الى اليمين

اكرم زعيتر

٨/١٠/ ١٩٦٧

أخي الأعز ناصر الدنيا والدين

أطيب تحية وأزكى تسليم، وأوفر شوق وأوفى تكريم

وبعد فإني أحس بالخجل لتقصيري معك في الكتابة

وإليك مبادرة مني أوردا على رسالة منك، ولعله

يغريني بهذا التقصير عرفاني أنك حليم واسع الصدر

وأني أنزل منك منزلة من يتأهل للغفران

الدائم.

إني منعزل عن الناس أعيش صفوة الأيام

بمكتبتي، أنعم بمصاحبة شرفاء علماء أفاضل

[illegible] يعدون في الأحياء.

أين منهم الذين [illegible] و[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

من المجاهد الكبير أكرم زعيتر الى صديقه النشاشيبي



النشاشيبي مع الرئيس جمال عبد الناصر



ريتشارد نيكسوف يعزف على البيانو في حفل عيد ميلاد المؤلف.. والى جانبه الخاشفجي وعائلته نيويورك ١٩٨٧.



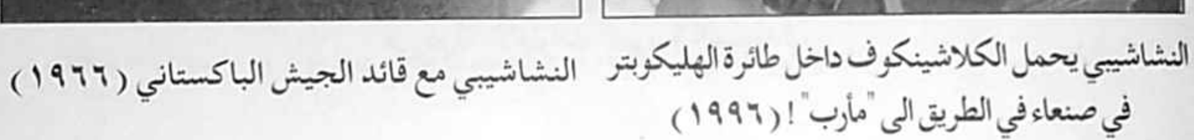
ناصر النشاشيبي مع أحمد الشقيري في المكتب العربي بالقدس (١٩٤٦)



النشاشيبي مع الزعيم العربي عبد الخالق الطريس ـ القاهرة (١٩٥٥)







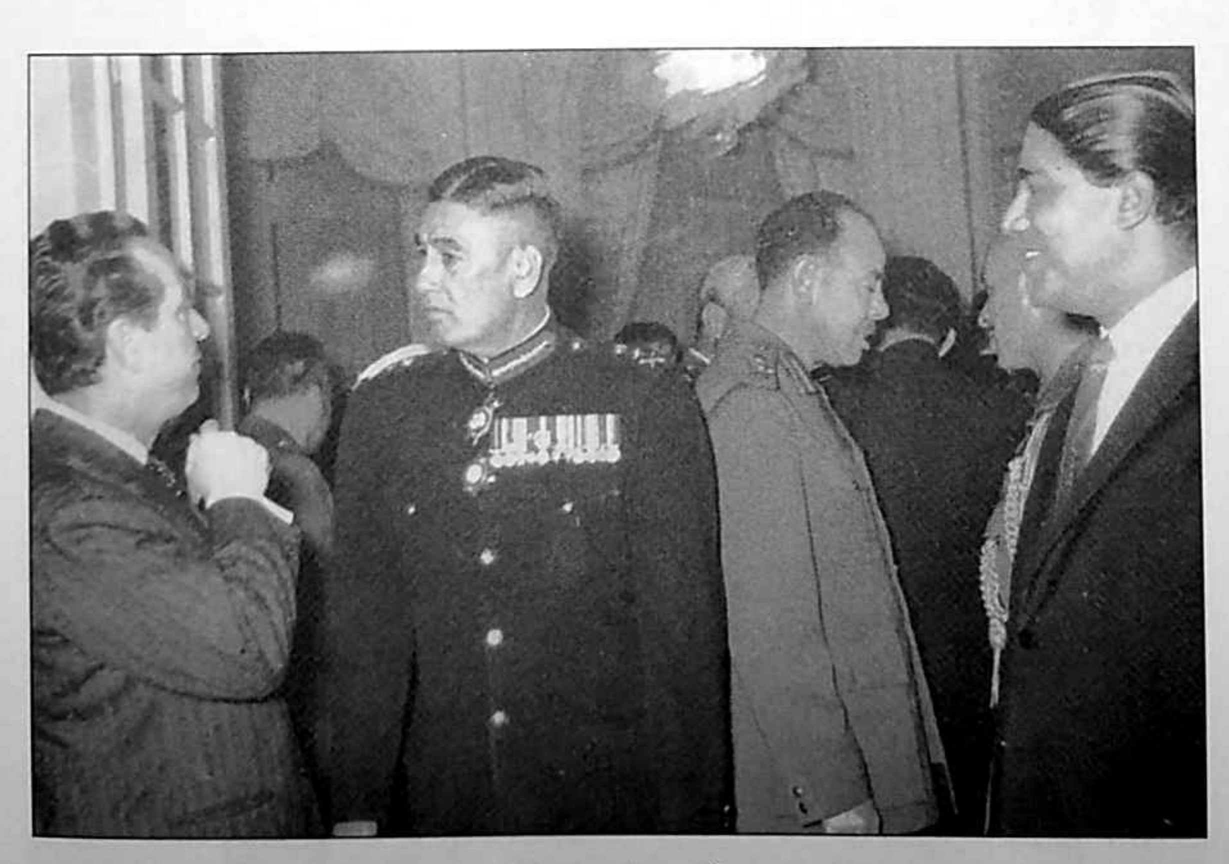
النشاشيبي يحمل الكلاشينكوف داخل طائرة الهليكوبتر في صنعاء في الطريق الى "مأرب" ! (١٩٩٦)

النشاشيبي مع قائد الجيش الباكستاني (١٩٦٦)

النشاشيبي مع أحمد بن بيلا ـ الجزائر (١٩٦٣)



ناصر النشاشيبي يتحدث الى الشيخ عبد الله بن زايد وزير الاعلام
في دولة الامارات العربية المتحدة



ناصر النشاشيبي يتحدث الى رئيس أركان الجيش الباكستاني ويبدو الجنرال فوزي رئيس الجيش المصري الى اليمين (١٩٦٠)



النشاشيبي مع الرئيس التركي الشهير والأسبق «عصمت باشا إينونو» ـ استنبول ١٩٥٨



النشاشيبي في حفل تكريمي لشكيب أرسلان في الجولان!!



النشاشيبي مع آية الله الكاشاني ـ طهران ١٩٥٤



النشاشيبي مع سفير مصر في الأردن أيام العمل في القصر الملكي الأردني عام ١٩٥١



النشاشيبي مع أحمد الشقيري وأكرم زعيتر ـ بيروت (١٩٥٣)



النشاشيبي مع رئيس الوزراء الأردني الأسبق الدكتور عبد السلام المجالي ـ الكرك ١٩٨٩



النشاشيبي مع رئيس وزراء اليمن الارياني



النشاشيبي مع الشريف زيد بن شاكر رئيس وزراء الأردن ـ عمان ١٩٩٥



النشاشيبي يستمع الى هنري كيسنجر في نيويورك (١٩٨٦)



النشاشيبي مع فاطمة جناح شقيقة محمد علي جناح مؤسس الباكستان ـ كراتشي ١٩٦٣



ناصر النشاشيبي في لقاء مع الرئيس (اولبرخت) رئيس المانيا الشرقية قبل التوحيد (١٩٦٣)



في حفل تتويج ملك العراق ـ فيصل بن غازي بغداد ١٩٥٣
حسونه ـ الشقيري ـ النشاشيبي



ناصر النشاشيبي في زيارة للرئيس السوري الراحل اديب السيشكلي دمشق ١٩٥٢



النشاشيبي مع عبد الاله والأمير نايف لن عبد الله في بيروت



النشاشيبي مع ملكة تايلاند والحديث عن.. القدس ـ نيويورك ١٩٨٨



النشاشيبي في ضيافة السيدة (ايملدا ماركوس) حرم ديكتاتور الفلبين ـ نيويورك ١٩٨٦



المؤلف مع البروفسور «لويس» استاذ التاريخ الاسلامي الشهير في جامعات امريكا



المركز الثقافي الأدبي الذي أقامه النشاشيبي في القدس يحمل اسم: اسعاف النشاشيبي «دار اسعاف النشاشيبي»



النشاشيبي مع السير هارولد بيلي من رجال الدبلوماسية البريطانية والى اليمين يبدو سفير الكويت في بريطانيا

الكتلة
شارع عدلي باشا نمرة ٢٦ بمصر
تليفون ٤٦٤٤٢ / ٤٦٤٤٣

القاهرة في ... فبراير سنة ١٩٤٥

أخي وعزيزي ناصر

تحيتي وشوقي وشكري إليك.. وبعد، فإنني قد استطعت أخيراً أن أرفع رأسي فوق غمرة الحوادث الجسام التي مرت بنا وخففت وطأتها مؤقتاً بانتهاء المعركة الانتخابية. وسأحدثك عنها طويلاً حين أراك في مصر أو في فلسطين، وأرجو أن يكون ذلك قريباً إن شاء الله. فإني أفكر الآن في القيام برحلة صحفية في الأقطار الشقيقة، وربما تجاوزتها إلى بعض البلاد الأوروبية إن أمكن.

أحب أن أعرف رأيك في جريدتنا (الكتلة). وأن أعرف وجهة نظرك وملاحظاتك من الناحية العامة ومن الناحية الصحفية، ويهمنا لو خصصت من وقتك جانباً لموافاتنا ببعض الرسائل. وإذا لم يكن في وقتك متسع فأرجو أن تختار لي مراسلاً أو وكيلاً يصلح لتمثيل وجهة النظر العربية ويحسن تمثيل جريدتنا في الأوساط العربية عندكم. كما يحرص على مصلحة الجريدة في بلاده التي نحبها ونتمنى لها ما نتمنى لأنفسنا.

وختاماً أجدد لك تحياتي الصادقة، وشكري على ما تكشف عنه رسائلك العامة والخاصة من ود وتقدير كريم. والسلام

المخلص

مكرم عبيد

REPUBLIQUE LIBANAISE
Ministère des Postes Télégraphes et Téléphones
Direction générale des Postes et Télégraphes

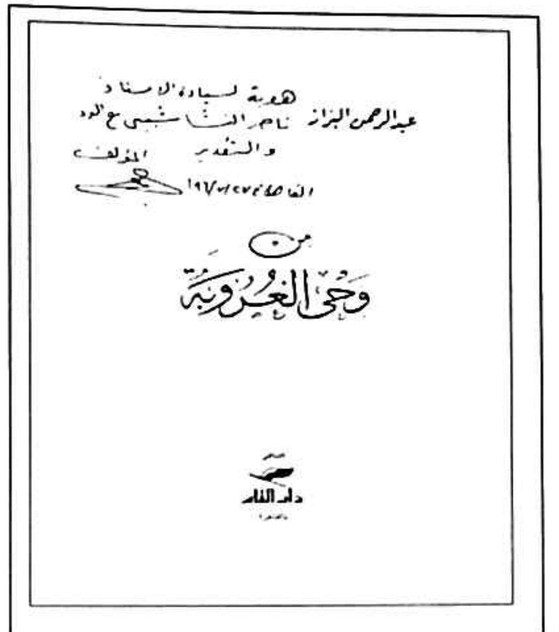
الجمهورية اللبنانية
وزارة البريد والبرق والهاتف
المديرية العامة للبريد والبرق

Indications de réception / اشارات الاخذ		Télégramme d'Etat ou officiel / برقية حكومية او رسمية	Adresse / العنوان
Bureau transmetteur / المكتب العاطي		Timbre à date / خاتم التاريخ	السيد نصر الدين النشاشيبي
Date / التاريخ	١٢		عمارة حمزة قرب اليونسكو
Heure / الساعة			رأس بيروت، بيروت
Signature de l'agent / توقيع الموظف	١٩/٥٥		

No. d'ordre / رقم التسلسل	Origine / المصدر	No. du télég. / رقم البرقية	Nomb. de mots / عدد الكلمات	Date / التاريخ	Heure / الساعة	Mentions de service et de voie / اشارات المصلحة والطريق
٨٢	القصر الملكي عمان	١٦	٢٢	١٢	١٧/٣٠	حكومية اردنية

نبعث اليكم والعائلة الكريمة بأحر التبريكات والتهاني بالمولود جعلها الباري قرة عين لوالديها وأسبغ على الجميع الصحة والسعادة والعمر المديد

الحسين بن طلال



هدية لسيادة الاستاذ
ناصر النشاشيبي مع الود
عبد الرحمن البزاز
والتقدير
المؤلف
القاهرة ١٩٦٧/٢/٢٥

من
وحي العروبة

دار القلم

كان « عبد الرحمن البزاز » من اكرم الأصدقاء وأعظم المفكرين ، ولكنه أخطأ عندما ظن أن باستطاعة « المواطن المدني » ان يصبح رئيس جمهورية في العراق.

أهداني صديقي الاستاذ «عبد الرحمن البزاز»
أول نسخة من كتابه عن العروبة !



مؤسسة الحوادث
للصحافة والنشر ش.م.ل.

بيروت في ٢٩/١١/١٩٦١

اخي ناصر،

شكرا للاحظاتك. لقد كانت مناسبة لتقييم بعض اخطائنا ، ارجو ان نتمكن من اصلاح بعضها اذا فاتتنا امكانية اصلاحها كلها ، ولكن الا ترى بأنك مقصر الى حد ما نحو الحوادث ؟

كنت قد وعدتني بأن تكتب فلم تفعل ، لماذا ؟ هل انت مشغول الى درجة لا تجد معها الوقت للكتابة ؟

كنت اعتقد بأنك لن تستطيع ان تلقي بالقلم جانبا ، ويبدو ان اعتقادي كان في غير محله ومن اغير من اعتقادي ، او على الاصح لن اعود الى اعتقادي القديم الا اذا تلقيت منك تحقيقا او مقالا او تعليقا لكتاب او عرضا لمشكلة من المشاكل العالمية التي نعيش في وسطها .

في انتظار ردك ، او اي شيء تحمله لي ، تقبل مني اصدق التحية والتمنيات ، واسلم لاخيك المخلص .

سليم اللوزي

عزيزي الاستاذ ناصر الدين النشاشيبي المحترم .

تحية طيبة وبعد ، فقد قرأت كلمتك المؤثرة المنشورة في آخر ساعة تاريخ ١٨/١١/١٩٥٩ ، وأحب أن أذكرك لك ان جلالك الصحفي في سبيل وطنك الاول طوال العشر سنوات الماضية ، أفضل بكثير وأجدى من خدماتك لو بقيت في الأردن وصرت وزيراً كما صار كثيرون من قبلهم دونك فضلاً وعلماً ومنزلة .

أما حنينك الى القدس العزيزة فانه يهيج في عاطفة المحبة لتلك الديار الحبيبة التي خلقت في تاريخي وذكرياتي ، وخلفت أنت فيها الأهل والوطن والأحباب .

ويسرني بمناسبة هذه الخواطر والذكريات التي تمر بنا ، أن أقدم اليك الصورة المرفقة ستجد فيها قطعة من نفسك وقلبك خلفتها في ثرى الوطن الطاهر ، وهي عزيزة علي الا انك أحق بها مني .

وأسأل الله يا أخي ، ان يلهمنا الصبر على فراق القدس ، وان يمد في عمرك حتى تعود اليها متطفئ نار الشوق التي تستعر في قلبك . والسلام عليكم ورحمة الله .

المخلص
عبد الله التل

مصر الجديدة ٢١/١١/١٩٥٩

رسالة من القائد الأردني الشهير عبد الله التل حاكم القدس السابق الى ناصر النشاشيبي ـ ١٩٥٩

بسم الله الرحمن الرحيم

سلمان بن عبد العزيز آل سعود

عزيزي الأستاذ ناصر الدين النشاشيبي
أبعث إليك بخالص تحياتي . وبعد يسرني أن أبعث لك برفقه شاملي هذه الرسالة الأستاذ مديح شماس التسجيل الذي سبق قدمت لك عنه حينما كنت في لبنان . ويسرني أن تتقبلها كهدية من صديق لصديقه . وآمل أن تكون الذكرى طيبة بينكم . عزيزي الأستاذ أرجو أن تبلغ أزكى تحياتي السيدة عليا لصحتها كما أرجو أن تبلغ تحياتي الطيبة : في ختام هذه الرسالة أرجو الله أن أراكم عن قريب في لبنان أو القاهرة مثل ما أخبرتني سابقاً
مع تحياتي
التاريخ ٢٨/٤/١٣٩٧ هـ

من الشاعر الفلسطيني الكبير
أبو سلمى

المحامي
عبد الكريم الكرمي
دمشق : شارع المتنبي
المكتب ١٣٥٨٨
المنزل ١١٢٦٦

عزيزي ناصر الدين

سلامات وأشواق وبعد فقد حمدت الله على أنني أصبحت لاجئاً فلسطينياً مثلي بعدما نُزعت عني الجنسية الأردنية. أقول لا غرابة [illegible] ولكنني أحب أن يشعر كل عربي أنه لاجئ فلسطيني حتى يعبر البحر ونطفئ حتى يحطم السدود والحدود، ونعود الى أرضنا الحبيبة وهي أجمل وأحلى أرض. لنبني بيوتنا ونزرع سهولنا من جديد.

إننا نحمل صور النكبة في عيوننا كما تعلم، ولم نجد أشلاء حمانا. وكلما قلنا أهل الفجر توارى خلف ظلمات: إننا نشكو أيضاً الأهل الذين لم تثر النكبة كبيراً في نفوسهم فيظلموننا. لا يعطوننا جميع الحقوق. ونحن من نفر العروبة. وشظايانا التي وحدت بين العرب ألا تذكر قولي:

وشظايانا الرواق وحدت — بين أهلينا ولم يبعد سوانا
لن تتم الوحدة الكبرى إذا — لم يلح في الوحدة الكبرى حمانا

فلسطين أعطت الحرف العربي ولكن بعض الأهل لا يكتبون بالحرف العربي، يتجنون على أبناء فلسطين فيحرمونهم من حقوق المواطنين. وهم يعلمون أن هذه النكبة نكبة فلسطين لو مالت على أي شعب لجعلته هباء! ولكننا لأننا شعب فلسطين، أصفى جوهراً كلما اشتد لهيب النار طاب!

أقرأك وخصوصاً ما تكتب عن فلسطين فأرى دموعنا تترقرق خلف الحروف! يا ناصر الدين!.. إننا نحن الفلسطينيين — الذين سنزرع الأشواق في أرض فلسطين

فليزعم الأهل الحدود والسدود بيننا ولتجتمع بقايا الشعب حتى تكون الطليعة بكل المواقف الوقود. فيلتفت العالم مرة ثانية الى هذا الشعب شعب التضحيات والبطولات.

أرسل إليك ديواني الجديد «أغنيات بلادي» — هل لي أن أقرأ الكلمة عنه في يومياتك. هذا الديوان هو ثاني ديوان بعد ديواني القديم «المشرد».

أرجو أن تكون أنت والأسرة جميعكم بخير وصحة وسعادة

وحفظك الله
المخلص
أبو سلمى

من شاعر فلسطين الكبير «أبو سلمى»

المفوضية اللبنانية
القاهرة [illegible] آب ١٩٦٥
من تقي الدين الصلح

أخي ناصر

تأخرت عليك في الكتابة مع شدة شوقي للتحدث إليك. أما السبب فلكثرة الشغل من كل [illegible]

تحدثت مع عبد الرحمن [illegible] وهو معني بأمرك [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible] ولكن أعتقد أن [illegible] إذا أمكن [illegible] المستوى [illegible]

[illegible] فترة أخرى، ولعل ذلك لا يكون أبعد من تشرين.

كيف أنت أنا من عندكم [illegible]؟ لعل الأثر الذي تركته [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

تقي الدين الصلح يكتب لي من القاهرة!

فهرس الكتاب

من كتب المؤلف:

- شباب محموم ـ القدس ١٩٤٩ (نفد).
- خطوات في بريطانيا ـ القدس ١٩٤٩ (نفد).
- عندما دخلوا التاريخ ـ بيروت ١٩٥٦.
- فلسطين والوحدة ـ القاهرة ١٩٥٩.
- ماذا جرى في الشرق الأوسط (٤ طبعات) ـ بيروت ١٩٦٠.
- تذكرة عودة ـ بيروت ١٩٦١.
- قصص وأصحابها ـ بيروت ١٩٦٢.
- حفنة رمال ـ بيروت ١٩٦٤.
- عربي في الصين ـ القاهرة ١٩٦٥ مترجم بالانكليزي.
- سفير متجول ـ بيروت ١٩٧٠.
- لا رمل ولا جمل ـ باريس ١٩٧٧.
- الحبر الأسود.. أسود ـ باريس ١٩٧٧.
- من قتل الملك عبد الله ـ الكويت ١٩٨٠.
- صلاة بلا مؤذن ـ بيروت ١٩٨٠.
- هل تعرفون حبيبتي؟ ـ لندن ١٩٨٢.
- قصتي مع الصحافة ـ لندن ١٩٨٣.
- المرأة تحب الكلام ـ لندن ١٩٨٥.
- لماذا وصلنا الى هنا ـ لندن ١٩٨٥.
- صوت القدس الآخر ـ لندن ١٩٨٦ بالانكليزية.
- حديث الكبار ١٩٨٨.
- نساء من الشرق الأوسط ١٩٨٩.
- للجدران آذان ١٩٨٩.
- وآخر العمالقة جاء من القدس ١٩٩٠.
- حضرات الزملاء المحترمين ١٩٩٥.
- في مملكة النساء ١٩٩٥.
- هل تعرفون القدس؟ ١٩٩٦ الطبعة الرابعة.
- أنا من الشرق الأوسط ١٩٩٦ ـ الطبعة الثانية.
- سياط الحبر الأسود (جزءان) ١٩٩٦.
- معارك دون كيشوت ١٩٩٧.
- كلمات ومناسبات ١٩٩٨.
- لا بد من صنعاء وان طال السفر! «اليمن ذلك المعروف» ١٩٩٨.
- أقلام العرب عن «أديب العربية» ـ سيرة اسعاف النشاشيبي ٢٠٠٠.
- ملاعب الذكريات ٢٠٠١.
- سنوات في مصر.. ٢٠٠١.
- بلاش سياسة ٢٠٠١.



عن الكاتب.. والكتاب

عند الصحفي العادي، تبقى مهنة الصحافة محصورة في «البحث عن المتاعب».. أما عند صحفي عربي في جرأة ناصر الدين النشاشيبي، وفي نشاطه، وفي اتصالاته الواسعة على أرجاء الوطن العربي، وفي حرصه على كشف «كل» الحقائق و«كل» الأسرار، وفي صداقاته المعروفة مع ملوك العرب ورؤسائهم وزعمائهم منذ ان كان مستشاراً رئيسيا للملك عبد الله بن الحسين بن علي الهاشمي، الى أن أصبح رئيساً لتحرير صحيفة «الجمهورية».. الثورية الناصرية المصرية، وفي غمرة عمله كسفير متجول للجامعة العربية، أو في زياراته للصين وباكستان وايران ويوغسلافيا وأمريكا والمكسيك والبرازيل ودول اوروبا الشرقية، والغربية.. بقي ناصر الدين النشاشيبي كاتباً صحفياً «مميزا» يمارس المهنة بروح الفدائي الحضاري، ويصادق المذياع ولا يخشاه، ويطرب للنشر ولا يهرب منه، ويصارح القارئ ولا ينافقه، ويهاجم الحاكم ولا يعاديه، ويخدم المواطن ولا يكسب منه، ويساير المسؤول ولا يركع أمامه...

وعلى مدى سبعين سنة، أهدى النشاشيبي للمكتبة العربية أربعين كتاباً سياسياً وأدبياً نالت كلها ثقة القارئ وتقديره، مع تقريظ الناقد واعجابه..

وفي هذا الكتاب، يستعرض النشاشيبي، بعض فصول حياته ويسميها: «ملاعب الذكريات».

انها ملاعب مليئة بالشجن، والمعارك ونبض الحياة.

«الناشر»



DAR ALHIKMA
Publishing and Distribution
88 Chalton Street, London NW1 1HJ Tel: 44 (0) 20 7383 4037 Fax: 44 (0) 20 7383 0116